المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
شعبة التفسير وعلوم القرآن



تفسير الفقهاء وتكذيب السفهاء

لأبي الفتح عبدالصمد بن محمود بن يونس الغزنويّ الحنفي

(ت نحو 500هـ)

(من بداية سورة آل عمران إلى نهاية الآية: 18 من سورة النساء)

دراسة وتحقيق

نبيل بن نصار بن عبدالوهاب شيخ
الرقم الجامعي: 42788120

رسالة مقدّمة لنيل درجة التخصص
(الماجستير)

إشراف

الدكتور إسماعيل بن عبدالستّار الميمني
الأستاذ المشارك بقسم الكتاب والسنة

عام 1431هـ

السورة التي يذكر فيها آل عمران مدنيّة، وهي مائتا آية لا اختلاف في جملتها[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ ﴾

قال عبدالله بن عباس ﵄ معناه: «أنا الله أعلم»[2]، ويقال: هو قسم[3]، أقسم الله بأن الله ﷻ واحد لا شريك له، ولا معبودَ للخلق سواه. وقد تقدَّم تفسير الحروف المقطعة في أول سورة البقرة[4].

ومعنى ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾: الدائم الذي لا بَدْأَ له، أي الذي لا يموت ولا يزول.

و﴿ ٱلۡقَيُّومُ ﴾: القائم على كلِّ نفسٍ بما كسبت.

قال محمد بن إسحاق والرَّبِيْع أن نيِّفًا وثمانين آية من أول هذه السورة نزلت في نصارى نجران حين وفدوا على رسول الله ﷺ وحاجّوه في أمر عيسى ﵇ فأنزل الله ﷻ هذه الآيات[5].

---

(١) أي في عددها، وأما الفواصل فقد اختُلف فيها في سبع آيات. راجع: البيان في عد آي القرآن للداني ص143؛ فنون الأفنان لابن الجوزي ص281؛ جمال القراء للسخاوي521/2.

(٢) أخرجه الطبري 208/1، وابن أبي حاتم 32/1، والنحّاس في معاني القرآن 73/1، من طرق عن شريك، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضُّحَى عنه. والإسناد ضعيف لأن عطاء "صدوق اختلط" وليس شريك ممن روى عنه قبل الاختلاط. راجع: ميزان الاعتدال 70/3-73، وتهذيب التهذيب 103/3-105.

(٣) وهو مروي عن ابن عبّاس، وعكرمة. راجع: الطبري 207/1، وابن أبي حاتم 33/1، ومعاني القرآن للنحاس 74/1، والأسماء والصفات للبيهقي 230/1.

(٤) وذلك في ج 1، ق3/ب-4/أ. وراجع للخلاف في تفسير هذه الحروف والراجح من ذلك: تفسير ابن كثير 250/1-258.

(٥) قول ابن إسحاق في سيرة ابن هشام 573/1-576. وقول الربيع بن أنس في سبب نزول مطلع السورة مخرّج في الطبري 174/5-175، وابن أبي حاتم 585/2 لكن ليس فيه تحديد عدد الآيات بنيّف وثمانين.

وفي قوله ﷻ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ بيان أن الله تعالى هو المختص باستحقاق العبادة لتفرُّده بالاقتدار على ما تجبُ به العبادة، وتفرُّدِهِ بفعل ما يستحق به العبادة.

وأكثر القَرَأَةِ في قوله تعالى ﴿الٓمٓ﴾ على فتح الميم[١]. وللفتح وجهان؛ **أحدهما**: أنه لما كانت الميم بعد ياء ساكنة استثقلوا فيها التسكين فحرّكوها إلى الفتح لأن ذلك أخفُّ نحو (كيفَ) و(أينَ)[٢]. **والثاني**: أنه أُلقي عليها فتحةُ الهمزة من ألف ﴿ٱللَّهُ﴾[٣]، وهذا جائز في الهجاء[٤]، وإن كان مثله لا يجوز في الكلام الموصول من حيث إن حروف الهجاء مبنية على الوقف، فيكون ما بعد كل حرف كالمبتدأ، والألف من قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ﴾ ألفُ وصلٍ تسقط في درج الكلام[٥].

---

(١) أي في حالة الوصل، وهي قراءة جميع العشرة، إلا أبا جعفر المدني فإنه يقرأ بالسكت على ألف، ولام، وميم، وهو قياس مطرد عنده في جميع فواتح السور. راجع: المبسوط في القراءات العشر ص140؛ الروضة في القراءات الإحدى عشرة 524/2، و582؛ النشر في القراءات العشر 424/1-425، و238/2.

(٢) وضُعِّف هذا القول «لأنه لو كان كذلك لوجب فتحُها في ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وفي ﴿حمٓ﴾، وفي ﴿نٓ﴾، وفي كلِّ حرف من حروف التهجّي التي في أوائل السور، فلمّا لَم تُفتح دلّ على أن هذا التعليل ليس عليه تعويل». راجع: «البيان في غريب إعراب القرآن» لأبي البركات ابن الأنباري 189/1.

(٣) هذا اختيار الفراء في معاني القرآن 9/1، والزمخشري في الكشّاف 363/1.

(٤) أي في نحو قولهم: (واحدِ اثْنان)، بإلقاء حركة الهمزة على الدال.

(٥) أي إذا سقطت ألف الوصل لم تبقَ لها حركة لــتُلقى على ما قبلها. وهذا توهين من المؤلف للوجه الثاني. راجع: الحجة لأبي الفارسي 339/2-341، والتبيان في إعراب القرآن ص173، والبيان في غريب إعراب القرآن 189/1.
وهناك وجه ثالث للفتح: أنها فُتحت للتخلص من التقاء الساكنين كما تُفتح النون في نحو (مِنَ الله). هذا اختيار سيبويه في الكتاب 153/4، وأبي علي الفارسي في الحجّة 340/2، وأبي البركات ابن الأنباري في البيان 189/1، وغيرهم.

ومن قرأ بتسكين الميم[1]، فعلى أصل حروفِ الهجاء: أنها مبنية على الوقف والسكت[2].

قولـــه ﷻ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾

أي نزّل عليك يا محمد ﷺ القرآن بالصدق والعدل، ويقال: لإقامة أمرٍ حقٍ. ومعنى ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾: موافقًا لما تقدّمه من التوراة والإنجيل وسائرِ كُتُب الله تعالى في الدعاء إلى توحيد الله تعالى، وبيانِ أقاصيص الأنبياء – صلوات الله عليهم –، والأمرِ بالعدل والإحسان، وسائرِ ما لا يجري فيه النسخ.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ ﴾ أي أنزل التوراة جملة على موسى ﵇، والإنجيلَ جملة على عيسى ﵇ من قبل القرآن، بيانًا للناس من الضلالة.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ قيل: إن المراد به القرآن[3]، وأعاد ذكره لبيان أنه يَفْرِق بين الحق والباطل، ومتى اختلفت فوائد الصفات على موصوف واحد لم يكن

---

[1] هي قراءة شاذة، قرأ بها الأعمش، والحسن، وأبوجعفر الرؤاسي، كما أنها رُويت عن عاصم في بعض الطرق الشاذة عنه. راجع: معاني القرآن للفراء 9/1، والسبعة لابن مجاهد ص200، ومختصر في شواذ القرآن لابن خالويه ص 19، وإعراب القرآن للنحاس ص189، والمبسوط ص140، والتذكرة 349/2، والروضة 582/2.

وممن يقرأ بالسكت على الميم أبو جعفر المدني – كما سبق – لكنه لا يخص الميم بذلك بل يقرأ بالسكت على كل حرف من حروفها: ألف ولام وميم.

[2] راجع: الحجة لابن خالويه ص105، الحجة للفارسي 340/1، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكّي بن أبي طالب القيسي 334/1-335.

[3] هو قول قتادة، والربيع بن أنس. راجع: الطبري 183/5، وابن المنذر 115/1، وابن أبي حاتم 588/2.

ذكر الصفة الثانية تكريرا بل تكون الثانية في حكم المبتدأة؛ لأن لكل صفة فائدةً ليست للأخرى، والصفة الأولى تفيد أن من شأنه أن يُكتب، والصفة الثانية تفيد أن من شأنه أن يُفرّق بين الحق والباطل.

وقيل: إن كل كتابٍ لله فهو فرقان[١].

والغرض من الآية – والله تعالى أعلم – أن الله تعالى قد حكم في جميع الكتب الـــمُنَزَّلَةِ أن عبادة غيره حرام، فاعملوا بحُكمه إن أقررتم بإلاهِيَّتِه.

وقوله ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الكتاب، وفيه بيان أن الله تعالى بشّر الأنبياءَ – صلوات الله عليهم – في كتبهم بمحمّدﷺ، وأن اليهود والنصارى كما صدّقوا بالتوراة والإنجيل فعليهم أن يصدّقوا بالقرآن الذي يصدّقهما.

وإنما قيل للماضي: / ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وللآتي: «خلف»، لأن ما مضى تيقّنتَ به فكأنّه بين يديك تنظر إليه، وما لَم يأت بعد فإنك لا تستيقن [٢] به علما، فكأنّه بعدُ خلفَك لا تبصره.

ومعنى ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ في اللغة: الضياء والنور، وقال البصريون أصلها: «وَوْرَيَة» على وزن «فوعلة» مثل الحوقلة[٣] والدوقلة[٤] مِن: (وَرَى الزَّنْدُ) و(وَرِيَ) لغتان، إذا خرجتْ نارُه، ولكن الواو الأولى قُلِبت تاءً كما قالوا: (تولَج)[٥]، أصله: «وَوْلَج» من وَلَج إذا دخل، وقُلبت الواو الأولى تاءً كيلا

---

[١] رُوي ذلك عن ابن عبّاس، أخرجه الطبري 677/1 بإسناد مُعضل عنه، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة/٥٣].

[٢] في الأصل: «يَستَيقِن»، والتصحيح من (ب).

(٣) في الهامش بخط الناسخ: « الحوقلة: مصدر حوقل الشيخُ حوقلةً إذا كبر وفَتَر عن الجماع ». راجع: الصحاح مادة « ح ق ل ».

(٤) في الهامش بخط الناسخ: «ويُقال: دوقل فلان إذا اختص بشيء من مأكول؛ مِن (ص) ». أي من الصحاح مادة « د ق ل ».

(٥) في الهامش بخط الناسخ: «التولج: كِنَاس الوحش الذي يلج فيه». راجع: الصحاح « و ل ج ».

يجتمع واوان في أول الكلمة فصار «تَورَيَة»، ثمّ قُلبت الياءُ ألفًا لتحرّكها وانفتاحِ ما قبلها.

وقال الكوفيون: أصل التوراة: «تَورَيَة» على وزن «تَفْعَلَة»، قُلبت الياء ألِفًا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، إلا أن «تفعَلة» لا يكاد يوجد في الكلام.

وقال بعضهم: أصله «تَورِية» على وزن «تفعِلة»، فنُقل من الكسر إلى الفتح، كما قالوا: (جارية وجاراة)، و(ناصية وناصاة). قال الزجّاج: هذا رديء لا يُقال: (توفية وتوفاة)، و(توقية وتوقاة)[1].

والإنجيل: «إفعيل» من النَّجْل، وهو الأصل، سمّي بهذا الاسم على معنى أنه أصل العلوم والحكم، وقيل: إنه مِن (نَجَلتُ الشيء)، إذا استخرجتَه وأظهرتَه، فمعناه أنه مُستخرَج منه علومٌ وحِكَم[2].

قولــه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾

معناه مع ما قبله: إن في كُتُبِ الله تعالى ما يدل على صدق قولك، فمَن جحد بآيات الله تعالى – وهي العلامات الهادية إليه الدالَّةُ على توحيده – فأولئك لهم عذاب شديد.

---

(1) معاني القرآن للزجاج 374/1–375. وانظر أيضا: معاني القرآن للنحاس 341/1–342؛ نزهة القلوب للسجستاني ص154–155؛ معالم التنزيل 6/2؛ القرطبي 11/5.

(2) راجع: معاني القرآن للزجاج 375/1؛ نزهة القلوب ص123–124؛ القرطبي 11/5-12؛ عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ص562–563.

فائدة: رجّح الزمخشري، وابن عطية، والرازي، وابن جُزَيٍّ، والسمين الحلبي أن التوراة والإنجيل اسمان أعجميّان فلا يُبحث عن اشتقاقهما. راجع: الكشاف 363/1؛ المحرر الوجيز 10/3؛ مفاتيح الغيب 172/7–173؛ التسهيل 234/1؛ الدر المصون 16/3–17؛ عمدة الحفاظ ص562.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: غالب في أمره لا يتهيَّأُ لأحدٍ منعُه ممن يريد عذابَه، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي ذو نقمة، ينتقم ممن عصاه. ثمّ حذّرهم عن التلبيس والاستتار [1] بالمعصية فقال ﷻ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ ﴾

أي الذي لا يخفى عليه شيء مما في الأرض والسماء لا يخفى عليه قولُ الكفار وعملُهم، يُحصي كلَّ ما يعملونه فيجازيهم في الآخرة.

وفائدة تخصيص الأرض والسماء - وإن كان الله لا يخفى عليه شيء بوجه من الوجوه - لأن ذكر الأرض والسماء أكبر في النفس وأهول في الصدر، فذَكَره على الوجه الأهول، إذ كان الغرض به التحذير.

ثم احتجّ -جلّ ذكره- على الخلق في علمه بالسّر والعلانية، بتصويره الإنسانَ وسائرَ الحيوان في أرحام الأمّهات، إذ ليس يقدر أحد أن يخلق من الماء المهين الضعيف في قعر الرحِم الـمُظلِم على هذا الخلْقِ المحكَمِ الصَنعةِ، العجيب التدبير والبِنية، إلا العالم بكل شيء من السرّ والعلانية، فقال ﷻ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾

أي يخلقكم في الأرحام كيف يشاء من لون، وطول وقِصَر، وعِظَم وصِغَر، وذكورة وأنوثة، وحُسن ودمامة[2]، يفعل كل ذلك بالحكمة.

---

[1] في الأصل: «الاستيتار»، والتصويب من (ب) وتفسير الحدّاد 8/2.

[2] في الهامش بخط الناسخ: « الدمامة بالدال المهملة قُبح الـخَلْقِ؛ مِن ص». أي الصحاح مادة «د م م»، ولفظه: «الدميم: القبيح، وقد دَمَمْتَ يا فلان تَدِمُّ وتَدُمُّ دَمَامَةً».

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لتأكيد ذكر المدلول الذي دل عليه الكلام الأول، أي لا مصوّر ولا خالق إلا هُوَ[١].

ومعنى ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: المنيع في سلطانه لا يغالَب و لا يمانَع، المحكِم في تدبيره وقضائه في عباده. وأفعال الله تعالى كُلُّها شاهِدة بأنه الواحد القديم العالم القادر الذي ليس كمثله شيء، لا يُوصَل إلى معرفته إلا بالاستدلال بصنائعه وعجائب تدبيره، إذ ليس بمحدودٍ فيُدرَكَ بالأبصار ويُحوى بالخواطر والأفكار. فلو لَم يكن واحداً وكان معه إله غيره، لكان إذا أراد هو تصويرَ واحدٍ ذَكَراً وأراد الإلهُ الآخرُ تصويره أنثى، لم يكن وجوده على الصورة التي أراد هو تصويرَه عليها بأولى من وجوده على الصورة التي أراد الآخر تصويره عليها، ولو لَم يُرِدْ واحدٌ منهما إلا ما أراده الآخر لكان كل واحدٍ منهما عاجزاً في نفسه لا يقدر على شيء دون موافقة غيره.

وفي هذه الآية جواب للنصارى من وجهٍ آخر، وهو أهم كانوا يدَّعون ربوبيّة عيسى عليه السلام لولادتهِ بلا والدٍ وكانوا يقولون: «إنه ابن الله تعالى» لهذه العلّةِ، فبيَّن الله تعالى أنّ ولادة عيسى عليه السلام بلا والد ليس بأعجب من إحياء النطفة وخلقِها ذكرا أو أنثى، وكيف يشاء. فمن قَدَرَ على مثل هذا يقدِرُ على خلق بشرٍ نشأ من غير أبٍ[٢]. وبالله التوفيق.

---

(١) هذا على تفسير الأشاعرة للإله بالصانع والقادر على الاختراع (راجع: نهاية الإقدام في علم الكلام ص91). والحق أن الإله – لغةً وشرعًا – هو المعبود. (راجع: مقاييس اللغة، والقاموس المحيط، ولسان العرب، مادة: «أله»؛ ودرء تعارض العقل والنقل 226/1) وعليه، فليس قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيدًا لمدلول الكلام الأول بل النتيجة اللازمة له، أي أن تفرّد الله بالخلق والتصوير، يستلزم ويقتضيأن يُفردَ بالألوهية والعبادة.

(٢) أشير في هامش الأصل أنه في نسخة: «بلا أب».

قولـــه ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

رُوي عن عبدالله بن عبّاس ﵄ في معنى الآية: هو الّذي أَنزَلَ عليك القرآنَ منه آياتٌ واضحاتٌ بيّنات بالحلال والحرام لم تُنسَخ، هي أصل الكتاب الذي أنزل عليك، وهنّ أمٌّ في التوراة والإنجيل والزبور / وكلِّ كتابٍ، نحو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾[1].

ومعنى ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾: أي ومنه آيات أخر اشتبهت على اليهود مثل ﴿ الٓمٓ ﴾، و﴿ الٓر ﴾، و﴿ الٓمٓر ﴾، و﴿ الٓمٓصٓ ﴾ على ما ذكرنا من

---

[1] مطلع الآية (151) من سورة الأنعام.

رواه بهذا السياق المتّهم محمد بن السائب الكلبي كما في تنوير المقباس ص55. ولكن يوجد ما يشهد له من الروايات الأخرى. فالفقرة الأولى تشهد لها رواية علي بن أبي طلحة عنه عند الطبري 193/1، وابن المنذر 119/1، وابن أبي حاتم 592/2، بلفظ: «المحكمات: ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يُؤمَن به ويُعملُ به». والفقرة الثانية يشهد لها قول سعيد بن جبير – وهو من أصحاب ابن عباس – مقطوعا: «﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أصل الكتاب، وإنما سمّاهن أم الكتاب لأنهنَّ مكتوبات في جميع الكتب »؛ أخرجه ابن أبي حاتم 593/2. والفقرة الثالثة عن آية سورة الأنعام أنها من المحكم، أخرجها أبو عُبيد في فضائل القرآن ص274، والطبري 193/5، وابن المنذر 118/1، وابن أبي حاتم 592/2 من طريق العوام بن حوشب عمن حدثه عن ابن عباس. وأخرجه سعيد بن منصور في السنن (التفسير) 1039/3، والطبري 667/9، وابن أبي حاتم 592/2، من طريق عبد الله بن قيس عن ابن عباس. وعبد الله بن قيس مجهول (التقريب رقم3545).

قصتهم في ذلك مع النبيّ ﷺ في أول سورة البقرة[١].

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ ﴾ ميل عن الحق والهدى - وهم اليهود - ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا﴾ اشتبه عليهم من أمر الحروف المقطعة يَحسُبُون ذلك بحساب الْجُمَّل، ﴿ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ ﴾، يقول: طلب الكفر والشرك والاستقامة على ما هم عليه، ﴿ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ ﴾ أي طلبِ تفسيرِ منتهى ما كتب اللهُ تعالى لأُمة محمّد ﷺ من الأُكُلِ[٢] ليرجع الـــمُلك إلى اليهود، وما يعلم تفسير منتهى ما كتب الله ﷻ لهذه الأمة من الأُكْلِ إلّا الله تعالى.

وعن الربيع بن أنس رحمه الله: أن هذه الآية نزلت في وفد نصارى نجران لَمَّا حاجُّوا النبي ﷺ في المسيح فقالوا: أليس هو كلمة الله تعالى وروح منه ؟ قال: «**بلى**»، قالوا: حسبنا ! فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

ومعناها أن النصارى صرفوا قوله: «كلمة الله» إلى ما يقولون من قِدَم عيسى عليه السلام مع الله تعالى، وصرفوا قوله تعالى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[٤] إلى أنه جزء

---

[١] **[موضوع]** خلاصة القصة التي ذكرها المؤلف هناك أن اليهود طمعوا في معرفة مدّة بقاء الإسلام وأهله، وذلك من خلال حساب الجمَّل للحروف المقطعة التي في فواتح السور، فأنزل الله فيهم هذه الآية، يكذّب فيها أحدوثتهم، ويُعلمهم أن ما ابتغوا علمَه من ذلك من قِبَلِ هذه الحروف المتشابهة لا يُدركونه. أخرج القصة بطولها الطبري 220/1-222 من طريق ابن إسحاق، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، عن جابر بن عبدالله بن رئاب. وينظر سيرة ابن هشام 545/1-547. **قلت**: مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو كذّاب، وخاصة فيما يرويه عن أبي صالح عن ابن عباس (يُنظر: تهذيب التهذيب 569/3-570). ثمّ إن المشهور عند أهل التفسير — كما سبق أن نقل المؤلف عن ابن إسحاق والربيع بن أنس - أن صدر السورة نزل في وفد نصارى نجران، لا في اليهود.

[٢] الأُكْل، والأُكُل: الرزق والحظ من الدنيا، ومنه قيل للميت: (انقطع أُكلُه). والمراد هنا: مدّة بقاء هذه الأمة. راجع: القاموس المحيط، واللسان مادة: «أ ك ل».

[٣] أخرجه الطبري 206/5 وابن أبي حاتم 596/2.

[٤] جزء من الآية (171) من سورة النساء.

منه، قديمٌ معه كروح الإنسان. وإنما أراد الله ﷻ بقوله ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ [1] أن الله تعالى إنما صيَّره بَشَرًا بكلمة منه وهي قوله تعالى: «كُن» فكان، وسمّاه رُوحَه لأن الله تعالى خلقه من غير أبٍ، بل أَمَرَ جبريل عليه السلام فنفخ في جيب مريم عليها السلام، فهو روح من الله تعالى، أضافه الله ﷻ إلى نفسه تشريفاً له كــبيت الله، وسماءِ الله، وأرضِ الله تعالى.

وقيل سمّاه روحاً لأنه كان يُحيي به الموتى كما سمى القرآنَ رُوحًا بقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [1] مِن حيث إنَّ فيه حياةَ الناس في أمر دينهم.

فصَرف أهل الزيغ قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [1] إلى مذاهبهم الفاسدة طلبَ الكفر والضلال، فلم يردُّوا هذا اللفظ الذي اشتبه عليهم وشبَّهوه على أنفسهم إلى الآية المحكمة وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾[2]. فعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي ما يعلم تأويل جميع المتشابه حتى يستوعب علم المتشابهات كلها إلا الله.

وقال الزجاج: الــمُحكَم ما اعترف به أهل الشرك مما أخبر الله تعالى من إنشاء الخلق وجعلِه من الماءِ كُلَّ شيء حيّ، وما خلق الله تعالى من الثمار وسخّر لهم من الفُلك والرياح. والمتشابه ما تشابه [3] عليهم من أمر البعث ابتغاءَ الفتنة، وهي إفساد ذات البين في الدين والحرب، وابتغاء مرجع المتشابه وعاقبةِ أمره، ولا يعلم أحدٌ متى البعث إلا الله. ومن الدليل على صحة هذا التأويل أنه تعالى ذكر إقرار المؤمنين بالبعث من بعد، فقال – عزّ من قائل –

---

(١) مطلع الآية (52) من سورة الشورى.

(٢) جزء من الآية (59) من سورة آل عمران.

(٣) في الأصل: «يشابه»، وهو خطأ. والتصويب من (ب) وتفسير الحدّاد 11/2.

حكايةً عنهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]. قال: والتأويل المصير والعاقبة، يقال: (فلان تأوّل الآية) أي نظر إلى ما يؤول إليه معناها[2].

وقال الضحاك: المحكمات الناسخات، والمتشابهات المنسوخات [3]. وهي رواية أخرى عن ابن عبّاس[4].

وإنما سمّي الناسخُ مُحكمًا لأنه ثابت الحكم، والعرب تسمّي البناء الوثيق: مُحكما، والعَقد الوثيق الذي لا يُمكن حلّه: محكما. وسمّي المنسوخ متشابها من حيث أشبه المحكمَ في التلاوة، وخالفه في ثبوت الحكم فيشتبه على التالي حكمُه في ثبوته أو نسخه.

وقد أنكر اليهود النسخَ حيث قالوا: يُشبه البداءَ، وذلك لا يجوز على الله تعالى[5]

قال قتادة: هذه الآية في كل من احتجّ في المتشابه لباطله[6].

وعن هذا قال بعض المفسّرين [7]: المحكم مثل سورة الإخلاص ، والمتشابه

---

(1) باختصار وتصرّف لكلام الزجاج من معاني القرآن وإعرابه 376/1-379.

(2) لَم أجده عند الزجاج، ولكن يوجد بنحو مثله في نزهة القلوب للسجستاني ص155.

(3) أخرجه الطبري 195/5-196، وابن المنذر 117/1-120 بعدّة طرق عنه.

(4) أخرجه الطبري 193/5-194 بالسند المسلسل بالعوفيين الضعفاء. وقد سبق قريبا (ص8) أنه رُوي عن ابن عباس، من طريق على بن أبي طلحة، قريب من ذلك.

(5) راجع: الفصل في الملل والأهواء والنحل 179/1-180؛ قواطع الأدلة للسمعاني 72/3-78؛ ونظرية النسخ في الشرائع السماوية للدكتور شعبان محمد إسماعيل ص23-37.

(6) لَم أجده عن قتادة بهذا اللفظ، لكن صحّ عنه ما يدّل على ذلك، فقد أخرج عبد الرزاق في تفسيره 381/1-382، ومن طريقه الطبري 207/5-208 عن معمر، أن قتادة إذا قرأ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال: «إن لَم يكونوا الحروريةَ والسبئيةَ فلا أدري مَن»هم؟ أخذ في ذكر أمر الحرورية إلى أن قال: «والله إن اليهودية لبدعة، وإن النصرانية لبدعة، وإن الحرورية لبدعة، وإن السبئية لبدعة، ما نزل بهن كتاب ولا سنّهن نبي».

(7) هو محمد بن الفضل، كما في تفسير القرطبي 17/5، والبحر المحيط 22/3. ولعله وهو محمد بن الفضل، أبوبكر البلخي، صاحب التفسير الكبير المسمّى «جامع العلوم»، فقد ذكره المؤلف في آخر تفسيره ج3، ق200/أ ضمن مراجعه.

مثل قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [(١)] الذي يحتمل استواء الجلوس واستواء المالك على ما يملكه بالاقتدار والاستيلاء[(٢)]، ونحو قوله تعالى: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [(٣)] وغير ذلك من الآي التي تحتاج إلى تأويلها في الإبانة عنها [(٤)].

ويُقال: المحكم نحو قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [(٥)]، والمتشابه مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، ثم قال – جلّ ذكره – ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾، ثم قال – عزّ من قائل – ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾[(٦)]،

---

(١) الآية (5) من سورة طه.

(٢) بل الأظهر من الاحتمالين، والمتعيّن في هذه الآية، أن الاستواء بمعنى العلو والارتفاع، كما فسّره جمهور السلف. قال مجاهد: «علا على العرش»، وقال أبو العالية: «ارتفع»، علّقه البخاري عنهما بصيغة الجزم في صحيحه (التوحيد/باب ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾). ويُنظر: مجاز القرآن 15/2؛ الطبري 454/1-457 عند تفسير الآية (29) من سورة البقرة؛ معالِم التنزيل للبغوي 235/3، ونكت القرآن للقصاب 425/1-429، كلاهما عند تفسير الأية (54) من سورة الأعراف؛ التمهيد لابن عبد البر 128/7-159.

وتأويله بالاستيلاء قول الجهمية وأفراخهم من المعتزلة ومتأخري الأشاعرة والماتريدية.

يُنظر: الإبانة للأشعري ص34، متشابه القرآن للقاضي عبدالجبار المعتزلي ص351، أساس التقديس للرازي الأشعري ص202-203، مدارك التنزيل للنسفي الماتريدي 56/2.

(٣) جزء من الآية (75) من سورة ص.

(٤) جعلُ آيات الصفات التي ظاهرها التشبيه والتجسيم– في زعمهم – من المتشابه، وتأويلُها عن ظاهرها= مذهبُ ا لجهمية وأفراخهم من الماتريدية ومتأخري الأشاعرة. انظر **للأشاعرة:** أساس التقديس ص105، و220؛ وتحفة المريد على جوهرة التوحيد للبيجوري ص156-159؛ **وللماتريدية:** التمهيد لقواعد التوحيد لأبي معين النسفي ص 160-163، مدارك التنزيل 146/1؛ **وانظر للرد عليه:** كلام الترمذي في السنن عقب الحديث (662)، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث للصابوني ص36-39، ومجموع الفتاوى لابن تيمية 294/13-313، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص39-154.

(٥) جزء من الآية (38) من سورة ق.

﴿ يَوۡمَيۡنِ ﴾[(١)]، فظنّ من لا معرفة له أن العدد ثمانية أيام ولَم يعلم أن اليومين الأولين داخلان في الأربعة التي ذكرها الله ﷻ من بعد، كما يقول[(٢)] القائل: (سِرنا من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام وسرنا إلى الكوفة في خمسة عشر يوما) وأراد دخول العشرة في ذلك.

وقال ابن زيد: المحكم هو الذي لَم تتكرر ألفاظه والمتشابه ما تكرر ألفاظه كقصّة موسى عليه السلام، وقولِه تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[(٣)]، وقوله ﷻ: ﴿ [وَيۡلٌ] يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[(٤)(٥)].

ولفظ الآية يَحتَمِل جميع هذه الوجوه، ولولا احتمال اللفظ لها لما / تأولوا الآية عليها.

وقد سمّى الله تعالى جملةَ القرآن محكما حيث قال — جلّ ذكره- ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[(٦)]، فوصفه بالإحكام في لزوم العمل به[(٧)].

وسمّاه كلّه متشابها في آية أخرى حيث قال — عزّ من قائل - : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾[(٨)]، أي يُشبه بعضُه بعضًا في الحُسْنِ والتصديق.

---

(١) أجزاء من الآيات (9)، و(10)، و(12) من سور فصّلت.

(٢) في الهامش إشارة إلى أنه في نسخة: « كقول ».

(٣) تكرّرت إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن.

(٤) تكرّرت عشر مرّات في سورة المرسلات. وفي الأصل: ﴿ فَوَيۡلٌ ﴾ بالفاء، وهو وهم من المؤلف أو خطأ من الناسخ إذ لَم ترد الآية بالفاء إلا مرّة واحدة في سورة الطور (11)، والمؤلف إنما أراد التمثيل للتي تكرّرت، وهي آية المرسلات.

(٥) أخرجه الطبري 5/197-198 بنحوه من غير ذكر الآيتين.

(٦) مطلع سورة هود.

(٧) يَرِد عليه الآيات المنسوخة، فإنه لا يُعمل بها. والصحيح أن يُقال: المراد بالإحكام العام، الإتقان في النظم والمعنى وأنه كله حق، لا عبث فيه ولا هزل. راجع: أحكام القرآن للجصاص 5/2؛ تفسير السمعاني 1/294-295، معالِم التنـــزيل للبغوي 2/8.

(٨) جزء من الآية (23) من سورة الزمر.

ووَصف في هذه الآية بعضَ القرآن بأنه محكم وبعضَه [بأنه متشابه] [1]، وأراد بالمحكم هاهنا ما لا يحتمل إلا وجها واحدا، وبالمتشابه ما يحتمل وجوها شتى[2].

وفي مضمون هذه الآية ما يقتضي وجوب ردِّ المتشابه إلى المحكم لأنه تعالى قال في صفة المحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وأُمّ الشيء: التي منها ابتداؤه وإليها مرجعه[3]، فتسمية المحكمات أمًّا تقتضي بناءَ المتشابه عليها وردَّه إليها.

ثمّ وصف – جلّ ذكره – مُتَّبعي المتشابه من غير حملهم له على معنى المحكم بالزيغ في قلوبهم بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، وأعلمَ أن هؤلاء يبتغون الفتنة وهي الكفر والضلال.

وقد اختلف أهل العلم في معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾، فمنهم من جعل تمام الكلام بعد قوله ﷻ: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾، وجعلَ الواو التي في قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ للجمع كقول القائل: (لقيتُ زيدا وعمرًا) وما جرى مجراه، لأن حقيقة الواو للجمع إلا أن يقوم دليل الاستئناف، ونظيره ما قال الله ﷻ في شأن قَسْم الفيء: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ﴾[4] كذلك قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى

---

(1) في الأصل: « بآية متشابهة »، وفي (ب): «بأنه متشابه» والسياق يقتضي ما أثبتته.

(2) هذا قول الفقيه محمد بن جعفر بن الزبير بن العوّام (الطبري 197/5، و220-221)، وابن إسحاق (ابن أبي حاتم 592/2، 594). قال الواحدي في البسيط ق 4/ب : «وهذا اختيار ابن الأنباري، وكثير من العلماء». واختاره أيضا ابن كثير في تفسيره 3/7-9.

(3) راجع: مقاييس اللغة « أ م م ».

(4) الآيات (7-10) من سورة الحشر. وجهُ التنظير بهذه الآيات أنَّ معناها: والذين جاءوا من بعدهم يستحقون الفيء حال كونهم يقولون: ربنا اغفر لنا؛ وكذا المعنى في هذه لآية:

﴿ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ معناه: والثابتون في العلم يعلمون تأويل ما نصب الله تعالى لهم الدلالة عليه من المتشابه، وبعلمِهم يقولون: ربّنا آمنّا به[1].

فيُروى عن ابن عباس: «وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يعلمونه قائلين: آمنا به»[2]، قال ابن عباس: «وأنا ممن يعلم تأويله لقول الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3]»[4].

ومنهم من جعل تمام الكلام عند قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾[5].

وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿وَيَقُولُ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[6]، وهو

والراسخون في العلم يعلمون تأويله حال كونهم يقولون آمنا به. راجع: الكشف والبيان 13/3-14، ومعالِم التنزيل 10/2.

(1) هو قول مجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ورواية عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ واختاره وانتصر له ابن قتيبة، والنحّاس. راجع: الطبري 220/5-221، وتأويل مشكل القرآن للقتيبي ص143، ومعاني القرآن للنحاس 354/1، وإعراب القرآن له ص191.

(2) لَم أجده منصوصا عن ابن عباس، لكنه قد رُوي من قول تلميذه مجاهد عند الطبري 220/5 وابن المنذر 132/1، كما قد رُوي من قول الربيع بن أنس عند الطبري220/5.

(3) الآية (29) من سورة ص.

(4) أخرجه الطبري 220/5 وابن المنذر 132/1، وليس فيه ذكر الآية.

(5) هو قول عائشة، وابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم. وكذا قال به عروة، والحسن، والإمام مالك، ونافع المدني المقرئ، والكسائي، و الأخفش، والفراء، أبو عُبيد، وأبو حاتم السجستاني، والطبري. راجع: الطبري 218/5-221، والقطع والائتناف للنحاس 124/1-125.

(6) هذه القراءة ليست لابن مسعود رضي الله عنه بل تُنسب إلى أُبيّ بن كعب وابن عباس رضي الله عنهم. وإنما المروي عن ابن مسعود: «إِنْ تَأْوِيلُهُ إلا عِنْدَ اللهِ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ» كما أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص 314 بإسناده عن الأعمش عنه. وانظر: معاني القرآن للفراء 191/1، الطبري 221/5-222، شواذ القراءات للكرماني ق23/أ، المحرر الوجيز 23/3، البحر المحيط 29/3، الدر المنثور 458/3.

مروي أيضا عن عبدالله بن عبّاس[1] وعمر بن عبدالعزيز[2].

ولا يَبعُد أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه، لأنّا لا نعلم مراد الله تعالى وحكمتَه في جميع أوامره ونواهيه، غير أنه ألزَمَنا العملَ بما أنزله، ولَم يُطالبنا بما لا سبيل لنا إلى معرفته، ولَم يُخفِ عنا علمَ ما غاب عنا من وقت قيام الساعة ونحو ذلك إلا لعلمه ﷻ بما فيه المصلحة لنا وما هو خير لنا في ديننا ودنيانا، وما أعلمَناه فلم يُعلمنا إلا لمصلحتنا ونفعنا، فنعترف بصحة جميع ما أنزله الله ﷻ، والتصديقِ بذلك كله، ما علمنا منه وما لَم نعلم.

وقد رُوي عن ابن جريج أن المتشابهات ما لا سبيل لأحد إلى معرفته، كوقت نزول عيسى عليه السلام، وطلوعِ الشمس من مغربها، وقيامِ الساعة، وعلمِ ما في الأرحام، وعلمِ الأمور المتوقعة[3].

ومعنى ﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾: أي ما يتّعظ بالقرآن إلا ذوو العقول من الناس.

فإن قيل كيف قال – جل وعزّ – ﴿ **هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ**﴾ فوحَّد الأُمَّ ولَم يقُل: «هُنَّ أمّهات الكتاب» مع أن الآيات جمع ؟ قيل: فيه قولان، **أحدهما:** أنه قال ذلك على جهة الحكاية على تقدير الجواب كأنه قيل: ما أم الكتاب؟ فقال – جلّ ذكره – ﴿ **هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ** ﴾، كما يقال: من نظير زيد؟ فيقال:

---

[1] أخرج عبد الرزاق في تفسيره 383/1، ومن طريقه الطبري 218/5، وابن أبي داود في المصاحف ص357-358، وابن المنذر 130/1-131، عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه، قال: كان ابن عباس يقرؤها:«وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيلَهُ إلا الله، وَيقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ آمَنَّا بِهِ».

[2] أخرج الطبري 219/5، وابن المنذر 132/1، عنه أنه قال: « انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ».

[3] لَم أجد أحدا نسب هذا القول إلى ابن جريج فيما بين يديّ من المصادر.

نحن نظيره[١]. **والثاني**: أن الآياتِ المحكماتِ بمجموعها أصلُ الكتاب، وليست كلُّ آيةٍ محكمةٍ أمَّ الكتاب وأصلَه كما قال – جلّ ذكره –: ﴿ **وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً** ﴾[٢]، ولم يقل: آيتين، لأنه جعلهما آية واحدة[٣].

فإن قيل: لِمَ أنزل الله ﷻ في القرآن المتشابه؟ وهلاّ جَعل جميعَه مُحكمًا فكان لا يُحتاج إلى رد المتشابه إلى المحكم؟ قيل: لو جَعل جميعَه محكما، لاتّكل الناس على الخبر، واشتغلوا عن النظر والاستدلال، فكان لا يحصل لهم العلم عند ذلك بصحّة الأمور والحوادث، فجعل بعض القرآن مُحكما، وبعضه متشابها، ليكون ذلك أَدْعى لهم إلى النظر والاستدلال بأدلّة الله تعالى المودَعة في العقول، ولولا ذلك لَم يظهرْ فضل العالِم المجتهد الذي يردّ المتشابه إلى[٤] المحكم، على غير المجتهد. وبالله التوفيق.

قولــه ﷻ: ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨** ﴾

معطوف على قوله ﷻ: ﴿ **كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾. معناه: يا ربنا لا تُمِلْ قلوبنا عن الهدى بعد إذ أرشدتنا وبصّرتنا دينك الحق.

---

(١) هو قول الأخفش كما في معاني القرآن له 394/1. وقد ردّ عليه الطبري 190/5-191 بأنه «قول لا معنى له» وذلك لأن «الله جلّ ثناؤه لَم يحك عن أحد قوله: أمّ الكتاب، فيجوزَ أن يقال: ذلك مُخرَج الحكاية عمّن قال ذلك كذلك».

(٢) مطلع الآية (50) من سورة المؤمنون.

(٣) وذلك لأن شأنهما واحد، «فلم تكن الآيةُ لها إلا به، ولا له إلا بها»، كما قال النحاس في معاني القرآن 349/1. وهذا اختيار الطبري 189/5.

(٤) هكذا كان مرسوما في الأصل، لكنه قد طُمس وجُعل «على».

ويقال: معناه لا تتعبّدْنا بما يكون مُسبِّباً لزيغ قلوبنا[١]، معناه: لا تُكلّفنا الشدائد، فقد يَعصي الإنسان عند تكليف الشدائد كما قال ﷻ: / ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾[٢].

ومعنى ﴿وَهَبۡ لَنَا﴾: أعطِنا من عندك نعمةً – ويقال: لُطفًا – تُثَبِّتُ به قلوبنا على الهدى. واسم الرحمة يقع على كلّ خير ونعمة.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ أي أنت المعطي للمؤمنين. والوهّاب: الذي من سنّته وعادته الإعطاءُ والهبةُ.

قولــه ﷻ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾

معناه: يقولون: ربنا إنك محيي الناس بأجمعهم بعد الموت لجزاء يومٍ لا ريب فيه، أي ليس فيه ريبٌ وشكٌّ لوضوحه، وهو يوم القيامة. وهذا إقرار منهم بالبعث والنشور.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ يجوز أن يكون حكاية عن الموحدين على معنى: إنك لا تُخلف الميعاد، ويجوز أن يكون هذا إخبارًا عن الله تعالى.

والميعاد: ما وعده الله تعالى من البعث والحساب والميزان والجنّة والنار.

---

[١] ذكر الزجاج 379/1 القولين وقال: «وكلاهما جيّد». لكن القول الثاني فيه نوع تحفّظ من نسبة إزاغة القلوب إلى الله، ولذا لجأ إليه المفسرون من المعتزلة القدرية كأبي بكر الأصم، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري، ذلك أن المعتزلة تنفي أن يكون الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وتقول: إن العبد هو خالق فعله بنفسه. راجع: متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار 140/1-141؛ الكشاف 367/1 وما بحاشيته من: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنيّر؛ مفاتيح الغيب الرازي193/7-196؛ البحر المحيط 31/3-32.

[٢] جزء من الآية (246) من سورة البقرة.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾

قيل: إن المراد بالذين كفروا اليهود الذين تقدّم ذكرهم[١]. ويقال: أراد بهم نصارى نجران[٢]. ويُقال: عامّة الكفار[٣].

ومعنى ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾: أي لا تدفع عنهم كثرةُ أموالهم وأولادِهم شيئا من عذاب الله ﷻ في الدنيا والآخرة.

وسُمّي المال غنىً لأنه يدفع عن صاحبه الفقر والنوائب[٤].

فأخبر الله ﷻ أن أموال هؤلاء الكفار وأولادَهم لا تنفعهم ولا تنجيهم[٥] من العذاب لأنه لا يقبل منهم فداء ولا شفاعة، بل يصيرون إلى النار وتَتَّقِدُ بأبدانهم وتشتعل بهم.

وإن «الوَقود» بنصب الواو: ما يُوقَد به النارُ، وهو الحطب. وفي هذا بيان أن أهل النار يحترقون في النار احتراق الحطب لا كما يحترق الإنسان بنار الدنيا، فإن نار الدنيا تُسيل الصديد من الإنسان، ولا تأخذه كما تأخذ الحطبَ، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٦].

ومن قرأ: ﴿وُقُود﴾ بضم الواو[٧]، فهو مصدر وَقَدتِ النارُ وُقودًا كما

---

(١) وذلك في ص9) عند تفسير قوله تعالى﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾. وهو قول مقاتل، أن الآية في اليهود خاصّة. راجع: تفسير مقاتل 158/1.

(٢) وهو قول محمد بن إسحاق كما سبق في أوّل السورة.

(٣) وهو اختيار الطبري 234/5.

(٤) راجع: البسيط للواحدي ق7/ب.

(٥) في الأصل: «ينفعهم ولا ينجيهم» بالياء، والتصويب من (ب).

(٦) جزء من الآية (56) من سورة النساء.

(٧) هي قراءة شاذة، قرأ بها الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرّف. يُنظر: مختصر في شواذ القرآن لابن خالوية ص19، وإعراب القرآن للنحاس ص193، والمحرر الوجيز 26/3.

يقال: وَرَدَ وُرودًا، و وَلَجَ وُلوجًا، فيكون المعنى: أولئك هم ذَوُوا وُقود النار.

وإنما ذكر الله تعالى الأموال والأولاد في الآية لأن أكثر الناس يدخلون النار لأجل المال والولد، فأخبر الله تعالى أن شيئًا من ذلك لا ينفع في الآخرة كيلا يُفني أحد عُمرَه لأجل المال والولد، ويكون هذا القول عبرةً للمؤمنين.

قوله ﷻ: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

يقول: عادة هؤلاء الكفار في الكفر والتكذيب بالحق، كعادة آل فرعون وعادةِ الذين مِن قَبلهم قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ كذَّبوا بكُتُبنا ورُسُلنا فعاقبهم الله تعالى بكُفرهم وشركهم.

﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ إذا عاقب، فعِقَابه شديد على الدوام والتأبيد لا كعقوبة أهل الدنيا. و**الدَّأْبُ** في اللغة: العادة، يقال: (دَأَب يدأَب دَأْبــًا [1]، ودُؤُوبــًا)، إذا اعتاد الشيء وتمرّن عليه[2].

وقد يُذكر الدأب بمعنى الاجتهاد يقال: (دَأَبَ في كذا)، إذا اجتهد فيه، والمعنى على هذا القول، اجتهادُ هؤلاء الكفار في كفرهم وتظاهرهم على النبي ﷺ كاجتهاد آل فرعون على موسى عليه السلام[3].

والكاف من أول هذه الآية في موضع الرفع لأنه خبر الابتداء على التقدير الذي تقدم ذكره: إنّ دأب هؤلاء مثلُ دأبِ آل فرعون[4].

---

[1] بإسكان الهمزة، وتحرّك (دَأَبــًا). راجع: القاموس المحيط مادة «دأب» ص105.

[2] راجع: لسان العرب مادة «دأب» 1/368-369.

[3] هذا قول الزجاج في معاني القرآن 1/380، ونقله الأزهري في تهذيب اللغة 14/142 «دأب».

[4] راجع: معاني القرآن للزجاج 1/380.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

معناه - والله تعالى أعلم - قُل يا محمد ﷺ للذين كفروا ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ ستُهزمون وتُقتلون وتُحشرون بعد الموت إلى جهنّم، وبئس الفراشُ النار.

من قرأ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بالتاء، فعلى معنى: قل لهم في خطابك لهم. ومن قرأ بالياء[١]، فمعناه يكفيهم[٢] أنهم سيُغلبون[٣].

ولهذه الآية قصّتان؛ **إحداهما** ما رُوي عن عبدالله بن عباس وقتادة، قالا: لـمّا أهلك الله ﷻ قريشا يومَ بدر، وجمع رسول الله ﷺ اليهود بسُوق قَيـنُقاع[٤]، فدعاهم إلى الإسلام، وحذّرهم مثل ما نزل بقريش من الانتقام، فأَبَوا وقالوا: لسنا كقُريش الأَغمار الذين لا يعرفون القتال ولَم يُمارسوه، لئن حاربتَنا لتَلقيَنَّ رجالا وتعرفَنَّ البأس والشدة، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٥].

---

[١] هي قراءة حمزة والكسائي وخَلَف من العشرة، والأعمش من غيرهم. وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب. يُنظر: المبسوط ص140؛ الروضة 2/582-583؛ النشر 2/238.

[٢] كذا في الأصل، ويترجّح أنه تصحيف مِن «بَلِّغْهُم» كما في معاني القرآن للزجاج 1/380، والبسيط ق8/ب.

[٣] راجع: معاني القرآن للزجاج 1/380، وللنحاس 1/360، والكشف 1/335.

[٤] **قَيْنُقَاع**: بالفتح ثم السكون وضَمِّ النون أو فتحِها أوكسرِها. هو اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة أضيف إليهم سوق كان بها. راجع: معجم البلدان 4/424.

[٥] **[حسن]** أما رواية ابن عبّاس رضي الله عنهما، فقد أخرجها ابن إسحاق في المغازي (سيرة ابن هشام 2/47) - ومن طريقه أبوداود في السنن (الخراج والإمارة والفيء/باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة/ح3001) والطبري 5/239، وغيرهم - عن محمد بن أبي محمد مولى زيد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. وقد حسّن الحافظ إسناده في فتح الباري 7/386 (المغازي/ حديث بني النضير).

وأما رواية قتادة، فلم أجدها، وإنما هي عن «عاصم بن عمر بن قتادة» فلعله تصحّف إلى

والثانية ما قاله الكلبي: إن رسول الله ﷺ لـــمّا هزم المشركين يوم بدرٍ قالت اليهود: هذا والله النبي الأميُّ الذي بشَّرَنا به موسى عليه السلام، نَجِده في التوراة بنَعته وصفته. فأرادوا اتِّباعَه، فقال بعضُهم لبعضٍ: لا تعجلوا حتى / تنظروا إلى وَقْعَةٍ له أخرى. فلما كان يومُ أحد ونُكِبَ أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ قالوا: لا والله ما هو بِهِ، لقد تغيّرتْ حالته وصفته. وكان بينهم وبين النبي ﷺ عهدٌ فنقضوا ذلك العهد وانطلق كعبُ بن الأشرف[1] في ستين راكبا إلى أبي سفيان بمكة ووافقوهم على أن تكون كلمتهم واحدة، فأنزل الله ﷻ هذه الآية[2].

وقيل إن هذا خطاب لجميع الكفار ولا تنافي بين الأمرين.

وفي هذه الآية دلالة على صحة نبوة محمد ﷺ لأنه أنبأهم عن غيبٍ، ثم بَانَ صحةُ[3] ما أنبأ به. ولا يُمكن حملُ ذلك على الاتفاق مع كثرةِ ما أخبر به من الغيوب في الأمور المستقبلة، فوُجد مُخْبَرُهُ على ما أخبَرَ به من غير خُلفٍ، وذلك لا يكون إلا من عند الله ﷻ العالِمِ بالغيوب، إذ ليس مثلُ ذلك في وسعِ أحدٍ من الآدميين.

«عاصم بن عمر عن قتادة» في نُسخِ بعضِ المصادر —كتفسير الطبري — التي نقل منها المؤلف. وعاصم هذا، تابعي ثقة عالِم بالمغازي (سير أعلام النبلاء 240/5). وروايته المرسلة قد أخرجها ابن إسحاق (كما في العجاب 665/2)، ومن طريقه الطبري 239/5، وابن أبي حاتم 603/2.

(١) هو من أحبار بني النضِير الذين ناصبوا العداء لرسول الله ﷺ، كان أصله من طيء، ثم أَحَدُ بني نَبْهان، وكانت أمّه من بني النضير. وكان يقول الشعر يحرّض فيه كفّار مكّة على رسول الله ﷺ، ويشبّب بنساء المسلمين، فاحتال له محمد بن مسلمة، وسِلكان بن سلامة رضي الله عنهما- بأمر النبي ﷺ حتّى قتلاه. راجع: سيرة ابن هشام 513/1-514، و51/2-57.

(٢) **[موضوع]** أخرجه الثعلبي في تفسيره 77/1، ومن طريقه البغوي 13/2، عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكره الواحدي في أسباب النزول ص218 عن الكلبي معلّقا.

(٣) أشير في الهامش على أنه في نسخة: « صدقُ ».

قولــه ﷻ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ [تَرَوْنَهُم][1] مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول: قد كان لكم - أيها اليهود - ويقال: أيها الكفار- [آيةٌ] [2] في فرقتين وجمعين التقيا يوم بدر، فرقةٌ تقاتل في طاعة الله ﷻ، وهم رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ: ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا؛ وفرقةٌ أخرى كافرةٌ وهم مشركو مكّة: تسعمائة وخمسون رجلا.

وقوله تعالى: ﴿ تَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾، من قرأ: ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾ بالياء، فالمعنى: ترى[3] الفئةُ المؤمنةُ الفئةَ الكافرةَ مثليهم ظاهر العين. أي ظن المسلمون أن المشركين ستمائة ونيّف، وأنهم يغلبون المشركين كما وعدهم الله بقوله: ﴿ فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ﴾[4]، قلَّلَ الله تعالى المسلمين في أعين المشركين، والمشركين في أعين المؤمنين حتى اقتتل الفريقان كما قال - جلّ ذكره -: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾[5]، ثم قذف الله تعالى في قلوب الكفرة[6] الرعبَ حتى انهزموا بكفٍّ من تراب أخذه رسول الله ﷺ فرَماه في وجوههم،

---

(1) هذا على قراءة نافع، وأبي جعفر، ويعقوب؛ وقرأ عاصم والباقون ﴿ يَرَوْنَهُم ﴾ بياء الغيبة. يُنظر: المبسوط ص141؛ الروضة 583/2؛ النشر 238/2.

(2) زيادة لا بد منها ليستقيم الكلام، وفي تفسير الحداد 17/2: «عبرةٌ ودلالة على صدق ما أقول لكم».

(3) في الأصل: «يرى»، والتصحيح من (ب).

(4) جزء من الآية (66) من سورة الأنفال.

(5) جزء من الآية (44) من سورة الأنفال.

(6) أشير في الهامش إلى أنه في نسخة: « الكفّار ».

وقال ﷺ : «**شَاهَتِ الوُجُوه**»[1].

وذهب بعضهم في معنى هذه الآية أن المشركين كانوا يرون المسلمين مِثلَي ما هم عليه[2]. ومن قرأ : ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ بالتاء فهو خطاب لليهود يعني ترون كفار مكةَ قريشٍ والمؤمنين رأي العين[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي يُقوّي ويشدّد بقوته من يشاء. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ في غلبة المؤمنين للمشركين مع قلّة المؤمنين وشوكة المشركين وعلمهم أن ليس للمؤمنين رجاء مددٍ ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ في الدين، أي لِذَوِي بصارةِ القلوب، ويجوز أن يكون معناه: أن في ذلك لعبرةً لمن أبصر بعينه يومئذ.

وفي قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ﴾ قراءتان؛ من قرأها بالرفع[4] فعلى معنى: إحداهما فئة تقاتل في سبيل الله؛ ومن قرأها بالخفض[5] فعلى طريق البدل من ﴿فِئَتَيْنِ﴾،

---

[1] **[ثابت عند أهل السِّيَر]**. أخرجه الطبراني في الكبير 203/3 موصولا من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه بإسناد ضعيف. وتشهد له مراسيل محمد بن كعب القرظي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و محمد بن قيس المدني؛ أخرجها الطبري 82/11-86 عند تفسير قوله تعالى:﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال١٧]. كما قد ذكره ابن إسحاق في المغازي (سيرة ابن هشام 628/1)، والواقدي في المغازي 81/1.

[2] ذهب إليه الحسن البصري؛ ذكره عنه هُود بن محكَّم الـهُوّاري في تفسيره 270/1. قُلت: ويَرِدُ عليه قوله تعالى:﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾، لكن قد أجيب عنه بأن «التقليل والتكثير في حالَين مختلفَين، فقُلِّلُوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، فلما تلاقوا كثَّرهم الله في أعينهم حتى صاروا مغلوبين». مفاتيح الغيب للرازي 205/7-207.

[3] راجع: معاني القرآن للفراء 195/1، والحجّة لابن زنجلة ص154.

[4] هي قراءة عامة العشرة.

[5] قراءة الخفض نُسبت إلى الزهري ومجاهد والحسن وحميد. ينظر: الشواذ ص 19، شواذ القراءات للكرماني ق23/أ، إعراب القرآن للنحاس ص193، البحر المحيط 45/3.

﴿فِئَتَيْنِ﴾، تقديره: في فئةٍ تقاتل في سبيل الله وفي أخرى كافرةٍ،[١] كما قال الشاعر[٢]:

وكنتُ كَذِي رِجْلين رِجلٍ صحيحةٍ.. ورِجْـلٍ رماها الدهرُ بالحَدَثانِ[٣]

فأما الـتي صحّت فأَزْدُ شنـــوءةٍ ... وأما التي شلّــت فــأزدُ عمــانِ

وقد يُروى البيتُ الأولُ برفع «رجل صحيحة»، وكلاهما جائز. وبالله التوفيق.

قوله ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

بيّن الله تعالى بهذه الآية أنّ ما بُسِطَ للمشركين من زهرة الدنيا وزينتها، هو الذي يمنعهم من تصديق النبيﷺ فيما يدعوهم إليه.

والمعنى – والله تعالى أعلم – : حُسِّنَ للناس حب اللذات. ولَم يُرِدْ بالشهوات نفس الشهوة فإن الشهوة تَوَقان النفس وميل الطبع، فكأن المعنى حُبُّ الـــمُشتَهَيات، وقد فسّره الله ﷻ بقوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾.

فأما ﴿القَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ﴾، فقد اختلف أهل التفسير في معناها، فمِن قائلٍ: إن القنطار مِلْءُ مَسْكِ ثورٍ[٤] ذهبًا أو فضة؛ وآخر: إنه ثمانية آلافِ مثقالٍ من

---

[١] وقال الطبري 244/5 بعد أن ذكر جواز الخفض على سبيل البدل: «وهذا، وإن كان جائزا في العربية، فلا أستجيز القراءة به، لإجماع الحجّة من القَرَأَة على خلافه».

[٢] نسب الطبري 243/5 البيتين لابن مفرِّغ؛ والصواب أنهما لقَيس بنِ عمروٍ النجاشي كما في الوحشيات رقم:183، والصحاح للجوهري مادة «أزد»، وخزانة الأدب 386/2.

[٣] لفظ هذا الشطر في المصادر المذكورة: «ورِجْلٌ بِهَا رَيْبٌ مِنَ الحَدَثَانِ».

[٤] **الْمَسْك** (بفتح الميم وسكون السين): هو مسلاخ الجلد الذي يكون فيه الثور وغيره. راجع: لسان العرب 486/10 مادة «م س ك».

ذهب وفضّةٍ، ويُقال ألفٌ ومائتا مثقال[١]؛ / وعن الحسن البصري أنه قال: «مِثلُ دِيَّةِ أَحَدِكم»[٢]؛ وجملته أنه كثيرٌ من المال[٣].

وأما ﴿ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾، قال بعضهم: القناطير ثلاثة والمقنطرة المضعَّفة، وقيل: القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة[٤]. وقيل: المقنطرة هي الـــمُكَمَّلَة كما يقال: (ألف مُؤَلَّفَة)، و(بَدْرَةٌ[٥] مُبَدَّرة)[٦].

وقال الضحاك: هي الأموال المنضَّدَة بعضُها فوق بعض[٧].

والقنطرة في اللغة: عقد الشيء وإحكامه ومن ذلك تُسمّى الجسورُ القناطر[٨].

وأما ﴿ٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾، فهي الرواتع الحسَنَات. والتسويم في اللغة على

---

[١] **الأول** قول أبي سعيد الخدري، وأبي نضرة العبدي، والكلبي؛ **والثاني** قول السدي، ونُسِب إلى لغة أهل إفريقية؛ **والثالث** رواه العوفي عن ابن عباس، وهو قول الضحاك، ورواية عن الحسن، ونسب إلى السريانية. وفي المسألة أقوال أخرى لَم يذكرها المؤلف. ينظر: تفسير عبدالرزاق 397/1، غريب القرآن لابن قتيبة ص102، الطبري 254/5-260، ابن المنذر 257/1-259، ابن أبي حاتم 608/2-609، زاد المسير 359/1، القرطبي 46/5-48.

[٢] أخرجه الطبري 257/5، وابن المنذر 258/1 بلفظ: «القنطار ألف دينار، وهي دية أحدكم».

[٣] رجّح أبو عبيدة في مجاز القرآن 88/1، والطبري 260/5، والزجاج في معاني القرآن 383/1، والراغب في المفردات مادة «ق ط ر»، أنه المال الكثير، ولا يُحدّ قدرُ وزنه.

[٤] هذا إنما هو تفسير للقول السابق، لأن أقل القناطير ثلاثة، وأقل أضعاف الثلاثة: تسعة. وهو قول الفراء، وابن كيسان، والطبري. يُنظر: معاني القرآن للفراء 195/1؛ الطبري 260/5؛ نزهة القلوب ص365؛ إعراب القرآن للنحاس ص193؛ المحرر الوجيز 33/3.

[٥] **البَدْرَة**: كِيسٌ فيه أَلْفٌ أَو عشرةُ آلافِ درهمٍ أَو سَبعةُ آلاف دينارٍ، وإنما سُمّيت ذلك لأنها تُصنع من بَدْرَةِ السخلة، أي من جلدها. ينظر: القاموس، واللسان «ب د ر».

[٦] هو قول ابن قتيبة في تفسير الغريب ص102، والسجستاني في نزهة القلوب ص365.

[٧] لَم أجده بهذا اللفظ، وقد أخرج عنه الطبري 260/5 أنه قال: «﴿وَٱلۡقَنَـٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾ يعني المال الكثير من الذهب والفضّة». واللفظ الذي ذكره المؤلف، نسبه الثعلبي في الكشف والبيان 24/3 إلى قتادة.

[٨] راجع: معاني القرآن للزجاج 383/1، وللنحاس 367/1.

وجهين: إما من (السَّوم) وهو الرعْي، يقال: (أَسَمْتُ الماشية وسَوَّمْتُ)، إذا رعيتَ، كما يقال: (أَكْنَزْتُ وكَنَّزتُ)[١]، و(أذكرتُ وذكَّرتُ)؛ وإما مِن (السيما)، وهي العلامة من الأوضاح[٢] والغُرَر التي تكون في الخيل[٣].

وأما ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، فهي جمع النَعَم، واسم النعم أكثر ما يُستعمل في الإبل خاصّة، وقد يقع على سائر المواشي من البقر والغنم؛ ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ الزرع.

وقيل في الحكمة في تقديم ذكر النساء في الآية: إن فِتنَتَهُنَّ عامّة، تحمِل الرجلَ على قطع أرحام الآباء والأمهات، وجَمْعِ المال من الحلال والحرام، قالﷺ: « **مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ** »[٤].

ثمّ ذكر فتنة البنين لأن حبَّهم يحمل الرجل على جمع المال دون قطْع الرحِم، ثمّ ذكر فتنة الذهب والفضة لأنها عامّة في الملوك والتجار وأصحاب الغنى، ثمّ ذكر فتنة الخيل لأنها خاصّة في الملوك وأصحاب السلطان، ثمّ ذكر فتنة أهل البوادي وهي الأنعام، ثمّ ذكر فتنة أهل القُرى وهي الحرث، ثمّ زَهّدَ في ذلك كله حثًّا على الصدقة وتحريضا على سبيل الخير، فقال جلّ ذكره: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي هذا الذي ذكرتُ - مع عِظَم الإحسان فيه إلى الخلق - متاعٌ، أي شيء يُستمتع به في الدنيا، ثم يزول ويَفنى.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي حُسْنُ المرجِع والـمُنقلب للمؤمنين، وهو الجنة الباقية. ثمّ أَعلم الله ﷻ أن ما أعدّ للمؤمنين في الآخرة خير من بقية

---

(١) في (ب): «أكثرتُ وكثَّرت».

(٢) جمعُ (الوَضَح) بالتحريك، وهو البياض والغُرة والتحجيل؛ راجع: القاموس «و ض ح».

(٣) بكلا الوجهين قد فُسّرت الآية، فبالأول فسّرها سعيد بن جبير، والربيع بن أنس وغيرهما، وبالثاني فسّرها ابن عباس ﵄، وقتادة وغيرهما. يُنظر: الطبري 5/261-266، وابن أبي حاتم 2/610-611. وقد جمع المؤلف ﵀ بين قولَي السلف – حيثُ لا تعارض بينهما – بقوله: «الرواتع الحسنات» أي الراعية الحِسان.

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (النكاح/ باب ما يُتّقى من شؤم المرأة/ ح5096)، ومسلم (الرقاق/ ح2740) من حديث أسامة بن زيد ﵁ .

الدنيا، فقال ﷻ:

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

معناه – والله أعلم – قُل يا محمّد ﷺ: أخبركم بخيرٍ من الذي زُيِّن للناس في الدنيا، ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشركَ والكبائر والفواحش، فلا يشتغلون بالزينة عن طاعة الله تعالى، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ بساتين ﴿تَجْرِي مِن﴾ تحت شجرها ومساكنها أنهار الماء والعسل والخمر واللبن، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين دائمين، أي ليست تلك المياه كمياه الدنيا تجري أح يانا وتنقطع أحيانا، بل تكون جارية أبدا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي ولهم نساء مهذّبة في الـــخَلق والـــخُلُق، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي لهم مع ذلك رضا الله تعالى وهو من أعظم النعم، قال الله في موضع آخر: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عالِم بأعمالهم وثوابهم.

واختلفوا في منتهى الاستفهام في قوله: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم﴾، قال بعضهم [2]: منتهى الاستفهام عند قوله ﷻ: ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾، وقوله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾ استئناف كلام. وقال بعضهم: منتهى الاستفهام عند قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقولُه تعالى: ﴿جَنَّاتٌ﴾ استئنافُ كلامٍ على تقدير الجواب كأنه قيل: ما ذاك الخير؟ فقيل: هو جنّات. وهذا كقوله ﷻ: ﴿قُلْ

---

[1] جزء من الآية (72) من سورة التوبة.

[2] كأبي حاتم السجستاني؛ نقله عنه النحاس واستحسنه في «القطع والائتناف» 129/1.

﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [١].

ويُقرأ: ﴿ ورُضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ بضم الراء[٢]، وهو لغةُ قيس وتميم[٣]، فأما الكسر فهو لغة عامة العرب.

ويجوز في العربية: « جنّاتٍ » بالخفض بدلا من « الخير »[٤].

قولـــه ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

معناه: للمتقين[٥] الذين يقولون: يا ربَّنا إنّنا صدقنا بالله تعالى وبالرسول ﷺ فاغفر لنا خطايانا وادفع عنا عذاب النار. وموضع ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ على هذا التقدير خفض، ويجوز أن يكون موضعه رفعًا على معنى: هم الذين يقولون ربّنا.

فإن قيل: ما معنى سؤال هؤلاء المغفرة من الله تعالى، مع أن الله ﷻ قد

---

(١) جزء من الآية (72) من سورة الحج.

(٢) وهي قراءة أبي بكر عن عاصم. وقرأ الباقون بكسر الراء. يُنظر: المبسوط ص 141؛ الروضة 583/2؛ النشر 238/2.

(٣) وزاد عليهما أبو حيان في البحر المحيط 54/3: «بكر»، و«غيلان».

(٤) قوله: «يجوز في العربية» يُفهم منه أنه لا يجوز ذلك في القراءة لكونها سنة متّبعة، وهو كذلك، إلا أن هناك رواية شاذّة عن يعقوب أنه قرأ بالخفض، ذكرها ابن خالويه في الشواذ ص19. وساقها النحاس في إعراب القرآن ص194 بلفظ: «قال أبوحاتم: ويجوز (جناتٍ) بالخفض على البدل من (خير)، سمعتُ يعقوب يذكر ذلك». وهذا ليس صريحا أن يعقوب كان يرى جواز القراءة بالكسر، بل لعله– والله أعلم – قَصَدَ الجواز اللغوي.
وهذا الجواز إنما يكون إذا جُعل ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ متعلقا بما قبله، وكان منتهى الاستفهام عند قوله: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، وأما إذا جُعل منتهى الاستفهام عند قوله ﴿ بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾، تعلَّق حينئذ ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ بما بعده، ووجب رفع ﴿ جَنَّٰتٌ ﴾ على الابتداء . راجع: معاني القرآن للفراء 195/1-198، وللزجاج 384/1، ، والبحر المحيط 55/3.

(٥) قوله « للمتقين » إشارة إلى قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ في الآية السابقة. أي الجنات للمتقين الذين يقولون: ربنا ... الخ.

أخبر عنهم بأنهم اتَّقَوا ما حرّم الله تعالى عليهم، ومن يكون هذه حاله لا يقع منه الذنب، وإن وقع كان صغيرةً، والصغائر تقع مغفورةً ؟ قيل: عنه جوابان؛ **أحدهما**: أن التوبة عن الصغائر واجبة، وإن كانت تقع مغفورة، كما أخبر الله عز وجل عن إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [١] وإن كانت خطيئته وقعت مغفورة، فثبت أن التوبة عن الصغائر / واجبةٌ لما فيها من إظهار الرغبة في المغفرة.

والثاني: أن هذا تعبّد على وجه الاستكانة والخضوع في مسألةِ ما يُعلم من حاله أن الله تعالى يفعله. وهذا كما أخبر الله تعالى عن الملائكة بقوله عز وجل: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ ﴾[٢]، وإن كان الله تعالى يغفر لا محالة للذين تابوا واتبعوا سبيله.

قوله عز وجل: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ۝١٧ ﴾

في محل الخفض بدلا من ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾[٣].

ويجوز أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ مع ما بعده بدلا من العباد[٤].

---

[١] الآية (82) من سورة الشعراء.

[٢] جزء من الآية (7) من سورة غافر.

[٣] وهو نفسه نعت أو بدل من ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ [15].

[٤] أي المذكور في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [15]. قال العكبري في التبيان ص180: « ويضعف أن يكون صفةً للعباد، لأن فيه تخصيصا لعلم الله، وهو جائز على ضعفه، ويكون الوجه فيه إعلامَهم بأنه عالِم بمقدار مشقّتهم في العبادة فهو يجازيهم عليها، كما قال: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡ ﴾ [النساء/25] ».

وذهب بعضهم إلى أن الصابرين نَصبٌ بالمدح[1].

ومعنى هذه الآية: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ على طاعة الله والشدائد والمصائب ، ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم، فإن الصدق قد يقع في الفعل كما يقع في القول، يقال: (صدق فلان القتالَ وصدق في الحملة)، أي حقّق، ويقال في ضده: (كذب فلان في القتال والحملة)[2].

ومعنى ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ﴾: القائمين بعبادة الله ﷻ، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، قال قتادة: أراد به الـــمصلين بالأسحار[3].

وقال أنس بن مالك: أراد به السائلين للمغفرة بالأسحار[4].

وهو نحو قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[5].

وقال الحسن: انتهت صلاتهم إلى وقت السحر، ثم كان بعدها

---

(١) راجع: مشكل إعراب القرآن لـــمكّي ص152، والبيان لابن الأنباري 194/1.

(٢) أي إذا جبُن عنه. يُنظر: الفائق 252/3-253، النهاية في غريب الحديث 159/4-160.

(٣) أخرجه الطبري 274/5، وابن المنذر 145/1.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التهجد ص358، والطبراني في الأوسط 183/9، من طريق الحسن بن أبي جعفر، عن محمد بن جحادة، عن مرزوق مولى أنس، عن أنس: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، قال: «كنا نؤمر بالسحر بالاستغفار سبعين مرة». فيه الحسن بن أبي جعفر البصري، وهو ضعيف (تهذيب التهذيب386/1). وأخرج الطبري 275/5 عن ابن وكيع، عن أبيه، عن بعض البصريين، عن أنس ﷺ بنحوه، فالإسناد فيه جهالة وانقطاع.وعزاه ابن كثير 34/3 إلى ابن مردويه عن أنس ﷺ بنحوه.

(٥) الآيتان (17-18) من سورة الذاريات.

الاستغفار[1].

وعن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سمعت صوتًا في ناحية المسجد سَحَرًا يقول: «إلهي! دعوتَني فأجبتُك وأمرتَني فأطعتُك، وهذا سَحَرٌ فَاغفِرْ لي»، فنظرتُ فإذا هو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه[2].

والسَّحَر هو الوقت الذي قبل طلوع الفجر، تقول العرب: جئتك بأعلى السحر، تريد به في أول السحر، وهو أول إدبار الليل إلى طلوع الفجر الصادق[3].

والصلاة والاستغفار في ذلك الوقت أفضل لهجران صاحبه لذّةَ المضجع والوَسَن[4]، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[5]. وقد مدح الله تعالى أهل هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾[6] إلى آخر الآية.

---

(1) أخرجه ابن المبارك في الزهد (298)، وابن أبي شيبة في المصنف 140/3 (6353)، وابن أبي الدنيا في التهجد (299)، والطبري 505/21، بطرق عنه.

(2) أخرجه ابن جرير الطبري 274/5 من طريق حُرَيث بن أبي مطر، عن إبراهيم بن حاطب، بنحوه. وحُرَيث ضعيف (تهذيب التهذيب 374/1)؛ وإبراهيم وأبوه لَم أهتد إلى معرفتهما. ورُوي نحوه عن ابن مسعود في سنن سعيد بن منصور (التفسير) 410/5، والطبري 347/13 وغيرهما، من طريق عبد الرحمن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن عمه. وعبد الرحمن ضعيف (تهذيب التهذيب 486/2)، وعم محارب لَم أهتد إلى معرفته.

(3) معاني القرآن للزجاج 385/1.

(4) الوَسَن: شدّة النوم، أو أوله، أو النعاس. راجع: القاموس المحيط ص1598.

(5) الآية (6) من سورة المزمّل.

(6) مطلع الآية (16) من سورة السجدة.

قولــه ﷻ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

قال محمد بن السائب الكلبي: لَمّا ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حَبران من أحبار الشام، فقال أحدهما لصاحبه حين نظرا إلى المدينة: ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان؛ فلما دخلا على النبي ﷺ قالا له: أنت محمد ﷺ؟ قال: «**نعم**»، قالا: أنت أحمد ؟ قال ﷺ: «**نعم**»، قالا: فإنا نسألك عن شهادةٍ، إنْ أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك، قال ﷺ: «**سلاني**»، قالا: أخبِرْنا عن أعظم شهادة في كتاب الله، فأنزل الله تعالى على نبيّه ﷺ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى آخر الآية، فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله ﷺ[١].

وأما معنى الآية، قال[٢] أبو عبيدة رحمه الله: معنى ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ قضى الله تعالى[٣].

ويقال: أخبر الله تعالى. وحقيقية الشهادة أداء العالِم ما عنده من العلم، أي عَلِمَ الله وبيّن[٤].

ويقال معناه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ تعالى بما خلق من الخلائق ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي خَلَقَ من الخلْق ما شَهِدت خِلْقَةُ كلِّ أحدٍ على وحدانيته لمن تدبّر ذلك[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي شهدت الملائكة بهذه الشهادة لِمَا عاينت

---

[١] **[موضوع]** راجع: بحر العلوم للمسرقندي 200/1، والكشف والبيان للثعلبي 32/3، وأسباب النزول للواحدي ص219. والكلبي كذاب لا يعوّل عليه.

[٢] كذا في الأصل، والأولى – أو المتعيّن – أن يقال: «فقال» لأنه واقع في جواب: «أما». وسيتكرّر نحو هذا في التفسير كثيرا، فلـيُتنبَّه.

[٣] مجاز القرآن 89/1.

[٤] معاني القرآن للزجاج 385/1.

[٥] به قال ابن كيسان، ولفظه: «شهد الله بتدبيره العجيب، وأموره المحكمات عند خلْقه، أنه لا إله إلا هو». زاد المسير 362/1. وراجع: معاني القرآن للزجاج 385/1.

عِظَم قدرته. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ يشهدون بما شهد الله تعالى به وملائكته بما تبيّن لهم من دلائل وحدانيته وتوحيده.

وفي هذا بيان فضل أهل العلم. ويُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «من شهد للهِ تعالى بالتوحيد فهو من أولي العلم»[١].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، يقال: فلان قائم بالتدبير، أي تجري أفعاله على الاستقامة[٢].

ونصب ﴿قَآئِمَۢا﴾ على الحال من قوله تعالى: ﴿شَهِدَ﴾[٣]. وقيل: مِن قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويجوز وقوع الحال المؤكدة على الاسم في غير الإشارة، تقول: (إنّه زيد معروفًا)، و(هو الحق مُصَدَّقًا)[٤].

فإن قيل : إن الحال وصفُ هيئة الفاعل، وذلك فيما يقبل التغيير، فهل يجوز من الله تعالى أن يزول عنه قيامه بالقسط ؟ قيل: هذا على مذهب الكوفيين لا يلزم، لأنهم يسمّونه على لفظ القطع، يعنون بالقطع: قطعَ المعرفة إلى لفظ النكرة[٥]، فأما عند البصريين فالحال حالان: حال يأتي بعد الفعل

---

(١) لَم أقف عليه. لكن رُوي نحوه من قول سفيان بن عيينة، وأبي طالب يحيى بن يعقوب القاصّ (من أتباع التابعين)، عند ابن أبي حاتم 2/616-617 (3306، و3309).

(٢) راجع: البسيط ق 12/أ.

(٣) أي مِن لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾.

(٤) وهذه الحال التي تجيء إثرَ جملة اسمية معقودة من اسمين لا عمل لهما، إنما تكون لتوكيد مضمون الجملة وتقرير مؤدّاها. ففي «إنه زيد معروفا» يتحقق بالمعروف أن الرجل زيد ، وفي «هو الحق مصَدَّقا» يتأكد بالتصديق كونُه حقًّا. و هكذا في الآية، يتأكد بكونه تعالى قائما على تدبير أمور الخليقة بالقسط، أنه هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.
راجع: المفصل في علم العربية للزمخشري ص81.

(٥) أي أن الأصل: شهد اللهُ القائمُ بالقسط، بالرفع نعتا لله تعالى، فلمّا نُكِّر امتنع إتباعه، فقُطِع إلى النصب. يُنظر: معاني القرآن للفراء 1/200، الطبري 5/278، الدر المصون 3/80.

يجوز عليه التغيير، وحال يأتي بعد الاسم لا يجوز عليه التغيير [١]، وهذا مِن ذلك، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [٢].

وأما تكرار ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ / في الآية فلتأكُّد الكلام في الرد على النصارى - نصارى نجران - أن المستحقَّ للعبادة مَن كان على هذه الصفة لا المسيحُ ومن جانَسَه.

ومعنى ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: الغالب المنيع، ذو الحكمة في أمره وسُلطانه.

قولــه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

معناه: أن الدينَ المرضيَّ عند الله تعالى الإسلامُ. يقال: معناه أن الطاعة عند الله الإسلام.

والدين في اللغة: الجزاء، فسمّيت الطاعة دينا لأنها تُفعل للجزاء[٣].

وأما الإسلام فهو العمل بطاعة الله تعالى فيما أمر به ودَعَا إليه، أصله من (السِلْم) وهو الانقياد على السلامة، يُقال: (أَسْلَمَ)، إذا دخل في السِلْم كما يُقال: (أَتْهَم) إذا دخل في تهامة، و(أرْبَعَ) إذا دخل في الربيع[٤].

---

[١] لا يلزم في الحال اللازمة التي لا تتعرّض للتغيير أن تكون بعد الاسم، بل قد تكون بعد جملة فعلية نحو قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء/٢٨]، وكالمثالِ المشهور عند النحاة: «خَلَقَ الله الزرافةَ يدَيها أطولَ من رِجلَيها» يُنظر: شرح التسهيل لابن مالك 2/322-323، أوضح المسالك 2/260-261، مغني اللبيب 2/356.

[٢] جزء من الآية (72) من سورة هود.

[٣] قاله الواحدي في البسيط ق12/ب.

[٤] راجع: البسيط للواحدي ق13/أ.

ومن قرأ: ﴿أَنَّ ٱلدِّينَ﴾ بالنصب[1]، فمعناه: شهد الله أنه لا إله إلا هو، وشهد أن الدين عند الله الإسلام[2]. ويجوز في العربية: إنه لا إله إلا هو بالكسر على معنى أن الشهادة في معنى القول، وما بعد القول مقصور على الحكاية[3].

وعن سعيد بن جبير أنه قال: «كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، لكل حيّ من أحياء العرب صنم أو صنمان، فلمّا نزلت هذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، أصبحت تلك الأصنام كلّها وقد خرّت سُجّدا»[4].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه مَن قال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وقال: «أستودعُ الله هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعةٌ» = يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل: «**عبدي عَهِدَ إليَّ، وأنا أحقُّ من وفَى بالعهد، أَدخِلُوا عبدي الجنّة**»[5].

---

(١) أي بفتح همزة ﴿أَنَّ﴾، وهي قراءة الكسائي وحده. راجع: المبسوط ص141، والروضة 583/2، والنشر 238/2.

(٢) أي ﴿أَنَّ ٱلدِّينَ﴾ معطوف على ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لكن بحذف حرف العطف. راجع الطبري 276/5، معاني القرآن للزجاج 386/1. وللقراءة توجيه آخر مشهور، وهو أن ﴿أَنَّ ٱلدِّينَ﴾ بدلٌ من ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدلَ الشيء من الشيء. ينظر معاني القرآن للنحاس 370/1، الحجة للفارسي 349/2، الكشف 338/1.

(٣) مقصود المؤلف أنه يجوز لغةً في الآية السابقة ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كسر همزة ﴿إِنَّهُۥ﴾، وذلك إجراء للشهادة مُجرى القول. وقد قرئ به في قراءة شاذة منسوبة إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما كما في معاني القرآن للفراء 200/1، وللزجاج 386/1، والشواذ ص19.

(٤) أخرجه ابن المنذر 146/1-147.

(٥) **[ضعيف جدًا]** أخرجه العقيلي في الضعفاء 404/4-405، والطبراني في الكبير 199/10، وابن عدي في الكامل 35/5، والبيهقي في شعب الإيمان 69/4، وابن الجوزي في العلل المتناهية 102/1-103، بإسناد واهٍ؛ فيه عمر بن المختار، قال عنه ابن عدي: «يحدِّثُ بالبواطيل»، وقال البيهقي عنه وعن ابنه الراوي عنه: «ضعيفان، وهذا لم يَأت به غيرُهما».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي لَم تترك اليهود والنصارى الإسلام ولَم يتسموا باليهودية والنصرانية إلا من بعد ما جاءهم العلم في كتابهم، حسدًا بينهم. رُوي أن اليهود كانوا يُسمَّون مسلمين فلمّا بُعث عيسى عليه السلام وسمّى أصحابَه مسلمين، حسدت اليهودُ مشاركتَهم في الاسم فسَمَّوا أنفسهم يهودًا فكانوا يُسمَّون مسلمين ويُسمَّون يهوداً، فغيّرت النصارى اسمهم وسمَّوا أنفسهم نصارى[١].

وقيل: معنى البغي هو طلب الاستعلاء بغير حق[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي يجحد بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، فإن الله سريع المجازاة كما قال جلّ ذكره: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾[٣]، ويقال: معنى ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: سريع التعريف للعامل عَمَلَه، لا يحتاج في حفظه إلى إثبات وتذكرة[٤].

قوله عز وجل: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ[٥] وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾

قال الكلبي: معناه فإنْ خاصموك في الحجّة، قالوا: إنما اليهودية والنصرانية

---

(١) ذكر السمرقندي نحوه في بحر العلوم 201/1.

(٢) بنحوه قال الواحدي في البسيط 14/أ.

(٣) جزء من الآية (77) من سورة النحل.

(٤) هذا مختصر من كلام الزجاج، ولفظه: «﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ سريع التعريف للعامل عملَه لأنه – جلّ ثناؤه – عالِم بجميع ما عملوا، لا يحتاج إلى إثبات شيء وتذاكر شيء». معاني القرآن 387/1.

(٥) رُسم في الأصل بإثبات الياء، وهو تصحيف من الناسخ إذ المصاحف متفقة على حذفها في الرسم، على خلاف بين القراء في إثباتها في القراءة، وصلا ووقفا. يُنظر كتاب المصاحف ص462، المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص38، مختصر التبيين لهجاء التتريل 335/2.

لقبٌ وديننا الإسلام، فقل: أخلصتُ طاعتي وعملي لله تعالى[١].

ويقال: معناه أخلصت قصدي بالعبادة لله تعالى؛ يقول الرجل لآخر: (وجهي إليك) أي قصدي إليك، ويقال: (مَرَّ فلان على وجهه)، أي على قصده[٢].

ويقال: معناه سلّمت نفسي لله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ ﴾[٣]، معناه: إلا هو، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ﴾[٤]، معناه: الذات[٥].

وقال الزجاج: معنى الآية فإن طالبوك بالحجّة فاحتجَّ عليهم باتِّباعك أمرَ الله تعالى الذي هم أجمعون مقرّون بأنه خالقهم، فدعاهم إلى ما قد أقرّوا به وأراهم الدلالات والآيات بأنه رسول الله ﷺ[٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أي [وكذلك من اتبعني][٧]. والأصل في هذا إثبات الياء في آخره، لكن حُذفت الياء للتخفيف واستُبقيَت كسرة النون

---

(١) نقله الواحدي في البسيط ق113/ب مختصرا، والحافظ في العجاب 670/2 بأتم منه.

(٢) على هذا يكون «الوجه» بمعنى: الجهة، وهاء التأنيث عِوض عن الواو، كما يقال: الوصف والصفة، والوعد والعِدَة، والوسم والسمة. ينظر: لسان العرب وتاج العروس «وج ه».

(٣) جزء من الآية (88) من سورة القصص.

(٤) جزء من الآية (27) من سورة الرحمن.

(٥) هذا التنظير بآيتي القصص والرحمن في غير محلّه؛ إذ هذه الآية فيها ذكرُ وجه النبي ﷺ، وتانك فيهما ذكر وجه الله ﷻ. ثــمّ إن تفسير الوجه بالذات في آيات الصفات من تأويلات الجهمية وأفراخهم من المعتزلة، والماتريدية، ومتأخري الأشاعرة. يُنظر: مقالات الإسلاميين ص167، و189؛ متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار المعتزلي 637/2-638؛ الكشاف 441/3 و445/4؛ مدارك التنزيل للنسفي 249/3 و209/4؛ أساس التقديس للرازي ص156.
وأما أهل السنة فقد استدلوا بالآيتين على إثبات صفة الوجه لله تعالى. يُنظر: نقض الدارمي على المريسي 703/2-710؛ كتاب التوحيد لابن خزيمة 29/1-32؛ الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص37؛ الإبانة الكبرى لابن بطة 269/3/3؛ الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصبهاني 432/2؛ الاقتصاد في الاعتقاد لعبد الغني المقدسي ص96.

(٦) معاني القرآن 388/1 باختلاف يسير.

(٧) في الأصل: «كذلك ومن اتبعني»، ولعل الصواب ما أثبتّ.

دليلا على الياء[١].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارى، ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ مشركي العرب، أ أخلصتم كما أخلصتُ ؟ فإن أخلصوا ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ من الضلالة، ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإسلام، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزير ابن الله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ بالرسالة عن الله تعالى، وليس عليك أن لا يتولوا، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ عالِم بمن يؤمن ومن لا يؤمن، لا يفوته شيء من أعمالهم التي يجازيهم بها.

فإن قيل: في الآية عطف ﴿مَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ وهو ظاهر، على المضمر في قوله ﷻ: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، والعرب لا تعطف الظاهر على المضمر [٢]، قيل: إنما لا يُعطف إذا لَم يكن بين الكلامين فاصل، فأما إذا دخل بينهما فاصل، جاز عطف الـــمُظهر[٣] على المضمر، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول: (أسلمتُ وزيدٌ)، ولو قلت: (أسلمتُ بانشراح الصدر وطيب النفس ومن جاء معي) كان جائزا / في الكلام[٤].

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بإثبات الياء وصلا، وقرأ الباقون بحذفها وصلاً ووقفًا إلا يعقوب فإنه أثبتها في الحالين. يُنظر: النشر 247/2، وإتحاف فضلاء البشر ص221.

(٢) أي المضمر المرفوع إذا كان متصلا أو مستترا . وأما الضميرُ المرفوع المنفصل، فيجوز العطف عليه بلا خلاف نحو قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص/٣٥]. فقول المؤلف: « المضمر» من إطلاق العام وإرادة الخاص.

(٣) في الهامش إشارة إلى أنه في نسخة: « الظاهر».

(٤) إطلاق المؤلف لعدم جواز العطف على ضمير الرفع المتصل أو المستتر إلا بفاصل، فيه نظر. نعم، الغالب في كلام العرب الإتيان بالفاصل، لكنه قد ورد في بعض كلامهم الفصيح العطفُ بغير فاصل، كما في قول النبي ﷺ الذي أخرجه البخاري (المناقب/ باب قول النبي ﷺ: لو كنتُ متخذًا خليلا/ح3766): «كُنْتُ وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ، ...وَفَعَلْتُ وَأَبُوبُكْرٍ وَعُمَرُ، ...وَانْطَلَقْتُ وَأَبُوبَكْرٍ وَعُمَرُ». راجع: شرح التسهيل لابن مالك: 3/372-374، و«شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» له ص112-115.

وأما الاستفهام في قوله ﷻ: ﴿ ءَأَسۡلَمۡتُمۡ ﴾، يتضمن التهديدَ والأمرَ بالقبول كما يقول الرجل لآخر بعد ما يأمره بالأمر : (أقبِلتَ؟ وإلا فأنت أعلم!) يكون ذلك سؤالا بالوعيد يتضمّن الأمرَ بالقبول.

قال الكلبي: فلما نزلت هذه الآية ذكر ذلك لهم النبي ﷺ، فقالوا: أسلمنا، فقال لليهود: « **أتشهدون أن عيسى ابنَ مريم كلمةٌ من الله تعالى وروحٌ منه ؟** » قالوا: معاذ الله! وقال للنصارى: « **أتشهدون أن عيسى عبدُ الله ورسوله ؟** » قالوا: معاذ الله! ولكنه ابن الله. قال الكلبي: فذلك حين تولّوا عن الإسلام وانتحلوا غيرَه فأنزل الله ﷻ [...][1].

قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ ﴾

معناه: إن الذين يجحدون أعلام الله تعالى التي بيّنها لهم.

أما قوله ﷻ: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ففي إضافة قتلِ الأنبياء – صلوات الله عليهم – إلى هؤلاء الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ قولان، **أحدهما:** رضاهم بقتل من سَلَفَ منهم النبيين نحو قتلهم زكريا ويحي عليهما السلام. **الثاني:** أن هؤلاء قاتلوا النبي ﷺ وهمّوا بقتله كما قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ

---

(1) والظاهر أنَّ ثمّ سَقَطا لأنه لَم يُذكر الــمُنــزَل، إلا إذا جُعل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ...» الآتي متعلقا بما قبله. لكن يُبعده أن الذي أُنزل حينما تولّى أهل الكتاب، هو تتمة الآية نفسها ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ كما في الكشف والبيان 36/3، ومعالِم التنزيل 20/2، والعجاب 670/2. والله أعلم.

بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ الآية[1].

وقرأ بعضهم: ﴿ يُقَٰتِلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾[2].

رُوي عن أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ أيُّ الناس أشدُّ عذابًا يوم القيامة؟ قال ﷺ: « **رجل قتل نبيًّا** ﷺ **أو قتل رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر** » ثمّ قرأ هذه الآية، ثم قال: « **يا أبا عُبَيدة، قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيًّا من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائةُ رجلٍ واثنا عشرَ رجلا من عُبَّاد بني إسرائيل فأَمَرُوا بالمعروف ونَهَوا عن المنكر فَقُتِلُوا جميعًا في آخر النَّهارِ من ذلك اليوم** »[3].

وأما قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، فمعناه: أخبِرْهم بعذابٍ

---

(١) الآية (30) من سورة الأنفال. قلتُ: ليست هذه الآية في اليهود كما يوهمه كلام المؤلف، بل هي في كفّار مكة الذين تآمروا على قتل النبي ﷺ.

(٢) هذا وهم من المؤلف، لأن الاختلاف في القراءة ليس في هذا الموضع، بل إنما هو في الموضع الثاني: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ فقرأ حمزة وحده: ﴿وَيُقَٰتِلُونَ﴾ بضم الياء، وألف بعد القاف، وكسر التاء. وأما الموضع الأول، فقد اتفق القَرَأَةُ على أنه ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بفتح الياء، وسكون القاف، وضم التاء. يُنظر: السبعة ص203، المبسوط ص141، التذكرة 349/2، النشر 238/2، البدور الزاهرة ص61.

والظاهر أن المؤلف في وهمه قد تَبِعَ المتبادرَ من كلام الزجاج في معانيه 390/1 حيث قال: «﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وقُرئت: ﴿وَيُقَٰتِلُونَ﴾...». وهو المتبادر- أيضا- من كلام السمرقندي في بحر العلوم 202/1.

(٣) **[ضعيف]** أخرجه البزار 109/4 (1285)، والطبري 291/5، وابن أبي حاتم 620/2-621، البغوي 20/2-21، كلهم من طريق محمد بن حِمْيَر، عن أبي الحسن مولى بني أسد، عن مكحول، عن قَبِيصة بن ذؤيب، عن أبي عبيدة الجراح، مرفوعا. فيه أبو الحسن الأسدي، وهو مجهول (الجرح والتعديل 357/9، ولسان الميزان 47/9). ويُنظر: الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص 25، والعجاب 671/2، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني 812/11-814.

وجيعٍ، يخلص وَجَعُه إلى قلوبهم.

وأما دخول الفاء في قوله: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ - وإن كان حرفُ ﴿ إِنَّ ﴾ لا يُجاب بالفاء، لا يقال: (إن زيدًا فقائم) - فلأن ﴿ إِنَّ ﴾ في أول الآية موصول بـــ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾، و(الذي) يوصل فتكون صلته بمنزلة الشرط للجزاء فيجاب بالفاء[1].

فإن قيل: هل يُقتل نبي بحق حتى يكون هذا بغير حق؟ قيل: المقصود من هذه الآية أنهم قتلوا الأنبياء الذين صحّت نبوتهم عليهم السلام، فلم يكن القتل حقًّا، إذ النبي عليه السلام لا يُقتل بحق قط، فأما إذا كان كاذبا فهو متنبّئ وقتله حق[2].

وفي الآية دليل جواز إنكار المنكر مع خوف القتل[3].

روى أبو حنيفة رحمه الله عن عكرمة عن ابن عبّاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **أفضلُ الشُّهَدَاءِ حمزةُ بنُ عبدِالمطلب، ورجلٌ تكلَّمَ بكلمةِ حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ فَـــقَتَلَهُ** »[4].

---

[1] أي أن الموصول مع صلته أشبه الشرط من حيثُ عمومُه وإبهامُه وتوقُّفُ وجودِ خبره عليه، ولذا جاز دخول الفاء في خبره. ومثّل له سيبويه بقوله: (الذي يأتيني فله درهمان) ، وأنه يُشبه قولك: (إن يأتني فله درهمان) . راجع: الكتاب 102/3؛ معاني القرآن للزجاج 391/1؛ الدر المصون 93/3.

[2] قال العلماء: إن القيد المذكور «بِغَيْرِحَقٍّ» إنما هو لبيان الواقع بقصد التأكيد أن قتل النبيين لا يكون إلا بغير حق، ومن ثَمَّ فلا مفهوم مخالفةٍ له. راجع: البرهان في علوم القرآن 396/3، والإتقان 1492/4.

[3] راجع: أحكام القرآن للجصاص 12/2، وكذا وللكيا الهراسي 282/1.

[4] **[حسن إن شاء الله]** أخرجه الطبراني في الأوسط 238/4، وأبو نعيم في مسند أبي حنيفة ص187، من طريق سعيد بن ربيعة، عن الحسن بن رشيد، عن أبي حنيفة به. والحسن بن رشيد يروي ما لا يُتابع عليه (الجرح والتعديل 14/3، الضعفاء للعقيلي 589/1-591، ميزان الاعتدال 490/1). وسعيد بن ربيعة لَم أهتد إليه.

وله شاهد بنحوه من حديث جابر رضي الله عنه، أخرجه الحاكم في المستدرك 195/3، من طريق

قولـــه ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

أي أهل هذه الصفة بَطَلَتْ حسناهم فلا يستحقّون الحمد والثناء، وولاية المؤمنين عليها في الدنيا، ولا يستحقّون الثواب عليها في الآخرة، وما لهم من مانعين يمنعوهم من العذاب إذا نزل بهم.

قولـــه ﷻ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قال الكلبي: وذلك أنّ رجلا وامرأة من أشراف أهل خيبر من اليهود فجرا، وكان في كتابهم الرجم، فكرِهوا رجمهما لشرفهما، ورجوا أن يكون لهما عند رسول الله ﷺ رخصة في أمر الرجم فيأخذوا به، فرفعوا أمرهما إلى النبيﷺ فحكم عليهما بالرجم، وقال بعضهم: جُرْتَ علينا يا محمد ﷺ! فقال رسول اللهﷺ : «**بيني وبينكم التوراة، فمن أعرفُكُم بها ؟**» قالوا: ابن صوريا وهو يسكن فَدَك[1]، فأرسلوا إليه، فلما قدم، قال له رسول الله ﷺ: « **أنت ابن صوريا ؟** » قال: نعم، قال: « أنت أعلم اليهود ؟ » قال: كذلك يزعمون، فدعا رسول الله ﷺ بشيء من التوراة فيه آية الرجم دَلَّه على ذلك ابنُ سلام، فقال لابن صوريا: « **اقرأ** »، فقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع

حفيد الصفّار، عن إبراهيم الصائغ، عن عطاء، عنه مرفوعا؛ قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولَم يخرجاه» وتعقّبه الذهبي بقوله: «الصفار لا يُدرى من هو؟». لكنه توبع، تابعه حكيم بن زيد عند الطبراني في الأوسط 281/1 (وفيه عكرمة بدل عطاء)، والخطيب في تاريخ بغداد 557/6، و406/7، وفي موضح أوهام الجمع والتفريق 371/1. وحكيم هذا قال عنه أبو حاتم: «صالح، هو شيخ» (الجرح والتعديل 204/3-205). فالإسناد حسن إن شاء الله، وقد أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة 716/1.

[1] فَدَك: قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة. أفاءها الله على رسوله ﷺ عند ما صَالَحَه أهلُها على النصف من ثمارهم إثْرَ فتح خَيْبَرَ. معجم البلدان 238/4.

كفّه عليها، ثمّ قام ابن سلام، فقال: يا رسول الله ﷺ قد جاوزها ووضَعَ كفه عليها ! ثم قام ابن سلام إليه فرفع كفّه عنها وقرأ على رسول الله ﷺ : ﴿ وعلى اليهوديَّين المحصَن والمحصَنة إذا زنيا / وقامت عليهما البيّنة، فيُسأل عن البيّنة، فإن كانوا عدولا[١] رُجما، وإن كانت المرأة حُبلى تُرُبِّص بها حتى تضع ما في بطنها ﴾. فأمر رسول الله ﷺ برجم المحصَنَين الزانيين من اليهود، فرُجما، فغضبت اليهود لذلك غضبا شديدا ورجعوا كفّارا، فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٢].

معناه: أَلَم تعلم يا محمدﷺ بالذين أُعطوا حظًّا من علم التوراة. وقوله ﷻ: ﴿ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عباس والزجاج: هو التوراة[٣]، دُعي إليها اليهودُ فأبوا لعِلْمِهم بلزوم الحجّة، وأنّ فيه البشارة بالنبيﷺ.

وقال الحسن وقتادة: أراد به القرآن، فإنهم دُعُوا إلى القرآن لموافقته للتوراة في أصل الديانة[٤].

---

(١) أي الشهود الذين قامت بهم البيّنة.

(٢) هكذا رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في الكشف والبيان 38/3، ومعالِم التنزيل 22/2، وفي ثبوته نظر؛ لأن الآيات التي نزلت في قصة رجم اليهوديين هي الآيات (41-44) من سورة المائدة، كما ثبت في صحيح مسلم (الحدود/ باب رجم اليهود/ ح1700) وغيره، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما. وراجع: الطبري: 413/8-426، وأسباب النزول للواحدي ص343-346، وتفسير ابن كثير 218/5-227.

(٣) أما قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، فقد أخرجه الطبري 293/5 ضمن قصةٍ في سبب نزول الآية. وفيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، وهو مجهول كما في التقريب، رقم(6276). وأما الزجاج، فقال في معانيه 391/1: «أي يُدعون إلى كتاب الله الذي هم به مُقرّون ». وهو اختيار الطبري 295/5، وقول الأكثرين كما في زاد المسير 367/1.

(٤) قول قتادة، أخرجه الطبري 294/5، وابن المنذر 155/1، وابن أبي حاتم 623/2 بلفظ: «أولئك أعداء الله اليهود، دُعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، وإلى نبيه ليحكم بينهم، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ثم تولوا عنه وهم معرضون».
وأما قول الحسن، فلم أجده مُسندا عنه، وقد نسبه إليه الماوردي في النكت والعيون 382/1، وابن الجوزي في زاد المسير 367/1.

وأما قوله ﷻ: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قال بعضهم: معناه ليحكم بينهم في نبوة النبي ﷺ، ويقال: في أمر إبراهيم عليه السلام ودينِه[١]، ويقال: في حدّ الزنا لأنهم نازعوا في ذلك[٢].

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي يُعرِض جمعٌ كثير منهم عن الداعي، ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن العمل بالمدعو إليه.

وإنما قال: ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ بعد ذكر التولي لأن الإنسان قد يُعرض [٣] عن الداعي ويتأمل ما دعاه الداعي إليه فينظر أنه حق أو باطل، وهم لَم يتأملوا ولَم يتفكّروا فيما دُعوا إليه.

قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول: ذلك الإعراض والتكذيب ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعنون الأربعين يومًا، عددَ الأيام التي عبد آباؤهم فيها العجل [٤]، وقيل: عددَ أيام الدنيا، سبعةَ أيام[٥].

---

(١) روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ضمن قصةٍ في سبب نزول الآية، وقد سبق آنفًا.

(٢) وذلك فيما ذكره الكلبي. وراجع: زاد المسير 367/1.

(٣) كذا بالأصل، ومراد المؤلف إنما يستقيم إذا أُبدِل به: « قد يتولّى »، إذ مراده – والله أعلم- أن المدعو قد يتولّى عن الداعي ببَدنه لكنه يتأمل في كلامه بقلبه، لكن هؤلاء تولّوا حال كونهم معرضين عن كلامه وعن التأملِ فيه. وراجع: زاد المسير 367/1.

(٤) هو قول عكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدي، وأبي العالية، وابن زيد، وهو مروي عن ابن عباس بإسناد العوفيين. يُنظر: الطبري 171/2-174، وابن أبي حاتم 156/1 عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة/٨٠].

(٥) وذلك أن الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة، وهي تساوي سبعة أيام من أيام الآخرة. وهذا قول مجاهد، وهو مروي عن ابن عباس بسند فيه ضعف. يُنظر: الطبري 175/2-176، وابن أبي حاتم 155/1.

ومعنى ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم﴾: غرّهم افتراؤهم على الله تعالى أنه لا يُعذبهم إلا أيام معدودات. ويقال: غرّهم افتراؤهم أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [1][2].

قوله ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

معناه: كيف يحتالون؟ وكيف يصنعون؟ إذا جمعناهم بعد الموت لجزاءِ يومٍ لا شك فيه، وأعطيت كلُّ نفس جزاءَ ما عملت من خير أو شر، تامًّا وافيًا، وهم لا يُنقَصون من حسنة ولا يزادون على سيئة.

وحذْفُ بيان الكيف في مثل هذا مُستعمل في الكلام، يقول الرجل: (كنتُ أكرمك وأنت لَم تزرني، فكيف إذا زرتني ؟) يريد: فكيف يكون إكرامي لك إذا زرتني[3].

قولـــه ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لـــمّا فتح رسول الله ﷺ مكة، قال المنافقون: إن محمدا ﷺ يتمنّى أن يكون له ملك فارس والروم، وأنّى يكون له ذلك! هم أعزّ وأمنع من أن يدخل محمد ﷺ في أرضهم أو يغلبَ على بلادهم، فأنزل

---

(١) جزء من الآية (18) من سورة المائدة.

(٢) هذا قول قتادة والربيع بن أنس، والأول قول مجاهد. راجع: الطبري 297/5، وابن أبي حاتم 623/2.

(٣) معاني القرآن للزجاج 392/1.

الله تعالى هذه الآية [١].

ويُقال في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها: إن اليهود قالوا: لا نتبعك، فإن النبوة والملك لَم يزل في أسلافنا بني إسرائيل! فأنزل الله هذه الآية.

ومعناها: قل يا محمد ﷺ: يا الله، يا مالك الملك. فإنما زيدت الميم في ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ لأنها بدل عن (يَا) التي في أوله، التي هي أداة النداء، ألا ترى أنه لا يجوز في الإخبار إدخال الميم، لا يُقال: (غَفَرَ اللهم لي)، كما يُقال في النداء: (اللهم اغفِرْ لي)، ولهذا لا يجوز الجمع بين الميم في آخره وبين (يا) في أوله، لأنه لا يجوز الجمع بين العِوض والمعوّض. وإنما شُدّدت الميم لأنها عوض عن حرفين، فإن النداء حرفان. هذا اختيار سيبَوَيه والخليل رحمهما الله[٢].

وقال الفرّاء: إن معنى قول القائل: (اللهم) يا الله أُمَّ بخير [٣]، أي اقْصِد؛ طُرِحت حركة الهمزة على الهاء كما يقال: (ويلَ أُمّ فلان) و(ويلُ امِّه) [٤]، وأُسقط النداءُ للتخفيف. قال: ولا يُذكر (يا اللهم) إلا في الشعر، كما قال الشاعر:

وَمَا عليَـــكِ أن تقُولي كُلَّما ... صلَّيتِ أَو سبَّحْتِ: يا اللَّهُمَّ مَا
ارْدُد علينا شَيخَنَا مُسلَّما [٥]

---

(١) ذكره الثعلبي 40/3، والواحدي في أسباب النزول ص 221، والبغوي 23/2. وقال الحافظ في الكافي الشاف ص 25: « ولم أجد له إسنادا ». قلت: قد ساق الثعلبي في مقدمة تفسيره (1/75-77) أسانيده التي بها ينقل عن ابن عباس، وأكثرها ضعيفة أو تالفة. فلعل مستند الثعلبي في هذه الرواية أحد تلك الأسانيد. والله أعلم

(٢) راجع: الجمل في النحو للخليل ص110؛ الكتاب لسيبويه 25/1، و196/2.

(٣) معاني القرآن للفراء 203/1.

(٤) كذا في الأصل. والصواب أن يُكتب: «ويلُمّه» بحذف الهمزة بعد أن طُرحت حركته على اللام، كما في لسان العرب وتاج العروس مادة « و ي ل ».

(٥) بتصرف من معاني القرآن للفراء 203/1-204. وأنشد الفراء هذا الرجز ليردّ على الخليل وسيبويه، وذلك أن الميم لو كانت عوضا من حرف النداء، لَمَا جُمع بينهما في هذا الرجز. ولكن لا يُعرف للأبيات قائل، ولذا قال الزجاج في معانيه 393/1: «وليس

وأنشد قُطرُب[١]:

إنيّ إذا ما مُعظَمٌ أَلَمَّا ... أقول: يا اللهمَّ يا اللّهمَّا [٢]

وقد أنكروا على الفرّاء هذا القول وقالوا إنه لا يصحّ إلا في ضرورة الشعر[٣].

واختلف أهل التفسير في معنى / ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾؛ قال بعضهم: معناه مالك كلِّ مُلك، وهذه صفة لا يستحقّها أحد غير الله تعالى، ويُقال: معناه مالك أمر الدنيا والآخرة.

وقال مجاهد: أراد بالملك هاهنا النبوّة[٤]. وقيل: إن هذا لا يصح لأنه قال: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، والله تعالى لا يترع النبوة من أحد ولا يجوز أن تُترع[٥]، لأنه لا يختار لأداء الرسالة إلا من يعلم من حاله أنه يؤدي الرسالة

يُعارض الإجماع، وما أتى به كتاب الله، ووُجد في جميع ديوان العرب بقول قائلٍ: أنشدني بعضهم، وليس ذلك البعض بمعروف ولا بمسمّى ». وراجع: الجمل في النحو ص 111، والإنصاف في مسائل الخلاف 292/1، وخزانة الأدب 296/2.

(١) هو محمد بن المستنير، أبو علي النحوي، الشهير بـ«قطرب»، لازم سيبويه وتخرّج به، ألف «المثلّث»، وغيره. توفّي 206هـ. راجع لترجمته: بغية الوعاة 242/1.

(٢) الرجز بإنشاد قطرب في «الزاهر في معاني كلمات الناس» لأبي بكر الأنباري 51/1، وتهذيب اللغة 225/6 « أ ل ه ». وقد أُنشد بلفظ «حَدَثٌ» بدل: «مُعظم» في المقتضب 242/4، والإنصاف 291/1، وغيرهما بلا نسبة. وقال البغدادي في خزانة الأدب 295/2: « وهذا البيت أيضاً من الأبيات المتداولة في كتب العربية ولا يعرف قائله ولا بقيته ».

(٣) راجع: معاني القرآن للزجاج 393/1-394، وأسرار العربية لأبي البركات ابن الأنباري ص232-235، والإنصاف 291/1-295، والدر المصون 97/3-98.

(٤) أخرجه أبو جعفر الترمذي في جزئه في التفسير ص 73، والطبري 304/5، وابن المنذر 158/1-159. وهو قول الحسن أيضا، أخرجه ابن أبي حاتم 625/2. وقد روي أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن أبي حاتم 624/2، لكن بإسناد فيه لين.

(٥) كون النبوة لا تُترع من نبيٍّ بعينه، هذا مما لا شك فيه. وليس هذا مراد مجاهد والحسن بقولهما: إن الملك هو النبوّة. إنما مرادهما — والله أعلم - أن النبوة انتُزعت من بني إسرائيل، ونُقلت إلى العرب. قال الرازي في تفسيره 5/8: «... واليهود كانوا معتقدين

على الوجه، وأنه لا يغيِّر ولا يُبَدِّل لأنه عالم بعواقب الأمور، وإنما يجوز اختيار المبدل على من لا يعلم بعواقب الأمور.

ومعنى ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾: تُعطي الملك من تشاء أن تُعطيَه ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أن تنزعَه منه، وهذا كما يُقال: (خذ ما شئتَ واترك ما شئتَ)، أي خذ ما شئتَ أن تأخذَه واترك ما شئتَ أن تتركَه.

وقوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ ظاهر المراد.

ومعنى ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ أي بيدك النصر والفتح والفيء والغنيمة وغيرُ ذلك من خير الدنيا والآخرة. وإنما قال ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ وإن كان بيده كلُّ شيء من خيرٍ وشرٍ لأنه إنما قال ذلك على وجه الرغبة؛ والرغبةُ إنما تقع في الخير لا في الشر، وفي ذكر أحد الأمرين دليل على الآخر، كما قال تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[1] ولَم يذكر البرد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، أي على كل شيء من الإعطاء والنزع والعز والذل قادرٌ.

قوله ﷻ: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

معناه: تُدخل من الليل في النهار حتى يصيرَ النهار خمسة عشر ساعة، وهو أطول ما يكون وأقصره تسع ساعات، وتُدخل النهار في الليل حتى يصير الليل خمسة عشر ساعة، وهو أطول ما يكون وأقصره تسع ساعات، فما نقص من

أن النبوّة لا بد وأن تكون في بني إسرائيل، فلما شرّف الله تعالى محمداً ﷺ بها، صح أن يقال: إنه ينزع ملكَ النبوّةِ من بني إسرائيل إلى العرب ».

[1] جزء من الآية (81) من سورة النحل.

أجزاء أحدهما دخل في الآخر. هذا قول أكثر أهل التفسير[١].

وقال بعضهم[٢]: معناه تَذهب بالليل وتجيء بالنهار وتذهب بالنهار وتجيء بالليل.

وأما قوله: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾، قال عبدالله بن عباس، وقتادة، والضحاك: معناه تُخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة، والنطفةَ من الحيوان[٣]؛ والدجاجة من البيضةَ، والبيضةَ من الدجاجة[٤].

وزاد بعضهم في هذا فقال: هو السنبلة من الحبة، والحبة من السنبلة [٥]؛ والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن[٦]؛ والعالِم من الجاهل، والجاهل من العالِم.

وقوله ﷻ: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي بغير هِنداز[٧] ولا تقدير،

---

(١) هو المروي عن ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم، ومجاهد، وقتادة، والحسن، والضحاك، والسدي، وابن زيد. راجع: الطبري 305/5، وابن المنذر 160/1، وابن أبي حاتم 625/2.

(٢) هو أبو عليّ الـــجُبَّائي المعتزلي (ت 303هـــ) كما في التبيان للطوسي 432/2، ونكت المعاني على آيات المثاني للمُجَاشِعِي 188/1.

(٣) هذا منتهى قولهم حسب ما ورد في المصادر. فقول ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه ابن المنذر 161/1. وأما قول قتادة، فأخرجه عبد الرزاق في تفسيره 386/1، ومن طريقه الطبري 308/5. وقول الضحاك عند الطبري أيضا.

(٤) روي بمعناه عن عكرمة عند الطبري 309/5، وابن المنذر 162/1، وابن أبي حاتم 627/2.

(٥) وهو قول السدي عن أبي مالك الغفاري، رواه ابن المنذر 162/1، وابن أبي حاتم 627/1. ورُوي عندهما، وعند أبي جعفر الترمذي في جزئه ص 73، عن مجاهد بمعناه، حيث قال بعد ذكر النطفة والإنسان: « ...ومن الأنعام، والنبات كذلك أيضا ».

(٦) هو قول سلمان الفارسي رضي الله عنه، والحسن البصري، واختاره أبو عبيدة في مجاز القرآن 90/1. وأما قول سلمان، فقد أخرجه الفريابي في القدر ص 36، والدارمي في النقض 274/1-275، والطبري 310/5-311، وابن أبي حاتم 627/2، وأبو الشيخ في العظمة 1546/5، وغيرهم. وأما قول الحسن، فعند الطبري 310/5-311، وابن المنذر 163/1.

(٧) **الهِنْدازُ**: الحدّ والمقدار، معرَّبٌ، وأصله بالفارسيَّة « أَنْدازَه ». يقال: أعطاه بلا حسابٍ ولا هِنْدازٍ. ومنه قيل لمن يُقدّر الأبنية ويحدّ أبعادَها: (مُهندس) بقلب الزاء سينًا. راجع: لسان العربً 427/5، وتاج العروس 391/15 ، مادة «ه ن د ز».

يقال: فلان يُنفق بغير حساب، أي ينفق بالسعة ولا يحسب ما يُنفق، وقد تقدّم تفسير هذا من وجوه أخر[١]. وبالله التوفيق.

قوله ﷻ: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أُبيٍّ، وأصحابه المنافقين، كانوا مع إظهارهم الإيمان يتولون اليهود ويأتونهم بأخبار المؤمنين رجاءَ الظفر لهم على المؤمنين فنهى الله تعالى المؤمنين عن موالاة الكفّار، فقال - عزّ من قائل - : ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين فلا تتخذوا الكفّار أولياء من دون المؤمنين[٢].

وهذا نَهْيُ مُغَايَبَةٍ، ومبنى النهي الجزمُ لكن كُسِرت الذالُ لالتقاء الساكنين.

وفي قوله ﷻ: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان أن المكانَ المرتفعَ في الولاية مكانُ المؤمنين، وهذا كما يقال: (زيد دونك)، يراد به أنك أرفع منه في الشرف، ولا يراد به الارتفاع والاستفال في المكان[٣]. ويقال: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من غير المؤمنين[٤].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي ولاية الكفّار ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي في ولاية، ولا دين، كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ

---

(١) عند تفسير الآية (212) من سورة البقرة، وذلك في ج1، ق70/أ من الأصل.

(٢) **[موضوع]** أخرجه الثعلبي 47/3، وكذا البغوي 25/2، من الطريق الواهي: الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وعلّقه الواحدي في أسباب النزول ص224، عن الكلبي.

(٣) راجع: معاني القرآن للزجاج 396/1. ويُتَنَبَّه إلى أنه قد تحرّف فيه: (المُستَفِل) و(الاستفال) إلى (المستقل) و(الاستقبال)!

(٤) راجع: البسيط للواحدي ق18/ب.

مِنۡهُمۡ ﴾[1]، يعني أنَّ ولي الكافر راضٍ بكفره، والرضا بالكفر كفرٌ.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: « **أنا بريءٌ مِن كلِّ مسلمٍ مع مُشركٍ**[2]، **لا تَتَرَاءى ناراهما**[3] »[4].

وقوله تعالى: ﴿ **إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ** ﴾ أي إلا أن يُحصَّل المؤمن في أيدي الكفار، يخاف على نفسه فيداهنهم، فيُرضيهم بلسانه، وقلبُهُ مطمئن بالإيمان، فهو مرخّص في ذلك، كما رُوي أن مسيلمة الكذّاب – لعنه الله – أخذ رجلين من أصحاب النبيﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدا رسولُ الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أني رسول الله ؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أني رسول الله ؟ قال: إني أصم، فأعاد عليه السؤال ثلاثا، فأجاب في كل مرّة بمثل هذا الجواب / فضرب مسيلمةُ عُنقَه، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: « **أمّا هذا المقتول، فمَضَى على صِدْقِهِ ويَقِينِهِ، وأخذ بالفضيلة، فَهنيئًا له، وأمَّا الآخَرُ فقَبِل رخصةَ الله تعالى، ولا تبِعَةَ عليه** »[5].

---

(1) جزء من الآية (51) من سورة المائدة.

(2) أي مقيم معه، كما في بعض الروايات: « ...**كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**».

(3) أي يجبُ علي المسلم أن يُبَاعِد مترلَه عن مترل المشرك، ولا يسكن بالموضع الذي إذا أُوقَدَ فيه ناره، لاحت وظهرت لِنَار المشرك إذا أوقَدها في مترله. ولكن ليسكنْ مع المسلمين في دارهم. يُنظر: الفائق 21/2، والنهاية 177/2 مادة «رأى».

(4) **[ضعيف]** أخرجه أبوداود (الجهاد/باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود/ح 2645)، والترمذي (السير/باب ما جاء في كراهية المقام بن أظهر المشركين/ح1604)، وغيرهما عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبدالله ﷺ مرفوعا. وأخرجه الشافعي في الأم 89/7، وابن أبي شيبة 347/11 (33541)، والترمذي (1605)، والنسائي (القسامة/ باب القَوَد بغير حديدة/ح 4780)، عن قيس بن أبي حازم مرسلا، قال الترمذي: «هذا أصح» أي المرسل، ونقل عن البخاري أنه قال: «الصحيح حديث قيس عن النبيﷺ مرسل». وقال الدارقطني في العلل 464/13: «وهو الصواب».

(5) **[ضعيف]** أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 357/11 (33582)، وأبو داود في المراسيل ص395 برقم(324) عن الحسن البصري بنحوه مرسلا. ولفظ المؤلف للرواية منقول من

وقرأ بعضهم: ﴿ تَقِيَّةً ﴾، ويُقرأ: ﴿ تُقَىٰةً ﴾ بالفتح والإمالة[١]، وكل ذلك لُغات ومعناها واحد[٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي يخوّفكم عقوبته. وذِكرُ النفس لتحقيق الإضافة كما يقال: (احذَرِ الأسد) أي صولَة الأسد وافتراسه دون عينه.

وقال الزَّجَّاج: معنى ﴿نَفْسَهُۥ﴾ إياه، وإنما خاطب الله تعالى العبادَ على قدر علمهم وعقلهم، ومعنى قوله ﷻ: ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ ﴾[٣] أي تعلم حقيقة ما عندي ولا أعلم حقيقة ما عندك[٤].

وقوله ﷻ: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ زيادة في الإيعاد وتذكير بالمعاد، أي إنْ فعلتم ما نهيتكم عنه، فمرجعكم إلي.

قولــه ﷻ: ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ ﴾

معناه: قل إن تُسِرُّوا ما في قلوبكم من التكذيب بالنبي ﷺ والعداوة للمؤمنين، أو تُظهروه بالشتم والطعن والحرب، يعلمْه الله ﷻ فيجازيكم

أحكام القرآن للجصاص 16/1.

(١) قرأ يعقوب — والحسن من غير العشرة - : ﴿تَقِيَّةً﴾ على زنة «مطيّة». وقرأ الباقون ﴿ تُقَىٰةً ﴾، وأماله حمزة والكسائي وخلف لأن أَلِفَه منقلبة عن الياء . يُنظر: المبسوط ص142، الروضة 584/2، النشر239/2، إتحاف فضلاء البشر ص221.

(٢) لأن كلاهما مصدر. يقال: (اتّقى يتّقي اتقاءً، وتقوى، وتَقيَّةً، وتُقاةً، وتُقىً). يُنظر: معاني القرآن للفراء 205/1، الدر المصون 112/3، لسان العرب مادة« و ق ى »، الإتحاف ص221.

(٣) جزء من الآية (116) من سورة المائدة.

(٤) بتصرّف من معاني القرآن للزجاج 397/1.

عليه. وإنما ذُكِر الصدرُ - مكانُ القلب - لأنه مشتمل على القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وقوله ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من عمل أهل السماوات وأهل الأرض، ولا يغرنّكم الإخفاء، فإن الإخفاء والإبداء عنده سواء، والله على كل شيءٍ من عمل السر والعلانية وجزاءِ ذلك قادرٌ.

قولــه ﷻ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

أول هذه الآية منصرف إلى قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[2]، كأنه قال: ويحذركم الله نفسه يومَ تجد. ويقال معناه: وإلى الله المصير يومَ تجد[3].

وقوله تعالى: ﴿مُّحْضَرًا﴾ أي تجدونه حاضرا مكتوبا في ديوانه لا تقصير فيه. وقوله ﷻ: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي والذي عملت من سوء، يتمنّى أن يكون بينه وبين ذلك أجل طويل بُعدَ ما بين المشرق والمغرب، ليته لَم يعمل. وقد تُعبِّر العرب عمّا لا يكون بالبعد[4]، تقول: (هذا الذي يقول فلان بعيد) أي ليس بكلام يُحتاج إليه في هذا الموضع.

---

(١) جزء من الآية (46) من سورة الحج.

(٢) أي المذكور قبل آيتين، «ولا يجوز أن يكون اليوم منصوبا بـــ(يُحذِّركم) المذكور في هذه الآية، لأن واو النسق لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ». قاله أبوبكر ابن الأنباري كما في البسيط للواحدي ق19/ب.

(٣) قال الزجاج 397/1 بعد أن ذكر القولين: « والقول الأول أجود ».

(٤) وعليه فسّر الحسن البصري رحمه الله الآية حيث قال«﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ فلا يجتمعان أبدا ». راجع: تفسير الــهُوَّاري 278/1، وتفسير ابن أبي زمنين 284/1، والبسيط ق19/ب.

ومعنى ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾: رحيم بالمؤمنين خاصة، هكذا قال عبدالله بن عبّاس[1].

وقيل: إنَّ أول هذه الآية عدل، وأوسطَها تهديدٌ وتخويفٌ، وآخرَها رأفةٌ ورحمةٌ [2].

وعن الحسن أنه قال: ومن رحمة الله ﷻ أن حذّركم نفسه[3].

قوله ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾

رُوي أنه لما نزلت الآيات المتقدمة، قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، وإنما يترل الله تعالى مثل هذه الآيات في أعدائه لا في أحِبَّائه [4]! وأرادوا بقولهم: نحن أحباؤه، إنا نحبّه ويحبّنا كما يقع اسم الصديق على كل واحد من المتصادقين فأنزل الله تعالى هذه الآية[5].

والمحبة في الحقيقة هي الإرادة، وهو [6] أن تريدَ نفعَ غيرك فتبلغَ مُرادَه في نفعك إياه[7]. وأما العشق، فهو إفراط المحبة في هذا المعنى. وأما محبة الطعام

---

(١) لَم أجده إلا من طريق الكلبي عند الفيروزآبادي في تنوير المقباس ص59.

(٢) قاله السمرقندي في بحر العلوم 206/1.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره 387/1، والطبري 324/5، وابن المنذر 168/1، وابن أبي حاتم 632/2.

(٤) كذا استظهرته من (ب)، وفي الأصل: «أحبابه».

(٥) **[موضوع]** أخرج نحوه الثعلبي 50/3 من الطريق المُظلم: الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وعلقه الواحدي ص225 عن الكلبي به. وذكر نحوَه مقاتل في تفسيره 165/1.

(٦) وفي الهامش إشارة إلى أنه في نسخة «وهي».

(٧) إرادة النفع للغير من آثار المحبة وليست هي عينها. وأيضا فإن الشخص قد يقصد إيصالَ النفع للغير، وهو لا يحبّه، بل يحمله على ذلك مقاصد أخرى. وأما حقيقة المحبّة، فهي أوضح من أن تُعرَّف، ولذا أهل اللغة لَم يزيدوا في تعريفها على قولهم: «الحُبُّ نَقِيضُ البُغْضِ، والحُبُّ الودادُ». راجع: لسان العرب مادة 289/1 «ح ب ب».

والملاذ فهو شهوة وتَوَقان النفس في مشتَهَياتها كلها.

فأما محبة العباد لله ﷻ، فالله ﷻ تستحيل عليه المنافع، فلا يصح أن يراد بمحبته هذه الطريقة، لكن يُراد محبةُ إعظامِه وإجلالِه وطاعتِه ومحبّةُ رسلِه وأوليائِه(١).

ومحبة الله تعالى إياهم: إثابَتُه إياهم على طاعته، وإنعامُه عليهم، وثناؤُه ومغفرتُه لهم(٢).

فمعنى قوله ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي إن كنتم تقصدون طاعة الله والرضا بشرائعه، فاتبعوني على ديني، يزِدْكم الله حبًّا، ويغفرْ لكم ذنوبكم في اليهودية، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ورُوي أنه لما نزلت هذه الآية عرضها رسول الله ﷺ على اليهود، فقال عبدالله بن أُبَيٍّ ابنُ سلول السلولي: إن محمدا [ﷺ] يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ويأمر أن نُحِبَّه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام، وقالت

---

(١) هذا إنكار لكون العبدِ يحب الله محبة حقيقية، وهذا مذهب الجهمية ومن تأثر بهم من المتكلمين. راجع: الكشاف للزمخشري المعتزلي 328/1، والبسيط للواحدي ق 20/أ، ومدارك التنزيل للنسفي الماتريدي153/1.

والذي عليه سلف الأمة، وأئمتها، ومشايخ المعرفة، وعامّة أهل الإيمان، أن الله تعالى محبوبٌ لذاته محبّةً حقيقيّةً، بل هي أكمل محبّة، كما قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة/165]. وأما «محبة إعظامِه وإجلالِه وطاعتِه، و محبة رُسُلِهِ وأوليائِهِ » فهي كلّها تَبَعٌ لمحبة الله تعالى، وناتجة عنها. والتعبير «بمحبَّة الشَّيءِ عن مجرَّد محبّةِ طاعَتِهِ لا عن محبّةِ نَفسهِ = أَمرٌ لا يُعرَفُ في اللُّغةِ لا حقيقةً وَلا مجازًا، فحملُ الكلامِ عليه تحريفٌ محضٌ». يُنظر: فتاوى ابن تيمية 61/10-76، و476/6-478؛ قاعدة في المحبّة لابن تيمية ص51-52.

(٢) وهذا تأويل، بل تحريف، لمعنى المحبة، ومَيل عمّا عليه سلف الأمة مِن إثبات أن الله تعالى يحبّ عبدَه محبة حقيقيّةً. وأول من أحدث هذه المقالة جعدُ بن درهم في أوائل المائة الثانية، حين زعم أن الله لَم يتخذ إبراهيم خليلا، ومِن أجل هذه المقالة وغيرها ذبحه الأمير خالد بن عبد الله القسريّ يومَ الأضحى في القصة المشهورة. ثم أخذ جهم بن صفوان هذا المذهب عن جعد، وأظهره، ثم انتقل إلى المعتزلة، وبقية المتكلمين. راجع: المراجع السابقة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وللمتكلمين.

اليهود: يريد محمدٌ [ﷺ] أن نتخذه حنانًا[1] كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم حنانًا، فأنزل الله ﷻ قولَه[2]:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

/معناه إن كنتم تحبون الله كما تدّعون، فأظهروا دلالة الصدق بطاعة الله ﷻ وطاعةِ رسوله ﷺ فإن علامةَ حب الله تعالى طاعتُهُ، قال الشاعر:

تعصي الإلهَ وأنت تُظهر[3] حبَّه ... هذا لعَمْري في الفِعال بديعُ[4]
لو كان حبُّكَ صادقًا[5] لأطعْتَه ... إن المحبَّ لمن يحب مُطِيعُ[6]

وكان أبوسهل الأنطاكي[7] يقول: علامةُ حبِّ الله ﷻ أن يكون العبد دائم الفكرة، كثيرَ الخلوة، ظاهرَ الصمت، لا يُبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نُودي، ولا يحزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحدا إلا الله ﷻ، ولا يتبع إلا أوامرَه، ولا يرجوا أحدًا غيره[8].

---

(١) الحنَان في اللغة: الرحمة، والمراد هنا: من يُجعل مَظِنَّةً للرحمة، فيُتبرّك به، أو يُتّخذ إلهاً يُستغاث به لإنزال الرحمة. يُنظر الفائق 336/1، والنهاية 452/1.

(٢) **[موضوع]** لَم أجده إلا عند الفيروزآبادي في تنوير المقباس ص 60 من طريق الكذّاب محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

(٣) في الأصل: «تزعم»، والمثبت من نسخة أشير إليها في الهامش، وهو الموافق لسائر المراجع.

(٤) روي في أكثر المصادر بلفظ: « هذا مُحال في القياس بديع ».

(٥) وفي الأصل: «خالصا»، والمثبت من نسخة أشير إليها في الهامش لموافقته لما في المراجع.

(٦) قاله محمود الورّاق، ويُنسب للشافعي. يُنظر: الكامل في اللغة والأدب 513/2، زهر الآداب وثمر الألباب 135/1، بهجة المجالس 395/1.

(٧) هو الإمام الحافظ، الهيثم بن جميل، بغدادي الأصل، نزيل أنطاكية. كان ثقةً صاحب سُنَّةٍ. روى عن مالك وطبقته، وحدَّث عنه أحمد بن حنبل وآخرون. توفي 213 هـ. راجع لترجمته: تاريخ بغداد 84/16؛ سير أعلام النبلاء 396/10؛ تهذيب التهذيب 294/4.

(٨) ذكره شيخ الصوفية أبو عبد الرحمن السلمي (ت 412 هـ) في «حقائق التفسير» 96/1.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي إن لَم يفعلوا ما تدعوهم إليه مِن اتِّباعِك وطاعة أمرك، فقد كذبوا في قولهم: إنهم أحبَّاء الله تعالى. ﴿[فَإِنَّ][1] ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لا يغفر لهم، ولا يُثني عليهم[2].

فلمَّا نزلت هذه الآية قالت اليهود: نحن أبناءُ إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ونحن على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3]:

قولــه ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

معناه – والله تعالى أعلم – : أن الله إنما اصطفاهم على عالمي زمانِهم لاتِّباعهم أوامرَه، وأن آدم عليه السلام كما لا ينفع أولادَه المشركين، كذلك سائر الأنبياء - صلوات الله عليهم – لا ينفعونهم.

والاصطفاء هو الاختيار، وهو افتعال من الصفوة، أي جعَلَهم صفوةَ خلقه. وصفوة الله تعالى هم الذين لا دَنَسَ فيهم بوجه من الوجوه، لا في الاعتقاد، ولا في الفعل.

وفي الصفوة ثلاث لغات: صَفوة، وصُفوة، وصِفوة[4].

واختلفوا في ﴿ءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ في هذه الآية، قال بعضهم: أراد بآل عمران موسى وهارونَ، وقال بعضهم: أراد مريم[5].

---

(١) في الأصل: ﴿إِنَّ﴾.

(٢) هذا التفسير باللازم، مبني على مذهب المتكلمين في نفي كون الله يحب عبادَه محبّةً حقيقيّةً. وقد سبق الكلام عليه.

(٣) ذكره الثعلبي 52/3 عن ابن عباس، وكذا البغوي 28/2. ولَم أجده مسندا، إلا أنه روي بنحوه من طريق الكلبي عند الفيروزآبادي في تنوير المقباس ص60.

(٤) راجع: معاني القرآن للزجاج 399/1، إكمال الإعلام بتثليث الكلام 13/1، القاموس المحيط مادة «ص ف و».

(٥) منتزع الخلاف، هو الاختلاف في المراد بـــ «**عمران**»، هل هو والد موسى وهارون، أو والد

قوله ﷻ: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول: أولادًا، وأولادَ أولادٍ، الأول من الآخر، والآخر من الأول، والله سميعٌ لقولهم، عليمٌ بهم وبمُجازاتهم.

وقوله ﷻ: ﴿ ذُرِّيَّةً ﴾ نَصبٌ على البدل، وقيل: على الحال، أي اصطفاهم حال كون بعضهم من بعض[1].

وأما اشتقاق الذرية فقد تقدم ذكره[2]. وبالله التوفيق.

قوله ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

قال أبو عبيدة: ﴿ إِذْ ﴾ زائدة في الكلام، وكذلك في سائر الآي[3].

وقال جماعة من النحويين: معناه واذكر إذ قالت[4].

والد مريم؟ الأول قول الكلبي (تنوير المقباس ص60)، ومقاتل في تفسيره 165/1، وتبعهما الواحدي في البسيط ق20/ب، والوسيط 430/1؛ والثاني قول الجمهور، وهو الصواب لأن الآية في سياق قصة مريم وعيسى عليهما السلام. يُنظر: مفاتيح الغيب 24/8، التسهيل لابن جزي 245/1، البحر المحيط 110/3، والتحرير والتنوير 231/3.

(١) راجع: معاني القرآن للفراء 207/1، وللأخفش 402/1، وللزجاج 399/1.

(٢) وذلك في المجلد الأول، ق 93/ب من الأصل، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ﴾ الآية [البقرة/٢٦٦].

(٣) مجاز القرآن 90/1، ولفظه: « ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ معناها: قالت امرأة عمران». وقد نصّ قبل ذلك (36/1-37) على أن (إِذْ) «من حروف الزوائد». وقد تابعه على ذلك ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص 263، وتفسير الغريب ص 103. ولكن خطّأه الزجاج في معاني القرآن 400/1 فقال: «ولَم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئا، قال جميع النحويين: إن (إِذْ) يدل على ما مضى من الوقت، فكيف يكون الدليل على ما مضى من الوقت لغوا ؟». وراجع: البسيط ق21/أ، والبحر المحيط115/3.

(٤) هذا قول الأخفش في معاني القرآن 406/1. وكذا أبو العباس المبرد كما في معاني القرآن

ويقال: قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾، أي اصطفاهم إذ قالت(١).

ويقال: هو راجع إلى قوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

وكان اسم امرأة عمران « حَنَّة »، وهي أم مريم وجدة عيسى [عليه السلام]، كانت لها ابنتان، إحداهما « إيشاع »(٣).

وهو عمران بن ماثان، وبينه وبين عمران أبي موسى عليه السلام ألف وثمانمائة سنة (٤).

وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ أي أوجبتُ لك على

للزجاج 400/1.

(١) هو قول الزجاج 400/1. وعلى هذا يكون قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ ﴾ من باب عطف الجمل، إذ لا يصح أن يكون اصطفاءُ آدم، ونوح، وإبراهيم، حصل عند قولها: إني نذرت...الخ. بل يُجعل على تقدير الجمل، أي: إن الله اصطفى آدم عند وجوده، ونوحا عند وجوده، واصطفى آل عمران إذ قالت ...الخ. يُنظر: مفاتيح الغيب 26/8، البحر المحيط 114/3، الدر المصون 129/3.

(٢) وهو قول الطبري 330/5، ونحا إليه مكّي في مشكل الإعراب ص156.

(٣) اختُلف في «إيشاع» - وهي زوجة زكريا عليه السلام - هل هي أخت مريم، أو خالتها؟ ذهب إلى الأول: السدي (ابن أبي حاتم 639/2)، ومقاتل في تفسيره 166/1، وغيرهما؛ وإلى الثاني: عكرمة (الطبري 350/5-351)، والثعلبي في تفسيره 54/3، وغيرهما. ويرجّح الأولَ قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء : «**فلمَّا خَلَصْتُ فإذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالةٍ**». أخرجه البخاري (أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾/ح3430)، ومسلم (الإيمان/باب الإسراء/ح162).

(٤) كذا في الكشف والبيان 53/3 معزوًّا إلى ابن عبّاس ومقاتل! والمشهور عند أهل الكتاب أن موسى عليه السلام كان في القرن الثالث عشر قبل المسيح.
يُنظر: The World Book Encyclopedia 13/632.
تنبيه: تحرّفت المدّة في النسخة المطبوعة من الكشف والبيان إلى: «ألف وثلاثمائة سنة»، والتصويب من نسختين مخطوطتين، وعرائس المجالس ص416.

نفسي أن أجعله عتيقا لخدمة البيت المقدس، وكانوا يُحرِّرون أولادهم أي يعتقونها عن أسباب الدنيا، يجعلون الولد خالصا لله تعالى، لا يستعملونه في منافعهم كما ينتفع الوالد بولده. ولَم يكونوا يُحرّرون إلا الغلمان، وكان المحرَّرون سُكّانَ بيت الله يتعهَّدُونه ويكسونه [١]، فإذا بلغوا خُيِّروا، فإنْ أحبّوا أقاموا في البيت، وإن أحبّوا ذهبوا.

والتحرير: التخليص، يقال: طين حرٌّ، أي خالص، وتحرير الكتاب: إخلاصه من الفساد والاضطراب[٢].

وقوله عَجَلَّ: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ أي تقبّل نذري ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنيّتي وإخلاصي.

والتقبّل هو أخذ الشيء على الرضا، يقال: (تقبّل الأمير هدية فلان)، أي أخذها مع الرضا، وأصل ذلك من المقابلة، فسُمّيَ الاعتداد بالشيء فيما يُقابَل بالجزاء عليه: تقبُّلا [٣].

قوله عَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

وذلك أنها كانت تظنّ وقت النذر أن ما في بطنها ذَكَرٌ، فلما ولدت جاريةً أشفقت أن لا يُقبَل منها، فقالت﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ أي ولدتُّها جاريةً، وكان هذا القول منها على وجه الاعتذار لأنَّ سعي الأنثى أضعف، وعقلَها

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «يكنسونه» كما وقع في قول قتادة والربيع عند الطبري5/334-335: «يَقُومُ عليها ويَكنُسُها».

(٢) راجع: البسيط ق21/ب.

(٣) راجع: البسيط ق21/ب.

أنقص. وكانوا لا يحرّرون النساء لخدمة البيت لما يلحقهنّ من الحيض والنفاس.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ ﴾، وقرأ بعضهم﴿ وَضَعۡتُ﴾ حكايةً عن قول المرأة[1].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ ﴾، فهو من قول المرأة، معناه: ليس الذكر كالأنثى في خدمة البيت لأن الأنثى عورةٌ لا تصلح لما يصلح له الذكر.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾ أي خادم الرب بلُغتهم[2].

/ وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ أي أمنعها بك وولدَها – إن كان لها ولد – ﴿ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أي المرجوم، وهو المطرود من رحمة الله تعالى.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **ما مِن مولود إلا ولِلشّيطانِ طَعنَةٌ في جَنبِهِ حين يُولَد، فَيستَهِلُّ صارِخًا مِن الشَّيطانِ إلا مَريمَ وابنَها** عَلَيْهِ السَّلَامُ »، قال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : اقرءوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[3].

وفي الآية دليلُ جواز تعليق النذر بالخطر والأوقات المستقبلة، وصحّةِ النذر مع الجهالة، لأن امرأة عمران كانت لا تدري ما في بطنها، ذكرًا أو أنثى؛ ودليلٌ أنّ للأُمِّ ضربًا من الولاية في تسمية الولد وتأديبه وتعليمه. ومثلُ هذا النذر من الإنسان في ولده، أن يُنشئه على عبادة الله تعالى وطاعته، وتعليمه

---

[1] هي قراءة ابن عامر، وأبي بكر عن عاصم، ويعقوب. ينظر: المبسوط ص 142، الروضة 585/2، النشر 239/2، والإتحاف ص222.

[2] بحر العلوم للسمرقندي 208/1.

[3] **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ الآية/ ح3431) ومسلم (الفضائل/ باب فضائل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ/ ح2366) بنحو مثله.

الفقه والقرآن وعلوم الدين = نذرٌ صحيح في شريعتنا[1].

قوله ﷻ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا [وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّآءُ][2] كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا [زَكَرِيَّآءُ] ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى الآية — والله أعلم — : استجابَ اللهُ دعاءها، وقَبِلَ نذرها، وجعل مريم صوّامةً قوّامةً، ربّاها الله تربية حسنة.

وإنما ذكر مصدر (تقبّلها) بلفظ (القبول) لأن في التقبّل معنى القبول، وذكر لفظ (النبات) على المعنى أيضا، لأن في إنبات الله نباتاً[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّاءُ ﴾ أي ضمّها للقيام بأمرها. قال النبيﷺ: « **أَنَا وكافِلُ اليتيمِ كَهَاتَين** »، وأشار بأصبعَيه[4].

ومن قرأ: ﴿ وَكَفَّلَهَا﴾ بالتشديد و ﴿ زَكَرِيَّاءَ ﴾ بالنصب [5]، فمعناه: ضمّها اللهُ تعالى إلى زكرياء، وضمّنه القيامَ بأمرها[6].

---

(1) أحكام القرآن للجصاص 18/1.

(2) هذه قراءة نافع، وأبي جعفر المدني، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، ويعقوب. وقرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بتشديد الفاء، وقصر الألف. وقرأ أبوبكر وحدَه عن عاصم: ﴿وَكَفَّلَهَازَكَرِيَّاءَ﴾ بشديد الفاء، ومد الألف، والنصب. راجع: المبسوط ص142، والروضة 585/2، والنشر 239/2.

(3) أي إنما جيء بالمصدر على لفظ النبات، وكان الأصل أن يقال: «أنبتها إنباتا»، لأنه يوجد في الإنبات معنى النبات. يُنظر: الطبري 344/5، إعراب القرآن للنحاس ص199.

(4) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (الأدب/ باب فضل من يعول يتيما/ ح6005) ومسلم (الزهد/ باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم/ ح2983) بنحوه بزيادة: « **في الجنة** ».

(5) النصب ظاهر في قراءة أبي بكر عن عاصم، ومقدّر في قراءة بقيّة الكوفيين وخلف.

(6) فنُصب ﴿ زَكَرِيَّاءَ ﴾ على أنه مفعول ثانٍ، بعد أن كان فاعلا في القراءة الأولى. راجع: الحجة لابن خالويه ص108، وللفارسي 355/2-356، ولابن زنجلة ص161.

رُوي أن امرأة عمران لما دعتْ بهذا الدعاء المذكور في الآية المتقدمة، لفَّتْها في خِرقة ووضعتْها في بيت المقدس، فتنافس فيها الأحبار أيّهم تكون عنده، فقال زكريا عليه السلام: أنا أحق بها، خالتها امرأتي[1]، فقالت له الأحبار: لو تُرِكَت لأَحَقِّ الناس بها، لتُرِكَت لأُمّها التي ولدَتْها، ولكنّا نقترع عليها بأقلامنا فتكون عند من خرج سهمُه، فأخذوا الأقلام التي كانوا يكتبون بها كتاب الله عز وجل، فكانوا سبعة وعشرين رجلا، فانطلقوا إلى نهر سَلْوان[2] فقالوا: نطرح أقلامنا مع هذه الجِرْية، فمن صَعَد قلمُه فغلب الجرْيةَ، فهو أحقّ بها، ومن سَفَل قلمُه مع الجرية فهو المقروع، ثم رموا أقلامهم مع الجرية، فسَفَلت أقلامُهم جميعا، وصَعِدَ قلمُ زكريا فغلب الجريةَ، فضمّها زكريا إلى نفسه واسترضع لها.

فلمّا بلغت المبلغ الذي صلحت للبيت، بنى لها محرابا في غرفة من البيت، وجعل باب الغُرفة في وسط الحائط، لا يُصعد إليها إلا بالسلَّم، فكان يغلق عليها الباب، لا يدخل عليها أحدٌ غيره. فكانت إذا حاضت، أخرجها إلى مترله، فتكون عند خالتها، وإذا طهُرت ردّها إلى البيت، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّاءُ﴾[3].

وأما قوله تعالى﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا [زكريا] ٱلْمِحْرَابَ﴾، قال بعضهم: أراد بالمحراب المسجدَ، وكانت مساجدهم تسمّى المحاريبَ كما في قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾[4].

---

[1] في الهامش: «أختها عندي، كذا في المدارك». أي في مدارك التتريل للنسفي1/155. وهو الموافق لما مرَّ من كلام المؤلف قريباوكذا لما سيذكره في تفسير سورة مريم (ج2 ق127/أ).

[2] عين نضّاخة بالبيت المقدس. راجع معجم البلدان للحموي 241/3.

[3] أخرج الطبري 349/5، وابن أبي حاتم 639/2 بنحوه عن السدي. وانظر: البحر العلوم 209/1.

[4] جزء من الآية (21) من سورة ص.

ويقال: إن المحراب في اللغة، هو الموضع العالي المقَدَّم الشريف، ومن ذلك سُمّي أمامُ المسجد مِحرابا[1]. وهو «مفعال» من الحرب، لأنه يحارب على قلبه، وقيل: هو موضع محاربة الشيطان [2]، ويقال: إن المحراب موضع الحريبة[3]، وهي المال[4].

وأما قوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، كان يجد عندها فاكهة الشتاء والخريف في القيظ، وفاكهة القيظ في الشتاء[5].

﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي من أين لكِ هذا ؟ فإنه لا يَدخل عليكِ أحد غيري! ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أتاني به جبريل عليه السلام.

وعن الحسن رضي الله عنه أنه كان يقول: تكلّمتْ مريم في المهد [6]، ولَم تلقم ثديا ثديا قطّ، وإنما كان يأتيها رزقها من الجنة[7].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قد تقدّم تفسيره.

---

(1) راجع: مجاز القرآن 91/1، ومعاني القرآن للزجاج 403/1.

(2) يُنظر: النكت والعيون 358/3-359 عند تفسير الآية (11) من سورة مريم. ويُنظر أيضا: المفردات ص117، عمدة الحفاظ ص114، تاج العروس مادة «ح ر ب».

(3) مكتوب في الهامش: «في (ص): حريبة الرجل، ماله الذي يعيش به ». وهو في الصحاح 108/1 مادة «ح ر ب» بالنص.

(4) لَم يتّضح لي المراد من كون المحراب موضعا للمال، ولَم أجدْ من ذكره. والله أعلم.

(5) كذا فسَّر به عامّة السلف: ابن عبّاس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي، وغيرهم. يُنظر: الطبري 353/5-357، وابن المنذر 182/1، وابن أبي حاتم 640/2.

(6) يعني أنّها قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهي في المهد. قلتُ: وهو مخالف لقول النبي ﷺ: «**لَم يتكلم في المهد إلا ثلاثة**» الحديث. أخرجه البخاري (أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ الآية/ ح3436)، ومسلم (كتاب البر والصلة/ باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة/ ح2550). والله أعلم.

(7) لَم أجده مسندا عن الحسن، ولكن ذكر عنه نحوَه الهوّاري في تفسيره 280/1، والسمعاني 314/1، والبغوي 32/2.

قولــه ﷻ: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا [زَكَرِيَّآءُ] رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

المعنى – والله تعالى أعلم – عندما رأى زكريا أمر الله تعالى في مريمَ، طمع أن الذي يأتي مريم بالفاكهة / في الشتاء، يُصلح له عُقرَ زوجته، فدعا الله عند ذلك، وقال: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي ﴾ أي أعطني من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ ﴾ أي ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ سامع الدعاء ومُجيبه.

والأصل في ﴿هُنَالِكَ﴾ الظرف في المكان، يُقال: (رأيته هنا)، و(رأيته هناك)، والفصل بينهما أن (هنا) أقرب من (هناك)، و(هناك) أقرب من (هنالك). وفيه معنى الإشارة كقولك:(ذا)، و(ذاك)، و(ذلك)[1]. ودخول اللام فيه لتأكيد التعريف، ولا موضع للكاف من وجوه الحركات إلا أن فيه خطابا.

قولــه ﷻ: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ[2] ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

معناه – والله أعلم –: ناداه جبريل عليه السلام وهو قائم يصلي في المسجد: إن الله يبشّرك بولدٍ اسمه يحي، كما قال جلّ ذكره في آية أخرى: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ

---

(١) ﴿ هُنَالِكَ﴾ في الأصل ظرف مكان، وهو في الآية أُنيب منابَ ظرف الزمان وضُمِّنَ معنى الإشارة فكأنه قيل: « عندَ ذلك دعا زكريا ربّه». وراجع: البسيط ق23/ب.

(٢) في الأصل: ﴿إنَّ﴾ بكسر الهمزة، والتصويب من (ب)، إذ قراءة الجمهور – ومنهم نافع وعاصم – بفتح الهمزة هنا. وقراءة الكسر، إنما هي لحمزة وابن عامر. ينظر: المبسوط ص142، والروضة 586/2، والنشر 239/2.

﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: مصدقًا بعيسى بن مريم، كان يحيى أول من صَدَّقه، وشهد أنه كلمةُ الله وروحُه. وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين[2].

وفي بعض الروايات أنّ مريم دخلت على خالتها [3] بعدما حملت بعيسى عليه السلام فسجد ما في بطن خالتها - وهو يحيى - لِـما في بطنها [4]، فقالت لها خالتها: أنتِ خيرُ النساء حملْتِ خيرَ الناس، وأخبرتْ زكريا بذلك، فقال لها: أما إني لا أخشى على ابنة أختكِ، وإنما أخشى على نفسي إذ لَم يكن يصعد إليها أحدٌ غيري.

وأما قوله عز وجل: ﴿وَسَيِّدٗا﴾ فالسيد في الحقيقة من تلزم طاعتُه [5]، ويجب على الناس الاقتداء به في العلم والحلم والعبادة والتقى.

وأما قوله: ﴿وَحَصُورٗا﴾ فالحصور الذي لا يأتي النساء، يحبس نفسه عمّا يكون من الرجال، ويقال: عن شهوات الدنيا كلها، وقد يُسمّى كاتم السرّ حصورا، والذي لا يدخل مع الناس في الميسر حصورًا، لامتناعه من ذلك. وأصله من الحصر، وهو الحبس، وسُمّي الحصيرُ حصيرا لأنه دخل بعضه في

---

[1] جزء من الآية (7) من سورة مريم.

[2] كذا في تفسير مقاتل 168/1، وبحر العلوم للمسرقندي 210/1. وفي الكشف والبيان للثعلبي 63/3، أنه كان أكبر منه بستة أشهر.

[3] قد تقّدم ذكر الخلاف في امرأة زكريا، هل هي خالة مريم عليها السلام أو أختها ؟

[4] أخرج قصة السجود: الطبري 371/5-373، عن مجاهد، والسدي، وعن ابن عباس برواية ابن جريج المرسلة عنه. وهذا، إن صحّ، يُبطل قول المؤلف: إن يحيى عليه السلام كان أكبر من عيسى عليه السلام بثلاث سنين!

[5] ولهذا يقال: (سيد الغلام)، ولا يقال مثلاً: (سيّد الثوب). نقله الواحدي عن بعض أهل اللغة؛ البسيط ق25/ب.

بعض في النسيج، وحُبس بعضه على بعض[1].

وذهب بعضهم إلى أن الحصور، هو الذي لا شهوة له[2].

والأول أولى لما في الثاني من إضافة عيبِ العُنّةِ إليه، ولأن هذا الثناءَ في الصفة يُستعمل حالةَ الاختيار، كما يُقال: أكول، وشَروب، وظَلوم، ونحو ذلك

---

[1] راجع: معاني القرآن للزجاج 406/1-407. ويُنظر: مجاز القرآن 92/1، والطبري 376/5-377، مقاييس اللغة مادة « ح ص ر ».

[2] ذهب إلى نحوه سعيد بن المسيّب حيث قال: «معه مثل الـــهُدبة»، والضحاك حيث قال: «لا ماءَ له»، كما في الطبري377/5-380، وابن أبي حاتم643/2-644.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما نحوُ قولِ الضحاك بإسناد ضعيف عند الطبري380/5، وابن المنذر 190/1، وابن أبي حاتم643/2. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «هو العنين»، أخرجه ابن المنذر 190/1 بإسناد ضعيف جدًّا.

ورُوي نحوُ قولِ ابن المسيّب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما موقوفا، ومرفوعا. أما الموقوف فقد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 96/11 (32443)، وأحمد في الزهد ص114، والطبري378/5، وابن أبي حاتم643/2.

وأما المرفوع فقد أخرجه الطبري 377/5-378، وابن المنذر 191/1، وابن أبي حاتم643/2، والحاكم في المستدرك 373/2. قال ابن أبي حاتم في العلل 193/5 : «قال أبي: لا يرفعون هذا الحديث ». وقال ابن كثير بعد أن ساق الروايات في تفسيره 56/3: «فهذا موقوف، وهو أقوى إسنادا من المرفوع، بل وفي صحة المرفوع نظر ». ومعلوم أن عبدالله بن عمرو بن العاص «أدمن النظر في كتب أهل الكتاب، واعتنى بذلك» كما في سير أعلام النبلاء81/3، فلعل هذا التنقُّصَ لنبي الله يحيى عليه السلام منقول من تلك الكتب المحرَّفَة.

ورُوي مرفوعا من وجه آخر، عن أبي هريرة، عند ابن أبي حاتم 644/2، والطبراني في الأوسط 333/6. فيه الحجاج بن سليمان، قال ابن عدي في الكامل 234/2: « يحدث عن الليث وابن لهيعة أحاديث منكرة» ثم ساق له هذا الحديث - وهو مما رواه عن الليث - على أنه من مناكيره. وانظر: لسان الميزان 561/2.

[3] أي إن الحصور «فعول» بمعنى الفاعل، أي من يُكثر حصرَ النفس ومنعَها باختيار منه، نحو الأكول، الذي يُكثر الأكل، وكذا الشروب، والظلوم، والصبور. وعلى القول الآخر، هو «فعول» بمعنى المفعول، أي أنه ممنوع مما يكون في الرجال؛ وهذا لا يصحّ لأمرين: أولا لأنه من صفات النقص يُنزّه عن مثلها الأنبياء؛ ثانيا لأنه أمر مطبوع عليه، وقلَّ ما يُمدح بها من اتّصف بها، وإنما يكون المدح غالبا على الأفعال الاختيارية. يُنظر: مفاتيح الغيب 40/8، وعمدة الحفاظ ص126، وابن كثير 57/3.

وقوله ﷻ: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي نبيّا من المرسلين، ويقال معناه: وكائنا من الصالحين نبيًّا، لأن من الصالحين من ليس بنبيٍّ. والصالح من يؤدي ما افترض الله عليه، ويؤدي حقوق الناس إليهم.

وأما ذكر الملائكة بلفظ الجمع في أول هذه الآية، فعلى معنى أنه أتاه النداء من هذا الجنس[1]، وهذا كما يُقال: (فلان ركب السُفُن)، وإنما ركب سفينة واحدة، لكن يُراد بقولهم: (ركِبَ السفن) جعل رُكوبَه في هذا الجنس[2].

ومن قرأ: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ بلفظ التأنيث[3]، فعلى معنى الجماعة[4].

ومن قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ بالكسر[5]، أي قالت له الملائكة: إن الله[6].

وقراءة التشديد في ﴿يُبَشِّرُكَ﴾ من التبشير، ومن قرأ: ﴿يَبْشُرُكَ﴾ بالتخفيف[7]، فهو من قولهم: (بَشَرتُ الرجل، وبَشَّرتُه)، إذا أفرحتَه، يقال: (بَشَرْتُ فلانا، أُبَشِّرُهُ وأَبْشُرُهُ)، إذا أخبرتَه بخبر سرورٍ، و(بَشِرَ الرجلُ، يبشَرُ)، إذا فَرِح[8].

---

(١) أي، وإنما ناداه جبرائيل وحده، لكن عُبِّر عنه بالجمع على معنى الجنس.

(٢) راجع: الطبري 5/364-365، ومعاني القرآن للزجاج 1/405.

(٣) وهي قراءة المكي، والمدنيَّين، والشامي، والبصريّين، وعاصم. وقرأ الباقون بالتذكير، أي بألف بعد الدال. يُنظر: المبسوط ص142، والروضة 2/586، والنشر 2/239.

(٤) راجع: معاني القرآن للزجاج 1/405، والحجة للفارسي 2/357-358.

(٥) كسر الهمزة، قراءة حمزة، وابن عامر، وقرأ الباقون بالفتح، وقد سبق.

(٦) أي إن قراءة الكسر، هي على إجراء النداء مُجرى القول. وأما قراءة الفتح، فعلى حذف حرف الجر، أي «بأنَّ». يُنظر: معاني القرآن للزجاج 1/405، والحجة للفارسي 2/358.

(٧) قراءة التخفيف، لحمزة، والكسائي. وقرأ الباقون بالتشديد. يُنظر: السبعة ص 205-206، والروضة 2/587، والنشر 2/239.

(٨) يُنظر: معاني القرآن للزجاج 1/405-406، الحجة للفارسي 2/361، والصحاح «ب ش ر».

وإنما سمّي يحيى لأنه كان في علم الله تعالى أن يُقتل شهيدًا، والشُهداء أحياءٌ غير أموات[١].

قوله ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

قيل في تفسير هذه الآية: قال زكريا لجبريل - عليهما السلام - حين سمع البشارة: يا سيدي! كيف يكون لي غلام، وقد أدركني الهرم، وامرأتي ذات عقر، لا تَلِد[٢] ؟ قال له جبريل عليه السلام : مثل ذلك يفعل الله ما يشاء، أي الذي الذي شاءه. وقال بعضهم: أراد زكريا بالرب الله ﷻ، أي قال: يا ربِّ كيف يكون لي غلام[٣]؟

قال الكلبي: كان زكريا ابنَ تسعين سنة، وكانت امرأته قريبة في السن منه[٤]. وقال الضحاك رضي الله عنه: كان هو ابن مائة وعشرين سنة[٥].

فإن قيل: كيف قال زكريا: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾، فاستبعد أن يعطيه

---

(١) قاله الجنيد البغدادي، كما في عرائس المجالس للثعلبي ص 421. والظاهر - كما قال ابن جزي في التسهيل 247/1 - أنه اسم عبراني صادف اشتقاقا وبناء في العربية. وكذا رجّح ابن عادل في اللباب 194/5، وابن عاشور في التحرير والتنوير 239/3.

(٢) في الأصل: «يَلد»، والتصويب من (ب).

(٣) وهو الصواب، وأما القول بأن المراد بالرب السيد، وأن المخاطَب هو جبرئيل، نسبه الثعلبي في الكشف والبيان 65/3 للكلبي وأكثر المفسرين! لكنه قولٌ مخالف للحقيقة الشرعيّة المطّردة لكلمة «الرب» في القرآن، لاسيما في مقام النداء والدعاء. ولذا جعله الزمخشري عند تفسيره لقوله تعالى ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ من «بدع التفاسير»؛ الكشاف 391/1. وأقره أبو حيّان في البحر المحيط 158/3.

(٤) ذكره في بحر العلوم 211/1.

(٥) ذكره في بحر العلوم 211/1. ونسبه الواحدي في البسيط ق25/ب إلى ابن عباس رضي الله عنهما برواية الضحاك عنه.

الله ولدا على كبر السن من امرأة عاقرٍ بعدما بشّرته الملائكة بذلك؟ قيل: لَم يكن هذا القول على جهة الاستبعاد، ولكن مِن شأن مَن بُشّر بما يتمنّى أن يحمله فَرَطُ سروره به على الزيادة في الاستكشاف والاستثبات، كما يقول الإنسانُ إذا رأى شيئا من الأمور العظيمة: (كيف كان هذا ؟) على جهة الاستعظام لقُدرة الله ﷻ، لا لشكٍّ في القدرة، وكذلك إذا رأى غيرَه وَهَب مالا عظيما لرجل، قال: (كيف سمحتْ نفسُ فلان بهبة هذا المال كلّه؟) يريد بذلك / الاستعظام دون الاستنكار، إذ هو عالِم بأنه قد وهب.

وقيل في معنى قوله تعالى﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾: أي على أيّ حال يكون الولد؟ أيردني الله تعالى وامرأتي إلى حال الشباب، أم على هذه الحالة؟[1].

ويُقال: معناه أيرزقني الله من امرأتي هذه، أو من امرأةٍ أخرى شابّة؟ فقيل له: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ﴾ أي كما أنت عليه، يفعل الله تعالى الذي يشاء.

ويُروى أن جبريل عليه السلام حرّك سعفة يابسة فأثمرت السعفة، ثم قال جبريل: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي كإثمار السعفة اليابسة، يفعل الله ما يشاء[2].

فإن قيل: كيف قال في هذا الموضع: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[3]؟ وهل يجوز أن يقول الإنسان: (بلغني البلدُ)، كما يقول: (بلغتُ البلدَ)؟ قيل: هذا جائز في هذا الموضع، ولا يجوز في البلد، لأن الكِبَر كالطالب للإنسان لإتيانه عليه بحدوثه فيه، والإنسان كالطالب للكبر لبلوغه إياه بمرور السنين والأعوام عليه. وأما البلد، فلا يكون

---

(1) نُسب هذا القول في النكت والعيون 391/1 إلى الحسن.

(2) لَم أجد من ذكره.

(3) جزء من الآية (8) من سورة مريم.

طالبا للإنسان كما يكون الإنسان طالبا للبلد[1].

قوله ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

أي قال زكريا: يا ربِّ اجعل لي علامةً إذا حبلت امرأتي، عرفتُ ذلك منها. أراد بهذا القول، أن يتعجل به السرور قبلَ ظهور الولد بالولادة.

ويُروى أن جبريل عليه السلام لـمّا بشّر زكريا بالولد، ألقى الشيطان في نفس زكريا عليه السلام أن النداء الذي سمعه نداءُ الشيطان، فقال: رب اجعل لي آية[2].

﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي علامةُ حدوثِ حبلِ امرأتك أن لا تُطيق الكلام مع أحد من الناس ثلاثة أيام من غير خَرَس إلا إشارةً بالعينين والحاجبين واليدين[3].

وقيل: إن الرمز تحريك الشفتين باللفظ من غير إبانة بصوت [4]. والرمز والترمّز في اللغة الحركة والتحرّك[5].

وقوله ﷻ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ أي في هذه الأيام الثلاث ﴿ وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ أي صلّ غدوا وعشيا، كما كنتَ تصلي من قبلُ.

---

(1) قاله الواحدي في البسيط ق25/ب.

(2) قاله السدي، أخرجه عنه الطبري 384/5، وابن المنذر 193/1، وابن أبي حاتم 645/2. وأخرج الطبري 382/5-383 عن أبي بكر عن عكرمة نحوه. وأبو بكر - وهو الهذلي - أخباري متروك الحديث كما في التقريب رقم(8002).

(3) ذهب إلى أن المراد بالرمز الإشارةُ والإيماء: الحسن، وقتادة، السدي، والضحاك، وابن إسحاق، والربيع، وابن زيد. يُنظر: الطبري 389/5-390.

(4) هو قول مجاهد (الطبري 388/5 بطرق عنه)، وأبي عبيدة (مجاز القرآن 93/1). وجنح إليه الطبري 387/5، حيث قال: «وأما الرمز، فإن الأغلب من معانيه عند العرب الإيماء بالشفتين».

(5) معاني القرآن للزجاج 409/1. ويُنظر: تهذيب اللغة 141/13« ر م ز ».

يقال: فرغتُ من سُبْحَتِي، أي من صلاتي، وسمّى الله الصلاةَ تسبيحًا [١]، لما فيها من التوحيد والتمجيد والتنزيه من كل سوء[٢].

وقال بعضهم: أراد بالتسبيح، التسبيحَ المعروفَ فيما بين الناس.

قال الحسن: جُعلتْ آيةُ زكريا أن أُمسِكَ لسانُهُ عن الكلام مع الناس من غير خَرَسٍ ولا حدوثِ آفةٍ به، فكان لا يُمكنه أن يتكلم مع الناس، وكان يمكنه أن يذكر الله تعالى ويقرأ كلامه[٣].

وكان هذا معجزة عظيمة، إلا أنها إنما كانت معجزةً له في نفسه دون غيره من الناس، فإن غيرَه من الناس كان إذا رآه يتكلّم بذكر الله ﷻ ولا يتكلم مع الناس لا يمكنه أن يعلمَ أنّه ممنوع من الكلام مع الناس، بل كان يظن أنه يمتنع عن الكلام مع الناس بنفسه.

وفي ذكر الأيام الثلاثة في هذه الآية وذكر ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[٤] في آيةٍ أخرى في هذه القصة، دليلٌ أن أحد العددين إذا ذُكر على لفظ الجمع أريد به مثلُه معه مِن العدد الآخر في الأحكام [٥]؛ ألا ترى أنه لـمّا اختلف الأيام والليالي، أُفرد كلٌّ واحد منهما بالذكر، قال الله تعالى ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[٦]. فأما عند الإطلاق، إذا ذُكر أحد العددين على وجه الجمع في العقود والنذور، دخل معه مثله من العدد الآخر[٧].

---

(١) في الأصل: « التسبيحَ صلاةً »، وهو سبق قلم. والتصحيح من معاني القرآن للزجاج 409/1، وتفسير الحدّاد 51/2-52.

(٢) معاني القرآن للزجاج 409/1.

(٣) ذكره الهوّاري في تفسيره 282/1، والواحدي في البسيط ق26/أ بنحوه مختصرا.

(٤) جزء من الآية (10) من سورة مريم.

(٥) المراد بالعددين، الأيام والليالي. فإذا ذُكر عددٌ معيّن من الأيام، دخل مِثلُها من الليالي معها، والعكس بالعكس.

(٦) جزء من الآية (7) من سورة الحاقة.

(٧) راجع: أحكام القرآن للجصاص 20/1.

قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

معطوف على ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾. والمراد بالملائكة جبريل عليه السلام وحده على نحو ما تقدّم ذكره. ومعنى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أي اختاركِ لطاعته وعبادته، ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الكفر بالإيمان [١]، كما قال الله ﷻ: ﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[٢]، أراد طهارة الإيمان والطاعات. وقد سمّى الله ﷻ الكفرَ نجاسةً في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾[٣]. وقيل: معنى ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الأدناسِ كلّها، من الحيض والنفاس وغيرهما[٤].

وقوله ﷻ: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي اختاركِ على نساء عالمي زمانك وبولادة عيسى عليه السلام بَشَرًا من غير أب.

فإن قيل: كيف يجوز ظهور الملائكة لمريم، وذلك كان معجزًا، لا يجوز ظهوره على غير نبيٍّ، ومريم لَم تكن نبيّا كما قال الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا [يُوحَىٰٓ][٥] إِلَيْهِمْ ﴾[٦]؟ قيل: إنها وإن لَم تكن نبيّا، فإن ذلك

---

(١) هذا قول الحسن كما في تفسير الهوّاري 282/1، والنكت والعيون 392/1. وبمعناه قول مجاهد عند الطبري 396/5، وابن المنذر 196/1، وابن أبي حاتم 647/1، ولفظه: «جعلكِ طيِّبَةً إيمانًا».

(٢) جزء من الآية (33) من سورة الأحزاب.

(٣) جزء من الآية (28) من سورة التوبة.

(٤) فَسَّر السدّي التطهير بأنه «من الحيض»، ورُوِي نحوه عن عكرمة. راجع: ابن أبي حاتم 647/2. ورجّح الزجاج في معاني القرآن 410/1 بأنّ التطهير «من سائر الأدناس».

(٥) هذه قراءة نافع، ووافقه عليها الجمهور ما عدا حفصًا عن عاصم فقرأ: ﴿ نُوحِيٓ ﴾، مبني للفاعل بنون العظمة. يُنظر: النشر 296/2، و323.

(٦) جزء من الآية (7) سورة الأنبياء.

كان في وقت زكريا عليه السلام، ويجوز ظهور الـمُعجِز في زمان الأنبياء عليهم السلام لغيرهم ويكون / ذلك معجزة لهم[١].

وقال بعضهم: كان ذلك إيهاما [٢] لنبوّة عيسى عليه السلام، كما كان الشُهُب[٣] وتظليل الغمامة[٤] وكلام الذئب[٥] إيهاما لنبوة نبينا محمد ﷺ.

هذا الإشكال وما سيذكره المؤلف جواباً عنه، إنما هو من قول المعتزلة. راجع: تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبدالجبار ص65، والتبيان للطوسي2/457، والكشاف 1/389. وهو مبني على مذهبهم في إنكار كرامات الأولياء، وإلا فلا مانعَ عند أهل السنة من كون الملائكة خاطبتْ مريم عليها السلام كرامةً لها، كما قد صحّ مخاطبة الملائكة أيضا للرجل الذي زار أخا له في الله، كما عند مسلم في صحيحه (البر والصلة/ باب في فضل الحب في الله/ ح 2567) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. وراجع: البحر المحيط3/146.

[١] كونُ كرامات الأولياء هي من دلائل النبوة = حقٌّ وصواب، وذلك أنها لا توجد إلا لمن اتّبع النبي الصادق، لكن ليس ذلك مختصا بزمن الأنبياء، كما زعمته المعتزلة، بل توجد الكرامات في أتباع الأنبياء، ولو بعدهم بقرون. يُنظر: النبوات لابن تيمية2/604-605.

[٢] كذا في الأصل، وفي تفسير الحدّاد: « إيـــماءً »، ولعله أصح.

[٣] أي الشهب التي صارت الشياطين تُرجم بها عند مبعث النبي ﷺ. راجع: سيرة ابن هشام 1/204-207؛ وتفسير الآيتين (9-10) من سورة الجن عند الطبري 23/327-329.

[٤] جاء ذكر تظليل الغمامة في القصة المشهورة في مُرافقته ﷺ لعمّه – أيام الصبا – في سفرة الشام، حيث مرّت القافلة بالراهب « بحيرى » الذي لاحظ ذلك عليه. ذكرها ابن إسحاق في المغازي (سيرة ابن هشام 1/180-182)، ورواها الترمذي (3620) وحاكم في المستدرك 2/615 من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بسياق فيه نكارة؛ قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وقال الذهبي في تلخيص المستدرك: «أظنه موضوعا فبعضه باطل». وانظر: تاريخ الإسلام للذهبي1/55-60.

[٥] كلام الذئب للأعرابي مخبرًا إياه عن رسول الله ﷺ، إنما كان بعد النبوة، والنبي ﷺ يومئذ بالمدينة. أخرجه أحمد 18/315، والحاكم 4/467، والبيهقي في دلائل النبوة 6/41-42، وغيرهم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم »، وقال البيهقي: «هذا إسناد صحيح».

قوله ﷻ: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قال سعيد بن جبير: معنى ﴿ ٱقْنُتِى ﴾ أخلصي العبادة لربك[١].

وقال قتادة: معناه أديمي الطاعة لربّك[٢].

وقال مجاهد: معناه أطيلي القيام في الصلاة [٣]. وهذا القول الآخر أشبه الوجوه بحال الأمر؛ لأن الله تعالى عطف الأمر بالركوع والسجود على ذلك، والقيام والركوع والسجود كلها أركان الصلاة. ولذلك لَم يكن هذا موضعَ سجدةٍ عند أهل العلم لأنه أمرٌ بالصلاة[٤].

وقيل: في قولهﷻ ﴿ وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أمرٌ لها بالصلاة في الجماعة مع الأحبار في بيت المقدس لأنها كانت خادم المسجد.

وفي الآية دليل أن الواو لا يوجب الترتيب، لأن الركوع مقدَّم على السجود في المعنى، وقد قدّم السجود في هذه الآية في اللفظ[٥].

---

[١] أخرجه الطبري 399/5.

[٢] أخرجه عبد الرزاق في تفسيره 393/1، ومن طريقه الطبري 399/5-400، وابن المنذر 198/1، بلفظ: «أطيعي ربَّكِ».

[٣] أخرجه عبد الرزاق 391/1، والطبري 398/5، وابن المنذر 197/1، وغيرهم بطرق عنه، بلفظ: «**أَطِيلي الرُّكُود**» أي القيام، وفي طريق الليث بن أبي سليم عنه قال: «قامت حتى وَرِمت قدماها». **تنبيه:** تصحّف الأثر في المطبوع من تفسير ابن المنذر إلى: «أطيلي الركوع»!، وهو على الصواب في النسخة المخطوطة ق39/أ.

[٤] بتصرّف من أحكام القرآن للجصاص 21/2.

[٥] أحكام القرآن للجصاص 21/2. قلتُ: والاستدلال على هذه المسألة المشهورة بهذه الآية لا يتمّ إلا بشرطين؛ الأول: أن يُعلم أن الصلاة في شريعتهم، كان الركوع فيها مقدم على السجود. والثاني: أن يكون جهة الأمر بالسجود متّحدا مع جهة الأمر بالركوع، وإلا فقد ذهب بعض المفسرين – كابن عطية في المحرر 84/3 - إلى انفكاك الجهة، بمعنى أن الأمر بإطالة القيام والسجود، أمرٌ بالصلاة النافلة التي تكون بالإنفراد؛ إذ لا يؤمر التابع لإمامه، أن يُطيل القيام، وأما الأمر بالركوع مع الراكعين، فهو أمر لها بأداء الفرائض مع الجماعة.

قولــــه ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول: ما قصصناه عليك – يا محمد ﷺ – من أمر زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، من أخبار ما غاب عنك، نُرسل جبريل عليه السلام به إليك، وما كنتَ – يا محمد ﷺ – عندهم إذ يطرحون أقلامهم في النهر على الجِرية [١] أيهم يضمّ مريم للقيام بأمرها، وما كنت عندهم إذ يختصمون في أمرها للتربية.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأقلام القداح وهي السهام [٢]، سُميّت أقلاما لأنها تُقلم أي أنها تُبرى كالقلم؛ والقَلَم المقْلُوم[٣].

وفي إخبار الله ﷻ النبيَّ ﷺ بأنباء الغيب دليلُ نبوته، لأن النبي ﷺ كان أُمِّيًّا، ومثل هذه الأخبار لا تُعلم إلا بأحد وجوهٍ أربعة: إما بالمشاهدة، أو بقراءة الكتب، أو بالتعلم ممن قرأ الكتب وعرف تلك الأخبار، أو بالوحي من جهة الله ﷻ. وقد انتفت الوجوه الثلاثة عن النبي ﷺ فثبت أنه كان بالوحي من جهة الله ﷻ.

قولــــه ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

[١] نُقل في الهامش من الصحاح «ج ر ي» قولُه: «الجِرْية، بكسر الجيم، يقال: ما أشدّ جريةَ هذا الماء. من **ص**»

[٢] هذا قول قتادة، وعطاء، وأبو عُبيدة، وابن قتيبة، والزجاج. يُنظر: الطبري 404/5، ابن المنذر 199/1، مجاز القرآن 93/1، غريب القرآن لابن قتيبة ص 105، معاني القرآن للزجاج 410/1.

[٣] أي إن القَلَم، «فَعَلٌ» بمعنى «المفعول» أي المقلوم، نحو الوَلَد بمعنى المولود، والسّلَب بمعنى المسلوب. يُنظر: أساس البلاغة ص274 «ز ل م»، واللسان 490/12 «ق ل م».

معناه – والله تعالى أعلم– : واذكر إذ قالت الملائكة، يعني جبريل عليه السلام:

﴿ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ﴾ يعني عيسى بن مريم، سمّاه الله تعالى كلمةً لأنه كان بكلمة من الله تعالى ألقاها إلى مريم، ولَم يكن بحرث والد.

وقال بعضهم: سمّي كلمةً لأن الناس كانوا يهتدون به في أديانهم كما يُهتدى بالكلام[١].

وقال بعضهم: ذكره الله تعالى في كُتُبِ مَن قبله، فكان الكلمة هي ما ذُكر في الكتب من حديثه، وهذا كما يقول الإنسان لغيره إذا خرج الأمر موافقا لقوله: (قد جاء كلامي)[٢].

فأما قوله تعالى: ﴿ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ ﴾، فإنما ذكره بلفظ التذكير لأن معنى الكلمة معنى الولد، فلذلك لَم يَقُل: اسمها، والله أعلم.

وقد اختلفوا في تسميته مسيحًا؛ رُوي عن عبدالله بن عبّاس أنه قال: المسيح الممسوح بالبركة، وذهب إلى أن المسيح «فعيل» بمعنى مفعول[٣].

وقال بعضهم: سمّي مسيحا بمعنى الماسح، كان يمسح ذوي العلل فيبرؤون[٤].

وقيل: لأنه كان يمسح الأرض مسحا ولا يستقر[٥].

وقال الكلبي: المسيح، الملِك الذي لا حاجة له إلى أحد من المخلوقين[٦].

---

(١) هذا قولُ القاضي عبد الجبار في تنزيه القرآن ص 66. ونسبه ابنُ الجوزي في زاد المسير 389/1 إلى القاضي أبي يعلى.

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز 86/3-87، ناسبًا إياه إلى «قوم من أهل العلم».

(٣) لَم أجده عن ابن عبّاس. وقد ذكره الهوّاري في تفسيره عن الحسن البصري، وأخرجه الطبري 410/5 عن سعيد بن بشير الأزدي الدمشقي، من مفسري أتباع التابعين. وإليهما عُزي القول في النكت والعيون 394/1، وزاد المسير 389/1.

(٤) نسبه في البسيط ق27/ب، وزاد المسير 389/1 إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما برواية الضحاك عنه.

(٥) هذا قول أبي العباس ثعلب، وأبي بكر الأنباري، كما في تهذيب اللغة 201/4 « م س ح ».

(٦) ذكره السمرقندي في بحر العلوم 213/1 دون ذكر: الذي لا حاجة ...الخ. ونَسب الثعلبي في الكشف والبيان 68/3، تفسيرَ المسيح بالملك، إلى أبي عمرو بن العلاء.

ويُروى عن عيسى عليه السلام أنه كان يقول: الشمس صلائي [١]، والقمر سراجي، وبُقول البرِّية طعامي، أَبيت حيث يُدركني الليل، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا مال يُسرَق، أُصْبِحُ ولا غداء لي، وأمسي ولا عَشاء لي، وأنا من أغنى الناس[٢].

وأما ﴿عِيسَى﴾، فهو معدول من « أيسوع » بالسريانية، واشتقاقه في كلام العرب[٣] أنه «فِعلى» من العَيَسَ، وهو بياض الإبل، وقيل: من العَوْس، وهو من السياسة[٤]، إلا أن الواو قُلبت ياءً لانكسار ما قبلها[٥].

وقوله عز وجل: ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أي ذا قدرٍ ومنزلةٍ في الدنيا عند أهلها، وفي الآخرة عند ربه. والوجيه: الذي لا يُرَدُّ قوله، يقال: (وَجُهَ الرجلُ، يَوجُهُ وجاهةً، وله جاهٌ)، إذا صار بحيث لا تُرد مسألَتُهُ[٦].

وقوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي من المقربين إلى ثواب الله عز وجل في جنّة عدن، وهي الدرجة العليا[٧].

---

(١) كُتب في الهامش: «صلائي: أي دِفائي». أي إن الشمس هي النار التي أتدفّأ بها، من قولهم: (صَلِيَ بالنار واصطلى بها)، أي قاسى حرّها. اللسان مادة «ص ل ي».

(٢) أخرجه أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم 266/3 عن المعتمر بن سليمان التيمي عن عيسى عليه السلام بنحوه. وذكره الزمخشري في ربيع الأبرار 331/5 أيضا بنحوه.

(٣) لفظ الزجاج في معانيه 419/1: «ومثال اشتقاقه من كلام العرب»، وهو الأليق، وذلك أنه إذا قيل بعُجمة «عيسى»، دلّ على أنه ليس له اشتقاق بالعربية ، وإنما الاشتقاق لِمَا يُماثله في ظاهر اللفظ من كلام العرب.

(٤) كُتب في الهامش: «أي سياسة المال من (ص)». هو في الصحاح مادة «ع و س».

(٥) معاني القرآن للزجاج419/1-420.

(٦) راجع: البسيط ق28/أ.

(٧) من كان في أعلى الجنان، فلا يصح أن يُقال فيه: (إنه مقرّب من ثواب الله)، بل هو منغمس في ثواب الله وعائش فيه، وإنما هو مُقرّب من الله حقيقةً لأن الفردوس — كما قال النبي صلى الله عليه وسلم - « **أعلى الجنّة وفوقَه عرشُ الرحمن** ». أخرجه البخاري (التوحيد/ وكان عرشه على الماء /ح7423) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والتقرب / إلى الله ﷻ تقربٌ إلى ثوابه[١].

قوله ﷻ: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

معناه: ويكلمّ الناس في مضجع الرضاع، ويكلّم كهلا بعدما دخل في السن، ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي من المرسلين. وقال الكلبي: أراد با لمهد الحجْرَ، وكلّ ما مُهِد فهو مَهْدٌ[٢].

رُوي في الخبر أن مريم لما ولدت عيسى، ذهب بهما يوسف بن يعقوب بن ماثان[٣] إلى غار فكانا في الغار أربعين يوما، ثم أتت قومها به، وهو وهو ابن أربعين يوما ﴿ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾[٤] فكلمهم في حَجرها ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الآية[٥]، ثم لَم يتكلم بعد ذلك حتى حتى بلغ مبلغ الغلمان الذين يتكلمون، فكان يكلم ويَعلم ما لا يعلمه أحد[٦].

فإن قيل: الكلام في حال كونه في المهد مما يَحسن تعجيبُ الناس به، وأما الكلام من الكهل فليس بعجيب، وكيف ذكره الله تعالى في القرآن؟ قيل: في ذكر الكلام في الكهولة بشارة لِمريم في أن عيسى عليه السلام يعيش إلى وقت

---

[١] هذا إنكار لكون العبد يتقرب إلى ربّه حقيقةً بحركة بدنه وروحه إليه. وهو مبني على قول متكلّمة الجهمية: إن الله ليس فوق العرش، وإنه لا داخل العالَم ولا خارجه، فلا يتصور التقرب إليه إذ نسبة جميع الأمكنة إليه سواء. وأما أهل السنة الذين أثبتوا أن الله فوق العرش، فهم يُثبتون أن العبد يتقرّب إليه حقيقةً بحركة روحه إليه، أو بعروج جسده إليه كما كان للنبي ﷺ ليلة الإسراء. يُنظر: فتاوى شيخ الإسلام 5/6-32.

[٢] تنوير المقباس ص61.

[٣] في الهامش: «وقيل: ماسان». في الكامل لابن الأثير 236/1 أن يوسف هذا هو ابن عمّ مريم عليها السلام، كان نجّارا يعمل بيدَيه ويتصدق بذلك، ويلي خدمة الكنيسة.

[٤] جزء من الآية (27) من سورة مريم.

[٥] الآية (30) من سورة مريم.

[٦] راجع: عرائس المجالس للثعلبي ص434.

الكهولة[١]؛ وقيل: أراد به أنه يكلم في حال الكهولة بعد نزوله من السماء لقتل الدجال[٢]؛ ويقال: أراد بالكلام في المهد براءة أمّه مما رماها اليهود، وأراد بالكلام في الكهولة إبطالَ ما ادّعاه النصارى من كونه إلها لأنه كان طفلا ثمّ صار شابا ثم صار كهلا، ومن يكون بهذه الصفة لا يجوز أن يكون إلها[٣].

و«الكهل» في اللغة هو الذي جاوز حدّ الشباب ولَم يبلغ حالة الشيخوخة. يقال: (اكتهل) إذا قوِي واشتد. وقيل: إن الكهل هو الذي يكون ابن أربع وثلاثين سنة[٤].

قولـــه ﷻ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

معناه: قالت مريم لجبريل عليه السلام: يا سيدي![٥] كيف يكون لي ولد، ولَم يمسسني بشر بالنكاح ولا بالسفاح؟

وكان هذا القول منها على جهة الاستعظام لقدرة الله ﷻ، لا على وجه

---

[١] معاني القرآن للزجاج 412/1. وفي المحرر الوجيز 89/3 نُسب هذا القول إلى الربيع بن أنس، وجماعة من المفسرين.

[٢] هذا قول ابن زيد، أخرجه عنه الطبري 414/5. وقاله أيضا: أبو العباس ثعلب كما في تهذيب اللغة 14/6 مادة «ك هــ ل».

[٣] قاله الطبري في تفسيره 412/5-413.

[٤] هذا أول الكهولة، وأما آخرها فإحدى وخمسون. وفي أولها وآخرها أقوال أخرى، يجمعها أن الكهولة فترة كمالِ القوّة، بعد انتهاء الشباب وقبل بداية الشيخوخة. يُنظر: المحرر الوجيز 89/3، البحر المحيط 144/3-145؛ لسان العرب، وتاج العروس مادة «ك هــ ل».

[٥] قد سبق عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ الآية (40)، أن تفسير الرب بالسيد، وجَعْلَ المخاطَب هو جبريل = من بدع التفاسير.

الاستبعاد كما تقدم ذكره[1]. وقال بعضهم: أرادت بهذا القول: أن تعرف أنه يكون لها ولد قبل أن يمسّها بشرٌ أو بعد أن يمسّها بشر؟ [2] فأجابها جبريل عليه السلام قال: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي كما قلت لك، ويقال: كما أنت عليه، يخلق الله ما يشاء، أن [3] يكون لكِ ولد من غير أن يمسّكِ بشر.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ أي إذا أراد شيئا، ويُقال: إذا حكم بتكوين شيء، فإنما يقول له: ﴿كُن﴾، فيكون كما أراده الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا إخبارٌ عن سرعةِ كون مراد الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه لا يكون في وهم العباد شيء أسرع مِن ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾؛ وإنما ذكر ذلك بلفظ الأمر لأنه أدلّ على القدرة[4].

---

[1] أي عند تفسير قوله تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلام: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ الآية (40).

[2] قاله الطبري 415/5.

[3] كذا في الأصل، ولعله تصحيف، والصواب: «أي»، أو «أنه».

[4] كأن المؤلف يذهب إلى أنه ليس ثَمَّ ﴿ كُن﴾ يقوله الله حقيقةً فعندئذ يتكوّن ذلك الشيء؛ بل إنما في التعبير مجاز، والمراد سرعة نفاذ قدرة الله في تكوين الأشياء. وقد صرّح به المؤلف في ق38/أ عند تفسير الآية (117) من سورة البقرة حيث قال: «إنما قال ذلك على سبيل المثل، أي إن الأشياء بسهولتها عليه وسرعةِ كونِها بإذنه و أمره بمنزلة ما يُقال له: كُنْ فيكونُ...». وهذا مذهب الأشاعرة والماتريدية الذين نفوا قيام الأفعال الاختيارية — ومنها الكلام الحقيقي ذو صوتٍ وحرفٍ — بذات الرب بشُبهة أنه يلزم منها «حلول الحوادث» بذاته، وذلك ممنوع! ينظر لذلك: تفسير الماتريدي 372/2، ومفاتيح الغيب 29/4-31، ومدارك التنزيل 71/1، والبحر المحيط 583/1-586 عند تفسيرهم للآية: (117) من سورة البقرة ويرد دعوى المجاز، قولُه تعالى في سورة النحل ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ حيث أكّد سبحانه الفعلَ بالمصدر ﴿ قَوْلُنَا ﴾، «وأهل العربية مُجمعون على أنهم إذا أكدوا الفعل بالمصدر كان حقيقةً»؛ قاله المفسّر الأندلسي الشهير أحمد بن عمّار المهدوي (440هــ) فيما نقله عنه أبو حيّان في البحر المحيط 585/1.

وقال بعضهم: هذه كلمة جعلها الله ﷻ علامةً لحدوث أمر من الأمور[١]. وبالله التوفيق.

قولــه ﷻ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

معطوف على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾[٢].

ويُقرأ: ﴿ونُعَلِّمُهُ﴾ بالنون[٣]، عطفًا على قوله ﷻ: ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾[٤].

والمراد بالكتاب: الزبور وغيره من الكتب التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه صلوات الله عليهم سوى التوراة والإنجيل. وقيل: أراد بالكتاب الكتابة[٥].

---

[١] هذا القول لأبي الهذيل العلاف المعتزلي كما في مفاتيح الغيب 31/4، والبحر المحيط 585/1.

[٢] أي إن قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ محلّه النصب على الحال المقدر، عطفا على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ الذي هو نفسه معطوف على قوله تعالى: ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾. يُنظر: مشكل إعراب القرآن ص160، المحرر الوجيز 91/3، التبيان ص189.

[٣] هي قراءة المكي، والشامي، وأبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف. وقرأ الباقون (المدنيان، وعاصم، ويعقوب) بياء الغيبة. راجع: المبسوط ص143، والروضة 587/2، والنشر 240/2.

[٤] كذا قال الطبري 416/5، وابن خالويه في الحجة ص 109. وحكم أبو حيان بفساده من جهة اللفظ والمعنى؛ أما من حيث اللفظ فلِبُعد الفصل وتعقيد التركيب؛ وأما من حيث المعنى فلأنه يصير التركيب: هذه القصص نوحيها إليك – يا محمد ﷺ – ونعلّم عيسى الكتاب؛ وهذا كلام لا ينتظم معناه. البحر المحيط 160/3 بتصرف. والظاهر أن قراءة النون على الالتفات من الغيبة إلى التكلّم. يُنظر: الكشف 344/1، والإتحاف ص223.

[٥] هو قول ابن جريج كما في الطبري 417/5، وابن المنذر 206/1. وكذا قول مقاتل في تفسيره 170/1. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن أبي حاتم 653/2 بسند واهٍ.

والحكمة: الفقه، وهو فهم المعاني[١].

فأما قوله ﷻ ﴿ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾، قيل: علّمه الله التوراة في بطن أمّه، والإنجيلَ بعد خروجه. هذا أيضا من الحكمة إلا أنه ﷻ ذكرهما تفخيمًا لأمرهما، كما قلنا في قوله ﷻ: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ ﴾[٢].

وقوله ﷻ: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ﴾ أي يجعله رسولا بعد ثلاثين سنةً إلى بني إسرائيل، بأني قد جئتكم بعلامة من ربكم لنبوّتي.

وقال بعضهم: قوله ﷻ: ﴿ وَرَسُولًا ﴾ عطف على ﴿ وَجِيهًا ﴾[٣].

ومن قرأ: ﴿ إِنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم ﴾ بالكسر[٤]، فعلى الاستئناف[٥].

ثمّ فسر الله تعالى الآية بقوله ﷻ: ﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم ﴾؛ معناه: وهي أني أقدّر لكم من الطين، وأصوّره كشِبْه الطير، ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾، في الطين كنفخ النائم، فيصير طيرًا يطيرُ بين السماء والأرض بأمر الله ﷻ.

ويُقرأ: ﴿ طَائِرًا ﴾[٦]، إلا أن هذا أحسن لأن الطائر يُراد به الحال، أي

---

(١) بنحوه فسّر عبد الرحمن بن زيد، حيث قال: «الحكمة: العقل في الدين». أخرجه الطبري 576/2 عند تفسير الآية (129) من سورة البقرة.

(٢) الآية بتمامها ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة/٩٨] والشاهد فيها — كما قال المؤلف - أنه عُطِف «جبريلُ وميكائيل على الملائكة بعد دخولهما في اسم الملائكة لفضيلتهما». المجلد الأول، ق31/أ.

(٣) هو قول الأخفش في معاني القرآن 408/1، وابن عطية في المحرر الوجيز 92/3. وانظر: مشكل إعراب القرآن ص160، والبيان 204/1.

(٤) هي قراءة شاذة نسبها الكرماني في شواذ القراءات ق 24/أ إلى ابن عمر؛ وذُكرت في المحرر الوجيز 93/3، والبحر المحيط 161/3-162، بلا نسبة.

(٥) وجّهها أبو حيان على أنها بإضمار القول، أو على أن ﴿ رَسُولًا ﴾ مُضَمَّن معنى القول. يُنظر: البحر المحيط 162/3، والدر المصون 190/3-191.

(٦) هذه قراءة المدنيّين ويعقوب. يُنظر: المبسوط ص143، الروضة 588/2، النشر 240/2.

يقوم ويطير، و﴿طَيۡرَۢا﴾ يراد به أنه يصير طيرا من الطير[1].

وقوله ﷻ: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ أي أصحح الذي وُلد أعمى، والأبرص أيضا؛ وأحيي الموتى باسم الله الأعظم: «**يا حَيُّ يا قيّوم**»[2]، وأخبركم بما تأكلون غُدوةً وعشيَّةً، وما ترفعون من غداء لعشاء، ومن عشاء لغداء. ويجوز أن يكون المعنى: ﴿مَا تَأۡكُلُونَ﴾ معنى / الذي تأكلون، والذي تدخّرون، ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مع ما بعده بمنزلة المصدر كأنه قال: بأكْلكم وادّخاركم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ أي إنَّ فيما قلت لكم لعلامة لكم في نبوّتي إن كنتم مصدّقين بالله ﷻ؛ لأنّ من صدّق بالله ﷻ وعَلِم[3] أنه حكيمٌ لا يُظهر المعجزة على من يَكْذِب ويتخرص عليه، وإنما يُظهرها على من يكون نبيا.

وقيل: إنّ معنى﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي من كان مؤمنا، فهذا حكمه: أن يتبع المعجزة ويقبلَها.

ورُوي أن عيسى عليه السلام لَمَّا دعاهم إلى الله ﷻ بدعوى هذه المعجزات، قالوا له: اخلق لنا خُفّاشا؛ سألوه ذلك لأن الخفاش من أعجب الطيور، يطير بغير ريش، ويلد ولا يبيض، ويضحك، ويحيض؛ طلبوا منه ذلك متعنِّتين، فأخذ طينا وجعل منه خفّاشا، ونفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض، فقالوا: هذا سحر! فقال: أبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله،

---

[1] وذلك لأن « الطير» اسم جنس، فيكون أدل على إثبات أن الطين تحوّل إلى كائن حيّ من جنس الطير، بخلاف « الطائر» الذي هو اسم فاعل، وهو إنما يدل على حدوث الطيران، من غير أن يكون صريحا في تحوّل الطين إلى جنس الطير. وعلى كل، فالقراءتان صحيحتان ومتواترتان تفسر إحداهما الأخرى.

[2] قاله الكلبي، كما في الكشف والبيان للثعلبي 73/3 وتنوير المقباس ص62.

[3] كذا في الأصل، ولعل الصواب «عَلِمَ» بدون الواو، جوابا لــ «مَن» الشرطية.

فقالوا: إن إبراء الأكمه والأبرص يفعله أطبّاؤنا، فذهبوا إلى جالينوس [(١)] وأخبروه بأمر عيسى عليه السلام، فقال: إن الذي وُلد أعمى لا يبصر بالعلاج، والأبرص الذي لو غُرز لا يخرج منه الدم لا يبرأ بالعلاج، وإن كان هو يُحيي الموتى فهو نبي؛ فجاءوا بأكمه وأبرص فمسح يده عليهما فبرءا، فقالوا: هذا سحر! فإن كنت صادقا فأحْيِ الموتى! فأحيى رجلا يُقال له ابن العازَر؛ بلغه أنه قد مات، فذهب مع أصحابه، وقد دُفن، وأتى عليه أيام، فدعا الله عز وجل، فقام بإذن الله عز وجل وذَكَرُه يقطر، فعاش ووُلِدَ له؛ وأحيى ابنَ العجوز مُرَّ به يُحمل على سرير، فدعاه، فقام ولبس ثيابه، وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله، وبقي ووُلد له؛ وأحيى ابنة العاشر ماتت وأتت [(٢)] عليها ليلة، فدعا الله تعالى لها، فعاشت وبقيت ووَلدت؛ فقالوا: إنك تحيي من كان موته قريبا، ولعلهم لَم يموتوا، وأصابهم سكتة! فأحْيِ لنا سام بن نوح ! فقال: دلّوني على قبره، فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى إلى قبره فدعا الله تعالى، فخرج من القبر، فقال له عيسى عليه السلام: من أنت؟ قال: سام بن نوح عليه السلام، قال: من أنا؟ قال: عيسى ابن مريم، روح الله وكلمته، قال: كيف شاب رأسُك، ولَم تكن في زمانك شِبتَ ؟ قال: سمعتُ صوتا: «أجِبْ روح الله!» فظننتُ أن القيامة قد قامت، فشاب رأسي من هولِ ذلك، قال: تحبُّ أن أسأل الله عز وجل أن تعيش معنا ؟ قال: لا فإن مرارة النزع لَم تذهب [(٣)] من حلقي بعدُ – وكان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنةٍ – فقال للقوم: صدّقوه فإنه

[(١)] الفيلسوف الطبيعي اليوناني المعروف، مؤلف الكتب المشهورة في صناعة الطب. قال المسعودي: إنه كان بعد المسيح بنحو مائتي سنة. و قد تعرض جالينوس في بعض كتبه لذكر المسيح والنصارى على وجهٍ يدل على أنه كان بعد زمنه. راجع: إخبار العلماء بأخيار الحكماء للقفطي ص85-90، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أُصَيبعَة ط109-149.

[(٢)] أشير في الهامش إلى أنه في نسخة: « وأتى ».

[(٣)] في الأصل: «يذهب»، والتصويب من (ب)، وتفسير الحداد 58/2.

نبي عليه السلام، ومات مكانه فآمن به بعضُ القوم وكذّبه بعضهم، وقالوا: هذا سحر! فأخبِرْنا بما أكلنا وادّخرنا، فكان يقول: يا فلان! أنت أكلتَ كذا، وادخرتَ كذا؛ ويا فلان ! أنت أكلتَ كذا، وادخرتَ كذا؛ فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ثم هَمَّ الكافرون بقتله فرفعه الله عز وجل إلى السماء[1].

قوله عز وجل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

معناه – والله أعلم – وجئتكم مصدّقا لما بين يديّ، أي أتيتُ بالتوراة وأحكامِها وصدّقتها؛ ويقال: عَنَى بالتصديق أنّ في التوراة البشارةَ بي، فإذا خرجتُ فقد صدّقتُ ذلك.

ولا يجوز أن يكون ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطفا على ﴿وَرَسُولًا﴾، إذ لو كان كذلك، لقال: « مصدقا لما بين يديه »[2].

وقوله عز وجل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ عطف على معنى ﴿مُصَدِّقًا﴾، كما يقال: (جئتك معتذرا ولأَعطِفَ)[3].

ومعناه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ أي لأرخِّص لكم بعض الذي حُرّم عليكم؛ لأنه كان في التوراة أشياء محرمة، حلّل عيسى عليه السلام بعضَها، وهو العمل في يوم السبت، وشحوم البقر والغنم، وسائرُ ما حُرّم عليهم بظلمهم. فأما أن يكون أحل لهم القتل والسرِقَ والزنا فمحال.

وكان أبو عُبيدة يذهب في هذا إلى أن معناه: ولأحل لكم كلَّ الذي

---

[1] بحر العلوم 214/1-215.

[2] راجع: معاني القرآن للفراء 216/1، الطبري 431/5، إعراب القرآن للنحاس ص204.

[3] أي جئتك لأعتذر ولأعطف، فيكون معنى الآية: جئتكم لأصدّق ما بين يديّ من التوراة، ولأحل لكم. يُنظر: البسيط للواحدي ق 30/أ. وهذا العطف «فيه نظر، لأن المعطوف عليه حال، وهذا تعليل». الدر المصون 202/3-203.

حرّمه عليكم أحباركم، لا ما حرّمه أنبياؤكم – عليهم السلام – وكان يستدلّ في عبارة الكل بالبعض بقول لبيد:

تَرَّاكُ أَمْكِـنَةٍ إذَا لَمْ أَرْضَهَا ... أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[1]

قال: معناه كلَّ النفوس[2].

وقال الزجاج: لا يجوز أن يُذكر البعض عبارةً عن الكل، لأن بعض الشيء جزء منه، قال: ومعنى قول لبيد « أو يعتلق » أي يعتلق نفسي حمامُها لأن نفسَه بعضُ النفوس. وهذا كلام يستعمله الناس، يقول القائل: (بعضنا يعرفك)، يريد به: أنا أعرفك. قال: وإنما جاءهم عيسى بتحليل بعض ما حُرّم عليهم من الطيبات / بظلمهم[3].

وأما قوله عز وجل: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لَم أحلّ لكم شيئا مما حُرّم عليكم من غير برهان بل أتيتكم بعلامة نبوّتي ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما آمركم وأنهاكم ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبينه لكم.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

حكاية قول عيسى عليه السلام، أي قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ خالقي وخالقكم، ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي وحّدوه. هذا الذي أدعوكم إليه ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، طريق في الدين لا عوجَ فيه، من سلكه أداه إلى الحق.

---

[1] البيت من معلّقته الشهيرة. راجع: شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ص313، شرح المعلقات السبع للزوزني ص104، المعلقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي ص102.
«الحِمام» هو قضاء الموت وقدره. و «بعض النفوس» كناية عن نفسه. فمعنى البيت: إني لأترك الأماكن التي لا أرضاها، إلا أن أموت. شرح الشافية للرضي 415/4-417.

[2] لأن الحِمام – أي الموت – لا ينـــزل ببعض النفوس، «ولكنه يأتي على الجميع». مجاز القرآن 94/1.

[3] معاني القرآن للزجاج 415/1 بنحوه.

قوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ ﴾

معناه – والله تعالى أعلم – لما علم عيسى عليه السلام منهم الكفرَ والقصدَ إلى قتله، قال: من أعواني مع الله تعالى؟

ووُضع ﴿ إِلَى ﴾ في هذا موضعَ (مع)، لأن (إلى) للغاية، و(مع) للاتصال، فتقارب اللفظان. وهذا كما يقال: (الذود إلى الذود إبلٌ)، معناه الذود مع الذود إبل[١]. وقال الزجاج: معنى ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ من يضيف إلى الله نصرتَه لي؟[٢] فإن من ينصرني فقد نصر الله.

وقال الحسن: معناه من أنصاري إلى سبيل الله؟[٣].

ويقال: معناه مَن أنصاري لله؟ كقوله ﷻ ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾[٤]، معناه: من يهدي للحق بدليل أنه عقّبه بقوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ ﴾[٥].

وقوله ﷻ: ﴿ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ أي قال المخلصون في النصرة والتصديق: نحن أعوانُ دين الله تعالى معك، صدَّقْنا بتوحيد الله تعالى، ﴿ وَٱشۡهَدۡ ﴾ يا عيسى ﴿ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ فإنا أشهدناك على ذلك.

---

(١) فكأنه قيل: الذود مضموما إلى الذود إبل. يُنظر معاني القرآن للفراء 218/1، والطبري 436/5. وهو مثلٌ يُضرب في اجتماع القليل إلى القليل حتّى يؤدي إلى الكثير. راجع: مجمع الأمثال للميداني 277/1.

(٢) معاني القرآن 416/1، ولفظه: «يضيف نصرتَه إياي إلى نصرة الله ؟». وبنحوه قال النحاس 405/1.

(٣) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان 27/3، والماوردي في النكت والعيون 395/1، بلفظ: «من أنصاري في السبيل إلى الله؟».

(٤) جزء من الآية (35) من سورة يونس.

(٥) هذا القول نسبه الطوسي في التبيان 473/2 إلى أبي عليّ الجبّائي المعتزلي.

والإحساس: هو العلم من جهة الحاسّة[١].

واختلف أهل التفسير في الحواريين؛ قال بعضهم: المخلصون[٢]، كما قال النبيﷺ: «**الزبير ابنُ عمَّتي، وحواريَّ مِن أُمَّتي**»[٣]، أي هو من خواصّ أمتي

وكان الحواريّون لعيسى عليه السلام اثني عشر من أصحابه، مكان العشرة من أصحاب النبيﷺ. سُمُّوا حواريين من «الْحَوَر» وهو الخلوص، يقال: (عين حَوَر)، إذا اشتد بياضُ بياضِها وخَلُص، واشتد سوادُ سوادِها وخَلُص، ومنه يقال: (دقيق حُوَّاري)، للذي لَم يبق منه إلا لبابُه[٤].

وقال بعضهم: سُموا حواريين من «الـحَوَر»، وهو البياض، إلا أنهم اختلفوا في بياضهم؛ قيل: كانوا قصّارين، يبيّضون الثياب[٥]، فمر بهم عيسى عليه السلام فقال: ألا أدلكم على تطهيرٍ أنفع من هذا ؟ قالوا: نعم، قال: تعالوا حتى نطهّر أنفسنا عن الذنوب، فبايعوه على ذلك[٦].

وقيل: كانوا بِيضَ الثياب[٧].

---

(١) راجع: البسيط ق30/ب، والمفردات في غريب القرآن ص121.

(٢) هو قول الضحاك، ولفظه: « أصفياء الأنبياء » أخرجه الطبري 443/5، وابن أبي حاتم 660/2. وبنحوه قال أبو عبيدة في مجاز القرآن 95/1. وقال الزجاج في معاني القرآن 417/1: « قال الحذّاق باللغة: ﴿ الحواريّون ﴾: صفوة الأنبياء عليهم السلام الذين خَلُصُوا، وأخلصوا في التصديق به ونُصرته». وبنحوه قال النحاس في معاني القرآن406/1.

(٣) **[صحيح]** أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده 272/22 (14374)، وابن أبي شيبة في المصنف 160/11 (32699)، وغيرهما عن جابر رضي الله عنه بإسناد صحيح. وهو عند البخاري (الجهاد/ باب فضل الطليعة/ ح2846) ومسلم (فضائل الصحابة/ باب من فضائل طلحة والزبير/ ح2415) بلفظ: «**إنَّ لكل نبيٍّ حواريًّا، وحواريَّ الزبيرُ**».

(٤) يُنظر: الفائق 330/1، النهاية 457/1-458.

(٥) رُوي هذا عن الضحاك (ابن أبي حاتم 659/2)، والحجاج بن أرطاة (أحكام القرآن لإسماعيل الجهضمي ص184، والطبري 443/5)، وابن جريج (ابن المنذر 217/1). وقاله مقاتل في تفسيره 331/1 عند تفسير الآية (111) من سورة المائدة.

(٦) بحر العلوم للسمرقندي 217/1.

(٧) هو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، وسعيد بن جبير رحمه الله وتلميذِه: مسلم بن عمران البَطين. راجع: الطبري 442/5، وابن المنذر 216/1، وابن أبي حاتم 659/2.

وقيل: كانوا بيض القلوب من الفساد.

وقيل: كانوا ملوكا تبعوه.

وقال بعضهم: كانوا صيادين، قال لهم عيسى عليه السلام: ألا أدلكم على اصطياد أنفع من هذا؟ قالوا: بلى، قال: تعالَوا حتى نصطاد أنفسنا من شَرَك إبليس، فبايعوه كلهم، كأنهم ذهبوا في هذا إلى اشتقاقه من الحَوْر الذي هو الرجوع، ومنه سمّي المِحورُ محورًا لأنه راجع [1] إلى المكان الذي زال منه، وقيل: لأنه بدَوَرانه ينصقل حتى يبيض[2].

وأما ما رُوي في الحديث: «**نَعوذُ بالله مِن الحَورِ بَعد الكَور** »[3]، فمعناه من الرجوع والخروج من الجماعة بعد أن كُنّا فيها، يقال: (كار عمامته)، إذا لفّها على رأسه؛ (وحارها): إذا نقضها[4].

قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾

أي قالوا: يا ربنا صدَّقْنا بما أنزلتَ من الإنجيل على عيسى عليه السلام واتبعنا عيسى عليه السلام، فأثْبِت أسامينا في جريدة المصدّقين لأنبيائك عليهم السلام الذين

---

[1] أشير في الهامش على أنه في نسخة: « يرجع ».

[2] انظر هذه الأقوال وغيرها في زاد المسير 394/1-395، ومفاتيح الغيب 69/8-70، واللباب 259/5-263.

[3] **[أخرجه مسلم]** في صحيحه (الحج/ باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج/ ح 1343) مِن حديث عبدالله بن سرجس رضي الله عنه في تعوذ النبي ﷺ إذا سافر بلفظ: «... بعد الكَوْنِ » بالنون. وأخرجه أحمد في مسنده 370/34-372 (20771-20773)، والترمذي في جامعه (الدعوات/ ح 3439) بالراء، ثم قال الترمذي: « ويُروى: (الحور بعد الكور) أيضا، ومعنى قوله: الحور بعد الكون أو الكور - وكلاهما له وجه - إنما هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر أو من الطاعة إلى المعصية ... ».

[4] بتصرف من معاني القرآن للزجاج 418/1.

شهدوا بصدق الأنبياء من قبلنا.

قولــه ﷻ: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

معناه – والله تعالى أعلم – مَكَر الكفار الذين لَم يؤمنوا، بقصدهم قتلَ عيسى عليه السلام. والمكر هو الاحتيال في تدبير الشرّ.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ أي جازاهم الله، على ما تقدّم أن الجزاء على المكر يُسمَّى مكرا كما في الاعتداء والسيئة والاستهزاء[1].

وقوله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ أي هو أفضل الصانعين حين جازى الكفار على فعلهم، وخَلَّص الممكورَ به ، وذلك أن اليهود كانوا قد أجمعوا على قتل عيسى عليه السلام، وهرب منهم إلى بيت فدخل البيت، فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء، فقال مَلِك اليهود – واسمه « يهوذا » – لرجل خبيث منهم يقال له «ططيانوس»[2]: ادخل عليه البيت فاقْتله، فألقى الله تعالى شَبَهَ عيسى عليه السلام عليه، فلمّا خرج رأوه على شبه عيسى عليه السلام فحسبوا أنه عيسى فقتلوه وصلبوه ثم قالوا: وجهه يُشبه وجهَ عيسى عليه السلام، وبدنه يشبه بدن صاحبنا / فإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى عليه السلام ؟ وإن كان هذا عيسى،

---

[1] قلتُ: هذا خروج من ظاهر النص إلى المجاز من غير دليل يوجب ذلك. ثُمَّ إنه لا يصح أن يكون المراد من مكر الله بهم مجرّدَ الجزاء على مكرهم، بل هو جزاء فيه مكرٌ، أي خفاءٌ في إيقاع الضرر بهم، حيث ألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على من أراد اغتياله حتّى قُتل مكانه. والله تعالى يمكر بمن يستحقّ ذلك، فليس كل مكرٍ أو استهزاءٍ قبيحًا كما زعمه كثير من المفسرين، بل المكر بمن يستحق أن يُمكر به كالأعداء والظَلَمة، من صفات الكمال والمدح، وليس ثَمَّ محظور أن يوصف الله به على الحقيقة. يُنظر: نكت القرآن للحافظ الكرجي القصّاب 213/1-214؛ مختصر الصواعق المرسلة، (كسر الطاغوت الثالث، والوجه الرابع والعشرين)، ص403-408؛ روح المعاني للألوسي 177/3-179.

[2] أشير في الهامش على أنه في نسخة: « طَيْطانوس ».

فأين صاحبنا؟ فوقع بينهم قتال، فقتل بعضهم بعضا[١].

قال الضحاك: وأما المسيح فقد كساه الله ﷻ الريش، وألبسه النور، وقطع عنه لذّة المطعم والمشرب فطار في الملائكة[٢].

قوله ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

أول هذه الآية متّصل بقوله ﷻ: ﴿خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾، ويقال: معناه واذكر إذ قال الله ﷻ يا عيسى.

ذهب بعض المفسرين إلى أن في الآية تقديما وتأخيرا، معناه: إني رافعك إليّ، ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفّيك - أي مميتك- بعد الإنزال إلى الأرض[٣].

وقال بعضهم: معنى ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي قابضك إليّ من أيدي الكفار ومكرهم[٤]، يقال: (توفَّيتُ من فلان كذا)، إذا استوفيتَه[٥].

وقوله ﷻ: ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي مُخرجك من بين

---

(١) بنحوه في بحر العلوم 354/1، والكشف والبيان 409/3-410، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ الآية [النساء/157].

(٢) ذكره السمرقندي في بحر العلوم 217/1-218.

(٣) هو قول قتادة، أخرجه ابن أبي حاتم 661/2. ونسبه الزجاج في معاني القرآن 420/1 إلى النحويين.

(٤) هذا قول الحسن ، ومطر الورّاق، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وابن جريج، وابن زيد. راجع: الطبري 448/5-450. وهو اختيار ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص106، والطبري في تفسيره 451/5.

(٥) يُنظر: معاني القرآن للفراء 219/1، تهذيب اللغة 419/15، ومقاييس اللغة 129/6.

أظهرهم، فإنهم كانوا أرجاسا، وكان تطهيرُ عيسى عليه السلام منهم إزالَتهم عنه برفعه، فإن التطهير إزالة الأنجاس عن الثوب والبدن.

وقال الربيع: معنى متوفيك: وفاةَ نوم لا وفاةَ إماتةٍ، أي رفعه الله عز وجل في حالة نومه إلى السماء[١].

وقوله: ﴿ رَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي إلى سمائي، وجعل الرفع إلى السماء رفعا إليه تفخيما لأمر السماء[٢].

وقال بعضهم: معناه رافعك إلى كرامتي، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾[٣] أي إلى حيث أمرني ربي، فإنه كان يذهب إلى الشام[٤].

وأما قوله عز وجل: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾، فمعناه جاعل الذين آمنوا بك فوق الذين كَذَبوا عليك فكذَّبوك.

قال بعضهم: أراد به فوقهم من العزّ والغلبة، لا يُرى يهوديٌّ[٥] حيث

---

(١) أخرجه الطبري 448/5.

(٢) هذا من تأويلات الجهمية ومن تأثر بهم كأبي منصور الماتريدي ومتأخري الأشاعرة، لينفوا بذلك ما يقتضيه ظاهر الآية من إثبات علو الله تعالى على خلقه. راجع: تفسير الماتريدي 384/2، ومفاتيح الغيب للرازي 76/8. وأما أئمة السلف، فقد استدلوا بهذه الآية، وبنظيرها: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء/158] على إثبات أن الله تعالى في السماء، عالٍ على خلقه. يُنظر: الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص290، نقض الدارمي على المريسي 225/1، و444؛ والرد على الجهمية له ص40؛ التوحيد لابن خزيمة 247/1؛ الإبانة لأبي الحسن الأشعري ص35، والشريعة للآجري 1079/3-1080.

(٣) جزء من الآية (99) من سورة الصافات.

(٤) قاله الواحدي في البسيط 32/ب. قلت: والتنظير بقوله تعالى ﴿ ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ فيه نظر، لأن إبراهيم عليه السلام، وإن كان ذاهبا بجسده إلى الشام، لكنه كان ذاهبا بقلبه إلى الله، فارًّا بدينه إليه. وقد قال قتادة في تفسير الآية: « ذاهب بعمله، وقلبه، ونيّته». الطبري 576/19.

(٥) في الأصل بالنصب، وهو خطأ.

كان إلا أذلَّ من النصراني[1]. قالوا: وهذا يدل على أنه لا يكون لليهود مُلكٌ كما هو للنصارى[2].

وقال بعضهم: أراد بـــ ﴿ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ﴾ فوقهم في الحجّة والبرهان[3].

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: إن الذين اتبعوا عيسى عليه السلام هم أمّة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم الذين صدّقوه في جميع ما قال[4].

ومعنى ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾: إليّ مرجع الكفار والمؤمنين، ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين.

قوله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

معناه: أُعاقبهم عقوبة شديدة في الدنيا بالقتل والسبي والجزية، وفي الآخرة بالنار، وما لهم من مانعين يمنعونهم من عذاب الله عز وجل.

قولـــه عز وجل: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ [فَنُوَفِّيهِمْ][5] ٱلصَّٰلِحَٰتِ [فَنُوَفِّيهِمْ][5] أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

---

(1) هذا قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ أخرجه الطبري 455/5. وقال الواحدي في البسيط ق32/ب: «والاتّباع على هذا القول بمعنى الادّعاء والمحبّة، لا بمعنى اتّباع الدين والملّة »، وذلك أن النصارى ليسوا متّبعين لملّة عيسى عليه السلام حقيقة، وإنما ينتسبون إليه ادّعاء.

(2) قاله أبو علي الجبّائي كما في التبيان للطوسي 478/2.

(3) ذكره الماوردي في النكت والعيون 398/1 بلا نسبة.

(4) لَم أجده عن ابن عباس رضي الله عنهما. لكنه مروي عن قتادة، والحسن، والربيع، وابن جريج. يُنظر الطبري 454/5-455، وابن المنذر 223/1، وابن أبي حاتم 662/2-663.

(5) هذه قراءة الجمهور، ما عدا حفصا عن عاصم، ورُويسا عن يعقوب، فإن قراءتهما:

أي الذين صدّقوا وعملوا الصالحات، نكمل لهم ثواب أعمالهم، والله لا يرحم الظالمين، ولا يغفر لهم.

قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

معناه – والله تعالى أعلم – : أن ما جرى من القصص، ينزل به عليك – يا محمدﷺ – فيتلوه عليك جبريل عليه السلام بأمرنا. وأضاف التلاوة إلى نفسه من حيث حصلتْ بأمره.

ويقال: معنى ﴿ نَتۡلُوهُ ﴾ أي نكلّمك به.

وحقيقة التلاوة: إظهار الكلمة على جهة الحكاية، يقال: أنشأ فلان كتابه، وتلاه علينا فلان[1].

وقوله ﷻ: ﴿ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ أي من علامات نبوتك، ومما فيه عبرة لمن اعتبر، وتبصرة لمن تبصّر.

وقوله ﷻ: ﴿ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ أي ومن القرآن ذي الحكمة في التأليف والنظم[2]. وسمّاه حكيما لأنه بما فيه من الحكمة كأنه ينطق بالحكمة. ويقال: معنى الحكيم الـــمُحكَم، وهو «فعيل» بمعنى مفعول[3].

ويقال: أراد بالذكر الحكيم اللوحَ المحفوظ[4].

﴿فَيُوَفِّيهِمۡ﴾ بالياء. يُنظر: المبسوط ص143، الروضة 588/2، النشر 240/2.

[1] قال أبو عبيدة في مجاز القرآن48/1 في تفسير قوله تعالى:﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ [البقرة/102]، قال: «وتَتْلوا: تَحكي وتَكَلَّمُ به».

[2] معاني القرآن للزجاج 421/1، ومعاني القرآن للنحاس 413/1.

[3] وجه ذلك أن « حَكَمَ » الثلاثي قد يأتي بمعنى « أحْكَمَ » الرباعي، ومن ثَمّ يكون الحكيم بمعنى الـــمُحكَم. وقد سمى الأعشى القصيدةَ الـــمُحكمةَ حكيمةً، فقال:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة ... قد قلتُها ليقال من ذا قالها

يُنظر: تهذيب اللغة 71/4 «ح ك م»، والبسيط للواحدي ق 33/أ.

[4] قاله الكلبي كما في البحر العلوم 219/1.

وقولــه ﷻ: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾

قال ابن عباس: وذلك أن وفدَ نصارى نجران: السيدَ، والعاقبَ، والأسقفَ[1]، وغيرهمَ من علمائهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: « **أَسلِموا** »، قالوا: أسلمنا قبلك، فقال ﷺ: « **بل يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: أكلُكُم الخنزيرَ، وعبادتُكم الصليبَ، وقولُكم: لله ﷻ ولدٌ** »، قالوا: أرنا خلقًا من غير أب ! وقالوا: في إحياء عيسى ﵇ الموتى دليل أن الله ﷻ اتخذه ابنًا، فأنزل الله ﷻ قولَه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[2].

يقول: صفة خلق عيسى ﵇ بلا أب كصفةِ خلقِ آدم ﵇ خلقه من غير أب، أي صَوَّر الله آدم ﵇ من تراب من غير أب ولا أمّ، ثم قال تعالى لآدم: ﴿ كُن ﴾، فكان.

وأراد الله ﷻ بهذه الآية أن كون الولد من غير أب ليس بأعجب من كون الإنسان بغير أب وأمّ، وقد خلق الله / آدم﵇ من تراب من غير أب وأم.

وفي هذه الآية دليل على صحة القياس، لأنه لو لَم يصحّ القياس، لَم يكن

---

[1] هم أصحاب المراتب في النصرانية، والعاقب يتلو السيّد. راجع: النهاية في غريب الحديث، مادَّة « س ق ف » (378/2)، ومادّة « ع ق ب » (268/3).

[2] لَم أجده عن ابن عباس بهذا السياق. وهو في بحر العلوم 219/1 بلا نسبة. ولعلهما – أي السمرقندي والمؤلف – أخذاه من تفسير الكلبي الذي يرويه عن أبي صالح عن ابن عباس. لكن قد رُوي بنحوه عن الحسن البصري في فتوح البلدان للبلاذري ص75، وأسباب النزول للواحدي ص226؛ وعن التابعي الثقة الأزرق بن قيس عند عبد بن حميد في تفسيره، كما في العجاب 679/2. كما قد أخرج الطبري 5/ 459-462 عن جمع من مفسري السلف: الشعبي، وقتادة، والسدي، وابن جريج، وابن زيد، أن الآية نزلت في نصارى نجران الذين جادلوا النبيﷺ في أمر عيسى ﵇، على اختلاف بينهم في سياق تفاصيل القصة.

الله تعالى يجيبُ به[1].

وفيها دليل جواز قياس الشيء على الشيء من وجه دون وجه، لأن الله ﷻ إنما شبّه عيسى عليه السلام بآدم عليه السلام في كونه من غير أب، لا في كونه من غير أمّ، ولا في خلقه من التراب[2].

فإن قال قائل: هلا قال الله ﷻ: (كن فكان)، فإن آدم عليه السلام قد انقضى كونه، وقد أخبر عنه بالمستقبل. قيل: إن الفعل الماضي منقطع، والمضارع متصل، ومن ذلك كما يقال في الأصول: إن ما يُروى عن النبي ﷺ أنه فعل كذا، وكان فعل، فإنه لا يقتضي التكرار، وما رُوي انه كان يفعل كذا، فإنه على التكرار دون الانقطاع[3]. ثمّ فِعلُ الله تعالى ينبني على المهلة، ويحدث على التدريج، ألا ترى أنه ﷻ خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكذلك بدت الحياةُ في آدم عليه السلام على التدريج، وكذلك أُمرُ عيسى عليه السلام على التدريج، كان يبدوا شيئا فشيئا، فأخبر الله ﷻ عن ذلك بفعل دائم.

قولــه ﷻ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

ابتداءُ هذه الآية رَفعٌ على خبرِ مبتدإٍ محذوف، معناه: الذي أنبأك به هو الحق والصدق في أمر عيسى عليه السلام، فلا تكن من الشاكّين.

قال بعضهم: هذا خطاب للنبي ﷺ، والمراد به الخلق كلّهم، لأن النبيﷺ لَم يشك في أمر عيسى عليه السلام قط[4]، وهذا كما قال الله ﷻ:

---

[1] يُنظر: إعلام الموقّعين عن رب العالمين لابن القيم 252/2.

[2] بحر العلوم للسمرقندي 219/1.

[3] أي أن التعبير بالمضارع فيه إشارة أن فعل الله - التكوين- متكرر، وأن الله سبحانه كلما قال لشيء «كن» فإنه يكون كما أراده الله. وهذا قريب من قول الطبري حيث جعل منتهى الإخبار عن آدم عليه السلام عند قوله ﴿كُن﴾، وجعل قولَه تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ إعلامًا من الله تعالى لنبيه أن كلَّ ما قال له ربُّه «كن» فإنه يكون لا محالة. يُنظر: الطبري 463/5، ومفاتيح الغيب 84/8-85.

[4] قاله الزجاج في معاني القرآن 422/1-423. ويُنظر: معاني القرآن للنحاس 414/1.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[1].

قال بعضهم: معناه لا تكن أيها السامع لهذا النبإ من الشاكين، وأراد به كائنا مَن كان من المكلفين[2].

قولـــه ﷻ: ﴿ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١ ﴾

معنى الآية – والله تعالى أعلم –: فمن خاصمك في أمر عيسى عليه السلام من بعد ما جاءك من البيان، فإن عيسى عليه السلام لَم يكن اللهَ ولا شريكَه، فقل: تعالوا معشر النصارى، ﴿ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ ﴾، ليخرجوا إلى فضاء من الأرض، ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ أي ونخرج نحن بأنفسنا، وأنتم بأنفسكم، ﴿ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ﴾ أي نلتعن، والبُهلة: اللعنة؛ يقال: (بَهَلَهُ الله) أي لعنه وباعده. ويقال: معنى ﴿نَبۡتَهِلۡ﴾ نجتهد ونتضرع في الدعاء على الكاذب؛ من «الابتهال»، وهو التضرع والاجتهاد في طلب الشيء[3].

---

[1] مطلع سورة الطلاق. ووجه التنظير به أن الله تعالى خاطب فيه الأمة بشخص نبيّها، فصُدّرت السورة بالنبي ﷺ، لكن صار الخطاب عقبَ ذلك لعموم أمته بدليل صيغة الجمع: ﴿ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ الآية.

[2] ذكره الواحدي في البسيط ق 34/أ.

[3] معاني مادة «ب هـ ل» غالباً تدور حول معنيَين؛ الأول: التخلية، والثاني: والتضرع في الدعاء. فمِن الأول قولهم: (بَهَله الله) أي لَعَنه؛ إذ اللعنة: التخلية من الرحمة، وإبعاد منها. ومن الثاني: (الابتهال في الدعاء)، أي التضرع فيه. ومن ثَمَّ اختُلِف في ﴿ نَبۡتَهِلۡ ﴾ هل هو بمعنى: نلتعن، أو بمعنى: نجتهد في الدعاء. فذهب إلى الأول أبو عبيدة في مجاز القرآن 96/1، وابن قتيبة في تفسير الغريب ص106؛ وإلى الثاني مقاتل في تفسيره 174/1، وابن عباس في رواية ابن جريج عنه، عند ابن المنذر 229/1. ويُنظر: البسيط للواحدي ق 34/ب – 35/أ، مقاييس اللغة 310/1-311، وتاج العروس 129/28 مادة «ب هـ ل».

ثمّ فسر الابتهال فقال جل ذكره: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي نقول: لعنةُ الله في أمر عيسى عليه السلام على الكاذبين.

وقد رُوي أنه لما نزلت هذه الآية، قال ﷺ لنصارى نجران: « **إن الله عز وجل أمرني أن أباهلكم إن لَم تقبلوا** »، فقالوا: يا أبا القاسم ﷺ، بل نرجع فننظر في أمرنا، ثم نأتيك فنُعلمك، فرجعوا فخلا بعضهم إلى بعض، فقال السيد للعاقب: قد والله علمتُ أن الرجل نبيٌّ مرسل، ولئن لاعنتموه، ليستأصلنَّكم، وما لاعَنَ نبيٌّ قومًا قط فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإن أنتم لَم تتبعوه، وأبيتم إلا إلْفَ دينكم، فوادِعُوه، وارجعوا إلى بلادكم.

فلما كان من الغد، خرج رسول الله ﷺ بنفر من أهله؛ لَم يختلف أهل السير في خروجه بهم، إذ غدا محتضنا حُسينًا، آخذا بيد الحسن، وفاطمةُ تمشي على إثرهم، وعليٌّ يتبعهم رضوان الله عليهم.

فأبوا أن يلاعنوه، وانقادوا لقبول الجزية يؤدونها إليه في كل سنة، فقالوا: صالِحْنا يا محمدُ ﷺ، حتى نرجع إلى بلادنا، وابعثْ معنا رجلا عدلا، يقضي بيننا في أمور خالفتنا فيها، ونُعطيه من أموالنا[1].

فصالحهم رسول الله ﷺ على ألفي حُلَّة، ألفٍ في صَفَر، وألف في رجب، وقال لهم: « وإن كان كونٌ باليمن، أعنتمونا بثلاثين درعا، وثلاثين فرسا، وثلاثين بعيرا، والمسلمون ضامنون لها حتى يردّوها عليكم »، وكتب لهم كتابَ الأمان والصلح:

« بسم الله الرحمن الرحيم

---

[1] ذكره ابن هشام في السيرة 1/583-584 عن ابن إسحاق بنحوه. وأخرج الطبري 5/469-471 القصة بنحوها من رواية الشعبي مرسلا، ومن رواية ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير. وقد أخرج البخاري في صحيحه (المغازي/ قصة أهل نجران/ح4380) قصة أهل نجران مختصرا، من حديث حُذيفة رضي الله عنه.

هَذَا مَا كَتَبَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِنَجْرَانَ: فِي كُلِّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ وَسَوْدَاءَ ورَقِيْقٍ، فَاضِلاً عَلَيهِم، تَرَكَ ذَلِكَ كُلَّه عَلَى أَلْفَي حُلَّةٍ، فِي كُلِّ صَفَرَ أَلْفُ حُلَّةٍ، وَفِي كُلِّ رَجَبَ أَلْفُ حُلَّةٍ؛ ثَمَنُ كُلِّ حُلَّةٍ أوقِيةٌ، وَمَا زَادَتِ الْحُلَلُ عَلَى الأَوَاقِ فَبِحِسَاب، وَمَا نقصَ مِن دِرْعٍ حُلَّةٍ أو خَيْلٍ أَوْ رِكَاب، فَبِحِسَاب . وَعَلَيهِم عَارِيَةُ ثَلاَثِيْنَ دِرْعاً، وَثَلاَثِيْنَ فَرَساً، وَثَلاَثِيْنَ بَعِيراً، إذا كَانَ كَيدٌ بالْيَمَن.

وَلِنَجْرَانَ / وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ تَعَالَى وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى أنفُسِهِم، وَمِلَّتِهِم، وَكُلِّ مَا تَحتَ أيدِيهِم مِن قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ.لاَ يُغَيَّرُ مَا كَانُوا عَلَيهِ، ولا يُغيّر من حُقُوقِهِم، وَلاَ يُغَيَّرُ أسقُفٌ مِن أسْقُفِيَّتِهِ، وَلاَ رَاهِبٌ مِن رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلاَ يُحْشَرُونَ مِن بِلاَدِهِم، وَلاَ يُعْشَرُونَ، وَلاَ يَطَأُ أرضَهُمْ جَيْشٌ.

وَمَن سَأَلَ مِنهُم حَقّاً فَلَهُ النَّصَفُ غَيرَ ظَالِمِينَ وَلاَ مَظْلُومِينَ؛ وَمَنْ أَكَلَ الرِّبَا مِن ذِي قَبَلٍ[1]، فَذِمَّتِي مِنْهُ بَرِيئَةٌ. لاَ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ رَجُلٌ بِطَلَبِ آخَرَ.

لَهُم جِوَارُ اللهِ تعالى، وَذِمَّةُ رَسولِ اللهِ ﷺ أبَداً، حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، مَا نَصَحُواْ وَأَصْلَحُواْ[2] فِيمَا عَلَيهِم غَيرَ مُثْقَلِيْنَ بِظُلْمٍ.

شَهِدَ الشُّهُود: أَبُو سُفْيانَ بنُ حَرْبٍ؛ وغَيلانُ بْنُ عَمْرٍو؛ ومَالِكُ بْنُ عَوفٍ؛ وغَيرُهُم »[3].

---

[1] في الهامش: « قَبَلٍ: أي ضمان. معناه من (ص)». كذا قال، ولَم أجده في الصحاح ولا غيره. والأقرب – والله أعلم – أن المراد بـ« مِن ذي قَبَلٍ » أي فيما يُستقبل من الأيام من كتابة هذا العهد. راجع: تهذيب اللغة 138/9، والقاموس ص1352 «ق ب ل».

[2] أشير في الهامش على أنه في نسخة: « أخلصوا ».

[3] [**أصل الكتاب ثابت**] هذا الكتاب أخرجه مقاتل في تفسيره في 211/1 عند نهاية السورة، بالإسناد التالف: الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه القاسم بن سلام في الأموال 296/1، وابن زنجويه في الأموال 379/1 (732)، كلاهما من طريق عبيدالله بن أبي حميد، عن أبي المليح الهذلي مرسلا؛ وعبيدالله بن أبي حميد، متروك الحديث (تهذيب التهذيب 8/3).
وأخرجه أبو عبيد في الأموال 297/1 من طريق ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة مرسلا.

ثمّ بعث رسول الله ﷺ معهم معاذ بن جبل رضي الله عنه[1] ليقضي بالحق فيما بينهم، ورجعوا إلى بلادهم، فقال رسول الله ﷺ:

« **لو باهَلُوني لاضطَرَمَ الوادي عليهم نارًا، ولَم يُرَ نصرانيٌّ، ولا نصرانيةٌ إلى يومِ القيامة** ».

وفي بعض الروايات، قال: « **لو الْتَـــعَنُوا، لَهَلَكُوا كلُّهم حتى العصافيرُ في سُقُوفِهم** »[2].

فدل هذا الخبر أنّ امتناعهم من[3] المباهلة لَم يكن إلا لعِلْمهم أن الحق مع

وأخرج أبوداود في سننه (الخراج/ باب في اخذ الجزية/ ح3041) طرفا منه من رواية السدّي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. ورواية السدّي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مُرسلة.

وأخرج الفاكهي في أخبار مكة 5/107 بعضَ فقراته عن عمرو بن دينار مُرسلا.

وله شاهد من مُرسل الزهري عند البلاذري في فتوح البلدان ص75.

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة 5/385-389، عن يونس بن بكير، عن سلمة بن عبد يشوع عن أبيه، عن جدّه- وكان نصرانيا فأسلم-.

وهذه الطرق- ما عدا الأوَّلَين- تشدّ بعضها بعضا، وتجعل أصل الكتاب ثابتا. والله أعلم.

[1] كُتب في الهامش: « المعروف أن الذي بعثه النبي ﷺ أبا عُبيدة بن الجرّاح. والله أعلم » قلت: وهو الصواب كما جاء ذلك مُصرَّحًا في قصة أهل نجران التي أخرجها البخاري (المغازي/ قصة أهل نجران/ ح4380)، ومسلم (فضائل الصحابة/ باب فضائل أبي عُبيدة/ ح2420).

[2] **[حسن لغيره دون قوله: لَم يُر نصرانيٌّ...]** أخرجه أبو نُعيم في الدلائل (244)، والواحدي في أسباب النزول ص228 من طريق محمد بن دينار، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، مرفوعا بلفظ: «**والذي بعثني بالحق، لو فَعَلا** [السيد والعاقب]، **لأمطر الوادي عليهما نارا**». ومحمد بن دينار فيه ضعف (تهذيب التهذيب 3/557).

وأخرجه الطبري 5/469-470 عن الشعبي مُرسلا بلفظ: «**لقد أتاني البشيرُ بهلكة أهل نجران، حتى الطيرِ على الشجر – أو العصافير على الشجر – لو تمُّوا على الملاعنة**».

وأخرج الطبري 5/471 عن قتادة مرسلا، أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسُ محمدٍ بيده، إنْ كان العذابُ لقد تَدَلَّى على أهل نجران، ولو فعلوا، لاستُؤصِلوا عن جديد الأرض**».

وروى أحمد في المسند 4/99 (2225) عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا: « ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لَرَجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا».

[3] أشير في الهامش أنه في نسخة: « عن ».

النبي ﷺ، إذ لو لَم يعلموا ذلك، لباهلوه حتى كان يظهرَ بطلانُ قوله ﷺ في الحال.

قولــه ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول: هذا الذي أوحيناه إليك من الحجج والآيات لهو الخبر الحق؛ بأنَّ عيسى عليه السلام لَم يكن اللهَ، ولا ولدَه، ولا شريكَه.

والقصص هو الخبر الذي يتلو بعضه بعضا، من قولهم: (قصّ فلانٌ أَثَرَ فلانٍ)، إذا تَبِعَه[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي ما إلهٌ إلا اللهُ، واحدٌ بلا ولدٍ ولا شريكٍ. وما أعطى الله ﷻ عيسى عليه السلام من المعجزة التي يعجَز عنها المخلوقون، لا يُخرجه من العبودية لله ﷻ.

ودخول «مِن» في قوله: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لتوكيد النفي في جميع ما ادّعاه المشركون أنهم آلهة[2].

وقوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي العزيز بالنقمة لمن لا يؤمن به؛ ذو الحكمة في خلق عيسى عليه السلام من غير أب، وفي أمره أن لا نعبدَ إلا اللهَ ﷻ.

قولــه ﷻ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول: إن أعرضوا عمّا أتيتَ به من البيان، فإن الله عالِم بالمفسدين؛

---

[1] يُنظر: تهذيب اللغة 211/8 مادة « ق ص ص ».

[2] معاني القرآن للزجاج 424/1.

يجازيهم على ذلك. ثمّ دعاهم الله ﷻ إلى التوحيد، فقال ﷻ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

معناه: قل يا محمد ﷺ: يا أهل الكتاب هلمُّوا إلى كلمةٍ عدلٍ بيننا وبينكم[1].

وفي «سواء» ثلاثُ لغاتٍ: (سَواءٌ)، و(سِوًى)، و(سُوًى)، ولا يُمَدُّ منها إلا المفتوح[2].

ويقال: معنى ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ أي إلى كلمةٍ ذاتِ سواءٍ، أي مستوية بيننا وبينكم[3].

ثمّ فسر الكلمة، فقال عزّ من قائل: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، أي أن لا نشرك[4] به أحدا من المخلوقين أربابا. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي نرجع إلى معبودنا، هو الله ﷻ، وأنّ عيسى عليه السلام بشر كما أننا بشر، فلا نتّخذه ربّا[5].

---

(1) تفسير ﴿سَوَآءٍۭ﴾ بالعدل هو قول جمهور أهل اللغة والمفسرين. راجع: معاني القرآن للفراء 220/1، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص106، الطبري 476/5، معاني القرآن للزجاج 425/1، تهذيب اللغة 816/13 «س ي ي».

(2) راجع: معاني القرآن للفراء 220/1، الصحاح، والقاموس المحيط مادة «س و ى».

(3) هذا الوجه نصره ابن عطية في المحرر الوجيز 114/3. قلت: وهذا المعنى متلازم للعدل، ولذا جمع بينهما الجصاص في أحكام القرآن 24/1 بقوله: «﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ يعني والله أعلم: كلمةِ عدلٍ بيننا وبينكم، نتساوى جميعا فيها، إذ كنا جميعا عباد الله». وبنحوه قال ابن كثير في تفسيره 82/3.

(4) في الأصل: «يشرك»، والتصويب من (ب).

(5) معاني القرآن للزجاج 426/1.

وسمّى الله تعالى هذه الألفاظ كلمة، لأن معناها يرجع إلى شيء واحد، وهو كلمة العدل: (لا إله إلا الله). تقول العرب للكلام الذي فيه شرحُ قضيّةٍ، وإن طال: (كلمة)، يقال: (أنْشدِنا كلمةَ فلان)، أي قصيدَته[١].

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى ﴿ **وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾: لا يُطيع بعضنا بعضا في معصية الله تعالى [٢]، كما قيل في تفسير قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[٣]، أي أطاعوهم في معصية الله[٤].

وعن عدي بن حاتم أنه قال: أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية، وفي عنقي صليب من ذهب، فقال ﷺ: «**أَلْقِ هذا الوثن عنك واحْلِق شَعر الكُفر عن رأسك**»، فقلت: يا رسول الله ما كنّا نعبدهم! فقال ﷺ: «**أليس كانوا يُحِلُّون لكم فتأخذون بقولهم، ويحرِّمُون عليكم فتأخذون بقولهم؟** »، فقلت: نعم، فقال النبي ﷺ: «**هو ذاكم !**»[٥].

---

[١] راجع: معاني القرآن للنحاس 417/1، والبسيط للواحدي ق 35/أ.

[٢] هو قول ابن جريج فيما أخرجه عنه الطبري 479/5، وابن المنذر 242/1. واختاره الطبري 479/5، والجصاص في أحكام القرآن 25/1.

[٣] جزء من الآية (31) من سورة التوبة.

[٤] كذا فسّره جملة من التابعين: الحسن، وأبو العالية، وأبو البختري، والسدي. وقد رُوي نحوه عن حُذيفة رضي الله عنه برواية مرسلة عنه، وكذا روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما من طريق العوفيين عنه. يُنظر: الطبري 418/11-421. وهو قول أكثر المفسّرين كما نصّ عليه الرازي في مفاتيح الغيب 38/16، وابن عادل في اللباب 74/10.

[٥] **[حسن إن شاء الله]** أخرجه بنحوه البخاري في تاريخه 106/7، والترمذي (التفسير/ باب: ومن سورة التوبة/ ح3095)، والطبري 417/11-418، وغيرهم من طريق عبد السلام بن حرب، عن غُطَيف بن أَعْيَن، عن مصعب بن سعد، عنه رضي الله عنه. وقال الترمذي: «هذا حديث [حسن] غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغُطَيف بن أعْيَن ليس بمعروف في الحديث». وقد ذكر ابن حبّان غُطَيفًا هذا في الثقات311/7.

تنبيه: قول الترمذي: «حسن» سقط من المطبوع، وهو موجود في نسخة «الكَروخي» الخطية ق139/أ، ونقله أيضا الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص75.

وقوله ﷻ: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أي إن أَبو التوحيد، فقولوا أنتم:/ اشهدوا بأنّا مقرّون بالتوحيد مستسلمون لما أتتنا به الأنبياء - صلوات الله عليهم- من قِبَل الله تعالى.

ثمّ ذكر الله تعالى خصومة أهل الكتاب مع النبي ﷺ بقولهم: إنّا مسلمون على دين إبراهيم، فقال الله ﷻ:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

قال الكلبي: وذلك أن اليهود والنصارى اجتمعوا في بيت مدرسة اليهود، وكل فريق يقول: إن إبراهيم عليه السلام منّا وعلى ديننا، فأتاهم رسول الله ﷺ فقالوا: اقضِ بينا، أيّنا أولى بإبراهيم عليه السلام ودينه ؟ فقال ﷺ: «كلا الفريقين منكم بريءٌ من دين إبراهيم عليه السلام، إن إبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما؛ وأنا على دينه، فاتّبعوا دينه الإسلام »، فأنزل الله تعالى هذه الآيات [1]؛ يقول: يا أيها اليهود والنصارى لِمَ تخاصمون في إبراهيم عليه السلام ودينه، وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ؟ ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفليس لكم ذهن الإنسانية فتعلموا أن اليهودية ملّةٌ محرّفةٌ عن شريعة موسى عليه السلام ، وأن اليهود سُمُّوا بهذا الاسم لأنهم من ولد «يهوذا»[2]، والنصرانيةَ ملّةٌ محرفةٌ عن شريعة عيسى عليه السلام، سمّوا نصارى لأنهم من قريةٍ بالشام يقال لها: «ناصرة»[3].

---

[1] لَم أجد من ذكره عن الكلبي.

[2] هو يهوذا بن يعقوب ين إبراهيم عليهم السلام. راجع: تهذيب الأسماء واللغات للنووي 183/2/2-184.

[3] نُسبوا إليها لأن عيسى عليه السلام نشأ بها، فقيل له يسوع الناصري. وهي تقع متوسطة بين بحيرة طبرية، وبين ساحل بحر الشام (البحر الأبيض المتوسّط)، وهي اليوم تحت الاحتلال الصهيوني. راجع: معجم البلدان للحموي 251/5، ومعجم المعالِم الجغرافية في السيرة

ويقال: معنى قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تتفكرون، فتنظرون أنه ليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم ﷺ كان يهوديا أو نصرانيا.

فإن قيل: ليس في نزول التوراة والإنجيل بعد إبراهيم ﷺ ما يدل على أنه لَم يكن إبراهيم ﷺ على اليهودية ولا على النصرانية، ولئن دل ذلك، فيجب[1] أن يدل نزول القرآن بعده على أنه لَم يكن على الإسلام! قيل: إن أهل الكتابين جميعا كانوا قد اتفقوا على وصف إبراهيم ﷺ بأنه مسلم إلا أن اليهود ادّعوا أن ذلك الإسلام كان يهودية، والنصارى ادّعوا أنه كان نصرانية، فوصفوه بما لَم يكن في الكتابين، ونحن إنما ادّعينا أنه كان مسلما، و لم ندَّعِ أكثر من ذلك في كتابنا؛ نَصِفُه بالإسلام كما بيّن الله تعالى بعد هذه الآية[2].

قولـــه ﷻ: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ ﴾

معناه – والله تعالى أعلم – : وأنتم يا هؤلاء، يا معشر اليهود والنصارى خاصمتم فيما لكم به علم من نعت محمد ﷺ وصفته في كتابكم، فَلِمَ تخاصمون فيما ليس لكم به علم، وهو أمر إبراهيم ﷺ ؟ والله يعلم دين إبراهيم وشأنه، وأنتم لا تعلمون.

وقيل: إن الهاء من ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ ﴾ تنبيه، و «أنتم » اسم المخاطبين،

النبوية، (الجليل)، ص83.

[1] في الأصل « أفيجب » بهمزة الاستفهام. والـــمُثبَت من النسخة المشار إليها في الهامش.

[2] أي نصفه بالإسلام العام بمعنى الانقياد والاستسلام لله بالتوحيد، من دون أن ننسبه إلى شريعتنا، وإلا لاشتركنا في الإلزام. راجع: البحر المحيط 3/197-198، وتفسير أبي السعود 2/48.

و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إليهم، كأنه يقول: انتبهوا أنتم الذين حاججتم[1].

وزعم الأخفش أنه: (آأنتم) استفهام التوبيخ، فحُوِّلت الهمزة الأولى هاءً كقولك: (أرقت)، و(هرقت)[2].

قولــه ﷻ: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ ﴾

تكذيب من الله تعالى للفريقين في قولهم: إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا. ومعنى ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ أي مائلا عن اليهودية والنصرانية، مخلصا مستسلما لأمر الله ﷻ، وما كان مع المشركين على دينهم.

والحنيف: هو المائل عن كل دين سوى الإسلام، يُشبَّه بالأحنف الذي يكون صدور قدميه مائلة من جهة الخِلْقة [3].

---

(1) والفرق بين هذا القول وبين ما صدّر به المؤلف تفسير الآية، أن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على هذا القول بمعنى الاسم الموصول كأنه قيل: ها أنتم الذين حاججتم. وأما على القول الأول، فهو منادى معترض بين المبتدأ وبين جملة الخبر، كأنه قيل: ها أنتم — يا هؤلاء — حاججتم. راجع: مشكل إعراب القرآن لمكي ص102.

(2) نسب هذا القولَ إلى الأخفش: المؤلفُ، والزمخشري في الكشاف 398/1، وأبو حيان في البحر 199/3، والسمين في الدر المصون 236/3. ولَم أجده في معاني القرآن له، بل وجدتُ خلافَه حيث قال 317/1: « وقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة85] وفي موضع آخر: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كبعض ما ذكرنا، وهو كثيرٌ في كلام العرب. وردّد التنبيه توكيدا. وتقول: (ها أَنا هذا) و(ها أَنْتَ هذا)...». وقال بنحوه في 454/1، و695/2. ونسب هذا القولَ، النحاسُ في إعراب القرآن ص 207، وابنُ زنجلة في الحجة ص 165، إلى أبي عمرو بن العلاء.

(3) راجع: معاني القرآن للزجاج 427/1، ومقاييس اللغة، مادة « ح ن ف ».

قولـــه ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قال الكلبي: وذلك أن رؤساء اليهود كانوا يقولون: والله - يا محمد ﷺ - لقد علمتَ أنّا أولى بدين إبراهيم، وما بك إلا الحسد لنا، فأنزل الله هذه الآية[(١)].

ومعناها: أن أحق الناس بموالاة إبراهيم عليه السلام ﴿ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ في دينه في زمانه، ولَم يُغيّروا، ولَم يبدّلوا، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أصحابه الذين اتبعوه. ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في النصر والمعونة.

ثم ذكر الله تعالى دعوة كعبِ بن الأشرف وأصحابِهِ أصحابَ رسول الله ﷺ معاذًا، وحذيفةَ، وعمّارًا، إلى دينهم اليهودية، فقال - عزّ مِن قائل - [(٢)]:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

معناه: تمنَّتْ جماعة من أهل الكتاب أن يُهلكوكم بإدخالكم في الضلال، وما / يرجع وبالُ ضلالهم إلا على أنفسهم، وما يعلمون أن وبال ذلك يعود عليهم.

وقيل: وما يعلمون أن الله تعالى يُطلع نبيّه ﷺ على فعلهم.

---

(١) نسبه الثعلبي في الكشف والبيان 88/3، والواحدي في أسباب النزول ص 228، إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فلعله من طريق الكذّاب محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح عنه.

(٢) لَم أجده مًسندا، إلا من طريق الكلبي في تنوير المقباس ص 64. وذكره مقاتل في تفسيره 176/1، والثعلبي في الكشف والبيان 90/3، والواحدي في أسباب النزول ص233 معلّقا.

قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ ﴾

معناه: يا أهل الكتاب لِمَ تجحدون بمحمد ﷺ والقرآن ؟ وأنتم تعلمون في كتابكم أنه نبي مُرسل، ويقال: وأنتم تشهدون بما يدلّ على صحة هذه الآيات من كتب الأنبياء - صلوات الله عليهم-.

والأصل في ﴿ لِمَ تَكۡفُرُونَ ﴾ لما تكفرون؟ أي لأي شيء تكفرون؟ حذفت الألف من آخره للتخفيف وفتحت الميم دليلا على سقوط الألف [١]، وعلى هذا ﴿لِمَ تَقُولُونَ ﴾ [٢]، و﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [٣]، و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [٤].

قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ ﴾

معناه: لِمَ تخلطون الحق بالباطل؟ و(لَبْسُ الشيء بالشيء): خلطُ أحدهما بالآخر[٥]، وذلك لأنهم أقروا ببعض أمر النبيﷺ وكتموا بعضه[٦].

ويقال: معناه لِمَ تخلطون صفة محمد ﷺ بصفةِ الدجال؟ ولِمَ تكتمون الحق وأنتم تعلمون أن محمدًا [ﷺ] والإسلامَ حق في كتابكم.

وقيل في معنى ﴿ لِمَ تَلۡبِسُونَ ﴾: لِمَ تُغطُّون الحق بباطلكم؟[٧].

---

[١] وهذا الحذف للألف يختص بـــ «ما» الاستفهامية دون الموصولة، وذلك إذا دخل عليها حرف من حروف الجرّ. راجع: معاني القرآن للزجاج427/1-428، ومغني اللبيب328/1.

[٢] جزء من الآية (2) من سورة الصف.

[٣] جزء من الآية (54) من سورة الحجر.

[٤] الآية الأولى من سورة النبأ.

[٥] راجع: مقاييس اللغة، والتاج مادة « ل ب س ».

[٦] تفسير مقاتل 176/1.

[٧] قاله النحاس في معاني القرآن 420/1.

يقال: (لَبَستُ على فلانٍ الأمرَ، ألبِسه) إذا أعميتَه عليه؛ ويقال في الثوب: (لَبِستُ الثوب، ألبَسه)[1].

ومعنى تغطية الحق بالباطل تحريفُهم للتوراة والإنجيل، وتأويلهم على غير وجهه[2].

ثمّ ذكر - تعالى جدّه - مقالةَ كعب بن الأشرف وأصحابه في تحويل القبلة، فقال ﷻ:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

معناه: أي قالوا لِسَفَلَتهم: صدِّقوا بالقبلة التي صلّى المسلمون إليها صلاة الصبح، وهي قبلة بيت المقدس، واجحدوا القبلة التي صَلَّوا إليها في آخر النهار، وهي الكعبة، لعلهم يرجعون إلى قبلتكم[3].

وقال بعضهم: إن علماء اليهود قالوا فيما بينهم: كنا نُخبِر أصحابنا بأشياء قد أتى بها محمد ﷺ، فإن نحن كفرنا بها كلّها اتّهمَنا أصحابُنا، ولكن نؤمن ببعض ونكفر ببعض لنوهمهم أنّا نُصدِّقه فيما نصدّقه، ونريهم أنا نكذّبه فيما ليس عندنا.

ويُقال: إنهم أتوا النبي [ﷺ] في صدر النهار، فقالوا: إنك أنت الذي خُبِّرنا في التوراة أنّك مبعوث، ولكن أنظِرْنا إلى العشيّ لننظر في أمرنا. فلما

---

[1] الفرق بين الفِعلَين - مع تقارب مدلولهما في الدلالة على التغطية - أن الأول من باب (ضَرَب)، ومصدره (اللَبْس) بفتح اللام؛ والثاني من باب (سَمِعَ)، ومصدره (اللُبْس) بضم اللام. يُنظر: الطبري 605/1، كتاب إسفار الفصيح 415/1، لسان العرب مادة« ل ب س ».

[2] أخرج الطبري 494/5 عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال: « الحق: التوراة التي أنزل الله على موسى، والباطل: الذي كتبوه بأيديهم ».

[3] هذا قول الكلبي كما في بحر العلوم للسمرقندي 223/1.

كان العشي أتوا الأنصار فقالوا لهم: كنّا أعلمناكم أن محمدًا ﷺ هو النبي الذي هو مكتوب في التوراة، إلا أنّا نظرنا في التوراة، فإذا هو من ولدِ هارون عليه السلام، ومحمد ﷺ من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، فليس هو النبي الذي هو عندنا. وإنما فعلوا ذلك لعل مَن آمن به منهم يرجع، لأن مثل هذا يكون أقرب عندهم إلى تشكيك المسلمين[1].

و(وَجْهُ الشيء): أَوَّلُهُ؛ يقال لأول الثوب: (وجه الثوب). ويقال: (وجه الشيء) أشرفه وأعلاه، وأشرف النهار أوّله[2].

قوله عز وجل: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

حكاية قول كعب بن الأشرف وأصحابه؛ قالوا لليهود: لا تُصدّقوا إلا لمن تبع دينكم اليهودية، وصلّى إلى قبلتكم نحو بيت المقدس[3].

وأما قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾، قال بعضهم: هذا كلام مُعترِض بين كلامَي اليهود، ويجوز دخول العارض بين الكلامين إذا احتيج إليه، كما دخل على قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾، ثم عاد إلى أول الكلام فقال - عزّ من قائل- :

---

[1] لَم أجده بهذا السياق، وإنما روي عن قتادة، وأبي مالك الغفاري، والسدي أن اليهود أرادوا أن يُظهروا الإيمان أول النهار، ثم يرتدوا أول النهار فأطلع الله نبيه ﷺ على سرّهم. يُنظر الطبري 495/5-457، وابن أبي حاتم 679/2.

[2] قال الراغب في المفردات ص536: «ولما كان الوجه أول ما يستقبلك، وأشرف ما في ظاهر البدن، استُعمل في مستقبل كل شيء، وفي أشرفه ومبدئه، فقيل: وجه كذا، ووجه النهار».

[3] بحر العلوم 223/1 عن الكلبي.

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ ﴾[1]؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ عارض، ثم عاد إلى كلام اليهود، فقال عزّ من قائل: ﴿ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ أي قالوا: لا تصدّقوا أن يُعطى أحد من الكتاب والعلم مثل ما أعطيتم، فصار تقدير الآية: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ ما أُعطيتم، وأن يحاجّكم أحد عند ربكم، إلا من كان مثلكم على دين اليهودية[2]. قل لهم يا محمد ﷺ: إن الهدى هدى الله، وإن الفضل بيد الله، فلا تنكروا أن يؤتيه غيرَكم.

وقال بعضهم: ليس في الآية تقديم ولا تأخير، ومعناه: قالت اليهود: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، قل يا محمد[ﷺ]: إن الهدى هدى الله فلا تجحدوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم / أو أن يحاجّكم أحد عند ربكم[3].

﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي النبوة والكتاب والهدى بقدرة الله تعالى، يعطيه من يشاء.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ أي واسع الفضل والمقدرة، عليم بمن هو من أهل الفضل.

وذهب الفراء والكسائي إلى أن معنى: ﴿ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ﴾ بمعنى (حتى) على جهة التأكيد للنفي، كما يقال: (لا تفعل كذا، أو تقومَ القيامة!) أي حتى تقوم القيامة، ويراد به: لا تفعلْه أصلا[4].

---

[1] الآية (30)، ومطلع الآية (31) من سورة الكهف.

[2] هو ظاهر قول الأخفش في معاني القرآن 411/1. وهو اختيار المبرّد كما في معاني القرآن للنحاس 421/1، واختيار الطبري في تفسيره 505/5-506.

[3] هذا القول ذكره الزمخشري في الكشاف 401/1، والرازي في مفاتيح الغيب 107/8، والسمين في الدر المصون 254/3. وثَمَّ أقوال أخرى في توجيه الآية وتفسيرها، انظرها في: الطبري 501/5-506، وزاد المسير 406/1-408، والدر المصون 250/3-260.

[4] راجع: معاني القرآن للفراء 223/1.

قوله ﷻ: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول: يختص بدينه الإسلام من يشاء، ويقال: يختص بالنبوة من يشاء، والله ذو المنّ العظيم على من اختصه بالإسلام والنبوّة.

قولـــه ﷻ: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

في الآية دليل وبيان أن أهل الكتاب فيهم أمانة وفيهم خيانة، فمنهم من إن تبايعه بملءِ مَسْكِ ثورٍ ذَهَبا[(١)]، يؤده إليك بلا عناء ولا تعب، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا بعد عناء وتعب.

وقال الضحاك: هو «فِنحَاص بن عازورا اليهودي»[(٢)] أودعه رجل دينارًا فخانه[(٣)].

وقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ أي ذلك الاستحلال والخيانة منهم لقولهم: ليس علينا في مال العَرب والذين لا كتاب لهم حجةٌ ولا مأثمٌ؛ كانوا يستحلون ظُلمَ من خالفهم.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي يقولون: لَم يَجعلْ لهم علينا في كتابنا حرمةً كحرمتنا، وهم يعلمون أن الله ﷻ قد أنزل عليهم في كتابهم، الوفاءَ

---

(١) هذا أحد التفاسير للقنطار؛ ومَسْك الثور: أي جلده. راجع ما سبق في ص 26 عند تفسير قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ ﴾ [14].

(٢) من يهود بني قينقاع. معدود في الأحبار الذين نصبوا العداء للنبي ﷺ، كما في سيرة ابن هشام 514/1. وهو القائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران/181] كما سيأتي.

(٣) ذكره الواحدي في البسيط ق 39/ب، ونسبه إلى ابن عباس رضي الله عنهما برواية الضحاك عنه. وكذا نسبه إلى ابن عباس ابن الجوزي في الزاد المسير408/1. ولَم أجده مُسندا إليه.

وأداءَ الأمانة لمن ائتمنهم وخالطهم.

قوله ﷻ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول: ليس الأمر كما يزعمون، لكن من أتمَّ عهد الله الذي عاهده الله تعالى في التوراة، واتقى ظلم الناس في ترك الوفاء ونقض العهد، فإن الله يحب المتقين لنقض العهد وترك الوفاء.

قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

روي عن عبدالله بن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية فيما كان بين امرئ القيس وعبدان بن الأَشوع من الخصومة في أرض غلب عليها امرؤ القيس، فاستحلفه عبدان فهَمَّ بالحلف، فنزلت هذه الآية، فامتنع أن يحلف وأقرّ لعبدان بحقه ودفعه إليه[1].

وعن الشعبي أنه قال: نزلت هذه الآية فيمن ينفق سلعته باليمين الفاجرة[2]. ويقال: نزلت هذه الآية في اليهود لكتمانهم نعتَ النبي ﷺ

---

[1] **[صحيح بنحوه]** رواه المتّهم الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في العجاب 703/2. لكن أخرج أحمد في مسنده 254/29 (17716)، والنسائي في الكبرى 486/3 (5996)، والطبري 517/5-518، وغيرهم، بإسناد صحيح عن عدي بن عميرة رضي الله عنه قال: « خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس رجلا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض ...» الحديث بنحوه، إلا أنه اختلف الراويان عن عدي رضي الله عنه؛ فقال رجاء بن حيوة: «وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية» كما عند أحمد؛ وقال العُرس بن عميرة رضي الله عنه: «فنزلت هذه الآية» كما عند النسائي والطبري وغيرهما. والله أعلم.
وفي صحيح البخاري (الخصومات/باب كلامِ الخصوم بَعضِهم في بعض/ ح2416) أن الآية نزلت في يهوديٍّ جحد أرضا كانت للأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه.

[2] أخرجه الطبري 519/5. وقد أخرج البخاري في صحيحه (البيوع/ باب ما يُكره من الحلف في البيع/ ح2088) نحوه عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

وصفته[1].

ومعنى الآية – والله تعالى أعلم– : أن الذين يختارون على عهد الله عَرَضا يسيرا من الدنيا، أولئك لا نصيب لهم في الآخرة، ولا يكلمهم الله تعالى بكلام خيرٍ ورحمةٍ، وهذا كما يُقال: (فلان لا يكلِّمُ فلانا، ولا ينظر إليه) يراد بذلك أنه غضبان لا يكلمه إلا بالسوء.

ويقال: معنى الآية لا يُسمعهم الله تعالى كلامه، كما يكلم أولياءه بغير سفير[2].

ومعنى ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، أي لا ينسبهم إلى الزكاة، ولا يُثني عليهم خيرا، ولهم مع هذه الأحوال عذاب مؤلِم وجيع.

قوله ﷻ : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

رُوي أن جماعة من اليهود أولي الفاقة والفقر قدموا المدينة من الشام لـيُسْلموا فلَقِيَهم كعبُ بن الأشرف، فقال أتعلمون أنه نبيٌّ ؟ – ﷺ – قالوا: نعم، وما تعلمه أنت؟ قال: لا، قالوا: فإنا نشهد أنه عبد الله ورسوله، فقال كعب بن الأشرف: لقد حرمكم الله خيرا كثيرا، كنت أريد أن أَمِيرَكم وأكسو عيالكم، فحرمكم الله تعالى، فقالوا: رويدك! حتى نلقاه. فانطلقوا

[1] ذكره الثعلبي في الكشف والبيان 98/3، والواحدي في البسيط ق40/ب، والبغوي في معالِم التتريل 57/2 منسوبا إلى عكرمة. وذكر الثعلبي أيضا، والواحدي في أسباب الترول ص237 قصة طويلة عن الكلبي في ذلك، وستأتي في تفسير الآية التالية.

[2] هذا قول النحاس، ولفظه: « لا يُسمعهم الله كلامه بلا سفير كما كلّم الله موسى عليه السلام، فهذا معناه لا يكلّمهم على الحقيقة، ويكلّمهم مجازًا بأن يأمر الملائكة أن تحاسبهم كما قال:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الحجر9/1-92] ..». إعراب القرآن ص209.

وكتبوا صفةً سوى صفته، ونعتًا سوى نعته، ثم انتهوا إلى النبيﷺ فكلّموه وسألوه، ثم رجعوا إلى كعب، فقالوا: كنا نرى أنه رسول الله، فإذا هو ليس بالنعت الذي نُعِتَ لنا، وجدنا نعته مخالفا للذي عندنا، وأخرجوا الذي كتبوه، فنظر إليه كعب، ففرح وأخذ إقرارهم، وخطوطهم، ثم بعث إلى كل واحد منهم بثمانية أذرع من الكِرباس [1]، وخمسة أَصْوُعٍ من الشعير، / فنزلت الآية [2].

والمعنى: وإن من أهل الكتاب طائفة يحرفون الكتاب، ثمّ يقرؤون ما حرفوه لتظنوا أيها المسلمون أن ذلك من التوراة، وما هو من التوراة، ويقولون هو من عند الله نزل، وما هو من عند الله نزل، ويقولون على الله الكذب بادّعائهم أن ذلك المحرف من التوراة، وهم يعلمون أنهم يكذبون.

و(لَيُّ اللسان) هو العدول عن الصدق والصواب[3]. أصله من الفتل [4]؛ يقال: (لويتُ العمود) إذا فتلتَه، و(لويت اليد) إذا فتلتَها؛ ومن ذلك قولهﷺ: «**لَيُّ الوَاجِدِ ظُلمٌ**»[5].

---

[1] الكرباس: ثوب خشن من القطن؛ وهو فارسيّ معرّب؛ والجمع: الكرابيس؛ ويقال لبائعه: الكرابيسي. راجع: الصحاح، والقاموس مادة « ك ر ب س ».

[2] ذكره الثعلبي في الكشف والبيان 98/3، والواحدي في الأسباب ص 237 عن الكلبي عند بيان سبب نزول الآية السابقة. وانظر العجاب 702/2-703.

[3] معاني القرآن للزجاج 435/1، معاني القرآن للنحاس 428/1.

[4] راجع مقاييس اللغة، والقاموس، واللسان مادة « ل و ى ».

[5] **[صحيح بنحو معناه]** أخرجه أحمد 465/29 (17946)، وأبو داود (الأقضية/ باب في الحبس في الدَّين وغيره/ ح3628)، وابن حبان في صحيحه 486/11 (5089)، وغيرهم من طريق محمّد بن مَيمُون بن مُسَيْكَةَ، عن الشريد بن سويد الثقفي ﵁ مرفوعا بلفظ: «**لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلُّ عِرضَهُ وَعُقوبَتَه**». وإسناده ضعيف لجهالة محمد بن ميمون (تهذيب التهذيب 618/3). وفي الباب حديث أبي هريرة ﵁ المتفق عليه: «**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْم**». صحيح البخاري (الحوالات/ باب في الحوالة/ ح2287)، وصحيح مسلم (المساقاة/ ح1564).

و(لَيُّ الحبل) هو أن يُعدل به عن وجه الاستواء[1].

قولــه ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

وذلك أنه لما كثرت دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام، وقامت عليهم الحجج، قالوا: إن هذا الرجل يريد أن نَتَّــبِعَه ونعبدَه، كما سأل عيسى عليه السلام مِن قومه، حتى عبدوه، فكذّبهم الله ﷻ في قولهم بهذه الآية[2].

ومعناها: ما كان لبشر من الأنبياء، مثل عيسى وعُزَير وغيرهما، أن يُعطيَه الله تعالى الكتاب وعلمَ الحلال والحرام والنبوةَ، ثم يقولَ للناس: كونوا عبادا لي؛ أي لا يجتمع لأحد النبوةُ والقولَ للناس: كونوا عبادا لي.

وليس هذا على وجه النهي، ولكنه على وجه التنــزيه لله ﷻ، أنه لا يختار نبيًّا يقول مثل هذا القول للناس. ويجوز أن يكون هذا على وجه تعظيم الأنبياء - صلوات الله عليهم-، فإنه من أُعطي النبوةَ، عُلِمَ أنه ليس له أن يدعو إلا إلى عبادة الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾، أي ولكن يقول: كونوا ربّانيّين، علماءَ عاملين، بتعليمكم الكتاب للناس، وبما كنتم تدرسون لأنفسكم.

---

[1] كذا في الأصل: « (لويتُ العمود) إذا فتلتَه.. و(لَيُّ الحبل) هو أن يُعدل به عن وجه الاستواء». قلت: ولعل الصواب أن يُستبدل كلٌّ من «العمود» و«الحبل» مكان الآخر، إذ المعروف أن الحبلَ هو الذي يُفتَل، بخلاف العمود وغيره من الأشياء الصلبة، فإنها تُمال عن وجه الاستواء. وفي الصحاح: «(لويتُ الحبل): فتلته، و(لوى الرجلُ رأسَه) و(ألوى برأسه): أمال وأعرض».

[2] أخرج بنحوه الطبري 5/524-525 عن ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس. ومحمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مجهول كما في التقريب: رقم(6276). والحديث أخرجه ابن المنذر 1/266، عن ابن إسحاق مُعضلا، وأخرجه ابن أبي حاتم 2/693، عن محمد بن أبي محمد معضلا.

ومن قرأ: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بنصب التاء والتخفيف [١]، فمعناه: بِعِلْمِكم، وبدَرْسِكم.

وإنما قيل للفقهاء: (ربّانيون) لأنهم يَرُبُّون العلم أي يقومون به، وزيدت الألف والنون للمبالغة، كما يقال: (رجل لحياني)، ولذي الجمّة الوافرة: (جُمّاني)[٢]

وعن ثعلب[٣] أنه قال: «يقال رجل (رِبِيٌّ) و(ربّاني)، أي عالِمٌ عاملٌ مُعلّمٌ»[٤]؛ لأن العالِم إنما ينبغي أن يقال له (عالِم) إذا كان له منفعة من علمه، يعمل عليه، فأما إذا لَم يعمل، فهو والجاهل سواء.

وقيل: إن الرباني منسوب إلى الرب – جل وعزّ– [٥].

قولــه ﷻ: ﴿ وَلَا [يَأْمُرُكُمْ][٦] أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أي لا يأمركم النبيﷺ – ويقال: لا يأمركم الله تعالى[٧] – أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا. وذكر الملائكة لأن خُزَاعَةَ كانت تقول: الملائكة بنات

---

[١] هي قراءة المدنيَّين، والمكي، والبصريَّين. وقرأ الباقون بضم التاء وتشديد اللام: ﴿ تُعَلِّمُونَ﴾. يُنظر: المبسوط ص145، الروضة 590/2، النشر 240/2.

[٢] يُنظر: نزهة القلوب ص241، المفردات 191، عمدة الحفاظ ص192.

[٣] هو الإمام اللغوي المحدِّث، أبوالعبَّاس أحمد بن يَحيَى بنِ يزيد الشَّيْبَانِيُّ مولاهم، البغداديُّ، صاحب «الفصيح» وتصانيف أخرى. كان إمامَ الكوفيين في النحو واللغة . توفّي ببغداد سنة 291هـ. راجع: سير أعلام النبلاء 5/14، وبُغية الوعاة 396/1.

[٤] نقله ابن عزيز في نزهة القلوب ص241.

[٥] نسبه الأزهري إلى سيبويه بلفظ: «وقال سيبويه: زادوا ألفا ونونا في الرّباني إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرّب دون غيره من العلوم». تهذيب اللغة 129/15 « ر ب ب ». وانظر: البسيط للواحدي ق41/ب، مفاتيح الغيب 122/8-123، اللباب لابن عادل 347/5-348.

[٦] هذا على قراءة أبي جعفر، ونافع، وابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي. وقرأ الباقون بفتح الراء ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾. راجع: السبعة ص213، المبسوط ص145، النشر 240/2.

[٧] هذا إنما يصحّ على قراءة الرفع، لأنها على الاستئناف. وأما قراءة النصب، فهي معطوفة على ما سبق، ففيها ضمير راجع إلى ﴿لِبَشَرٍ﴾ المتقدم ذكره. وانظر ما يأتي.

الله تعالى[١].

من قرأ برفع الراء من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ ﴾ فعلى الابتداء، ومن نصب الراء فعلى البناء من قوله ﷻ: ﴿ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي الله ﷻ يبعث النبي ﷺ ليدعو الناس إلى الإسلام، فكيف يدعوهم [٣] إلى الكفر، بعد أن كانت فطرتكم على الإسلام؟ ويقال: بعد أن كنتم مقرين بالتوحيد.

قوله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

المعنى: واذكر لهم - يا محمد ﷺ - القصةَ حين أخذ الله العهدَ على كل رسول عليه السلام أن يؤمن بسائر الرسل عليهم السلام، ويأخذَ الميثاق من قومه على الإيمان بالنبي ﷺ الذي يخرج من بعده، وعلى نُصرته.

وقوله تعالى: ﴿ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ [النحل/57] عند البغوي في معالِم التنـــزيل 24/5، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن 339/12.

(٢) فالتقدير في قراءة النصب: ما كان لبشر أن يأمركم. وتكون ﴿ لَا ﴾ زائدة، مؤكدة للنفي السابق. راجع: الكتاب لسيبويه52/3، الحجة لابن خالويه ص111، وللفارسي 371/2.

(٣) كذا في الأصل بضمير الغيبة، ولعل الأنسب: «يدعو» كما في تفسير الحداد 86/2، أو: «يدعوكم»، ليتطابق مع لفظ الآية: ﴿ أَيَأْمُرُكُم ﴾، ومع قولهِ الآتي: «أن كانت فطرتكم».

﴿مُّصَدِّقٌ﴾، من قرأ: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾[1] فيكون «مَا» في موضع الشرط، وجوابه: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾[2]، ودخول اللام في الشرط والجواب للتأكيد كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[3]، وكما يُقال: (لئن جئتَني لأُكرِمنَّك).

ويقال: هذه لامُ القسم[4]، كأنه استحلفهم: والله لتؤمنن به، وأخذُ الميثاق في معنى التحليف لأن الحلف وثيقة .

وموضع «مَا» من قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾ نصبٌ بقوله: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾ كأنه قال: / لَلذي آتيتكموه من كتاب[5].

وقرأ نافع: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾[6]؛ لأن عظيم الشأن قد يعبّر عن نفسه بلفظ الجمع.

ومن قرأ: ﴿لِمَا ءَاتَيۡتُكُم﴾ بكسر اللام[7]، فعلى معنى: أخذ الله تعالى

---

(1) هي قراءةُ جميع القرأَةِ عدا حمزةَ فإنه قرأ بكسر اللام ﴿لِمَا﴾. راجع: المبسوط ص146، الروضة 590/2-591، النشر 241/2.

(2) جعلُ ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ جوابا للشرط، فيه تسامح. وذلك أن جواب الشرط محذوف، وجملة ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ دالّة عليه، وليست هي إياه. بل هي جواب للقسم المحذوف، أو للقسم المدلولِ عليه بأخذ الميثاق لأنه بمعنى الاستحلاف. وقد تقرر في علم النحو، أنه لو اجتمع شرط وقسم، حُذف جواب المتأخر منهما، لدلالة جواب الأول عليه.

(3) جزء من الآية (86) من سورة الإسراء.

(4) هذا قول عامّة النحاة والمفسرين، وهو لا يُنافي ما جزم به المؤلف أوّلا من أنها دخلت للتأكيد، وذلك لأن القسم إنما يؤتى به للتأكيد.

(5) راجع: الكتاب 107/3-108، معاني القرآن للفراء 225/1، الطبري 536/5-537، معاني القرآن للزجاج 436/1-437، مشكل إعراب القرآن ص 165-167، التبيان للعكبري ص198-199، الكشاف 406/1، المحرر الوجيز 144/3-145.

(6) وهي قراءة أبي جعفر أيضا. راجع: المبسوط ص146، الروضة 591/2، النشر 241/2.

(7) هي قراءة حمزة من بين العشرة، كما سبق.

الميثاقَ لإيتائه[1] الكتاب والحكمة[2].

وصرَفَ الكلام من الخبر إلى الخطاب، كأنه قال: وإذ أخذتُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾ أي قال الله تعالى لأنبيائه: أقررتم بما أمرتكم به، وأخذتم على ما قلت لكم عهدي؟

والإصر في اللغة: الثقل، لكن يراد به العهد لما فيه من الثقل[3].

ولفظ الأخذ يحتمل وجهين، أحدهما: قبلتم على ذلك عهدي، والثاني: أخذتم العهد بذلكم على أممكم. يقال: (فلان أخذ بيعةَ فلان) إذا قَبِل بيعته، ويقال: (أخذ ببيعته) إذا أخذها على غيره له[4].

وقوله ﷻ: ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَا﴾ أي قالت الأنبياء – صلوات الله عليهم– : أقررنا بالعهد، لنؤمنن به، ولننصرنّه.

قال الله ﷻ: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ أي يشهد بعضكم على بعض بذلك[5].

ويقال معنى ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: بيّنوا لمن يكون بعدكم، لأن الشاهد هو الذي يصحح دعوى المدّعي[6].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي أنا من الشاهدين عليكم وعلى أممكم. ويقال في معنى ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: أي قال الله ﷻ لملائكته:

---

[1] في الأصل: « لإتيانه »، والسياق يقتضي ما أثبت.

[2] فاللام للتعليل. راجع: معاني القرآن للفراء 225/1، الحجة لابن زنجلة ص168، الكشف عن وجوه القراءات 352/1، المحرر الوجيز 143/3، الموضَح 378/1، الإتحاف ص226.

[3] قال محمد بن إسحاق: « إصري: أَي ثِقَلَ ما حَمَّلتُكم من عَهدِي»؛ سيرة ابن هشام 234/1. وراجع: تهذيب اللغة مادة « و ص ر »، وتاج العروس مادة « أ ص ر » .

[4] ذكرهما الماوردي في النكت والعيون 407/1 بلا نسبة.

[5] قاله السمرقندي في بحر العلوم 227/1.

[6] قاله الزجاج في معاني القرآن 437/1، وبنحوه النحاس في معاني القرآن 432/1.

فاشهدوا على إقرارهم[١].

وشهادة الله تعالى للنبيين تبيينه أمرَ نبوتهم بالآيات المعجزات.

قولــه ﷻ: ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢ ﴾

يقول: من أعرض بعد أخذ الميثاق على النبيين وعلى أممهم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ في الكفر، أي هم الخارجون إلى أفحش مراتب الكفر، فإن في الكفر ما هو أصغر، وفيه ما هو أكبر.

قولــه ﷻ: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ [تَبۡغُونَ][٢] وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ [تُرۡجَعُونَ][٣] ٨٣ ﴾

معناه — والله أعلم — : أبعدَ هذه الوثائق الجارية بينهم وبين الله ﷻ في أمر النبي ﷺ يطلبون دينا سوى ما عهده الله تعالى إليهم؟

قال الكلبي: وذلك أنه لَمَّا قال لهم نبي الله ﷺ حين اختلفوا في دين إبراهيم عليه السلام: «**كلا الفريقين منكم بريء من دين إبراهيم** عليه السلام»، قالوا: والله لا نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٤].

ومعنى ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾: أي له أخلَصَ

---

[١] نسبه الثعلبي في الكشف والبيان 105/3، وابن الجوزي في زاد المسير 416/1، وغيرهما، إلى سعيد بن المسيب.

[٢] هذه قراءة الجمهور ما عدا البصريَّين وحفصًا عن عاصم، فإنهم قرؤوا بياء الغيبة ﴿ يَبۡغُونَ﴾.

[٣] هذه قراءة الجمهور ما عدا حفصا عن عاصم، ويعقوب، فإنهما قرءا بياء الغيبة، لكنهما اختلفا في صيغته، فقرأ حفص بضم الياء، مبنيا للمجهول﴿يُرۡجَعُون﴾، وأما يعقوب، فقرأ بفتح الياء مبنيا للمعلوم ﴿ يَرۡجِعُون ﴾. راجع: المبسوط ص146، الروضة 591/2، النشر 241/2.

[٤] بحر العلوم للسمرقندي 227/1. ونسبه الثعلبي في الكشف والبيان 105/3، والواحدي في أسباب النزول ص239 إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فالظاهر أنه من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه.

وخضع.

قال الكلبي: أما أهل السماوات، ومن وُلد في الإسلام مِن أهل الأرض، فأسلموا طائعين، ومن أَبَى قُوتِلَ حتى يدخل في الإسلام كرهًا، يُجاءُ بهم في السلاسل، ويُكرهون على الإسلام[١].

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**عَجِبَ رَبُّكم مِن قومٍ يُقادُونَ إلى الجنَّةِ في السَّلاسِلِ**»[٢].

وقال قتادة في معنى قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي أسلم بعضهم قبل رؤية البأس وبعضهم بعدَ رؤية البأس[٣].

وقال بعضهم[٤]: معناه وله أسلم من في السماوات والأرض بالإقرار له بالإلهية[٥] كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٦].

وقال الزجاج: معناه أن كلهم خضعوا لله من جهة ما فَطَرَهُم عليه، لأنه لا يمتنع ممتنع من جبِلَّةٍ جُبِل عليها، ولا يقدر على تغييرها، أحبَّ تلك الجبلَّةَ أو كرهها، لا يمكنه التخلص من حكم الله ﷻ في المِحَن والبلايا[٧].

ومعنى ﴿وَإِلَيۡهِ [تُرۡجَعُونَ]﴾، أي إلى جزائه تُرجعون في الآخرة، فبادروا إلى دينه، ولا تطلبوا غير ذلك.

---

(١) بحر العلوم 228/1، وتنوير المقباس ص67.

(٢) **[أخرجه البخاري]** في صحيحه (الجهاد والسير/ باب الأُسارى في السلاسل/ ح 3010)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره 400/1 - ومن طريقه الطبري 552/5، وابن أبي حاتم 697/2 - بلفظ: « أما المؤمن فأسلم طائعًا، وأما الكافر فأسلم حين رأى بأسَ الله ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [سورة غافر/85] ». والمراد بالبأس هنا: العذاب.

(٤) هو مجاهد ﷺ كما أخرجه عنه الطبري 549/5.

(٥) الصواب أن يُقال: «بالإقرار له بالربوبية»، إذ الآية التي استشهد بها، فيها ذكر الخلق، وهو من أفراد الربوبية كما لا يخفى.

(٦) جزء من الآية (87) من سورة الزخرف.

(٧) معاني القرآن للزجاج 438/1-439.

ويُقرأ: ﴿ يَبۡغُونَ ﴾ و﴿ يُرۡجَعُونَ ﴾ كلاهما بالياء على المغايبة[1].

فأما نصب ﴿ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾، لأنه مصدرٌ وُضع موضع الحال، كما يقال: (جئتُ ركضًا وعدْوًا) أي راكضا وماشيا بسرعة[2].

قولــه ﷻ: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

خطاب للنبي ﷺ، وأمرٌ له أن يقول عن نفسه وعن أمته: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾. وهذا كما يُخاطَب رئيس القوم بأن يقول عن نفسه وعن قومه.

ومعنى ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ أي لا نفرّق بين الرسل في الإيمان بهم، ولا نفعل كما فعلت اليهود والنصارى.

﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ أي مُخلصون في الطاعة والتوحيد.

قولــه ﷻ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قال عبدالله بن عباس: نزلت هذه الآية، وما بعدها إلى قوله:﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[3]، في عشرة رهط آمنوا ثم / رجعوا عن الإسلام فلحقوا بمكة، منهم طُعْمَةُ بنُ أُبيرِق، ووَحْوَحُ بنُ الأسْلَت، والحارثُ بن سويد، وغيرهم، ونَدِمَ الحارث، وأرسل إلى أخيه الجلاسِ بنِ سويدٍ المسلم:

---

[1] قد سبق التفصيل في ذلك في الصفحة السابقة.

[2] معاني القرآن للزجاج 438/1.

[3] الآية (92).

إني قد ندمتُ على ما صنعتُ، فسل لي نبي الله ﷺ، هل لي من توبة؟ وإلا، أذهب في الأرض، فنزلت هذه الآيات[1].

ومعنى هذه الآية: من يطلب دينا غير دين الله الإسلام، فلن يُقبل منه ما أقام عليه، أي لن يُثاب، ولن يُثنى عليه. ويقال: معنى ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ أن المرتد، لا يُقبل منه إلا الإسلام أو السيف، ولا يُقَرُّ على الكفر بالجزية، فإن هذه الآية نزلت في المرتدين[2].

وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، أي من المغبونين، تَرَك منزله في الجنة، واختار منـــزله في النار.

قوله ﷻ: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

معناه: كيف يهدي الله قوما كفروا بالله تعالى بعد إيمانهم به. وقوله

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في معرفة الصحابة 642/2 (1718)، و777/2 (2068)، بالإسناد الـــمُظلم: السدي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ؛ وليس فيه تحديد الآيات التي نزلت، ولا ذِكرُ الأسماء غير الحارث. وإنما ذَكَر الأسماء مقاتل في تفسيره 180/1-181. ولكن قصة ارتداد الحارث وحده ثابتة، فقد روى أحمد 93/4 (2218)، والنسائي (تحريم الدم/ باب توبة المرتد/ ح 4068)، والطبري 557/5، وابن أبي حاتم 700/2، وابن حبان 329/10 (4477)، وغيرهم بإسناد صحيح عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: «ارتدّ رجلٌ من الأنصار، ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: سلوا لي رسول الله ﷺ، هل لي من توبة؟ فنزلت ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران 86-89] فأرسل إليه قومه، فأسلم» وروى مجاهدٌ القصة بنحوها، مع تسميته للرجل بأنه الحارث بن سويد؛ أخرجها عبد الرزاق في تفسيره 400/1-401، والطبري 558/5، والواحدي في الأسباب ص240.

(٢) قلتُ: قد سبق أن الآيات التي نزلت في ارتداد الحارث بن سويد - حسب الروايات الصحيحة- تبدأ من الآية التي ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. وأما هذه الآية، فالظاهر أنها في أهل الكتاب، كما قاله ابن عباس، وعكرمة ﵄. راجع: الطبري 555/5-557.

تعالى: ﴿ وَشَهِدُوٓاْ ﴾ عطفٌ على قوله ﷻ: ﴿ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ دون قوله تعالى: ﴿ كَفَرُواْ ﴾. وقد يُعطف الفعل على المصدر، كما تقول: (أعجبني ضربُ زيدٍ وأن غَضِب)[1]. فصار تقدير الآية: كفروا بعد أن آمنوا، وبعد أن شهدوا أن الرسول - يعني محمدا ﷺ - حقٌّ، ﴿ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ دلالاتُ صدقِهِ ونبوتِهِ، فكيف يستحقون هداية الله ﷻ، وهذا كما يقال: (كيف أُحسِنُ إلى فلان، وقد أنعمتُ عليه الكثير، فلم يعرف حق نعمتي؟).

ومعنى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي لا يرشد المشركين، مَن[2] لَم يكن أهلا لذلك.

فإن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله تعالى، وأن الظالمين لا يهديهم الله تعالى، وكثيرٌ من المرتدين أسلموا، ومِن الظالمين تابوا. قيل: معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم، فإذا جاهدوا وقصدوا الرجوع إلى الحق، وَفَّقهم، كما قال جلّ ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾[3].

وقيل: معنى قوله تعالى ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمًا ﴾ أي كيف يرحمهم وينجيهم من العقوبة؟[4].

---

[1] يُعطف الفعل على المصدر، بشرط أن يكون الفعل مؤوّلا بالمصدر، وذلك بأن تقترن به (أن) المصدرية لفظا أو تقديرا. فتأويل المثال المذكور: (أعجبني ضربُ زيد وغضبُه)، وتأويل الآية: (بعد إيمانهم وشهادتهم). راجع: الهداية إلى بلوغ النهاية 1068/2، البسيط ق 45/ب-46/أ، الدر المصون 301/3-303.

[2] بدلُ بعضٍ من المشركين، أي لا يهدي من لَم يكن أهلا للهداية مِنهم.

[3] جزء من الآية (69) من سورة العنكبوت.

[4] هذا القول – والله أعلم- من تأويلات المعتزلة القدرية الذين لا يُثبتون من الهداية إلا هدايةَ الدلالة والبيان التي هي عامّة لجميع الخلق شقيّهم وسعيدهم. ولا يُثبتون هدايةً هي من باب التوفيق والإلهام يخصّ الله ﷻ بها مَن يشاء من عباده إحسانا منه وفضلا، ويحجبها عمن يشاء حكمةً منه وعدلا، ولذا يؤوّلون جميع النصوص- ومنها هذه الآية- التي تدلّ ظواهرها على

قولـــه ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول: أهلُ هذه الصفة، جزاؤهم أن عليهم لعنةَ الله أي عذابَ الله.

واللعنةُ مِن الله الإبعاد بالمكروه. وأما لعنةُ الملائكة والناس، فدعاؤهم على الكفار بأن يُبعدهم من رحمته.

فإن قيل: كيف قال الله تعالى﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ ومِن الناس مَن يوالي الكافر، ويُوافقه، ولا يلعنه؟ قيل: فيه جوابان؛ **أحدهما**: أنهم في الآخرة يلعن بعضهم بعضا [1]. **والثاني:** أن الله تعالى ركّب في الدنيا، في قلوبهم اللعن على الظَلَمَة في كل حادثةٍ وأمر[2].

وقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾، أي مقيمين في اللعنة، وقيل: فيما توجبه اللعنة، وهو العذاب، لا يُهَوَّن عليهم، ولا يُؤَجَّلون حين يترل بهم.

ذلك. قال القاضي عبدالجبار في تأويل هذه الآية:«كيف يُثيبهم ويسلك بهم طريق الجنّة، مع أن كلمة العذاب قد حقّت عليهم لكفرهم». متشابه القرآن ص151.

[1] يشير إلى قوله تعالى في شأن الكفار: ﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت25]. وهذا قول الزجاج في معانيه 236/1، و440.

[2] وهذا ما أجاب به السدي، حيث قال : «أَمَّا لعنةُ الله والملائكة والنَّاس أَجمعين، فَإِنَّه لا يتلاعن اثنان مؤمنان ولا كافران، فيقول أَحدهما: (لَعَنَ اللَّهُ الظَّالِمَ)، إلا وَجَبَتْ تلك اللَّعنةُ على الكافر، لأَنَّهُ ظالِم، فكلٌّ أَحَدٍ يَلعنُهُ مِنَ الخلق». أخرجه الطبري 742/2، وابن أبي حاتم 271/1 عند تفسير الآية (161) من سورة البقرة. وهذا الجواب اختاره الطبري، ورجحّه النحاس في معانيه 435/1.

قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

استثناء من قول الله ﷻ: ﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾. ومعناه: إلا الذين تابوا من الكفر والشرك من بعد ارتدادهم، ﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أي لَم يكتفوا بمجرّد الإيمان، ويقال: أصلحوا أعمالهم بالتوبة [(١)]؛ ويقال: أصلحوا مَن أفسدوه مِنَ الناس ممن تبعهم[(٢)]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ متجاوز عنهم، رحيم بهم بعد التوبة.

قال عبدالله بن عباس: لما نزلت للحارث بن سويد الرخصةُ في التوبة، أرسل أخوه الجلاس إليه، أن الله ﷻ فرض عليكم التوبة، فارجِعْ إلى رسول الله ﷺ، واعتذِرْ إليه، فرجع وتاب من صنيعه، وقَبِل النبي ﷺ ذلك منه، فبلغ ذلك أصحابَه الذين بمكة، فقالوا: نتربص بمحمد ﷺ ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعةُ إليه، ذهبنا كما ذهب الحارث، فيقبل توبتنا، فأنزل الله تعالى قولهَ ﷻ [(٣)]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول: إن الذين كفروا بالله والرسول بعد تصديقهم، ثم ازدادوا كفرا بقولهم: (نقيم بمكّة ما بدا لنا) ﴿ لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ عن الإسلام.

وفي هذه الآية دليلٌ أن هؤلاء لَم يكونوا يحققون / التوبة، لأنه قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾. وكانت هذه الآية خاصة في قوم عَلِم الله أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت، ومات طُعْمَة كافرًا. ولو كانوا يحققون التوبة

---

(١) قاله السمرقندي في بحر العلوم 230/1.

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن 440/1.

(٣) هذا من رواية الكلبي كما في بحر العلوم 230/1، والكشف والبيان 109/1، ومعالِم التنزيل 65/2. ونقل مقاتل في تفسيره 181/1 نحوه. وانظر: العجاب 713/2-714.

قبل المعاينة، لقُبلت توبتهم[١]. ويجوز أن يكون معنى﴿ لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ ﴾ أي التوبة التي يتوبون حين الموت[٢].

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية وما قبلها نزلت في اليهود، لأنهم كانوا مؤمنين بالنبي ﷺ قبل مبعثه شاهدين له بالنبوة، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات [٣]، وبيّن أن توبتهم في وقت إيمانهم بالنبي ﷺ قبل مبعثه غيرُ مقبولة منهم، لأنهم كفروا بعدها، وازدادوا كفرا.

قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١ ﴾

معنى الآية – والله تعالى أعلم – : أن الذين كفروا وماتوا على كفرهم، لو كان لأحدهم في الآخرة ملءُ الأرض ذهبًا فافتدى به لن يُقبل منه، كما رُوي في الخبر أنه يقال للكافر يوم القيامة: « **لو كان لك ملء الأرض ذهبا، أكنت تفتدي به من هذا العذاب؟** »، فيقول: نعم، فيقال له: « **قد سُئلتَ ما هو أيسر عليك من هذا، فلم تَفعلْ** »[٤].

وقوله تعالى﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾أي أهل هذه الصفة لهم عذاب وجيع في الآخرة، ليس لهم من مانع يمنعهم من العذاب.

---

[١] بنحوه قال قطرب، ولفظه: «... فسمّاها توبةً غيرَ مقبولةٍ لأنه لَم يصح من القوم عزم، والله ﷻ يقبل التوبة كلها إذا صح العزم». إعراب القرآن للنحاس ص212.

[٢] هذا قول الحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني. راجع: الطبري5/564، وابن أبي حاتم2/702.

[٣] هذا قول الحسن البصري، أخرجه عبد الرزاق في تفسيره 1/400، والطبري 5/560-561، وابن المنذر 1/280. وهو الذي رجّحه الطبري5/567-568.

[٤] **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (الرقاق/ باب: من نوقش الحساب عُذّب/ ح6538) ومسلم (صفة القيامة/ باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبا/ ح 2805) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعا.

والـــمَلْءُ بفتح الميم: الفِعل، والـــمِلْءُ بكسرها: مقدار ما يُملأ به الشيء، يقال: (هذا مِلء هذا) أي مقدار ما يملؤه [1]، وهذا كما يقال: (رَعَيتُ رَعيًا)، والرِعْيُ: الراعية[2].

وقوله تعالى: ﴿ذَهَبًا﴾ نَصبٌ على تمييز المقدار. والتمييز ثلاثة: تمييزُ جملةٍ مبهَمةٍ كما في قوله ﷻ: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾[3]، وتمييزُ عددٍ مبهَم كما يقال: (عشرون درهما)، وتمييز مقدار مبهَم كما يقال: (عندي مِلء زِقٍّ[4] عسلاً).

وأما دخول الواو في قوله ﷻ: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، ذهب بعضهم إلى أن الواو زائدة[5]، وأنكره الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال: إن فائدة الواو تعميم النفي لوجوه القبول، ولو لَم يكن واوٌ لأَوهم الكلامُ أن ذلك لا يُقبل في الافتداء، ويُقبل على غير وجه الافتداء[6].

قولـــه ﷻ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾

---

[1] راجع: معاني القرآن للزجاج 442/1، الصحاح مادة « م ل أ ».

[2] قلتُ: المعروف أن الرِعْي بكسر الراء، ليس هو الراعية، بل هو الكلأ الذي ترعاه الراعية، وتأكله. راجع: تهذيب اللغة، والصحاح، والقاموس المحيط مادة « ر ع ى ». والمقصود هنا، أن المصدر في (الملء)، و(الرعي) وغيرهما مثل (القطع)، و(الستر) ، و(الذبح) يكون بالفتح، واسمَ الشيء المفعول به، يكون بالكسر.

[3] جزء من الآية (34) من سورة الكهف.

[4] الزِّقُّ: وعاء من إهاب يُـــتّخذ للشراب ونحوه. اللسان مادة « ز ق ق ».

[5] قال به أبو زكرياء الفرّاء في معاني القرآن 226/1.

[6] لفظ الزجاج في معاني القرآن 441/1: «أي لو عمل من الخير، وقدّم ملء الأرض ذهبا يتقرّب به إلى الله لَم ينفعْه ذلك مع كفره، وكذلك لو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهبا لَم يُقبل منه... وقال بعض النحويين: إن الواو مسقطة ... وهذا غلط لأن الفائدة في الواو بيّنة، وليست الواو مما يُلغى».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لن تنالوا ما عند الله من ثوابه في الجنة حتى تتصدقوا مما تحبون من الأموال[١].

ويقال: معناه لن تبلغوا حقيقة التوكل والتقوى حتى تخرجوا زكاة أموالكم طيِّبةً بها نفوسُكم[٢].

فكان عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يقول: هذه الآية منسوخة، نسختها آية الزكاة[٣].

وذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المقصود من هذه الآية الحثُّ على الصدقةِ، صدقةِ النفل والفرض، بأبلغ وجوه القُرَب، لأن قوله عز وجل: ﴿ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ يدل على المبالغة فيه ليكون ذلك دليلا على صدق نية المتصدّق، كما روى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية، فقال صلى الله عليه وسلم: «**أن يُنفق المالَ على حُبِّهِ وهو صحيحٌ شحيحٌ، يَأمُلُ العيشَ، ويخشى الفقر**»[٤].

واشترى ابن عمر رضي الله عنهما جاريةً كان يهواها، فلمّا ملكها، أعتقها ولَم يُصب منها، فقيل له: أعتقتَها بعد أن كنت تهواها، ولم تُصب منها! قال رضي الله عنه: «﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾»[٥].

---

(١) هذا من رواية الكلبي عن أبي صالح كما في بحر العلوم 230/1، وتنوير المقباس ص68.
قلتُ: وممن فسّر ﴿ ٱلْبِرَّ ﴾ بالجنة، ابن مسعود رضي الله عنه، وعمرو بن ميمون الأودي، والسدي.
راجع: الطبري 573/5، وابن المنذر 284/1، وابن أبي حاتم 703/3.

(٢) ممن فسّر ﴿ ٱلْبِرَّ ﴾ بالتقوى مقاتل بن سليمان في تفسيره 181/1. وراجع: بحر العلوم 230/1.

(٣) لَم أجده عن ابن عباس. وإنما نُسب القولُ بالنسخ إلى مجاهد والكلبي كما في الكشف والبيان للثعلبي 110/3، والبسيط ق 47/ب. والقول بالنسخ «في غاية البعد لأن إيجاب الزكاة لا ينافي الترغيب في بَذْل المحبوب لوجه الله». بتصرّف يسير من اللباب لابن عادل 387/5.

(٤) **[صحيح بنحو معناه]** لَم أقف على حديث ابن عمر في كتب السنة، وإنما الذي ورد فيها، حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل: أي الصدقة أعظم أجرًا ؟ فقال: «**أنْ تَصَدَّقَ وأَنتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تخشَى الفَقْرَ وتَأمُلُ البقاء**». أخرجه البخاري (الزكاة/ باب فضل صدقة الشحيح الصحيح/ ح1419) ومسلم (الزكاة/ باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح/ ح1032) – واللفظ له -.

(٥) لَم أجده بهذا السياق. ولكن أخرج أحمد في الزهد ص242، وابن المنذر 288/1، وابن أبي

وعن عمر بن عبد العزيز ﷺ أنه كان يشتري أعدال [١] السُّكَر فيتصدّق بها، فقيل له: هلا تصدقت بثمنه؟ قال: لأن السُّكَر أحبُّ إليَّ، فأردت أن أنفق مما أحب[٢].

وعن جعفر الصادق ﷺ أنه قال: « بإنفاق الـــمُهَج، يصل العبد إلى برّ حبيبه »[٣].

والمراد بذلك نفي الكمال، وهو نفي أعلى منازل القرب، وهذا كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليس المسكينُ الذي تَرُدُّهُ اللقمةُ واللقمتان، والتمرةُ والتمرتان، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يجد ما يُنفق، ولا يُفطَن به فيُتصَدَّق عليه**»[٤]، أراد به نفيَ حقيقة المسكنة، لا أصلَ المسكنة.

وقولهﷻ: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ ﴾، أي ما تتصدقوا من مال، فإن الله بكم وبنيّاتكم عليم، يجزيكم على ذلك في الآخرة.

وإنما اتصلت هذه الآيةُ بما قبلها لبيان أن النفقة مقبولةٌ من المؤمنين، وإن كانت الفديةُ مردودةً على الكفار في الدنيا والآخرة.

حاتم 704/3، عن مجاهد، أن ابن عمر ﷺ أتى على هذه الآية في الصلاة، فأعتق جارية له، وهو يصلي، أشار إليها بيده. وفي مسند البزار – كما في تفسير ابن كثير 109/3 – رواية حمزة بن عبدالله بن عمر لقصة إعتاق أبيه لجاريته بسياق آخر. ولعله من تعدد الوقائع، إذ كان ﷺ كلما خلا بجارية فأعجبته، قرأ هذه الآية، وأعتقها، كما رواه أبو داود في الزهد ص263 عن نافع عنه. بل قال نافع: إنه كان لا يعجبه شيء من ماله إلا خرج منه لله ﷻ. أخرجه أحمد في الزهد ص240، ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء 295/1.

(١) جمع (العِدْل)، وهو نصف الحِمْل يكون على أحد جنبَي البعير. اللسان 430/11 « ع د ل ».

(٢) ذكره السمرقندي في بحر العلوم 230/1. وقد أخرج ابن المنذر 288/1 نحوه من فعل عبدالله بن عمر ﷺ.

(٣) ذكره شيخ الصوفية أبو عبد الرحمن السلمي في «حقائق التفسير» 107/1.

(٤) **[متفق عليه]** أخرجه بنحوه البخاري (الزكاة/ باب قول الله ﷻ: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾/ ح1479) ومسلم (الزكاة/ باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يُفطن له فيتصدق عليه/ ح1039) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله ﷻ: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ / إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

رُوي عن عبدالله بن عباس أنه قال في معنى هذه الآية: كل الطعام الحلال اليوم – وهو ما سوى الميتة والدم ولحم الختزير – كان حلالا لبني يعقوب ﵇ من قبل أن تُنَزَّل التوراة على موسى ﵇، إلا الطعام الذي حرّمه يعقوب على نفسه، وهو لحم الإبل وألبانها، وذلك أنه ﵇ كان يمشي إلى بيت المقدس فلَقِيَه مَلَك من الملائكة، وهو خلف الأثقال، فظن يعقوب ﵇ أنه لصّ، فعالجه ليصارعه، فكانا في ذلك حتى أضاء الفجر، فغمز الملَك فخذ يعقوب ﵇، فهيّج به عِرْقَ النَّسَا، فصعد الملَك إلى السماء، وجاء يعقوب يعرَج حتى لحق الأثقال، فكان يبيت الليل ساهرًا من وجعه، ويَنْصَبُ نهارَه، فأقسم إن[1] شفاه الله ليُحَرِّمَنَّ أحب الطعام والشراب إليه على نفسه، فشفاه الله ﷻ من ذلك، فحرّم أحب الطعام والشراب إليه، وكان ذلك لحومَ الإبل وألبانَها، ثمّ استنّ ولده بسُنَّته، فذلك قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾[2].

---

[1] أشير في الهامش أنه في نسخة: «لئن» .

[2] قصة مصارعة يعقوب للملَك، رواها الكلبي كما في بحر العلوم 231/1. ونقلها أيضا مقاتل في تفسيره 182/1. وهي من الإسرائيليات، فقد ذُكرت بنحوها في «العهد القديم»، سِفر التكوين، الإصحاح (32)، العدد (21-32)، إلا أن الذي صارعه يعقوب ﵇، ليس الملَك، بل الإلهُ في صورة البشر! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.
وأمّا أصلُ قصة إصابة يعقوب ﵇ بعرق النَسا، وإقسامه لئن عافاه الله أن لا يأكلَ بعضَ صنوف الطعام، فقد صحّ عن ابن عباس، ومجاهد، وأبي مجلز، وقتادة، والضحاك، والسدي، وابن كثير المكي، على اختلاف بينهم في الذي حرّمه على نفسه، هل هو العِرق من اللحم أو لحوم الإبل وألبانها. راجع: الطبري 577/5-586.

فلمّا نزلت هذه الآية، قال ﷺ لليهود: «**ما الذي حَرَّم إسرائيل على نفسه؟**» قالوا: كلّ شيء نحرّمه اليوم على أنفسنا، فإنه كان محرَّما على نوح عليه السلام، وهلمّ جرّا حتى انتهى إلينا، وأنت - يا محمد ﷺ - وأصحابك تستحلّونه! وادَّعَوا أن ذلك مسطور في التوراة، قال الله عز وجل لمحمد ﷺ: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ أي اقرؤوها، هل تجدون فيها تحريم لحوم الإبل وألبانها؟ وهل تجدون فيها تحريمَ كلِّ ذي ظُفُرٍ، وتحريمَ شحوم البقر والغنم، وغيرِ ذلك مما حرم الله عز وجل عليكم من الطيبات بعد نزول التوراة بظلمكم وبغيكم، كما قال الله تعالى﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾[1] ؟ فأبوا أن يأتوا بالتوراة خوفا من الفضيحة لعلمهم بصدق النبيﷺ، فأنزل الله سبحانه قولَه عز وجل[2]:

﴿ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

أي من اختلق على الله الكذب، بأن يقول عليه ما لَم يُنزِّله في كتاب، ﴿مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يقول: من بعد قيام الحجّة عليه، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم.

وفي هذا أعظم دلالة على نبوة نبيِّنا ﷺ، لأنه كان أُمِّيًّا لَم يقرأ الكتب، ولَم يجالس أهلَ الكتاب، فلم يكن يعرف سرائر كتب الأنبياء - صلوات الله عليهم - المتقدمين، إلا بإعلام الله عز وجل، وقد أخبرهم أن ما قالوه ليس في كتابهم، وأمرهم بأن يأتوا بالتوراة. ولو لَم يكن في كتابهم حجةٌ للنبي ﷺ، لكان يمكنهم إظهارُ كذبه بأسهل الوجوه، وهو أن يأتوا بكتاب أنفسهم.

فإن قيل: كيف كان مِن إسرائيل تحريمُ هذه الأشياء على نفسه، والتحريم

---

(١) جزء من الآية (160) من سورة النساء.

(٢) بنحوه من راوية الكلبي في تنوير المقباس ص68.

والتحليل إنما يكونان بحسب المصالح، والإنسان لا يعلم موقع المصالح؟ قيل: يحتمل أنه كان أُذِنَ له في تحريم تلك الأشياء على نفسه مصلحةً له، كما أنه أُذِنَ لنا في الاجتهاد في الأحكام، وكان ما نعمله[1] نحن بالاجتهاد مصلحةً لنا[2].

قوله ﷻ: ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥ ﴾

معناه: قل يا محمد ﷺ: صدق الله في أن كل الطعام كان حِلاًّ لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه، فاتبعوا ملة إبراهيم في استباحة لحوم الإبل وألبانها، وافعلوا ما كان يفعله من الصلاة إلى الكعبة، وحج البيت.

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ أي لَم يكن إبراهيم عليه السلام على دين المشركين، ولَم يفعل كما فعله اليهود في ادعائهم أن عزيرًا ابنُ الله، ولا [قال][3] بمقالة النصارى أن المسيح ابن الله.

وهذه الآية حجة على اليهود في إنكارهم نسخَ الشريعة، وقولِهم: إن ذلك لا يجوز من جهة الله ﷻ[4].

ووجهُ اتصال تحريم يعقوب عليه السلام الطعامَ على نفسه بقوله: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾، بيانُ أنّ مِن أنبياء الله – صلوات الله عليهم – مَن كان يحرِّم مِن أحب الأطعمة عنده لِحَقِّ الله ﷻ، فكونوا مثله في الإيثار على أنفسكم بالإنفاق في طاعة الله سبحانه.

فإن قيل: هل يجوز لنا تحريم الأشياء على أنفسنا كما جاز لإسرائيل؟

---

[1] في الأصل: « نعلمه »، بتقديم اللام على الميم. والمُثبَت من نسخة أشير إليها في الهامش.

[2] راجع: أحكام القرآن للجصاص 30/2.

[3] زيادة يقتضيها السياق. وفي تفسير الحداد 98/2: «ولا كما تقوله النصارى...».

[4] بسط الرازي في مفاتيح الغيب 149/8-150 الكلامَ في تقرير هذه الحجة، فراجعْه تستفد.

قيل: لا، لأنه لَم يُؤذَن لنا في التحريم كما أُذِن لإسرائيل، على أنه لا يمتنع أن يكون إنما حرّمها على نفسه باليمين، وأحدنا يُمكنه تحريمُ المباحات على نفسه باليمين، إلا أنه قد أُذن لنا بالحنث في الأَيمان وبالتكفير، ولَم يكن قد أُذن لهم بالحنث والكفارة.

/ قولــه ﷻ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -، وعن الحسن البصري ﵁، أنهما قالا: معناه إن أولَ بيتٍ وُضع لعبادة الناس على وجه الأرض، الكعبةُ؛ بناها إبراهيم ﵇ كما قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ إلى أن قال ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾[١]، قالا: ولَم يُرِد به أنه لَم يكن قبل الكعبة بيتٌ مبني، بل كان قبل بناء الكعبة بيوتٌ مبنيةٌ[٢].

وأما بناء بيت المقدس، فقد كان بعد الكعبة بدهر طويل[٣]؛ بناه

---

[١] الآيتان (26-27) من سورة الحج.

[٢] أخرج الطبري 590/5، وابن أبي حاتم 708/3 عن علي ﵁ أنه سُئل عن البيت، أهو أول بيتٍ وُضع في الأرض؟ فقال: «لا، ولكنه أول بيت وُضع فيه البركة، مقامُ إبراهيم، ومن دخله كان آمنا». وفي رواية عنه، عند ابن المنذر 297/1-298، وابن أبي حاتم 707/3، أنه قال: «كانت البيوت قبله، ولكن كان أول بيتٍ وُضع لعبادة الله».
وأما قول الحسن، فأخرجه الطبري 590/5، بلفظ: «هو أول مسجد عُبد الله فيه في الأرض».
وأخرج ابن المنذر 298/1، عنه، أنه قال: «أول قبلة أُعمِلت للناس، المسجد الحرام».

[٣] عُلّق في الهامش بخط مغاير: «في صحيح مسلم: بينهما أربعون سنة». **قلت:** يُشير إلى حديث أبي ذر، أنه سأل النبي ﷺ: أَيُّ مَسجدٍ وُضِعَ فِي الأَرضِ أَوَّلَ ؟ قَالَ: «**المسجدُ الحرَامُ**»، قَالَ: قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**المسجدُ الأَقْصَى**» قُلتُ: كَم كانَ بَينَهُمَا؟ قَالَ: «**أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ بَعْدُ، فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ**». أخرجه البخاري (أحاديث الأنبياء/ ح3366) ومسلم (كتاب المساجد/ ح520). وهذا الحديث استشكله العلماء؛ لأنه بَيْنَ باني البيت الحرام إبراهيم ﵇، وباني البيت المقدس سليمان ﵇، مئات السنين. ومن أحسن ما أجيب به: أن أولَ وَضْعٍ للمسجدين كان في زمن آدم ﵇ وذرّيته، وأما إبراهيم وسليمان -

سليمان بن داود عليهما السلام.

وقد يقال: (أوّل) للذي لا بعد له، يقول الرجل: (هذا أول قدومي مكة) وربما لا يقدم بعد ذلك، ولهذا قالوا: لو قال: (أول عبد أملكه فهو حُرّ)، فملك عبدًا، عَتَقَ في الحال[1].

وقال مجاهد، وقتادة، وجماعة رحمهم الله: إن أول بيت وضع في الأرض كان هو الكعبة، ولَم يكن قبله بيت مبني[2].

قال الكلبي: كان آدم عليه السلام حين أُخرج من الجنة، بنى الكعبة فطاف بها، فلما كان زمنُ طوفان نوح عليه السلام، رفعها الله عز وجل إلى السماء السادسة بحيال موضع الكعبة - وهي البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام[3] - وهو [4] البيت المعمور، يقال: له «الضُّرَاح»[5]، يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك، لَم يدخلوها قط قبله[6].

ورُوي في بعض الأخبار أن الله تعالى أنزلها من السماء وهي من ياقوتة حمراء، وكانت الملائكة تحجُّها قبل آدم عليه السلام، فلما كثرت الخطايا، رفعها الله عز وجل[7].

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **إن الكعبة كانت خُشْعَةً [8] على وجه**

عليهما السلام - فإنما أعادا البناء وجدّداه. راجع: تفسير القرطبي 207/5، وفتح الباري 470/6.

(1) معاني القرآن للزجاج 445/1-446.

(2) راجع: الطبري 591/5-593، وابن المنذر 294/1-295.

(3) في الهامش أنه في نسخة: «آدم عليه السلام».

(4) أي بناءُ آدم عليه السلام الذي رُفع إلى السماء.

(5) سُمِّي البيت المعمور «الضُّراح» لكونه مُضارِحًا للكعبة، أي مُقابلا لها. راجع: الفائق 336/2، والنهاية 81/3.

(6) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة 91/1 باختصار، وكذا ذكره السمرقندي في بحر العلوم 232/1. وفي الباب آثار عن الصحابة والتابعين، راجعها في: أخبار مكة للأزرقي 90/1-94.

(7) راجع: أخبار مكة للأزرقي 1/ 80-82 (22، و24)، و93/1 (41).

(8) في الهامش الأصل: «الـخُشْعة: أَكَمَة متواضعة على مثال الصُبْرة. من **ص**»، أي من الصحاح للجوهري، مادة « خ ش ع ». وقد اختُلف في ضبط الكلمة، فرُوي: «خَشَفة» و«حَشْفَة» أيضا. راجع: الفائق 286/1، غريب الحديث لابن الجوزي 279/1، النهاية 34/2-35.

الماء، **فدحيت الأرض من تحتها** »[١].

واختلف المفسرون - رحمهم الله تعالى - في ﴿بَكَّةَ﴾؛ قال الزهري: بَكَّةُ موضع المسجد، ومَكَّةُ هي الحرم كله[٢].

وسمي المسجد بكَّةَ لأن البَكَّ هو الزحمةُ في اللغة، يقال: (بَكَّهُ) إذا زَحَمَهُ[٣]، فسُمّي المسجدُ بكة لأن الناس يُبَكُّون فيه، أي يزدحمون للطواف[٤]. وفي هذا بيان أنه لا يجوز الطواف خارجَ المسجد؛ لأن الله ﷻ خَصَّ المسجد بكونه موضع الزحمة في الطواف.

وقال أبو عبيدة: بكة اسمٌ لبطن مكة، ومكة هي المعروفة[٥].

وقال مجاهد: بكّة ومكّة واحد [٦]، أبدلت الباء من الميم، كما يقال: (ضَرْبةُ لازمٍ ولازب)[٧].

وسمّيت بكَّةَ لأنها تَبُكُّ أعناقَ الجبابرة [٨]؛ ما من جبّارٍ قصدها، إلا وقد قصمه الله ﷻ، كأصحاب الفيل وغيرهم.

وسُمِّيت مَكَّةَ لاجتذابها الناس من كل أفق، يقال: (امْتَكَّ الفصيلُ ما في

---

(١) **[لَم أجده مرفوعا]**. وإنما رُوي بنحوه موقوفا على أبي هريرة، وابن عباس ﭫ. أثر أبي هريرة أخرجه ابن المنذر 294/1 بإسناد فيه أبو معشر، نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف [التقريب: رقم(7100)]. وأثر ابن عباس عند الأزرقي في أخبار مكة 67/1، والحاكم في المستدرك 512/2، وفيه طلحة بن عمرو المكّي، وهو متروك [التقريب: رقم(3030)].

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري 596/5-597.

(٣) راجع: الطبري 594/5، والصحاح، ومقاييس اللغة، مادة « ب ك ك».

(٤) هذا قول سعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، ومحمد الباقر. راجع: الطبري 595/5-597، ابن المنذر 300/1-301، وابن أبي حاتم 708/3-709. وهو اختيار الفراء في معاني القرآن 277/1، وأبي عبيدة في مجاز القرآن 97/1، والطبري في تفسيره 594/5.

(٥) مجاز القرآن 97/1.

(٦) لَم أجده مُسندا إليه، وقد ذكره الجصاص في أحكام القرآن 31/2، والواحدي في البسيط ق 48/ب، والقرطبي 208/5.

(٧) يقال: (صار الشيء ضربةَ لازب) أي صار لازما ثابتا. اللسان مادة « ل ز ب».

(٨) « تبُكُّ أعناق الجبابرة » أي تَدُقُّها. راجع: تهذيب اللغة 431/9 « ب ك ك».

ضرع الناقة)، إذا استقصى فلم يدعْ منه شيئا[1].

وقوله ﷻ: ﴿ مُبَارَكًا ﴾ نصبٌ على الحال[2]، تقديره: الذي استقر بمكة ثابتَ الخيرِ والبركةِ؛ لأن البركة هي ثبوتُ الخير ونموُّه، يقال: (بَرَكَ بَرْكًا[3] وبُرُوكًا)، إذا ثبت على حاله[4].

وقوله ﷻ: ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ معناه أنه بيان ودلالة للعالمين على الله ﷻ، بإهلاك الله ﷻ كلَّ من قصده من الجبابرة، كما قال الله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾[5]؛ وباستئناس الطيور فيه بالناس؛ وباستشفاء الطير إذا مرض بالبيت؛ وبأن لا يعلوه طيرٌ إعظاما له[6]؛ وبامِّحاق ما يُرمى فيه من الجمار في كل سنة، فلولا أن ما يُقبل منها يُرفع كما قاله ابن عباس ﷺ، قال: وإلا يجب أن يكون قد اجتمعت هناك من الحجارة مثلُ الجبال[7]؛ وباجتماع الكلب مع الظَّبْيِ هناك، فلا ينفر الظبي من الكلب، ولا يعدو عليه الكلب؛ وكل هذا لا يكون إلا من جهة الله ﷻ[8].

---

[1] راجع: نزهة القلوب للسجستاني ص139.

[2] معاني القرآن للزجاج 445/1؛ إعراب القرآن للنحاس ص212.

[3] لَم أجد «البَرْك» مصدرًا في المعاجم، وإنما يأتي بمعنى جماعة الإبل البُرُوك، وبمعنى صدر البعير، لأنه يبرك عليه. راجع: اللسان، والتاج مادة « ب ر ك».

[4] راجع: مقاييس اللغة، والمفردات مادة « ب ر ك».

[5] جزء من الآية (67) من سورة العنكبوت.

[6] قال ابن عطية في المحرر 167/3: «وهذا كله عندي ضعيف، والطير تُعَاين تعلوه».

[7] **[صحيح موقوفًا]** أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 595/5 (15556)، والأزرقي في أخبار مكة 772/2-773، وكذا الفاكهي 292/4، والبيهقي في الكبير 128/5، عن أبي الطفيل، أنه سأل ابنَ عباس ﷺ عن الجمار، أنها رُمِيَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسلَامِ، فَكَيْفَ لا تَسُدُّ الطَّرِيقَ؟ فقال: «مَا يُقْبَلُ مِنْهُ رُفِعَ، وَلَوْلا ذَلِكَ، كَانَ أَعْظَمَ مِنْ ثَبِيرٍ». وفي لفظ: «ولولا ذَلِكَ لَسَدَّ ما بينَ الجبَلَينِ».

[8] بتصرف من أحكام القرآن للجصاص 31/1-32.

ويجوز أن يكون المراد بالهدى، أنه طريق الجنة. وبالله التوفيق.

قولـــه ﷻ: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ [حَجُّ][1] ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

معناه: فيه علامات واضحات، وهن ما تقدم ذكره، ومقامُ إبراهيم عليه السلام أيضا. والآية في مقام إبراهيم عليه السلام أن قدميه دخلتا في حجرٍ صَلْدٍ بقدرة الله ﷻ، صار الحجر في اللين كالطين حتى ساخت قدماه فيه، ثم عاد حجرا صلدا، ليكون ذلك دلالةً على صدق نبوَّته عليه السلام.

وقوله ﷻ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾، قال الحسن: عَطَفَ الله ﷻ قلوبَ العرب في الجاهلية على من لاذ بالحرم أو عاذ إليه، وإن كان جانِيًا، وأجرى العادة بذلك في / الإسلام [2]. وكان هو يقول في الآيات البينات: إن مقام إبراهيم عليه السلام آية، ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا ﴾ آية، ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ [حَجُّ] ٱلۡبَيۡتِ﴾ آية[3].

وفي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِيهِ ءَايَةٌ بَيِّنَةٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[4].

---

(١) هذه قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، والبصريَّين، وعاصم برواية شعبة. وقرأ الباقون بفتح الحاء. راجع: المبسوط ص146، والروضة 592/2، والنشر 241/2.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم 712/3 بلفظ: «كان الرجل في الجاهلية يقتل الرجل فـيُعَلِّق في رقبته الصُّوفَةَ ثم يدخل الحرم فيلقاه ابنُ المقتول أو أبوه فلا يحرِّكُهُ».

(٣) عزاه في الدر المنثور681/3 بنحوه إلى عبد بن حميد، وابن جرير. وهو مخرّج في تفسير ابجرير 599/5، ولكن ليس فيه قوله تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ[حَجُّ] ٱلۡبَيۡتِ﴾.

(٤) هي قراءة شاذة، أخرجها أبو عبيد في فضائل القرآن ص 296، وسعيد بن منصور في سننه (التفسير) 1072/3-1073، وابن المنذر 302/1، وابن أبي حاتم 711/3، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وتُنسب -أيضا- إلى أبيّ بن كعب، ومجاهد، وغيرهما. راجع: الشواذ ص 22، شواذ القراءات للكرماني ق25/ب، والبحر المحيط 271/3.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن قوله ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ على لفظ الخبر، ومعناه الأمر، وهو أمرٌ لنا أن نُؤمِّنَ من جنى في غير الحرم ثم التجأ إليه[1].

وأما قوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فمعناه القصد والذهاب إلى الكعبة. ويُقرأ ﴿حَجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ بكسر الحاء، وهو بالفتح مصدر، وبالكسر الاسم[2].

وقوله ﷻ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وهو بدل البعض من الكل كما يقال: (ضربتُ فلانًا رأسَه)؛ أي ولِلَّه الحجُ على من استطاع مِن الناس سبيلا إليه.

والاستطاعة في ظاهر اللغة أن يمكنه بلوغُ مكة بأي وجهٍ يمكنه. وإلى هذا ذهب الحسن وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما [3].

---

[1] هذا مذهب ابن عباس، وسعيد بن جبير، والشعبي، وأحمد، قالوا: من جنى خارج الحرم ثم لجأ إليه، فإنه يُؤَمَّن، فلا يُقبض عليه، لكنه لا يُبايع، ولا يُؤوى، ولا يُكلَّم، حتى يخرج بنفسه من الحرم، فإذا خرج أُخِذَ وأقيم عليه الحدّ. وذهب أبو حنيفة إلى نحوه في حد القتل، ولكن أجاز إقامة بقية الحدود على من لجأ إلى الحرم. وذهب مالك والشافعي إلى أنه تقام عليه جميع الحدود فيه، حتى القتلُ. وأما من كانت جنايته في الحرم، فقد اتفق الجميع على أنه يقام عليه الحد فيه. راجع: الطبري 5/601-609، أحكام القرآن للطحاوي 2/310-315، وللجصاص 2/32-36، المغني 12/409-414، الذخيرة 12/348، الحاوي الكبير 12/220-222.

[2] ذهب إلى هذا التفريق الزجاج في معاني القرآن 1/447، وابن مجاهد في السبعة ص 214، وابن خالويه في الحجة ص 112. وذهب الطبري في تفسيره 5/617، وابن زنجلة في الحجة ص170، والمهدوي في شرح الهداية 1/229، والبنّاء في الإتحاف ص227 إلى أن الفتح والكسر لغتان بمعنى؛ الكسر لغة أهل نجد، والفتح لغة أهل الحجاز.

[3] قول الحسن عند الطبري 5/616، وابن أبي حاتم 3/713، بلفظ: «من وجد شيئا يبلّغه فقد استطاع إليه سبيلا». وأما قول ابن الزبير، فأخرجه الطبري 5/615، وابن المنذر، عن خالد بن أبي كريمة، عن رجل، عنه أنه قال: «السبيلُ على قدر القُوَّة».

وقال مالك رحمه الله: لو قدر على المشي إليه لزمه[1].

وروي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه سُئل عن الاستطاعة في هذه الآية، فقال: «**السَّبيلُ إلى البَيتِ، الزَّادُ والرَّاحِلَة**»[2].

فبيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لزوم فرض الحج مخصوصٌ بالركوب دون المشي، وأن من لا يمكنه الوصول إليه إلا بالمشي الذي يشق ويعسر، فلا حج عليه.

وهكذا روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما [3]، وبه أخذ أكثر الفقهاء

---

[1] قول مالك ذكره ابن أبي زيد في «النوادر والزيادات» 317/2، وابن رشد في «البيان والتحصيل» 10/4، وابن العربي في أحكام القرآن 288/1، وابن عبدالبر في الاستذكار 61/12، بلفظ: أنه سُئل عن الاستطاعة، هل هي الزاد والراحلة؟ فقال: «لا والله، وما ذاك إلا على قدر طاقة الناس، قد يجد الرجل الزاد والراحلة، ولا يقدر على السير، وآخر يقدر أن يمشي على رجليه، ولا صفة في هذا أبين مما أنزل الله: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾».

[2] **[ضعيف]** أخرجه الترمذي (الحج/ باب ما جاء في إيجاب الحج بالزاد والراحلة/ ح 813) – وحسنَّه –، والطبري 612/5، والدارقطني 217/3 (2421)، وغيرهم، من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي، عن محمد بن عبّاد بن جعفر، عن ابن عمر. وإبراهيم بن يزيد الخوزي متروك الحديث (التقريب برقم272). ولكنه توبع، تابعه اثنان: محمد بن عبد الله بن عمير الليثي، عند ابن أبي حاتم 713/3، والدارقطني (2422)، وابن عدي في الكامل 221/6، إلا أنه متروك منكر الحديث (لسان الميزان 227/7)، والثاني: محمد بن الحجاج المصَفِّر، عند الدارقطني (2423)، وهو – أيضا– متروك (ميزان الاعتدال 509/3).

وله شواهد من حديث جابر، وابن عمرو، وابن عباس، وعلي، وأنس رضي الله عنهم؛ أخرجها الدارقطني في سننه 213/2-220، ولكن الأمر – كما قال الشافعي من قبلُ – « أنَّ منها مُنقطعَةً وَمِنهَا ما يَمتَنِعُ أَهلُ العلم بالحديثِ من تَثْبيتِهِ »؛ الأم 288/3. وقال الحافظ عبدالحق الأشبيلي: «ليس فيها إسناد يُحتجّ به»؛ الأحكام الوسطى 258/2. وقال الطبري 617/5: «فأما الأخبار التي رُويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك بأنه (الزاد والراحلة)، فإنها أخبار، في أسانيدها نظر، لا يجوز الاحتجاج بمثلها في الدّين». وقال ابن المنذر في الإشراف على مذاهب العلماء 175/3: «ولا يَثبت في هذا الباب حديثٌ مُسنَد».

[3] رُوي عنه ذلك من رواية علي بن أبي طلحة، ولفظه:«والسبيلُ، أن يصحَّ بدنُ العبد، ويكونَ له ثمنُ زادٍ وراحلةٍ من غير أن يُجْحَفَ به». أخرجه الطبري610/5، وابن المنذر307/1.

رحمهم الله، حتى شرطوا مع الزاد والراحلة، نفقةَ الأهل إلى أن يرجع، وأن لا يحول بينه وبين الحج عدو[1].

وأما قوله عَجَّلَكَ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فمعناه من أنكر فريضة الحج، فلم يره واجبا، فإن الله غني عمن حج، وعمن لَم يحج، أي لَم يتعبَّد الناس بالعبادات لحاجته إليها، وإنما تعبَّدهم بها لعلمه بمصلحتهم فيها.

وقد رُوي أنه لما نزل فرض الحج، جمع رسول الله ﷺ مع المسلمين، اليهودَ والنصارى، ومشركي العرب، فقال ﷺ: «**إن الله عَجَّلَكَ فرض عليكم الحج فحُجُّوا**»، فلم يقبله إلا المسلمون، فأنزل الله عَجَّلَكَ قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

وأمّا ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَن أدرك حجَّ الإسلامِ، فلم يَحُجَّ – فلم تمنعْه حاجةٌ ظاهرةٌ، ولا إمامٌ ظالِمٌ، ولا سجنٌ حابِسٌ – حتى يموت على ذلك، فليَمُتْ على أيِّ حالٍ شاء، يَهُوديًّا أو نصرانِيًّا**»[3]، فهو على طريق التهديد والتخويف؛ لا يكون المؤمنُ يهوديًّا ولا

---

[1] ممن قال باشتراط الزاد والراحلة: «الشَّافعيُّ، وَأبوحنيفةَ، وَالثَّوريُّ، وَأَحْمَدُ، وإِسحاقُ» كما في الاستذكار 61/12. وراجع: شرح فتح القدير على الهداية 416/2، والذخيرة 177/3-178، والمجموع شرح المهذب 34/7-38، والمغني 6/5-8.

[2] **[لا يصحّ بهذا السياق]** أخرجه الطبري 621/5-622، وابن المنذر 309/1-310، من رواية جويبر عن الضحاك مرسلا. أما قوله ﷺ: «**إن الله عَجَّلَكَ فرض عليكم الحج فحجّوا**»، فقد صحّ بنحوه عند مسلم (الحج/ باب فرض الحج مرّة في العمر/ ح 1337) وغيره، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بغير هذا السياق.

[3] **[لا يصح مرفوعا]** أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 438/5 (14648)، والإمام أحمد في كتاب الإيمان – كما في السنة للخلال 46/5-47 – من طُرُق عن ليث، عن عبد الرحمن بن سابط، بنحوه مرسلا. وأخرجه الدارمي (1826)، وغيره، من طريق شريك، عن ليث، عن ابن سابط، عن أبي أمامة مرفوعا؛ ولا يصحّ، لأن شَرِيكا - وهو صدوق يخطئ كثيرا (التقريب برقم: 2787) - قد خالف الثقات بذكر أبي أمامة، ثم هو منقطع أيضا، لأن ابن

نصرانيًّا. ولا يجوز الحكم بالإكفار بأخبار الآحاد [١]. وتأويلُ الخبر، أنه لَم يَرَ الحج فرضًا عليه، وقد وجد الاستطاعة، فليمت على أي دين شاء. والله تعالى أعلم.

ولا حجة في هذه الآية لمن احتج بها أن الاستطاعة قبل الفعل بمقتضى الآية[٢]، لأن المراد بالآية – والله أعلم – استطاعة الأحوال والأسباب، فأما استطاعة الأفعال، لا تكون إلا مع الفعل لأنها استطاعةُ الفعل وسَبَـــبُهُ، فلا تكون إلا معه[٣].

سابط لَم يصح له سماع من أبي أمامة (تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل ص288).

وفي الباب عن علي رضي الله عنه؛ أخرجه الترمذي (الحج/ باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج/ ح812)، والطبري 613/5، والعقيلي في الضعفاء 272/6، وغيرهم، بإسناد ضعيف.

ولكنه صحّ موقوفا على عمر رضي الله عنه بلفظ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُوسِرٌ لَمْ يَحُجَّ، فَلْيَمُتْ عَلَى أَيِّ حَالٍ شَاءَ: يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا**». أخرجه ابن أبي شيبة 439/5 (14653) – واللفظ له –، والإسماعيلي (كما في تفسير ابن كثير 12/3)، وأبو نُعيم في الحلية 252/9.

[١] قلتُ: هذا قد يكون متّجها في مثل هذا الحديث الذي في صحّته نظر، ولكن لا يصحّ إطلاق القول به، فإن السلف وأئمة السنّة مَضَوا على أن الصحيحَ من أخبار الآحاد حجّةٌ في العقائد والأحكام على حدٍّ سواء. راجع: الرسالة للشافعي، الحجّة في تثبيت خبر الواحد، ص401-471؛ ومختصر الصواعق المرسلة، فصل الحكم في خبر الآحاد، ص571-755.

[٢] ممن احتج بالآية على ذلك: الجصّاص في أحكام القرآن 42/2، والقاضي عبدالجبار الهمذاني المعتزلي في متشابه القرآن ص152.

[٣] يقصد المؤلف بهذا، الردَّ على المعتزلة القدرية الذين أثبتوا الاستطاعة التي تكون قبل الفعل، وأنكروا الاستطاعة المقارنة للفعل، بناء على أصلهم في أن الله تعالى أقدر المطيعَ والعاصي على حدٍّ سواء دون أن يكون قد خَصَّ المطيع بتوفيقٍ منه وإعانةٍ على الطاعة. والحق أن الاستطاعة نوعان: نوع قبل الفعل، من جهة صحّة الجوارح وارتفاع الموانع، وبها يتعلّق التكليف، وهي المذكورة في هذه الآية؛ ونوع مقارن للفعل، وهي التي بها يُوجَد الفعل، وهي من باب التوفيق الإلهي والإعانة الربّانية، وهي المذكورة في قوله تعالى عن الكفار: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود/٢٠]. راجع: شرح ابن أبي العز على العقيدة الطحاوية ص432-436، والفصل في الملل والأهواء والنحل 39/3-49.

قولـــه ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

معناه: قل يا محمدﷺ لليهود والنصارى: لِمَ تكفرون بالحج، ومحمدﷺ، والقرآن؟ والله عالِم بما تعملون.

وإنما قال في هذا الموضع﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقال مِن قبل:﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[١] لأنه ﷻ خاطبهم أولا على جهة التَلَطُّف في استدعائهم إلى الإيمان، ثم أعرض عن خطابهم إذلالا وإهانة لهم، وأَمرَ غيرَه بمخاطبتهم[٢].

قولـــه ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

نزل في قوم من اليهود، كانوا يدعُون عمَّارًا وأصحابَه ﷡ إلى اليهودية[٣]، وكانوا يسعون في إحياء الضغائن التي كانت بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وكانت قد ماتت في الإسلام[٤].

---

(١) وذلك في الآيتين (70-71).

(٢) قاله الواحدي في البسيط ق50/أ.

(٣) ذكره مقاتل في تفسيره 183/1. قلتُ: وقد تقدم نحوه في سبب نزول الآية (69)، فإعادته هنا غريب، خاصة وأن هذه الآية تقع في مطلعِ فصلٍ كاملٍ ورد في شأن الاقتتال الذي كاد يقع بين الأوس والخزرج بسبب إغراء بعض اليهود بينهم- كما سيأتي - فلـــيُتَأَمَّل!

(٤) **[ضعيف]** ذكر ابن إسحاق في المغازي (سيرة ابن هشام 555/1-557)، ومن طريقه الطبري 627/5، عن زيد بن أسلم، خبرا مُرسلا، أن شاس بن قيس اليهودي أوقد نارا للحرب بين الأوس والخزرج بإحياء الضغائن التي كانت بينهما، حتى أخذوا السلاح، وكادوا يقتتلون، فنزلت هذه الآية وما بعدها إلى الآية (105). وقد رويت نحو هذه القصة، عن مجاهد، وعكرمة، والسدي. راجع: الطبري 631/5-632، وابن المنذر 314/1-315، وأسباب النزول للواحدي ص242-244، والعجاب 723/2-726.

ومعنى الآية: قل يا محمد ﷺ: لِمَ تصرفون من آمن عن دين الله تعالى، وعن الطريق التي هي الوُصْلة إلى رضا الله تعالى من الإسلام والحج وغير ذلك، تطلبون لها ميلا ؟

يقال: (ابْغِني كذا)، أي: اطلُبْه لي؛ و(أَبْغِني) بفتح الألف، أَعِنِّي على طلبه[١].

ويقال في الأمر والدِّين: (عِوَج) بكسر العين؛ وكل شيءٍ منتصبٍ مائلٍ نحو الجدار والعصا: (عَوَجٌ) بفتح العين[٢].

وقوله: ﴿ وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ﴾، فيه قولان:

أحدهما: وأنتم شهداء بتقديم البشارة بمحمد ﷺ / في كتبكم[٣].

والثاني: وأنتم عُقلاء، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٤][٥].

وقوله تعالى﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾تهديد لهم على الكفر، أي لا يخفى على الله شيء مما يعملون من الجحد والكتمان.

قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قال بعض المفسرين: هذا خطاب للأوس والخزرج[٦]؛ يقول إن تطيعوا

---

(١) راجع: معاني القرآن للزجاج 447/1، والطبري 626/5، وتهذيب اللغة 180/8« ب غ ي».

(٢) راجع: مجاز القرآن98/1، والطبري 626/5، والصحاح، ومقاييس اللغة مادة« ع و ج ».

(٣) هو قول قتادة، أخرجه ابن المنذر 313/1-314، وبنحوه قال مقاتل في تفسيره 183/1.

(٤) جزء من الآية (37) من سورة ق.

(٥) ذكره الماوَرْدِيُّ في النكت والعيون 412/1، وابن الجوزي في زاد المسير 430/1 بلا نسبة.

(5) هو قول زيد بن أسلم، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، كما مر آنفًا.

طائفة من اليهود في إحياء الضغائن التي كانت بينكم بالعصبية والحمية الجاهلية، يصرفوكم إلى الشرك والكفر بعد تصديقكم بمحمد ﷺ والقرآن.

وقال بعضهم: معنى الآية، إن تطيعوا رؤساءَ أهل الكتاب فيما زَوَّرُوا من صفات النبي ﷺ ولَبَسوها عليكم، يردوكم كفارا.

قولــه ﷻ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

معناه: على أي حال يقع منكم الكفر، ودلائلُ توحيد الله تعالى ونبوةِ رسول الله ﷺ تُقرأ عليكم - وهو القرآن - ومعكم رسولُ الله ﷺ يبين لكم الآيات؟

وهذا على طريق التعجيب والاستبعاد، أن يقع منهم الكفر مع معرفتهم بدلالات الله ﷻ.

ومعنى ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي من يستمسك بدينه، ويمتنعْ به عن غيره، فقد أُرشِدَ إلى طريق قائم يرضاه الله تعالى، وهو الإسلام.

قولــه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا - أي صدَّقوا بمحمد ﷺ والقرآن - أطيعوا الله حق طاعته، واثْــبُتُوا على الإسلام حتى لا يدرككم الموتُ إلا وأنتم مسلمون.

قال الكلبي: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أن يطاع فلا يُعصى طرفة عين، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُذكر فلا يُنسى. قال: فلم تُطِق العباد ذلك، وشقَّ عليهم،

فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[١]، فصار ابتداء هذه الآية منسوخا به[٢].

وإلى هذا ذهب قتادة[٣] ومقاتل[٤] والقُتَيـبِي[٥]، وجماعة من المفسرين[٦].
المفسرين[٦].

وقال بعضهم: لا يجوز أن يكلف الله عباده ما لا يطيقون، وليست هذه الآية بمنسوخة، وإنما معناها: اتقوه فيما يحق عليكم أن تتقوه فيه، وهو ما فسره الله ﷻ في كتابه في مواضع شتّى. ولو كانت هذه الآية منسوخة لكان في ذلك إباحةُ بعض المعاصي، وذلك لا يجوز[٧].

رُوي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وطاووس رحمه الله، أن هذه الآية مُحكمة غيرُ منسوخة[٨].

وأجاز بعض المفسرين[٩] النسخَ من وجه آخر، بأن الله ﷻ لو كلّف

---

(١) جزء من الآية (16) من سورة التغابن.

(٢) انظر: بحر العلوم للسمرقندي 234/1.

(٣) أخرج قولَه عبد الرزاق في تفسيره 405/1، والطبري 642/5، وابن المنذر 317/1، والنحاس في الناسخ والمنسوخ 129/2.

(٤) في تفسيره 184/1.

(٥) لَم أجده فيما بين يديّ من كُتُبه.

(٦) كالربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد. راجع: الطبري 642/5-643

(٧) بنحوه قال أبو علي الجبّائي كما في التبيان للطوسي 543/2، وروح المعاني 18/4.

(٨) قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنها لَم تنسخ، ولكن حقُّ تقاته، أن يجُاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومةُ لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم» أخرجه الطبري 641/5، وابن المنذر 318/1، وابن أبي حاتم 722/3، والنحاس في الناسخ والمنسوخ 130/2، من رواية علي بن أبي طلحة، عنه.وأما أثر طاؤوس، فقد أخرجه الطبري 641/5، وابن أبي حاتم 723/3، بلفظ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ وهو أن يُطاع فلا يُعصى، فإن لَم تفعلوا، ولَم تستطيعوا، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

(٩) كأبي الحسن الرماني النحوي المعتزلي (ت384هـ) كما في التبيان للطوسي 543/2.

عبادَه أن يتقوه حق تقاته، كانوا يطيقون ذلك ولكن بعد مشقة شديدة، فخففَ عنهم؛ وهذا كما أن القيام بالقسط كان واجبًا في حال الأمن والخوف جميعا، و لم تكن التقِيَّة مباحةً في ح ال الخوف، ثم صارت التقية مباحة بقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾،وقوله ﷻ: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[١]، وقد يقول الرجل: (لا أستطيع كذا)، إذا شَقَّ عليه، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾[٢]، وأراد بذلك مشقته عليهم[٣].

والتقاة في الأصل: (وُقاة) من الوقاية، أبدلت التاء من الواو، كما قالوا: (تُخَمَة)، وهي من الوخامة، و(تُجاه) وهي من الوجاهة [٤]، و(التراث) من الوراثة[٥].

قولــه ﷻ: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾

معناه: تمسّكوا بدين الله[٦]. ويقال: أراد بالحبل القرآنَ الذي عَهِدَه الله تعالى إلى عباده، وهو كالحبل الذي يُتمَسَّك به للنجاة[٧].

---

[١] جزء من الآية (106) من سورة النحل.

[٢] جزء من الآية (101) من سورة الكهف.

[٣] وذلك لعداوتهم وكراهتهم لما يُنذَرون به.

[٤] كذا في الأصل، وفيه نظر إذ الوجاهة بمعنى الجاه والمنزلة، والصواب: «الوِجهة»، أو «المواجهة» كما في معاني القرآن للزجاج 449/1.

[٥] معاني القرآن للزجاج 449/1.

[٦] هذا قول عبد الرحمن بن زيد، ومقاتل. انظر: الطبري 646/5، وتفسير مقاتل 184/1.

[٧] تفسير «حبل الله» بالقرآن قول ابن مسعود ﷺ، وقتادة، والضحاك، والسدي. أخرجه عنهم

قال بعض الحكماء: إن مَثَلَ من في الدنيا كمثل مَن وقع في بئر فيها من كل نوع من الآفات، لا يمكنه الخروج منها، والنجاةُ من آفاتها إلا بحبلٍ وثيقٍ، وكذلك الدنيا، دارُ محنة فيها من كل الآفات، ولا سبيل إلى النجاة منها إلا بالتمسُّك بحبل وثيق، وهو كتاب الله ﷻ.

ومعنى ﴿**وَلَا تَفَرَّقُواْ**﴾، أي تناصروا في دين الله تعالى ولا تتفرقوا فيه، واحفظوا مِنَّة الله عليكم / إذ كنتم أعداء في الجاهلية يقتل بعضُكم بعضا، ويستبيح كل غالبٍ ما غلبه، فجمع الله تعالى بين قلوبكم بالإسلام الحاظر للأنفس والأموال إلا بحقها، فصرتم بنعمة الله إخوانا في الدين.

وذلك أنه كان بين الأوس والخزرج قتالٌ قبل الإسلام بأربعين عاما حتى كادوا يتفانَون، فلما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ، فظهر بمكة، آمن به الأوس والخزرج وهم بالمدينة، فلما هاجر النبيﷺ إليهم وقعت الأُلفة بين الأوس والخزرج، وزالت العداوة التي كانت في الجاهلية بينهم، فالتقى رجلان من الأنصار، أحدهما من الأوس، والأخر من الخزرج، فقال الخزرجي: أما والله لو تأخر الإسلامُ وقدومُ النبيﷺ علينا وعليكم لاستَعبَدْنا أبناءَكم وقتلنا آباءكم! فقال الأوسي: قد والله تأخر عنا وعنكم زمانًا من الدهر فضربناكم حتى أدخلناكم دُورَكم، فهلاّ فعلتم ما تقولون؟! فاستبّا ما شاء الله تعالى، ثم اقتتلا، فتناديا، ففزعت الخزرج إلى صاحبهم، وفزعت الأوس إلى صاحبهم، وأخذوا السلاح، ونَهَد بعضهم إلى بعض، فبلغ الخبرُ رسولَ الله ﷺ فسار إليهم في أناس من المهاجرين وهو راكب على حمار، قال جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه: فما كان مِن طالع يومئذ أكرمَ إلينا من رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا فأومَأَ إلينا بيده، فكففنا، ووقف بيننا على حمار له، فقرأ: ﴿**يَتَأَيُّهَا**

عنهم الطبري: 5/644-646. وهو قول الحسن البصري أيضًا كما في تفسير الهوّاري 1/303، وابن أبي زمنين 1/307.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، فألقى الفريقان السلاحَ، وأطْفَؤوا الحرب، فلم يكن في الأرض شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول الله ﷺ بعد نزول الآية، ومشى بعضهم إلى بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعانق بعضهم بعضا يبكُون، فما رأيتُ أكثر باكيًا من يومئذ، ولا رأيتُ يوما قط أقبحَ أوَّلاً، ولا أحسنَ آخِرًا من يومئذ[1].

وقال الحسن ﷺ: هذا خطاب لجميع العرب، فإنه كان بينهم عداوة، وطوائل، وقتال، وكان يُغير بعض القبائل على بعض، فأزال الله ﷻ ذلك عنهم، فجمعهم على الإسلام[2].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، فمعناه: كنتم في الجاهلية، على طَرَفِ هُوَّةٍ من النار، أي كنتم أشرفتم على النار، فكدتم تقعون فيها لو أدرككم الموت على الكفر، ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ أي خلّصكم الله تعالى من النار والحفرة بالنبي ﷺ.

و(شفا الشيء) في اللغة: حَرْفه، وهو مقصور، يكتب بالألف، وتثنيته: (شفوان)، وجمعه: (أشفاء). ويقال: (أشفى فلان على كذا) أي أشرف عليه[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي مثل هذا البيان الذي تُلي عليكم، يبين الله تعالى لكم الآياتِ: الدلالاتِ والحججَ في الأوامر

---

[1] **[ضعيف]** أخرج ابن المنذر 321/1-322، عن مقاتل بن حيّان، أنه قال: بلغني – والله أعلم – أن هذه الآية أنزلت في قبيلَتين من قبائل الأنصار... فساق القصة بنحوها مختصرة، دون قول جابر: فما كان من طالعٍ أكرم إلينا ...الخ. وإنما جاء ذلك عند الثعلبي في الكشف والبيان 159/3، والواحدي في أسباب النزول ص 244، ضمنَ مُرسل زيد بن أسلم الذي سبق تخريجه في التعليق على الآية (99).

[2] قول الحسن، لَم أجده مُسندا إليه، ولكن ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون 414/1، وابن الجوزي في زاد المسير 433/1.

[3] راجع: معاني القرآن للزجاج 451/1، والصحاح، ومقاييس اللغة مادة «ش ف ى».

والنواهي لكي تهتدوا من الضلالة، وتكونوا على رجاء الهداية. وبالله التوفيق.

قولــه عَجَلَّ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

معناه: لتكن منكم جماعة، يدعون إلى الصلح والإحسان، ويأمرون بالتوحيد واتباع محمد ﷺ، وسائر الطاعات الواجبة، وينهون عن الكفر والشرك وسائر ما لا يُعرف في شريعة ولا سنة.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الناجون من السخط والعذاب.

وإنما قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾، ولَم يقل: وليكن جميعُكم، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فرضٌ على الكفاية[1]، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، لأن الغرض من ذلك وقوع المعروف وزوال المنكر، لا لأمرٍ يرجع إلى الناهي والآمر، فإذا زال المنكر، صار كأنه لَم يقع منكر قط، وليس كالصلاة والصوم وسائر فروض الأعيان، لأن تلك الفروضَ إنما تجب لأمرٍ يرجع إلى نفس تلك الأفعال.

ويجوز أن يكون المرادُ بالأمة في هذه الآية، العلماءَ الذين يُحسنون ما يدعون إليه[2].

وذهب بعض المفسرين[3] إلى أن معنى الآية: لتكونوا كلُّكم، لكن «مِن» هاهنا دخل للتوكيد وتخصيص المخاطبين من سائر الأجناس [4]، كما في قوله

---

[1] راجع: أحكام القرآن للجصاص 44/2-45، أحكام القرآن لابن العربي 292/1، أحكام القرآن للكيا الهراسي 301/1.

[2] قال الضحاك: «هم خاصّة أصحابِ رسول الله، وهم خاصَّةُ الرواة »، قال ابن كثر معلّقا عليه: يعني المجاهدين والعلماء. انظر: الطبري 662/5، وابن كثير 137/3.

[3] كالزجاج في معاني القرآن 452/1.

[4] أي أنّ «مِن» في قوله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ بيانيّة.

تعالى: ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾[(١)]، معناه فاجتنبوا الأوثان فإنها رجس، لا أن المراد به اجتنبوا بعض الأوثان دون بعض.

ثم النهي عن المنكر على مراتب، أولها الوعظ / والتخويف، فإن زال بذلك لَم يَجُز للناهي أن يتعدّى عنه إلى ما فوقه، ثم بالأيدي والنعال، ثم بالسوط، ثم بالسلاح والقتال، لأن المقصود زوالُ المنكر. فأما إذا كان الناهي عن المنكر خائفًا على نفسه، فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ** »[(٢)].

وعن عبدالله بن مسعود ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ أَوَّلَ ما دخل النقصُ على بني إسرائيل أنْ كان الرجلُ يَلْقَى الرجلَ فيقول: يا هذا اتَّقِ الله، ودَعْ ما تصنعُ فإنه لا يَحِلُّ لك، ثم يَلْقاه مِنَ الغد، فلا يَمنعه ذلك أن يكون أكِيلَه وشَرِيبَه وقَعِيدَه، فلمَّا فَعَلُوا ذلك، ضَرَب اللهُ تعالى قُلُوبَ بعضِهِم ببعض**»، **ثم قال** [(٣)]: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾[(٤)]، ثم قال ﷺ: «**كَلاَّ واللهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمعروف، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، ولَتَأْخُذُنَّ على يَدَيِ الظَّالِم فَتَقْصُرُنَّه على الحقِّ قَصْرًا**»[(٥)].

---

(١) جزء من الآية (30) من سورة الحج.

(٢) **[أخرجه مسلم]** في صحيحه (الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان/ ح 49) من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

(٣) في الأصل: « قال جلّ ذكره »، وهو لا يصحّ، إذ القائل– أي التالي للآية– هو النبي ﷺ.

(٤) الآيات (78-81) من سورة المائدة.

(٥) **[حسن إن شاء الله]** أخرجه أحمد 250/6 (3713)، وأبوداود (الملاحم/ باب الأمر والنهي/ ح4336، و4337)، والترمذي (التفسير/ سورة المائدة/ ح 3047، و3048)، والطبري 588/8-591، وغيرهم، من حديث أبي عُبيدة بن عبدالله بن مسعود، عن أبيه. قال الترمذي:

فبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ مِن شَرْطِ النهي عن المنكر أن يُنكره ثم لا يُجالسَ المقيمَ على المعصية، بل يجانبه ويُظهر هِجرانه.

قولــه ﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

معناه: ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين اختلفوا فيما بينهم، وصاروا فِرَقًا وشِيَعا، من بعد ما جاءهم العلامات في أمر محمد ﷺ.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على تفرقهم واختلافهم، ثم أخبر بوقت ذلك بقوله ﷻ:

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

تقدير الآية - والله تعالى أعلم- عذابُه يومَ تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه، وهو يوم القيامة. تُشرِقُ وجوه الذين سجدوا في الدنيا لله ﷻ مخلصين له بالتوحيد، فتصير وجوههم كالثلج بياضا والشمسِ ضياءً؛ وتسوَدُّ وجوهُ الكفار والمنافقين من الحزن حين يُدعَون إلى السجود فلا يستطيعون[1].

فأما قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾، فجوابه محذوف، لأن في الكلام دليلا عليه، المعنى: فيقال لهم: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وهذا كما في

«هذا حديث حسن غريب». قلتُ: وأبو عُبيدة لَم يسمع من أبيه، إلا أن الأئمة استجازوا إدخال حديثه عن أبيه، في الحديث المتصل«لمعرفة أبي عبيدة بحديث أبيه وصحتها، وأنه لَم يأت فيها بحديث منكر». راجع شرح علل الترمذي لابن رجب 298/1.

(١) يشير المؤلف إلى قوله تعالى﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم/ ٤٢ - ٤٣].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾[2].

فأما قوله ﷻ: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا﴾، قال بعضهم: معناه بعد إيمانكم يومَ الميثاق[3]. ويقال: هو خطاب لأهل الردة[4].

قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول: وأما المؤمنون الذين ابيضّت وجوههم في الآخرة، ففي جنة الله تعالى، صاروا إليها برحمته، هم فيها مقيمون دائمون.

وفي الآية بيانٌ أن الجنة لا تُنال إلا برحمته، وإن اجتهد المجتهد في طاعته.

قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

أي هذه حجج الله يترل بها جبريل ﵇، فيقرأها عليك بالصدق، وما الله يريد ظلما للجن والإنس. أعلم الله ﷻ أن من يُعَذِّبْه، باستحقاق يعذبْه، لا يعذب أحدا بغير ذنب.

---

[1] جزء من الآية (127) من سورة البقرة، وتقديره: وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾.

[2] الآيتان (23-24) من سورة الرعد، والتقدير: وهم يقولون:﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾. راجع: معاني القرآن للفراء 228/1-229، ومعاني القرآن للزجاج 454/1-455.

[3] هذا قول أبيّ بن كعب ﵁، وابن جريج، ورجّحه الطبري. راجع: الطبري 665/5-667، وابن المنذر 328/1-329، وابن أبي حاتم 730/3.

[4] هذا قول قتادة، والسدي. راجع: الطبري 664/5-665.

قولــه ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

معناه جميع ما في السماوات والأرض من الخلق عَبِيدُ الله تعالى، ومخلوقوه ومرزوقوه، فلا يريد ظلمهم، فإنَّ من بلغ غناه هذا المبلغ لا يحتاج إلى الظلم.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ في الآخرة. ولو قال: «وإليه ترجع الأمور »، لكان حسنا لكن إعادةُ ذكر الله تعالى للفخامة والتوكيد[1]، أو ليكون قوله ﷻ: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ مستقلاًّ بنفسه[2].

قوله ﷻ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

خطابٌ لأصحاب النبيﷺ، وهو يعم سائرَ أمَّته لأن الشرط في الخيرية، ما هو المذكورُ في الآية، فمن أراد أن يكون من الصالحين، فليأتِ بهذه الشرائط.

ومعنى الآية – والله أعلم – : كنتم فيما تقدمت / البشارات في كتب الأمم المتقدمة، أفضلَ أهل دينٍ وملةٍ، وأنصحَ الناس للناس. قال الحسن رضي الله عنه: «نحن آخر الأمم وأكرمها على الله ﷻ»[3].

---

[1] راجع: معاني القرآن للزجاج 455/1.

[2] قال ابن عاشور رحمه الله موضّحًا هذا المعنى: «وتكريرُ اسم الجلالة ... بدُونِ إضمارٍ، لِلقَصدِ إلى أَن تَكُونَ كُلُّ جُملَةٍ مستقلَّةَ الدَّلالةِ بنفسها، غيرَ مُتَوَقِّفَةٍ على غيرها، حَتَّى تَصلُحَ لأن يُتَمَثَّلَ بها، وتستحضِرَها النفوسُ وتحفَظَهَا الأسمَاعُ». التحرير والتنوير 47/4-48.

[3] أخرجه الطبري 675/5. وقد رُوي هذا المعنى في حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، جده، أنه سمع النبيﷺ يقول في هذه الآية: « **إِنَّكُم تُتِمُّونَ سَبعِينَ أُمَّةً أَنتُم خَيرُهَا وَأَكرَمُهَا عَلَى اللَّهِ**». أخرجه عبدالرزاق في تفسيره 409/1 –واللفظ له-، وأحمد 231/33 (20029)، والترمذي (التفسير/ سورة آل عمران/ ح 3001)، والطبري 675/5-676، وغيرهم، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».

ويقال: معنى ﴿كُنتُمْ﴾ أي كنتم عند الله في اللوح المحفوظ [1]. وقيل: كنتم مذ آمنتم[2].

ويجوز أن تكون لفظة الكون زائدة [3] كما في قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[4].

وقوله ﷻ: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ صفة لهذه الأمة بالوفاء، يقول: تأمرون بالتوحيد واتباع الشريعة، وتنهون عن الشرك والظلم؛ لا يظلمون مَن خالفهم من غيرهم[5].

ومعنى ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: توحدون الله ﷻ بالإيمان.

ويقال: معناه توحدون الله ﷻ بالإيمان برسوله ﷺ، لأن من كفر بالنبيﷺ لَم يوحّد الله تعالى لأنه يزعم أن المعجزات التي أتى بها النبي ﷺ أتى بها من ذات نفسه، فجعل غير الله تعالى يفعل فعلَ الله ﷻ؛ وآيات الأنبياء - صلوات الله عليهم- لا يقدر عليها إلا الله ﷻ. وفي هذه الآية ما يدل على هذا التأويل، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، معناه لو صدّق اليهود والنصارى - مع إيمانهم بالله - بإيمانهم بنبيه ﷺ لكان خيرا لهم من الإقامة على دينهم.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: عبدالله بن سلام وأصحابه وسائر مَن أسلم مِن أهل الكتاب.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الخارجون عن أمر الله ﷻ، وهم الذين لَم

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن 229/1، وكذا الزجاج في معانيه 456/1.

(2) في الأصل: «كنتم مذ كنتم »، وهو تصحيف. والتصحيح من معاني القرآن للزجاج 456/1، وللنحاس 459/1، وتفسير القرطبي 260/5.

(3) أي لتأكيد الأمر ودوامه. راجع: المحرر الوجيز 194/3.

(4) جزء من الآية (96) من سورة النساء.

(5) كذا في الأصل، ولعل الصواب: «لا تظلمون من خالفكم من غيركم».

يُسلموا منهم.

وفي الآية صحة إجماع الأمة، لأن الله ﷻ مدحهم بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ولا يستحقون مِن الله ﷻ صفةَ مدحٍ إلا وهم قائمون بحق الله ﷻ غيرُ ضالين، ولأنه تعالى أخبر أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمعروف ما أمر الله تعالى به، والمنكر ما نهى الله تعالى عنه، فاقتضت الآية أن ما أمرت به فهو معروف ، وما نهت عنه فهو منكر[١].

ولذلك قال ﷺ: « **لا تجتمعُ أُمَّتِي عَلَى الضَّلالة** »[٢].

قولــه ﷻ: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

معناه: لن يصلوا إلى ضرركم – معشرَ المسلمين– إلا أن يؤذوكم باللسان بقولهم: عزير ابن الله، وقولهم: المسيح ابن الله وثالث ثلاثة، وبالسب والبهت والتحريف، وإن يخرجوا إلى قتالكم يعطوكم الأدبار منهزمين، ثم لا

---

[١] راجع: أحكام القرآن للجصاص 52/2.

[٢] **[حسن لغيره إن شاء الله]** أخرجه ابن ماجه (الفتن/ باب السواد الأعظم/ ح3950) من حديث أبو خلف الأعمى عن أنس ﷺ مرفوعا. وأبو خلف الأعمى متروك (التقريب: رقم8083). وأخرجه ابن أبي عاصم في السُّنة (83) من طريق آخر، لكن فيه مصعب بن إبراهيم، وهو منكر الحديث (ميزان الاعتدال 118/4).

وله شاهد من حديث ابن عمر ﷺ، أخرجه الترمذي (الفتن/ باب ما جاء في لزوم الجماعة/ ح2167)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِن هذا الوجه». فيه سليمان بن سفيان، وهو منكر الحديث (تهذيب التهذيب 95/2). **وآخر** من حديث ابن عباس عند الحاكم 116/1 بإسناد لا بأس به. **وثالث** من حديث أبي بصرة الغفاري عند أحمد 200/45 (27224)، بإسناد فيه راوٍ مُبهم. **ورابع** من مُرسل عمرو بن قيس الكندي عند الدارمي 200/1 (55). **وخامس** من مُرسل الحسن البصري عند الطبري 305/9، بإسناد صحيح.

وقد صحّ نحوه عن ابن مسعود ﷺ موقوفا عليه، أخرجه ابن أبي عاصم (85) والحاكم في المستدرك 506/4-507.

يُمنَعون من سيوفكم وسَبْيكم إيّاهم.

وفي الآية دلالة نبوة نبينا ﷺ، لأنه أخبر أن اليهود إن قاتلونا [1] لَم يُنصروا، وكان كما أخبر إذ يهود المدينة كلهم من بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، ويهود خيبر، لَم يَثْبُتْ أحد منهم لحرب المسلمين قط، بل قُتل بعضهم وانهزم أكثرهم.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنكم – معشر المسلمين – تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وإذا أنكرتم على اليهود فلم يقبلوا، تعرّضوا لمحاربتكم؛ فلا تجبنوا، وقاتلوهم فإنهم يولّون الأدبار.

قولــه ﷻ: ﴿ **ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢** ﴾

معناه: أُلزمت وجُعلت عليهم مذلَّة القتل والسبي، أينما وُجِدوا أُخذوا.

وضربُ الشيءِ على الشيءِ إلزامُه إياه؛ يقال: (فلان ضَرب الضريبة على عبده) إذا ألزمها إياه، ومن ذلك سُمّيت الضريبةُ ضريبةً[2].

ومعنى ﴿ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾: إلا أن يعتصموا بعهد الله، وهو الإسلام.

وقوله ﷻ: ﴿وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي عهدٍ وأمانٍ، وعقدِ ذمّة المسلمين.

وقوله ﷻ: ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي انصرفوا بغضبٍ استوجبوه من الله ﷻ.

ومعنى ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾: جُعل عليهم زِيُّ الفقر والبؤس حتى

---

[1] أشير في الهامش أنه في نسخة: «قاتلوا» بغير ضمير النصب.

[2] فهي فعيلة، بمعنى مفعولة، أي مضروبة على العبد. راجع: الطبري 26/2 عند تفسير الآية (61) من سورة البقرة؛ النهاية في غريب الأثر 79/3.

صاروا من الذّلة إلى ما لا يبلغه أهلُ ملة، بعدَ أن كانوا ذوي عِزٍّ ويسارٍ ومَنَعَةٍ. فيُرى الرجل منهم عليه البؤس والمسكنة وإنه لغني! ولَم يبق لليهود مَنَعَةٌ في موضع من المواضع. وفي هذا أيضا دلالة صحة نبوة نبينا ﷺ.

ومعنى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾، أي ذلك الذل والغضب عليهم من الله ﷻ بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، ورضاهم بقتل آبائهم الأنبياءَ – صلوات الله عليهم– بغير حق، وعِصيانِهم، ومجاوزتِهم الحد.

وفي هذا بيانٌ أن الله ﷻ لَم يُعاقبهم بهذه العقوبة الغليظة من غير سبب، بل عاقبهم بها لِغِلَظِ ما ركبوه، فإن الله ﷻ لا يعذِّبُ أحدًا بغير ذنب.

/ قولــه ﷻ: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

وذلك أن الله ﷻ لما ذكر في الآيات المتقدمة مَن آمن مِن أهل الكتاب ومَن لَم يؤمن، قال عز من قائل: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ أي ليس الفريقان سواء، وهذا وقف تام، ثم استأنف ﷻ قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لبيان افتراق الفريقين في الطريقة، فقال عز من قائل: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ عادلة مستقيمة مهتدية. وقال الأخفش: معناه ذَوُو أمة قائمة، أي ذووا طريقة قائمة، قال: والأمة الطريقة، من قولهم: (أَمَّمْتُ الشيء) إذا قصدتَه[1].

ومعنى ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: يقرؤون القرآن في ساعات الليل.

ومعنى ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، قال بعضهم: يصلُّون، وقالوا: وهذه واو

---

[1] هذا النقل لكلام الأخفش من معاني القرآن للزجاج 458/1. ولفظ الأخفش في معانيه 419/1: « ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ يريد: (أهلَ أمّة)، لأن الأمَّةَ الطريقةُ».

حالٍ، لأن القراءة لا تكون في الركوع ولا في السجود، وإنما ذُكرت الصلاة باسم السجود لأن السجودَ نهايةُ ما فيه من التواضع(١).

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : أراد به صلاة العتمة(٢).

ويقال: أراد به ما بين المغرب إلى العشاء الآخرة(٣).

وقال بعضهم: معنى الواو في قوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ عطفُ السجود المعروف على قراءة القرآن، فكأنه قال: وهم مع ذلك يسجدون(٤).

واختلف أهلُ اللغة في واحد الآناء، فقال بعضهم: «إِنًى» مثل (مِعًى وأمعاء)؛ وقال بعضهم: «إِنْيٌ» مثل (نِحْيٍ وأنحاء)(٥).

قوله عز وجل: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

قال عبدالله بن عباس: لما أسلم عبد الله بن سلام وجماعة معه رضي الله عنهم، قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا أشرارنا! فأنزل الله عز وجل هذه

---

(١) هذا قول الفراء في معاني القرآن 231/1، والزجاج في معانيه 459/1.

(٢) أخرجه الطبري 697/5، وابن المنذر 338/1، وابن أبي حاتم 739/1.

وقد رُوي عنه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أَخَّرَ صلاةَ العشاء ليلةً، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «**أَمَا إِنَّهُ لَيسَ مِن أَهلِ هذه الأديانِ أَحَدٌ يَذكُرُ اللهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيرُكُم**»، قال: فَنَزَلَتْ هذه الآية. أخرجه أحمد في مسنده 304/6 (3760)، والحارث في مُسنده – كما في بُغية الباحث (127) –، والنسائي في التفسير (93)، وأبو يعلى 206/9 (5306)، والطبري 697/5-698، وابن حبان في صحيحه 397/4-398 (1530).

(٣) أخرج عبد الرزاق في التفسير 411/1، والطبري 698/5، وابن المنذر 339/1، وابن أبي حاتم 739/3، عن التابعيّ الجليل منصور بن المعتمر الكوفي، أنه قال في الآية: « بلغني أنهم كانوا يصلون بين المغرب والعشاء ».

(٤) هذا اختيار الطبري في تفسيره 699/5.

(٥) وهذا الأخير اختيار أبي عبيدة في مجاز القرآن 102/1. وانظر: الطبري 695/5-697، ومعاني القرآن للزجاج 459/1، وللنحاس 463/1.

الآية[1]، إلا أنها وإن نزلت فيهم، فمِن حق كل مسلم أن يكون على هذه الصفات.

ومعنى هذه الآية: يصدّقون بالله وبالبعث بعد الموت، ويأمرون باتّباع محمد ﷺ وينهون عن اتباع الجبت والطاغوت ومخالفة محمد ﷺ، ويبادرون إلى الطاعات والأعمال الصالحة. وأولئك من المؤمنين المخلصين، وهم أبو بكر وعمر، وسائر الصحابة رضي الله عنهم.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا [تَفْعَلُوا][2] مِنْ خَيْرٍ فَلَن [تُكْفَرُوهُ][1] وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

أي ما تفعلوا من طاعة فلن تُجحدوه، يعني تجزون به وتثابون عليه؛ لأن الكفر هو السَّتر، وسَتر الخير إنما يكون بترك الجزاء عليه.

ومعنى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾: عالِم بأعمالهم وثواب أعمالهم.

ومن قرأ: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء، فهو راجع إلى قوله عز وجل: ﴿الصَّالِحِينَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

---

(1) **[ضعيف]** أخرجه الطبري 691/5، وابن أبي حاتم 737/3، والبيهقي في دلائل النبوة 533/2-534 من طريق ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة - أو عن سعيد بن جُبير - عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومحمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت مجهول لَم يُوثّقه غير ابن حبّان (الثقات392/7؛ ميزان الاعتدال26/4؛ تهذيب التهذيب690/3).

(2) هذا على قراءة المدنـيّين (أبي جعفر ونافع)، وابن كثير المكي، وابن عامر الشامي، والبصريّين (أبي عمرو ويعقوب)، وعاصم برواية أبي بكر. وقرأ الباقون- وهم الكوفيّون عدا أبا بكر- بياء الغيبة فيهما راجع: المبسوط ص146، والروضة592/2، والنشر 241/2.

معناه: إن الذين جحدوا بمحمد ﷺ والقرآن، لن يمنعهم كثرة أموالهم وأولادهم شيئا مما يَنزل بهم من عذاب الله ﷻ، وأولئك أهل النار هم فيها مقيمون دائمون.

قولــه ﷻ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

معناه: مثل ما تنفق اليهود في اليهودية على رؤسائهم وعلمائهم، وما ينفق أهل الأوثان على أصنامهم، في تظاهرهم على النبيﷺ، وإهلاكِهم مالَ أنفسهم، كمثل ريحٍ فيها برد شديد(١).

ويقال: «الصِرّ» صوتُ لهب النار التي تحرق الزرع(٢).

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي زَرْعَ قومٍ ظلموا أنفسهم بمنع حق الله ﷻ عليهم فيه، ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي أحرقته الريح فلم ينتفعوا منه بشيء في الدنيا. كذلك من ينفق في غير طاعة الله تعالى لا ينتفع بنفقته في الآخرة كما لا ينتفع صاحبُ هذا الزرع بزرعه في الدنيا.

يقول الله ﷻ: وما ظلمهم الله ﷻ بإهلاك زرعهم، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمنع حق الله ﷻ فيه.

وقال بعضهم معنى الآية: مَثَلُ إهلاك الله ﷻ نفقةَ هؤلاء في هذه الحياة

---

(١) تفسير الصرّ بالبرد، هو قول الأكثرين كابن عبّاس، وعكرمة، وقتادة، وربيع، والسدي، والضحاك، وابن زيد. راجع: الطبري 705/5-707.

(٢) رُوي نحوه عن ابن عبّاس ﵄، ومجاهد. راجع: ابن أبي حاتم 741/3. وهو اختيار محمد بن كيسان النحوي، وابن الأنباري كما في البسيط ق 57/ب. وهذا القول – كما قال ابن كثير- لا يُنافي القول الأول، « فَإِنَّ البرد الشَّديد ولا سيَّمَا الجَلِيد يُحرِق الزُّرُوع وَالثمار كما يُحرَق الشَّيء بالنارِ ». تفسير ابن كثير 163/3.

الدنيا لِوَضْعهم لها في غير حقّها كمثل إهلاك ريحٍ فيها صِرٌّ أصابت زرع قوم زرعوا في غير موضع الزراعة، وفي غير وقت الزراعة فأهلكته الريحُ لوضعهم ذلك في غير موضعه[1]. والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

قال عبدالله / بن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا قد ظَاءرُوا[2] اليهودَ حتى صار كأن بينهم نَسَبًا، وكانوا يواصلونهم ويعاطفونهم حتى كان الرجل من الأنصار يتزوج فيهم فيختارهم على قومه، وكانت اليهود يجدون بهم مثل ذلك. فلما جاء الله ﷻ بمحمد ﷺ والإسلام، وآمن الأنصارُ، أبغضتْهم اليهود. وكان الأنصار يخالطونهم ويشاورونهم كما كانوا يفعلون قبلَ الإسلام للرضاعة والمصاهرة التي كانت بينهم وبينهم، فنهى الله ﷻ الأنصار بهذه الآية وما بعدها[3].

ومعنى الآية: أيها المؤمنون لا تتخذوا دخلاء من غيركم، يعني اليهود.

وبِطانة الرجل: خاصّته وأهلُ سِرِّه الذين يستبطنون أمره، سموا بذلك على

---

[1] ذكره الماوردي في النكت والعيون418/1، وابن الجوزي في زاد المسير445/1 بلا نسبة.

[2] في الهامش نقلا من الصحاح « ظ ء ر » : «قال في (ص): قال أبو زيد: ظاءرْتُ مظاءرةً، إذا اتخذتَ ظِئرا». **والظئر**: العاطفةُ على غير ولدها المرْضِعةُ له. انظر: لسان العرب 514/4.

[3] **[ضعيف]** أخرجه الطبري 709/5، من طريق ابن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة – أو عن سعيد بن جُبير – عنه رضي الله عنهما بنحوه إلا أنه ليس فيه ذكر المصاهرة والمظاءرة، بل ما كان بينهم مِن «الجوار والحلف». والإسناد فيه محمد بن أبي محمد، شيخ ابنِ إسحاق، وهو مجهول كما تقدّم غير مرّة.

جهة التشبيه ببطانة الثوب الذي يلي جلد الإنسان في القرب[1].

وحرف « مِن » في قوله تعالى ﴿ مِّن دُونِكُمۡ ﴾ للتبيين، أي لا تتخذوا الذين هم أسافل وأراذل بطانة.

وقوله ﷻ: ﴿ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا ﴾ أي لا يُبقون غاية، ولا يتركون الجهد في إلقائكم في الفساد وضربٍ بعضكم على بعض. يقال: (ما ألوتُ في الحاجة جُهدا) أي ما قصَّرتُ، ويقال (لَم آلُ في هذا الأمر أُلُوًّا)[2].

والْخَبْل والْخَبَال: الفساد؛ يقال: (فلان مُخَبَّل الرأي) أي فاسد الرأي، و(بفلان خَبَل) أي جنون[3].

ويقال: معنى ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ أي تمنَّوا ما أَثِمْتُم بربكم[4]. والعَنَت في اللغة: المشقّة؛ يقال: (أَكَمَةٌ عَنُوتٌ) أي طويلة شاقة المسلك[5].

ومعنى ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾: قد ظهرت العداوة من ألسنتهم بالشتم والطعن، وما يضمرون في قلوبهم من القتل لو ظفروا بكم أعظمُ مما أظهروا لكم.

ومعنى ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾: أخبرناكم بما أخفَوا وأبدَوا بالدلالات والعلامات، إن كنتم تعلمون الفصل بين العدو والولي.

---

(1) راجع: معاني القرآن للزجاج1/461، النكت والعيون1/419، البسيط للواحدي ق58/أ.

(2) (أَلاَ يألُوا أَلْوًا، وأُلُوًّا) : قَصَّر وأبطأ. راجع: لسان العرب، وتاج العروس، مادة« أ ل و».

(3) راجع: المفردات، واللسان، مادة « خ ب ل ».

(4) قوله: «**تمنَّوا ما أَثِمْـــتُم** » أي تمنَّوا إثْمَكم، فـــ «ما» مصدرية، كما هي في الآية كذلك، راجع: معاني القرآن للأخفش 1/419، الكشاف 1/434، المحرر الوجيز 3/208.
وتفسير العَنَت بالإثم قول مقاتل في تفسيره1/188، والسمرقندي في بحر العلوم 1/241.

(5) راجع: معاني القرآن للزجاج 1/462، ومقاييس اللغة، مادة « ع ن ت ».

قولـــه ﷻ: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ ﴾

معناه: أنتم يا هؤلاء تحبون اليهود بمصاهرتكم ومظاءرتكم [١]، ولا يحبونكم لدينكم، وتؤمنون بالتوراة والإنجيل وسائر كتب الله ﷻ، ولا يؤمنون هم بذلك كله، ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ﴾ يعني منافقي أهل الكتاب، قالوا: آمنّا بمحمد ﷺ أنه رسول الله، صادقٌ فيما يقول[٢]، وإذا خلوا فيما بينهم عضُّوا عليكم أطراف الأصابع من الحنق عليكم.

وهذا مَثَل ضربه الله ﷻ من شدّة عداوة اليهود للمؤمنين ومَن صَبَرَ على مكايدهم، لأن المغتاظ من الشيء الآسفَ على ما فاته من مراده منه = يعَضُّ أنامله من الغيظ.

وقوله ﷻ: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾ ليس على طريق الإيجاب ، لأنه لو كان على طريق الإيجاب لماتوا كلهم من ساعتهم [٣]، كما قال الله ﷻ في موضع آخر: ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ﴾[٤]، ولكن اللفظ من هذه الآية على صيغة الأمر والمراد به الخبر، معناه: تموتون بغيظكم ولَم تبلغوا أمانيكم من قهر محمد ﷺ وأصحابه ﷺ[٥].

ومعنى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: عالِم بما في القلوب من البغض والعداوة وغير ذلك.

قال الفراء في قوله ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ﴾: « إن العرب إذا جاءت إلى

---

[١] كُتب في الهامش: « أي اتّخاذكم الظئر، وهي المرضعة ».

[٢] في تفسير الحدّاد 127/2: « **أنهُ رَسُولٌ صَادِقٌ فيما يقولُ** »، ولعلّه أنسب للسياق.

[٣] أي ليس الأمر من باب قضاء الله الكوني الْمُوجِب لوقوع مدلوله.

[٤] جزء من الآية (243) من سورة البقرة.

[٥] بحر العلوم 242/1.

اسم مكنيّ[1] قد وُصف بـــ (هذا)، جعلته بين (ها) و(ذا)، فتقول للقريب: (هاهو ذا) و(هاهما ذان) »[2]. فيكون معنى ﴿هَآأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ هاأنتم الذين تحبونهم، و﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾[3] بمعنى الصلة، و﴿أُوْلَآءِ﴾ اسم موصول[4]، وكُسرت الهمزةُ الأخيرةُ من ﴿أُوْلَآءِ﴾ لسكونها وسكون الألف الذي قبلها.

وقال بعضهم: (ها) إشارة، و(أنتم) خطاب ابتداء، و ﴿أُوْلَآءِ﴾ في تقدير الخبر، و ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ حال، كأنه قال: انتبهوا يا هؤلاء لعملكم مُحبّين لهم[5].

قولــه ﷻ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

معناه: إن أصابتكم نعمةٌ بالألفة والغلبة على الأعداء والغنيمة والخصب، تسؤهم تلك الحسنةُ - يعني اليهود -، وإن تصبكم محنةٌ من جهة أعدائكم أو جدبٌ ونكبةٌ، يُعجَبوا بها، وإن تصبروا على أذى المنافقين واليهود، وتتقوا معصية الله ﷻ، لا يضركم احتيالهم لإيقاعكم في الهلاك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي أحاط علمُه وقدرتُه بأعمالهم. والمحيط بالشيء: هو المطيف بالشيء من جميع جوانبه.

---

(١) أي الاسم المضمر كـــ (أنا) و(أنت) و(هو).

(٢) معاني القرآن للفراء 1/231-232.

(٣) في الأصل: «يحبّونكم»، وهو خطأ.

(٤) «أولاء» اسم إشارة في الأصل، ولكنه تارة يأتيّ — في رأي الكوفيين - بمعنى الاسم الموصول. راجع: الإنصاف في مسائل الخلاف 2/236-240.

(٥) راجع: معاني القرآن للزجاج 1/462-463. وللاستزادة، راجع الأقوال في إعراب قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [البقرة/٨٥]، عند مكّي في مشكل إعراب القرآن ص102-103، والعكبري في التبيان ص71، والسمين الحلبي في الدر المصون 1/474-478.

وقوله ﷻ: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ﴾ بغير الإدغام، لغةُ أهل الحجاز، وقولُه ﴿لَا يَضُرُّكُمۡ﴾ بالإدغام، لغة غيرهم من العرب، وكلا الوجهين جائز حسن[1].

ومن قرأ: ﴿لا يَضُرَّكُم﴾ بفتح الراء[2]، فلأن الفتح / أخف الحركات، ومن كسر[3]، فلالتقاء الساكنين[4].

وأما الضم، فعلى أصل الكلمة، تقديره: فلا يَضَرُّكم كيدهم، وقد تضمر العربُ حرف الفاء وتريد إثباته، كما قال الشاعر:

من يفعلِ الحسناتِ اللهُ يشكرها ... والشر بالشر عند الله مِثلان[5]

ومن قرأ: ﴿لا يَضِرْكُم﴾[6]، فهو مِن الضَّير. والضَيرُ والضُرُّ والضَرُّ بمعنى

---

[1] القول بأنه قد اجتمع في الآية لغتان، إنما يصحّ إذا قُدّر ﴿يَضُرُّكُمۡ﴾ مجزوما، وكانت ضمّته إتباعا لضمّة الضاد. وأمّا إذا قُدّر الفعل مرفوعا – كما سيقرّره المصنف لاحقا – لَم تكن في الآية إلا لغة واحدة: لغة أهل الحجاز بفكّ الإدغام في ﴿تَمۡسَسۡكُمۡ﴾. راجع: معاني القرآن للزجاج 1/464-465.

[2] هذه قراءة شاذة، رواها أبو زيد، عن المفضل، عن عاصم. راجع: الشواذ لابن خالويه ص22، وإعراب القرآن للنحاس ص218، وشواذ القراءات للكرماني ق26/أ.

[3] الكسر، وإن كان يجوز لغةً، لكنه لَم يقرأ به أحد. قال ابن عطية في المحرر 3/213: «فأما الكسر فلا أعرفها قراءةً». وأما ذِكْرُ الفرّاء والطبريِّ والزجاجِ لجواز الفتح والكسر، فمن باب بيان الجواز اللغوي، لا على أنه يُقرأُ بهما قرآناً. راجع: معاني القرآن للفراء 1/232، والطبري 5/724، ومعاني القرآن للزجاج 1/465.

[4] أي أن الكسر هو الأصل في التخلّص من التقاء الساكنين. راجع: معاني القرآن للزجاج 1/465.

[5] البيت منسوب لحسان بن ثابت في الكتاب لسيبويه 3/64-65؛ ولعبدالرحمن بن حسان في المقتضب 2/70، ولسان العرب مادة «ب ج ل»؛ ونسبه جماعة لكعب بن مالك الأنصاري، كما في خزانة الأدب 9/49-51.

والشاهد فيه: حذف الفاء من جواب الشرط، وتقديره: فالله يشكرها.

[6] هذه قراءة نافع، وابن كثير، والبصريَّين (عمرو ويعقوب). وقرأ الباقون: ﴿يَضُرُّكُمۡ﴾ مشدّدة الراء، مرفوعة. راجع: المبسوط ص147، والروضة 2/593، والنشر 2/242.

واحد. قال الله ﷻ: ﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ﴾[1]، وقال - عز من قائل- : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ ﴾[2].

قولــه ﷻ: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾

معناه: واذكر إذ أصبحتَ من عند أهلك من المدينة، تُهيِّئ للمؤمنين مواضع للحرب لقتال المشركين يومَ أُحُد؛ وذلك أن النبي ﷺ كان رأى في المنام بعد ما سمع بأمر المشركين وجمعهم للقتال أنَّ عليه درعًا حصينةً، فأَوَّلَها المدينةَ، وكره الخروج إليهم، وأمر بتَبْوِئة المقاعد للقتال إلى أن يُوافيهم المشركون، فقال رجال من المسلمين: اخرج بنا يا رسول الله ﷺ إليهم، لا يرى أعداء الله أَنَّا جبُنَّا عنهم! فلم يزالوا به حتى خرج. وكان ذلك في شوال في العام المقبل الذي كان قبله وقعة بدر[3].

وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لقول المنافقين، عليم بنِيَّاتهم، وبما يصيب المسلمين في هذا الحرب. وهذا قول أكثر المفسرين رحمهم الله، قالوا: نزلت هذه الآية في غزوة أحد[4].

وقال الحسن ومجاهد ﵄: نزلت الآية في يوم الأحزاب[5]. وكل واحد

---

[1] جزء من الآية (50) من سورة الشعراء.

[2] جزء من الآية (67) من سورة الإسراء. راجع: معاني القرآن للزجاج 465/1.

[3] جزءٌ من أثر طويل، لإمام المغازي محمد بن إسحاق، جمع فيه ما أخذه من أخبار غزوة أحد، عن مشايخه كالزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبّان، وغيرهم من علماء التابعين. راجع: سيرة ابن هشام60/2-64، والطبري8/6، وابن المنذر353/1-357.

[4] هو قول عبد الرحمن بن عوف ﵁، أخرجه ابن المنذر 350/1، وابن أبي حاتم 749/3. وقاله — أيضا – قتادة، والربيع، والسدي، وابن إسحاق، في آخرين، وهو مروي عن ابن عباس ﵄ برواية العوفيين عنه. راجع: الطبري 6/6-7، وابن أبي حاتم 748/3.

[5] قول الحسن، أخرجه الطبري 7/6، وابن أبي حاتم 748/3 بإسناد حسن. قال ابن كثير في

من الموضعين قريب من المدينة.

قوله ﷻ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

قال أكثر المفسرين: وذلك أن النبي ﷺ لما خرج لحرب أُحُد، رجع عبدالله بن أُبَيٍّ المنافق بثُلُثِ الناس بعد خروجهم للحرب، فقصدت فرقتان: بنو حارثة، وبنو سَلِمَة، أن تَجْبُنا فترجعا، فثبَّت الله ﷻ قلوبهما، حتى لَم يرجعا، فذلك قوله ﷻ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[1].

ومعنى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، أي ناصرهما وحافظ قلوبهما. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في أمورهم.

وفي الآية دليل أن هَمَّ الطائفتين كان همَّ خطرةٍ، لا هَمَّ عزيمةٍ لأن الله ﷻ مَدَحَهُما بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

وفي قوله ﷻ: ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ دليل أن الفشل لَم يكن واقعًا منهم بعدُ.

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

معناه: ولقد أعانكم الله ببدر وأنتم قليل في العدد، وذلك أن المسلمين كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا[2].

تفسيره 170/3: « ...وهو غريب، لا يُعوّل عليه ». أما قول مجاهد، فأخرجه الطبري 12/6.

[1] بنحوه قال جابر بن عبد الله الأنصاري، وقتادة، والربيع، والسدي، وابن إسحاق، في آخرين. راجع: الطبري 12/6-14.

[2] أخرج البخاري (المغازي/ باب عدة أصحاب البدر/ ح 3957) عن البراء رضي الله عنه أنهم كانوا

كان عدد المهاجرين سبعة وسبعين رجلا، وعدد الأنصار مائتين وستة وثلاثين، وكان أمير المؤمنين علي – كرم الله وجهه – صاحبَ رايته ﷺ، وكان سعد بن معاذ صاحبَ راية الأنصار [١].

وكان عدد الكفّار تسعمائة ونَيِّفًا[٢].

ومعنى ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أطيعوه فيما يأمركم به لتقوموا بشكر النعم التي أنعمها عليكم.

واختلفوا في تسمية بدرٍ بهذا الاسم، قال بعضهم: هو اسم الماء الذي هناك، ونُسب المكان إليه. وقال بعضهم: هو اسمٌ موضوع لذلك المكان لا على جهة النسبة إلى أحد كسائر أسامي البلدان والأمصار[٣].

ورُوي أن وقعة بدر كانت على رأس تسعة عشر شهرا من هجرة النبيﷺ في يوم الجمعة، وهو اليوم السابع عشر من رمضان[٤][٥].

ثلاثمائة وبضعة عشر. وأقل ما قيل في العدد هو: ثلاثمائة وثلاثة عشر، رُوي ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وميمون بن مهران. راجع: ابن أبي حاتم 750/3-751. وأكثر ما قيل: ثلاثمائة وتسعة عشر، كما عند مسلم (الجهاد/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر/ ح1763) عن عمر رضي الله عنه. وراجع: كلام الحافظ ابن حجر عن اختلاف الروايات في عدد المسلمين، عند شرحه لقول البراء رضي الله عنه. فتح الباري 340/7.

[١] أخرجه الطبري في تاريخه431/2، وابن أبي حاتم751/3 - مختصرا -، وابن عساكر في تاريخ دمشق 249/20، عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، إلا أن صاحب راية الأنصار فيه هو سعد بن عُبادة رضي الله عنه. ولكن جاء في سيرة ابن هشام613/1، أنه كان سعد بن معاذ رضي الله عنه. والله أعلم.

[٢] روى ابن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة ابن الزبير، أن النبي ﷺ لـمّا سأل ذلك العبد الذي قبض عليه الصحابة : كم ينحرون كلّ يوم؟ قال: يومًا تسعًا ويومًا عشرا، فقالﷺ: «**القومُ فيما بين التسعمائة والألف**». راجع: سيرة ابن هشام 616/1-617، ودلائل النبوة للبيهقي 42/3-43.

[٣] راجع: الطبري 17/6-18، وابن أبي حاتم 750/3.

[٤] كتب في الهامش: «وذلك سنة اثنتين من الهجرة».

[٥] رُوي ذلك عن عروة بن الزبير، وقتادة، ومحمد الباقر، والسدي. راجع: سيرة ابن هشام 626/1، ودلائل النبوة للبيهقي 126/3-129.

والله تعالى أعلم، وبالله التوفيق.

قولــه ﷻ: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يوم أُحُد بعد انصراف عبدالله بن أُبَيٍّ بثلث الناس سبعَمائة رجل، وكان المشركون ثلاثة آلاف رجل، فقال ﷺ لأصحابه: ألن يكفِيَكم أن يُقوِّيكم ربكم بمددِ ثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين من السماء.

قال الله ﷻ: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ [مُسَوَّمِينَ][1] ﴿١٢٥﴾ ﴾

معناه: إن تصبروا مع نبيكم ﷺ، وتتقوا مخالفته، ويأتوكم أهل مكة من وجههم هذا، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة معلَّمين بالصوف الأبيض - ويقال: بالصوف الأحمر- في نواصي الخيل وآذانها وأذنابها، أي ينزلهم الله ﷻ من السماء معلَّمين بهذه العلامة[2].

ويجوز أن يكون معنى ﴿مُسَوَّمِينَ﴾ مُرسَلين، من الإسامة وهي الإرسال[3].

ومن قرأ: ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ بكسر الواو، فلأنهم / سَوَّموا خيولهم[1].

---

[1] هذه قراءة أهل المدينة، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف. وقرأ الباقون بكسر الواو: ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾. راجع: المبسوط ص147، والروضة 594/2، والنشر 242/2.

[2] رُوي عن علي ﷺ أن سيما الملائكة يوم بدر الصوفُ الأبيض في نواصي خيولهم. وعن مجاهد نحوه. وعن أبي هريرة ﷺ أنهم كانوا مسوّمين بالعهن الأحمر. راجع: الطبري 34/6-35، وابن المنذر 369/1-370، وابن أبي حاتم 754/3.

[3] هذا رأي الكسائي، كما في الحجة لابن زنجلة ص 173. ونَسبَه النحاس في المعاني 470/1، ومكّي في الهداية إلى بلوغ النهاية 1120/2، وابن حيّان في البحر المحيط 335/3، إلى الأخفش، لكني لم أجده في كلامه. راجع: معاني القرآن للأخفش 420/1.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوم بدر: «**تَسَوَّمُوا فَإِن الملائكةَ قد تَسَوَّمَتْ**»[٢].

وقال قتادة: كانت على الملائكة يوم بدرٍ سيما القتال، وكانوا على خيلٍ بُلْقٍ[٣].

قال ابن عباس: كانت سيما الملائكة يومَ بدرٍ عمائمَ بيضًا مُرخيها على أكتافهم أو بين أكتافهم، وسيماهم يومَ حنينٍ عمائمَ خُضْرًا مرخيها بين أكتافهم أو على أكتافهم[٤]. قال: ولَم يصبر المؤمنون يوم أحد للقتال إلا قليل منهم، ولو صبروا لنزلت عليهم الملائكة، وأتاهم ما وعدهم الله ﷻ، ولكنهم لَم يصبروا فلم ينزل عليهم الملائكة[٥].

وأما الفور، فقد يكون فورَ الابتداء وقد يكون فور الغضب، وهو غَلَيَانه مثل فور القِدْر[٦]. ومعنى الفور هاهنا مستعار في حِدَّة مجيء العدو وحَرَارته[٧].

---

[١] راجع: معاني القرآن للأخفش 420/1، وللزجاج 467/1، والكشف لمكّي 355/1.

[٢] **[ضعيف]** أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 263/12 (37665)، والدُوري في جزء قراءات النبيﷺ ص80-81، والطبري 34/6، من حديث التابعيّ، عُمير بن إسحاق، مُرسَلا.

[٣] **البُلْق**: جمع أَبْلَق، وهو الفرس الذي فيه سواد وبياض، أو الذي بلغ التحجيل في قوائمه إلى الفخذين. راجع: القاموس مادة «ب ل ق».
وأما الأثر، فقد أخرج الجزء الأول منه إلى قوله: «القتال»، الطبري 37/6، وابن أبي حاتم 755/3. وأخرج الجزء الثاني، الطبري 35/6.

[٤] أخرجه بنحوه أبو نُعيم في دلائل النبوة 474/2، بإسناد ضعيف. وأخرجه الطبري في التاريخ 454/2، والطبراني في الكبير 389/11، والبيهقي في الدلائل 57/3 بلفظ: «عمائم حُمْر» بدل «خُضْر». وراجع: سلسلة الأحاديث الضعيفة 89/9-92.

[٥] لَم أجده عن ابن عباس ﭭ. لكن قد قال بنحوه مولاه: عكرمة، والضحاك. راجع: الطبري 27/6.

[٦] راجع: البسيط ق61/ب.

[٧] وكان حدّة مجيئهم بسبب غضبهم على ما لقوا يوم بدر من الهزيمة، قال عكرمة: «فَورُهُم ذَلِكَ كان يَومَ أُحُدٍ، غَضِبُوا لِيَومِ بَدرٍ مِمَّا لَقُوا». راجع: الطبري 30/6.

قولــه ﷻ: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

معناه: ما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشارةً لكم، ولتسكن قلوبكم حتى تَـــثبُتُوا لأعدائكم. ثم قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي الله ﷻ وإن أمدَّكم بالملائكة وقَوَّى قلوبكم، فليس النصر بكثرة العدد وقِلَّتِه، ولكنه يكون من عند الله تعالى المنيعِ في سلطانه، الحكيم في أمره.

وفي الآية بيان أن الإنسان لا يستغني في حال من الأحوال عن الله، وإن كَثُرت عُدَّته، واجتمع مالُه، وعَلِم أن الحق معه.

قال عبدالله بن عباس ﵄: إن الملائكة لَم تباشر القتال إلا يوم بدر، فأما ما سوى ذلك فإنها تحضر وتُكثر الصف، ولا تقاتل[1].

وذهب بعض المفسرين[2] إلى أن الملائكة لَم تقاتل البتّة، ولَم يُبعثوا إلا للبشارة، إذ لو بُعثوا للإعانة لكان مَلَكٌ واحد يكفيهم، كما فعل جبريل ﵇ بقوم لوط حين أدخل جناحه تحت مدائنهم الأربع فبلغ بجناحه إلى الأرض السابعة فاقتلعها من أصلها ورفعها إلى السماء ثم جعل عاليها سافلها[3].

---

[1] أخرجه بنحوه الطبري 23/6، والطبراني في الكبير 389/11 (12085)، وأبو نُعيم في دلائل النبوة 474/2، والبيهقي في الدلائل 57/3.

قلتُ: ويردُّ على هذا القول ما صَحَّ عن سعد بن أبي وقاص ﵁ أنه رأى جبريل وميكائيل يومَ أُحُدٍ قد احتفَّا بالنبي ﷺ «يقاتلان عنه كأَشَدِّ القتال». أخرجه مسلم (الفضائل/ في قتال جبريل وميكائيل عن النبي ﷺ/ ح2306).

[2] هو أبو بكر الأصم المعتزلي (ت 201 هــ) كما في مفاتيح الغيب للرازي 232/8.

[3] قلتُ: وهذا القول مخالف لما ثبت في الأحاديث، وعند أهل المغازي، من أن الملائكة قاتلت يوم بدر؛ من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه (الجهاد/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر/ ح1763) عن ابن عباس ﵄، قال: « بَينَمَا رَجُلٌ مِن المسلمينَ يَومَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِن المشرِكِينَ أَمَامَهُ إذ سَمِعَ ضَربَةً بالسَّوطِ فَوقَهُ وَصَوتَ الفَارِسِ يَقُولُ: (أَقدِمْ حَيْزُومُ!)، فَنَظَرَ إِلَى المشركِ أَمَامَهُ فخرَّ مُستَلقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيهِ فَإِذَا هُوَ قَد خُطِمَ أَنفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ».

وذهب بعضهم إلى أن الملائكة كانوا يقاتلون، وكانت علامةُ ضربهم اشتعالَ النار في موضع ضربهم[1]، حتى قال أبو جهل – لعنه الله – لعبدالله بن مسعود ﵁: أنت تقتلني؟! إنما قتلني الذي لَم يصل سناني إلى سُنْــبُك[2] دابّته وإن اجتهدتُ؛ قالوا: وقد جعل الله ﷻ أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة، فكل عسكر من المسلمين صبر واحتسب، قاتلت معهم الملائكة[3].

قوله ﷻ: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

معناه: ينصركم ليَقتُلَ ويَستَأصِلَ جماعةً من الذين كفروا، يُنقصهم بذلك أو يهزمهم، فيرجعوا منقطعين عن آمالهم.

والكبت: هو الوهن في القلب فيُصرَع المرء على وجهه لأَجْله، يقال: (كَبَتَه الله لوجهه)، أي صرَعه لوجهه[4].

وقرئ في الشاذ: ﴿أَوْ يَكْبِدَهُمْ﴾[5]. يُقال: (كَبَدَهُ) إذا رماه فأصاب كَبِدَه، و(كَبَتَه) كذلك، والمكبود: الملهوف[6].

والخائب: الذي لَم يَنَلْ ما يأمل[7]. ولا يكون الخيب إلا بعد انقطاع

---

[1] أخرج ابن أبي حاتم 1668/5، عن الربيع بن أنس، قال: «كان الناسُ يَومَ بَدرٍ يَعرِفون قَتلى الملائِكَةِ مِمَّن قَتَلُوهُم بِضَربِهِم فَوقَ الأَعنَاقِ وَعَلَى البَنَانِ، مِثلَ سِمَةِ النَّارِ، قَد أُحْرِقَ بِهِ».

[2] السُنْــبُك: طَرَفُ مقدَّم الحافر. الصحاح 1589/4 مادة «س ب ك».

[3] راجع: بحر العلوم للسمرقندي 244/1، والقرطبي 298/5.

[4] تدور معاني مادة «ك ب ت» حول معنيين: الإغاظة، والصرع. وقد جمعهما المصنف بقوله: «هو الوهن في القلب فيصرع... ». راجع: معاني القرآن للنحاس 472/1، وتهذيب اللغة 88/10-89، والنهاية 138/4، مادة «ك ب ت».

[5] هذه القراءة تُنسب للتابعي: أبي مجلز لاحق بن حميد. راجع: الكشف والبيان 145/3، القرطبي 305/5، البحر المحيط 337/3.

[6] راجع: تهذيب اللغة: مادة «ك ب د» (74/10)، ومادة «ك ب ت» (88/10-89).

[7] راجع: معاني القرآن للزجاج 467/1، وللنحاس 472/1.

الأمل، واليأسُ قد يكون قبل الأمل وبعده[1].

قوله ﷻ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وذلك أنه لما شُجّ النبي ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، وقُتل سبعون رجلا من أصحابه ﷺ، وهو يمسح الدم عن وجهه، وهو يقول: «**كيف يُفلحُ قومٌ فَعَلُوا بنَبِيِّهم هذا، وهو يدْعُوهُم إلى ربِّهم ؟!** »، وهَمَّ أن يلعنهم ويلعن الذين انصرفوا مع عبدالله بن أبيٍّ ابن سلول، فأنزل الله هذه الآية[2]، ينهاه عن اللعن، ويُبيّن أن فلاحهم ليس إليه، وأنه ليس إليه من الأمر شيءٌ، إلا أن يُبَلِّغَ الرسالة ويجاهد حتى يظهر الدين. وهذا قول ابن عباس[3]، وقتادة [4].

ويقال: معنى ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ ليس لك من النصر شيء، كأن هذا متصل بقوله : ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ .

فأما قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾، قال بعضهم: هذا متصل بقوله ﷻ: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾، وقولُه تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ معترضٌ بين الكلامين، كما يقول القائل: (رأيت زيدا – فافهم ذلك– وعمرًا) فيكون

---

[1] راجع: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص 245، والنكت والعيون 422/1، والبسيط ق62/أ-ب.

[2] **[صحيح بنحوه]**علّق البخاري بنحوه، في كتاب المغازي، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾، بصيغة الجزم من حديث أنس بن مالك ﷺ؛ وأسنده مسلم (كتاب الجهاد/ باب غزوة أحد/ ح1791)، إلا أنه ليس فيه ذكرُ همّه ﷺ باللعن. وإنما ورد ذلك في رواية الربيع بن أنس المرسلة عند الطبري 45/6-46.

[3] أخرجه الطبري 47/6 من رواية ابن جريج عنه.

[4] أخرجه عبد الرزاق 410/1، والطبري 45/6-46.

قوله: (فافهم) معترضا بين الكلامَين من غير أن يمنع اتصال أحدهما بالآخر[١].

وقال بعضهم: معنى ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾: حتى يَلْطُف لهم لُطْفًا يتوبون عنده، أو يُعذّبهم[٢].

وقد يكون ﴿أَوْ﴾ بمعنى حتى كما يقال: (لألزمنك أو تقضيَني حقي) يراد بذلك حتى تقضِيَني حقِّي[٣].

وقال الضحاك ومقاتل ﵄: بعث رسول الله ﷺ رهطًا من فقراء أهل الصُفَّة، وكانوا سبعين رجلا، بعثهم إلى / عُصَيَّةَ ورِعْلٍ وذكوان يدعونهم إلى الإسلام، فعمدوا إليهم فقتلوهم، فاشتدَّ ذلك على النبي ﷺ، فدعا عليهم أربعين صباحا في صلاة الغداة، فترل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ إلى آخر الآية[٤].

قوله ﷿: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

---

[١] راجع: معاني القرآن للفراء 234/1، وللزجاج 468/1، والطبري 42/6، والبسيط ق62/ب.

[٢] هذا من تأويلات المعتزلة كما في مفاتيح الغيب 240/8-241، وذلك أن المعتزلة لا تُثبت أن الله يتوب على من يشاء مِن عباده بمعنى أنه ﷻ يمتنّ عليه بالتوفيق الذي يصير به مؤمنًا مطيعًا. بل العبد هو الذي يتوب ويهتدي بحول نفسه وقوّته عند وجود «الألطاف» من الله تعالى. وراجع لمصطلح الألطاف: كلام الدكتور الذهبي ﵀ حول تفسير الزمخشري في كتابه «التفسير والمفسرون» 298/1-300.

[٣] راجع: معاني القرآن للفراء 234/1، وللزجاج 468/1، والطبري 42/6، والبسيط ق62/ب.

[٤] راجع: تفسير مقاتل 190/1. ولَم أجده مرويًّا عن الضحاك، ولا من نسبه إليه. قلتُ: وقد ثبت في صحيح البخاري (الجهاد/ باب من يُنكَب أو يُطعن في سبيل الله/ ح 2801)، وغيره، من حديث أنس ﵁ أن النبي ﷺ دعا على هذه الأَحياء من العرب في قنوت صلاة الغداة لمدة أربعين يومًا، ولكن ليس فيه أن هذه الآية نزلت في ذلك. وسياق الآية مع الآيات قبلها يدل على أنها إنما نزلت في قصّة أُحُد. وراجع: المحرر في أسباب نزول القرآن للدكتور خالد بن سليمان المزيني 316/1-324.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾

معناه: جميع ما في السماوات وما في الأرض من الخلائق كلُّهم عَبِيدُ الله، وفي مُلْكِه.

﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الذنبَ الكبير إذا تاب [1]، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ على الذنب الصغير إذا أصر على ذلك، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في قبول توبتهم وتأخير العذاب عنهم.

وإنما ختم الله تعالى هذه القصة بالغفران والرحمة على معنى أنه وإن كان على التعذيب قديرًا، لكنَّ الغالبَ على أمره وما يريد بخلقه = الرحمةُ والمغفرة.

وسُئل ابن المعتز رَحِمَهُ اللَّهُ[2]، فقيل له: كيف يعذب الله عَزَّ وَجَلَّ عباده بالإجرام مع سعة رحمته؟ قال: سعة رحمته لا تغلب حكمتَه[3]؛ إذ لا تكون رحمته بِرِقَّة القلب، كما تكون الرحمة من الآدميين.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾

قال عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نزلت هذه الآية في أهل الطائف، كانت بنو المغيرة يُربون لهم فإذا حَلَّ الأجل زادوا في المال وازدادوا في الأجل، فنهاهم

---

(1) وإنما يصحّ اشتراط التوبة إذا كان المراد بـــ«الذنب الكبير» هو الشركَ والكفرَ، كما كان عليه هؤلاء الذين قاتلوا النبيﷺ يومَ أُحُد. وأما إذا كان المراد بــــه ما يكون مِن الكبائر التي هي دون الشرك، فلا يصحّ حينئذ اشتراط التوبة لأن الله قد يغفرها من غير توبةٍ رحمةً منه، بخلاف الشرك الذي لا يغفره إلا بالتوبة، ولذا فَرَّقَ بينهما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء48]. راجع: فتاوى ابن تيمية16/18-19.

(2) هو الأمير أبو العبّاس عبدالله ابن المعتز ابن المتوكل ابن المعتصم ابن هارون الرشيد. تأدّب بالمبرّد وثعلب، وكان أديبًا بليغًا، وشاعرًا مُبدِعًا. تولّى الخلافة يوما وليلة ثمّ خلعه وقتله أصحاب المقتدر سنة296هـــ. راجع: وفيات الأعيان3/76، وسير أعلام النبلاء14/42.

(3) ذكره السمعاني في تفسيره 1/360. وهو في ربيع الأبرار للزمخشري 2/83 بلا نسبة.

الله تعالى عن ذلك في الإسلام[١].

ومعنى ﴿أَضۡعَـٰفٗا﴾: لا تأكلوا أضعاف ما آتيتموه، لا تأخذوا إلا المثل.

ومعنى ﴿مُّضَـٰعَفَةٗ﴾: لا تُضعّفوا المال[٢] في الزيادة في الأجل[٣]، واخشوا الله تعالى في الربا، ولا تستحلوه لكي تنجوا من العذاب في الآخرة.

ثم صارت هذه الآية عامّة في جميع الناس.

وإنما أعاد تعالى تحريم الربا بعد ما كان ذَكَرَه في سورة البقرة[٤] لتأكيد التحريم بتصريح النهي عنه[٥]. ويجوز أن يكون المراد بآية الربا في سورة البقرة ربا النسيئة، والمراد بهذه الآية في هذه السورة ربا الفضل[٦].

ثم اتصال هذه الآية لما قبلها اتصال النهي عن حال الجاهلية في الربا بالنهي عن حال الجاهلية في الكفر.

---

(١) **[ضعيف]** لَم أجده عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، إلا ما في تنوير المقباس ص 73 من طريق الكلبي بلفظ: «﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يعني ثقيفًا». وقد أخرجه الطبري 50/6، وابن المنذر 377/1-378 عن ابن جريج، عن عطاء –وهو الخراساني–، مرسلا.

(٢) في الأصل: «لا تُضعفوا المال المال» بالتكرار.

(٣) قال العلماء: إن قوله تعالى: ﴿ أَضۡعَـٰفٗا مُّضَـٰعَفَةٗ ﴾ ليس القصد منه تقييد النهي، بل إنما هو بيان لواقعهم توبيخا لهم وتشنيعا عليهم. راجع: تفسير أبي السعود 84/2، والتحرير والتنوير 85/4-86.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ الآيات. [البقرة/275-279].

(٥) واستظهر الطاهر ابن عاشور أن هذه الآية نزلت قبل آيات سورة البقرة تمهيدا لها . راجع: والتحرير والتنوير 85/4.

(٦) تجويز المصنف أن يكون المراد بهذه الآية ربا الفضل على جهة الخصوص فيه نظر حيث إن في قوله تعالى: ﴿ أَضۡعَـٰفٗا مُّضَـٰعَفَةٗ ﴾ إشارة إلى أن المراد ربا النسيئة الذي يتضاعف فيه الدَّين عامًا بعد عامٍ، على ما كان عليه الأمر في الجاهلية. راجع: الطبري 49/6-51. ثم إن المصنف نفسُه ذكر في سبب نزول الآية أنها نزلت في ربا النسيئة الذي كان يتعامل به أهل الطائف!

قولــه ﷻ: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ ﴾

معناه: اخشَوُا النار في أكل الربا، ﴿ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتۡ ﴾ أي خلقت للكافرين بالله ﷻ وبتحريم الربا[١].

فإن قيل: إذا كانت النار مُعَدَّة للكافرين، فكيف يعَذَّب بها غير الكافرين؟ قيل: فائدة تخصيص الكافرين بالذكر أنهم هم العمدة في إعداد النار لهم، وقد يدخلها غير الكافرين على طريق التَّبَع، وهذا كما قال ﷻ في ذكر الجنة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[٢]، وإن كان الأطفال والمجانين يدخلونها تبعا للمتقين[٣].

وقال بعضهم[٤]: معنى الآية: واتقوا النار في استحلال الربا، فإنّ من أَحَلَّ أَحَلَّ الربا فهو كافر.

ويقال معناه: اتقوا الربا فإنه يُخاف نَزْعُ الإيمان من آكله، ومن الذنوب ما يُخاف منه نزع الإيمان، كما رُوي أن رجلا كان عاقًّا لوالدته فقيل له عند الموت قل: لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءت أمه فرضيت عنه[٥].

---

(١) تفسير الكلبي (تنوير المقباس ص73).

(٢) تتمّة الآية التي بعد الآية التالية.

(٣) أما دخول الأطفال الجنّة، فثابت في غير ما حديث، كقوله ﷺ عن ابنه إبراهيم: « **إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ** » أخرجه البخاري (الجنائز/ باب ما قيل في أولاد المسلمين/ ح1382). وأما المجانين، فلم أجد ما يدل على أنهم يدخلون الجنة بإطلاق، بل المروي أنهم يعقلون يوم القيامة فيُمتحنون كما يُمتحن أهل الفترة، والصم، والشيوخ الهرمى.
راجع الأحاديث الواردة في ذلك عند ابن كثير 8/447-456 عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾ [الإسراء/15].

(٤) كالزجاج في معاني القرآن 1/468، ونسبه السمرقندي إلى «أكثر أهل العلم والتفسير». بحر العلوم 1/246.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء 5/105 من طريق فائد العطّار عن عبدالله بن أبي أوفى ﷺ قال: إن شابًّا حضره الموت ...الخ. وأسند العُقيلي عن الإمام أحمد أنه قال في فائد «متروك الحديث»، وعن البخاري: «منكر الحديث». وأورده ابن الجوزي في الموضوعات 3/287 (1519).

وروي أن رجلا لُقِّن كلمة التوحيد فكان يقول: (دَهْ، دُوازده، سِيْزده)[1].

قوله ﷻ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾
معناه: أطيعوا الله والرسول في تحريم الربا لكي تُرحموا فلا تعذّبوا.

قولـــه ﷻ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾
معناه: بادروا إلى ما يُوجب لكم مغفرةً من ربكم، وهو التوبة، فإن التوبة باليقين توجب المغفرة لأن التائب يكون مُؤَدِّيا جميع ما كلّف، ومن أدَّى جميع ما كلف سَتَرَ ذنوبَه، وحَطَّ عنه العقاب.

ويُقرأ: ﴿سَارِعُوا﴾ بغير الواو على سبيل الابتداء، لا على وجه العطف[2]. وإنما اختلفت القراءة لاختلاف المصاحف فإن في مُصحف أهل المدينة وأهل الشام مكتوب بغير واو، وفي مصحف عثمان ومصحف أهل العراق مكتوب بالواو فاتَّبَعَ كُلٌّ قوم مُصحفهم[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، فقد روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الجنان أربع: جنة عدن وهي الدرجة العليا، وجنة

---

[1] معناه: (عشرة، اثنا عشر، ثلاثة عشر) بالفارسيّة. ولعله كان من التجّار الذين ينادون على السلعة في المزاد، مثل ما ذكر ابن القيم رحمه الله عن بعض التجّار أنه حين لُقِّن الشهادة جعل يقول: (هذه القطعة رخيصة، هذه مُشترى جيد، هذه كذا ...) حتى قضى؛ الداء والدواء ص218. والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[2] هي قراءة المدنـــيَّين (أبي جعفر ونافع)، وابن عامر الشامي. راجع: المبسوط ص 147، والروضة 594/2، والنشر 242/2.

[3] راجع: كتاب المصاحف ص 252، و260، و265، و269؛ المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص106؛ مختصر التبيين لهجاء التنزيل 366/2.

المأوى، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، ثم في كل جنة منها جناتٌ عددَ نجوم السماء، وقطرِ المطر، كل جنة منها في العرض / والسعة، لو أُلصقت السماوات السبع والأرضون السبع بعضُهن ببعض، لكانت الجنة الواحدة أعرض منها[1].

ودلت الآية على أن طولها يزيد على السماوات والأرض؛ لأن طول الشيء يزيد على العرض[2] في العادة.

وذهب بعض المفسرين إلى أنه ليس المراد بهذه الآية التقدير، لكن المراد أنها أوسع شيء رأيتموه[3]، حتى قال إسماعيل السدّي رحمه الله: لو كسرت السماوات والأرض فصِرن خردلا، كان بكل خردلةٍ لله تعالى جنّة عرضها السماوات والارض[4].

ومعنى ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾: خُلقت للمتقين الشركَ والمعاصيَ.

فإن قيل: إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟ قيل: إن الله عز وجل خلق الجنة عالية والنار سافلة، والشيئان إذا كان أحدهما عاليا والآخر سافلا، لا يمتنعان؛ لأنهما يوجدان في مكانين متغايرين. ويجوز أن تكون الجنة في السماء وهي أعرض من السماء، فإن العرش أعظم من السماء وهو فوق السماوات، كذلك لا يمتنع مثله في الجنة.

ويُروى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذا السؤال، فقال: «**يا سبحان الله! إذا جاء النهار فأين ذهب الليل؟** »[5]. ومعنى هذا الجواب – والله أعلم –

---

[1] هذا من رواية المتّهم محمد بن السائب الكلبي، كما في بحر العلوم للسمرقندي 246/1.

[2] في الأصل: « الأرض »، والتصويب من (ب).

[3] قال ابن قتيبة: «يريد سَعتَها، ولَم يُرد العرض الذي هو خلاف الطول، والعرب تقول: (بلاد عريضة)، أي واسعة». تفسير غريب القرآن ص111. وراجع: البسيط ق63/ب.

[4] ذكره السمرقندي في بحر العلوم 246/1.

[5] **[صحيح لغيره]** أخرجه أحمد 416/24-419 (15655)، وأبو يعلى 170/3 (1597)، والطبري 54/6 بإسناد ضعيف من حديث التّنوخي رسولِ هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن هرقل كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا السؤال، فأجاب صلى الله عليه وسلم بهذه الإجابة.

المعارضة لإسقاط السؤال، أي كما أن الله ﷻ قادر على أي يخلق ضياء فيذهب بالليل الذي هو الظلمة، فكذلك هو قادر على أن يجعل للنار موضعًا عند أخذ الجنة عرض السماوات والأرض.

قولــه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

أوَّلُ هذه الآية نعت المتقين ومعناها: الذين يتصدقون في حال اليُسر والعُسر.

ويقال: في سرَّاء المسلمين: في عرسهم وولائمهم. وضرّائِهم: نوائبهم ومآتمهم، وفي حال إيثارهم على أنفسهم، وإن كان بهم خصاصة [1].

وذلك لأن الذي يدعو إلى الشحِّ بالمال أحد أمرين: إما السرور بالمال أو الخوف من قلة المال؛ فبين الله تعالى أن المتقين ينفقون على الدوام، لا تمنعهم قلة المال ولا كثرته عن الإنفاق.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، فمعناه: الذين يكفُّون غيظهم، يردّونه إلى أجوافهم. يقال: (كظم البعير على جِرَّته) إذا ردَّدها في حلقه فلم يجتر [2].

ويجوز أن يكون معنى الكظم الحبسَ والشدَّ. يقال: (كظمتُ القربةَ) إذا

وله شاهد من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «**أَرَأيتَ هذا الليلَ الذي قد كان ألبس عليك كلَّ شيء، أين جُعِلَ؟**» قال الرجل: الله أعلم! فقال ﷺ: «**فإنَّ الله يفعَلُ ما يشاء**». أخرجه ابن راهويه (437)، والبزار 224/16 (9380)، وابن حبان في صحيحه 306/1، والحاكم في المستدرك 36/1، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة ولَم يخرجاه»، ولَم يتعقّبه الذهبي.

[1] بحر العلوم 247/1.

[2] راجع: معاني القرآن للزجاج 469/1، وتهذيب اللغة 93/10 مادة «ك ظ م».

ملأتَها ثم شددتَ رأسها على الامتلاء[١].

والغيظ: هو انتقاض الطبع مما تكرهه، هكذا روي عن قتادة ﷺ[٢]. ولهذا لا يجوز الغيظ على الله تعالى، وإن كان يجوز عليه الغضب؛ لأن الغضب هو إرادة العقاب[٣].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فمعناه: الذين يعفون عن المذنبين من الأحرار والمملوكين.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **مَن كَظَمَ على غَيظٍ وهو يَقْدِرُ على أن يُنْفِذَه، فلم يُنْفِذْهُ، زَوَّجَهُ الله تعالى مِنَ الحور العِيْنِ حيثُ يَشَاء**»[٤].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «**مَا عَفَا رجلٌ عن مَظْلَمَةٍ قطُّ إلا زاده الله تعالى بها عِزًّا، ولا نَقَصَتْ صدقةٌ مِن مالٍ قطُّ، فتصدَّقوا، ولا فَتَحَ رجلٌ على نفسه بابَ مسألةٍ إلا فَتَحَ الله عليه بابَ فَقْرٍ. وإنَّ أَكْرَمَ الناسِ مَن أَعطَى مَن لا يَرجُوه، وأَوْصَلَ الناسِ من وَصَلَ من قَطَعَه، وأَعْظَمَ الناسِ عَفْوًا، مَن عَفَا عن قُدرَةٍ**»[٥].

---

[١] راجع: الطبري 58/6، والمفردات للراغب، وعمدة الحفّاظ للسمين، مادة « ك ظ م ».

[٢] لَم أجده.

[٣] تفسير الغضب بإرادة العقاب، من تأويلات الأشاعرة والماتريدية، كما في الرسالة إلى أهل الثغر للأشعري ص231، ومدارك التنزيل للنسفي الماتريدي 8/1. وهو تحريف لما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، كما أنه مخالف لمذهب السلف في إمرار نصوص الصفات على ظاهرها. راجع: العقيدة الطحاوية بشرح ابن أبي العز ص463-466.

[٤] **[حسن إن شاء الله]** أخرجه أحمد 398/24 (15637)، وأبو داود (الأدب/ باب من كظم غيظا/ ح4777)، والترمذي (البرّ والصلة/ باب في كظم الغيظ/ ح 2021)، من حديث معاذ بن أنس الجهني ﷺ مرفوعا بنحوه. وقال الترمذي:«هذا حديث حسن غريب».

[٥] **[صحيح لغيره دون قوله: وإنَّ أَكْرَمَ الناسِ ...الخ]** رُوي من حديث عبدالرحمن بن عوف ﷺ إلى قوله: «بابَ فقر»؛ أخرجه أحمد 208/3 (1674)، وأبو يعلى 159/2 (849) بإسناد فيه راوٍ لَم يُسمّ. وله شاهد من حديث أبي كبشة ﷺ بنحوه عند أحمد 561/29 (18031)، والترمذي (الزهد/ باب ما جاء: مَثَلُ الدنيا مثل أربعةِ نفر/232/5)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». ويشهد لبعضه حديثُ أبي هريرة ﷺ عند مسلم (البر والصلة/ باب

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فمعناه: يُثني على المحسنين إلى الناس، ويرضى عملهم[(١)].

وقد رُوي عن عيسى ﵇ أنه قال: «**ليسَ الإحسانُ أن تُحسنَ إلى مَن أحسن إليك، ذاك مكافأة، وإنما الإحسان أن تحسن إلى مَن أَسَاءَ إليك**»[(٢)].

وبالله التوفيق.

قولــه ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

متصلٌ بقوله ﷻ: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾، وقولُه ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ عارض دخل بين كلامين.

ويقال: قوله ﷻ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾ كلام مبتدأ، جوابه ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم ﴾.

وعن عبدالله بن عباس ﵄ أنه قال في تفسير هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ آخى بين رجلين مسلمَين، أنصاريٍّ وثقفيٍّ، فخرج الثقفي

استحباب العفو/ ح2588) بلفظ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِن مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا**»، وكذا حديثه ﵁ عند أحمد 246/15 (9421)، وابن حبان 182/8 (3387) بلفظ: «**لا يَفتَحُ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ، إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ**».

وأما قوله: «**وإن أكرم الناس...**»، فلم يُروَ مرفوعا. وإنما هو من كلام الأمير خالدبن عبدالله القَسْري في خطبة له بواسط. راجع: تاريخ دمشق141/16، وسير أعلام النبلاء426/5.

(١) وهذا تأويل، بل تحريف لمعنى المحبة، وإنكارٌ لكون الله تعالى يحبّ عبدَه محبةً حقيقيّةً. وقد سبق الكلام عليه عند التعليق على تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ ﴾ الآية [31].

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص74، وابنه عبدالله في زوائده عليه ص116، عن الشعبي، قال: كان عيسى ابن مريم ﵇ يقول ... فذكره.

بالقرعة مع رسول الله ﷺ، وكان الأنصاري يتعهّد أهلَ الثقفي، فيقوم على الباب فيسألهم عن حاجتهم فإن كانت لهم حاجة عمل لها، وإلا انصرف / فأقبل يومًا فأبصر امرأةَ صاحبِهِ قد اغتسلت وهي ناشرة شعرها، فوقع حبُّها في نفسه، فدخل كما هو عليها حتى انتهى إليها، فوضعتْ كفَّها على وجهها، فقبَّل ظاهرَ كفِّها، ثم ندم واستحْيى وأدبر وقال: لا أجد لتوبتي من معصيتي إلا أن أَسِيحَ في الجبال أتوب وأتعبَّد، وخرج يسيح في الجبال، فلما رجع المسلمون من غزاتهم لم يَرَ الثقفي أخاه، فأخبرته امرأته بفعله، فخرج الثقفي في طلبه يسأل عنه في الرعاة والجبال والفيافي حتى دُلَّ عليه، فوافقه ساجدًا وهو يقول: رب ذنبي ذنبي، فقال: يا فلان، قم فانطلِقْ إلى رسول الله ﷺ لعل الله ﷻ يجعل لك مخرجا. فأقبل معه حتى قدم المدينة، فسأل أصحابَ رسول الله ﷺ، فقالوا: لا توبة لك! أما تعلم أن الله ﷻ يغار للغازي في سبيله ما لا يغار للسوقي الجالس في بيته؟ فقام على باب النبيﷺ، فهتف: يا رسول الله ﷺ المذنب المذنب! فأذن له، فدخل فسأل، فرَدَّ – عليه الصلاة والسلام – مثلَ ما رد أصحابه ﷺ. فخرج يسيح في الجبال، لا يمر على حجر، ولا مَدَرٍ، ولا سَهلةٍ حارةٍ، إلا تجرَّد يتمرَّغ عليه، حتى إذا كان ذات يوم عند العصر نزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بتوبته، فتلا هذه الآية[1].

معناها: والذين إذا فعلوا كبيرةً، أو ظلموا أنفسهم بفعل الصغيرة مثل النظرة واللمس والغمز والتقبيل، ذكروا مقامهم بين يدي الله ﷻ ورسولِهِ ﷺ، وعقابَه[2].

---

[1] **[موضوع]** هذه القصة لَم تُروَ إلا من رواية المتّهم محمد بن السائب الكلبي. راجع: الكشف والبيان 168/3، وأسباب النـزول للواحدي ص252-253، والعجاب 757/2-758.

[2] أي ذكروا مقامهم بين يدي الله ﷻ في الآخرة، وبين يدي النبي ﷺ في الدنيا إذا عَلِمَ صنيعهم. وهذا المعنى خاصّ بفترة حياتهﷺ مثل قوله تعالى:﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[النساء/64].

ويقال: معنى ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: ذكروا اسمَ الله تعالى، فقالوا: (رَبَّنَا ظَلَمْنا أنفُسَنَا فَاغْفِر لنا)[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، معناه: ليس أحد يقدر على أن يغفر الذنوب إلا الله ﷻ. وهذا عارض دخل بين كلامين، ذكره الله ﷻ على وجه التنبيه لتشتد الرغبة في طلب المغفرة من جهة الله ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾، معناه: ولَم يقيموا على ما فعلوا من المعصية، أي ندموا عليها، فإن الاستغفار باللسان من غير ندامة القلب توبةُ الكذابين.

ومعنى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أي يعلمون أنها معصيةٌ لله ﷻ، فإنهم إذا لَم يعلموا أنها خطيئة كان إثمها موضوعًا عنهم، وهذا مثل أن يتزوج أُمَّه أو أختَه من الرضاعة وهو لا يعلم ذلك، أو اشترى جارية فيقربها ثم تُستَحَقُّ الجاريةُ[2]، كان إثم ذلك موضوعا عنه.

قوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

معناه: أهلُ هذه الصفة ثوابُهم سَترٌ من ربهم لذنوبهم، وحطُّ العقاب عنهم، وبساتينُ تجري من تحت شجرها وغُرَفِها الأنهار، مقيمين دائمين فيها؛ ونعم أجر التائبين في التوبة، فوضع عنهم ما كان مكتوبا على بني إسرائيل، فإنه كان إذا أذنب أحدهم يرى توبته مكتوبة على بابه: (اجْدَعْ أنفَك) أو (اجدع أُذنَك)[3]، فوضع ذلك عن هذه الأمة واكتفى منهم بالندم والاستغفار.

---

[1] بنحوه قال مقاتل بن حيّان كما في البسيط 64/ب، ومعالِم التنزيل 107/2.

[2] أي يتبيّن له أنها مُستَحَقَّة أي مملوكة للغير، كأن يكون البائع باعها وهو لا يملكها.

[3] رُوي ذلك عن ابن مسعود ﷺ، وعطاء بن أبي رباح. راجع: الطبري 62/6-63، وابن المنذر 379/1، و386.

قولــه ﷻ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

معناه: قد مضت مِن قبلكم سننٌ، وهي الطرائق في الخير والشر[1].

ويقال: معناه قد مضت من قبلكم سنن الهلاك في المكذبين لرُسُلِنا - صلوات الله عليهم -[2]، فسافِرُوا في الأرض، فانظروا كيف صار آخر المكذبين بالرسل والكتب، أي اتّعظوا بالآثار التي بقيت منهم في الأرض مثل ديارِ قومِ لوطٍ، وعادٍ، وسبأ، وغيرهم.

وقال بعضهم[3]: أراد بالسير في الأرض قراءةَ القرآن، أي اقرءوا القرآن فاعتبروا بما فيه، وتفكروا إلى ما صار عاقبة المكذبين، فإنَّ من قرأ القرآن فكأنه سافر في الأرض.

قولــه ﷻ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

معناه: هذا القرآن بيان للناس من الضلالة، وهدى من العَمى، ونهيٌ للمتقين من الفواحش.

والبيان في اللغة: كل ما يظهر به المعنى للمتقين. والهدى: بيان طريق الرشد دون طريق الغي. والموعظة: ما يدعو إلى فعل الحسنة من ترغيب أو ترهيب[4].

---

(١) قاله مجاهد، ولفظه: « ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ من الكفّار والمؤمنين، في الخير والشرّ ». أخرجه الطبري 72/6، وابن المنذر 389/1، وابن أبي حاتم 768/3.

(٢) هذا قول ابن إسحاق، كما في سيرة ابن هشام 109/2-110، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم 768/3. وكذا قال مقاتل في تفسيره 193/1. ونسبه ابن عادل إلى أكثر المفسرين. اللباب 549/5.

(٣) لَم أهتد إليه.

(٤) راجع: الطبري 75/6.

وتخصيص المتقين في الآية لأن فائدةَ الهدى والبيان راجعةٌ إليهم.

قولـــه ﷻ: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ ﴾

عائد إلى ما تقدم ذكرُه من حديث حربِ / أُحُدٍ. ومعناه: لا تُضعفوا عن قتال عدوّكم، ولا تحزنوا على ما أصابكم من القتل والهزيمة، وأنتم الأعلون في الحجَّة – ويقال: أنتم الغالبون في العاقبة [1] – إن كنتم مصدقين بوعد الله ﷻ بالنصر.

قال بعض المفسرين: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ، ما خرجوا على عهده في عسكر إلا ظفروا، أو ما خرج واحد منهم بعد النبي ﷺ إلا ظفر[2].

وقال بعضهم: هذا خطاب لعامة المؤمنين، معناه: أن صفة المؤمن المخلِص أن يَثِق بالله ﷻ ثقةَ مَن يعلمُ نصرَه إياه وحِفظَه له، ولا يَثِقُ المؤمنون هذه الثقةَ ولا يَثْـــبُتون إلا وينصرهم الله ﷻ كما نصرهم يومَ بدرٍ وفي مواطنَ كثيرةٍ.

ويقال: إن قوله ﷻ: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ متصل بقوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾، وقولُه: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ اعتراض بين الكلامين بوعد مؤكد[3].

---

[1] قاله ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام110/2، والطبري 79/6، وغيرهما. وهو الأنسب للسياق، فإن القوم انكسرت قلوبهم بسبب ما أصابهم، فكانوا «محتاجين إلى ما يفيدهم قوةً في القلب، وفَرَحًا في النفس، فبشرهم الله تعالى بذلك ». مفاتيح الغيب للرازي14/9.

[2] قاله السمرقندي وزاد: «... فهذه البلدان كلها إنما فتحت في عهد أصحاب رسول الله ﷺ، ثم بعد انقراضهم ما فتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتحون في ذلك الوقت». بحر العلوم 249/1.

[3] راجع: البسيط للواحدي ق66/أ.

قولــه ﷻ: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

ومعنى الآية – والله تعالى أعلم – : إن يمسسكم قرح مِن حربِ أُحُدٍ، فقد مسَّ القومَ – أهلَ مكة – قرحٌ مثله. وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابَه كانوا قَتلوا يومَ بدرٍ من المشركين سبعين، وأَسَرُوا سبعين، وقُتِل يومَ أُحُدٍ من أصحاب النبي ﷺ سبعون، وجُرِحَ سبعون[1].

ويجوز أن يكون المرادُ بالمثل في الآية المماثلةَ في أصل الـــمَسِّ، لا في صفات الفعل.

وأما القراءة في القرح بنصب القاف وضمّها[2]، فهما لغتان، ومعناهما واحد[3]، وهو الجراحة وأَلَمُها. يقال: (قُرِحَ الرجل) إذا جُرِحَ. وقال بعض أهل اللغة: القَرح بالنصب عينُ الجراحة، وبالضم أَلَمُها[4].

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾، فمعناه: تلك الأيام نُصرِّفها بين الناس، فنجعلها تارة لفريق وتارة عليهم.

والدولة: هي الكَرَّةُ لفريقٍ بِنَيل المراد، ومن ذلك يقال: (الأَيّام دُوَل).

ثم بين الله ﷻ المعنى الذي لأجله يداول الأيام بين المؤمنين والكفار، فقال

---

(1) قتل سبعين من المشركين في بدرٍ وأسر سبعين، واستشهاد سبعين من الصحابة في أُحُدٍ، متّفق عليه بين أهل السير. وهو في صحيح البخاري (المغازي/10) باب/ ح3986) من حديث البراء بن العازب ﭬ. وأما ما ذكره من جرح سبعين من الصحابة ﭫ، فلم أجد من ذكره.

(2) قرأ الكوفيّون عدا حفصًا عن عاصم بضمّ القاف، وقرأ الباقون بنصبها. راجع: المبسوط ص147، والروضة 594/2، والنشر 242/2.

(3) كذا قال الكسائي، والأخفش، والزجاج، وأبو علي الفارسي، والأكثرون. راجع: معاني القرآن للنحاس 481/1، والحجة لابن زنجلة ص174، ومعاني القرآن للأخفش 421/1، وللزجاج 470/1، والحجة للفارسي 385/2، والكشف عن وجوه القراءات 356/1.

(4) هو قول الفراء في معاني القرآن 234/1، وتبعه عليه الطبري في تفسيره 79/6-80.

- عز من قائل- : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، ومعناه: ليرى من يقيم على الإيمان ممن لا يقيم، فيظهرَ المؤمنُ المخلص والذي في قلبه مرض.

وقال الزجاج: معناه ليعلم الله تعالى عِلْمَ مشاهدة بعد ما كان علمُه علمَ غيبٍ، لأن العلم الذي عَلِمَه الله ﷻ قبل وقوع الشيء لا يجب به المجازاة ما لَم يقع[1]. وإذا وقع هذا العلم كان التغيير حاصلا في المعلوم، لا في العلم ولا في العالِم، كما أن أحدنا يعلم الغد قبل مجيئه، ثم إذا جاء فإنما يعلمه اليوم، ثم إذا انقضى فإنما يعلمه أمس، ويكون التغيير حاصلا في المعلوم، لا في العلم[2].

وأما الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، فلأنه عطفٌ على خبرٍ محذوفٍ تقديره: وتلك الأيام نداولها بين الناس لضروب من التدبير وليعلم الله تعالى المؤمنين متميزين من المنافقين[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾، فمعناه: ولكي يتخذ منكم شهداءَ يُكرمهم بالشهادة. قال بعضهم: معناه ويجعلَكم شهداءَ على الناس على معاصيهم لإجلالكم وتعظيمكم[4].

ثم قال - عز من قائل- : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي لا يفعل الله

---

[1] معاني القرآن 471/1 بمعناه.

[2] هذا الإطلاق بعدم «التغيير» فيه نظر، فإن العالِم يتجدّد لديه عند حصول الشيءِ علمٌ لَم يكن له قبل ذلك، إذ العلم بالشيء موجودا ليس هو العلمَ السابقَ بأنه سيوجد. وهذا التجدّد- أو التغيير كما سمّاه المؤلف- في العلم بالشيء من أنه سيقع إلى كونه قد وقع = أمرٌ دلّت عليه النصوص، وأثبته السلف وأئمة السنّة. راجع: مجموع الفتاوى لابن تيمية 496/8.

[3] وقال الزمخشري موضّحًا هذا المعنى : « وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ... وليبصِّرهم أن العبد يسوءه ما يجري عليه من المصائب، ولا يشعر أنّ لله في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه». الكشاف 447/1.

[4] هذا القول، نسبه الطوسي في التبيان 602/2 إلى أبي القاسم البلخي وأبي علي الجبّائي المعتزليَّين. وهو قولٌ مخالف للسياق، وللتفسير المأثور عن السلف، فإن المروي عن ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن إسحاق، وغيرهم، هو القول الأول. راجع: الطبري 87/6-88، وابن المنذر 397/1-398، ابن أبي حاتم 773/3-774.

تعالى ذلك لحب الظالمين، فإنه لا يحب الظالمين. وفي هذا بيان أن الله ﷻ لا يَنصر الكفار على المسلمين، إذا النصرة تدل على المحبة، والله ﷻ لا يحب الكفار، ولكن قد ينصر المسلمين في بعض الأوقات على الكفار، وفي بعض الأوقات يَكِلِ المسلمين إلى حَولهم وقُوَّتهم لذنبٍ كان حصل منهم.

وإنما جعل الله تعالى الدنيا مُتقلِّبَة لكي لا يطمئن مسلم إليها لتقلُّبها، ولكي يسعى للآخرة التي تكون نعيمها إلى الأبد.

قوله ﷻ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾

معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾. معناه: وليمحص الله المؤمنين من الذنوب. يقال: (مَحَصْتُ الشيءَ، أمحَصُه، مَحْصًا) إذا أخلصتَه من العيب. و(مَحِصَ الحبلُ، يمحَص محصًا) إذا ذهب عنه الوبر لكَدِّ العمل فصار أملص. وحبلٌ مَحِصٌ، ومَلِصٌ، وأمْلَص، بمعنى واحد[1].

ومعنى ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي يهلكهم لأنهم يجترؤون فيخرجون للحرب مرة أخرى فيستأصلهم، وهذا تأويل مداولة الأيام. والله أعلم.

قوله ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

معناه: أظننتم معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة ولـمَّا يعلم الله ﷻ جهادَ المجاهدين ولا صبرَ الصابرين واقعًا منكم مشاهدةً؟ وهذا / استفهام بمعنى الإنكار لظنهم وحُسبانهم.

وقد يقول الرجل في شيء يعاتَب عليه: (لَمْ يعلمِ الله تعالى ذلك مني!)

---

[1] راجع: معاني القرآن للزجاج 471/1، وتهذيب اللغة 159/4، مادة «م ح ص».

يريد أنني لَم أفعلْه. وقول الرجل: (لَمَّا يفعلْ) معناه لَم يفعل، انضمَّ إليه حرف «ما»[1]. وأما في جواب المستقبل، فيقال: (لن يفعلَ) و(لا يفعلُ)[2].

وقرأ الحسن رضي الله عنه: ﴿ويَعلَمِ الصَّابِرِين﴾ بالكسر عطفا على قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾[3].

وأما قراءة النصب، فهي نصبٌ على الصرفِ، صرفِ آخر الكلام عن أوله على تقدير: وأن يعلمَ الصابرين، وهذا قول الكوفيين[4]؛ وأما البصريون، فيسمّونه نصبًا على الجمع، وهذا كما قال الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثله ... عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ[5]

أي لا يكن منك النهيُ عن خلقٍ مع إتيانك مثلَه. ويقال: (لا تأكل السمك وتشربَ اللبن) أي لا يكن منك الجمع بينهما.

قولـــه عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ

---

[1] قال الزمخشري: «... وهي (لَم) ضُمَّت إليها (ما)، فازدادت في معناها أن تضمنت معنى التوقع والإنتظارِ، واستطالَ زمانُ فِعلها ». المفصل في العربية ص311.

[2] راجع: الكتاب لسيبويه 117/3، ومعاني القرآن للزجاج 473/1.

[3] راجع: الطبري 92/6، والشواذ لابن خالويه ص22، وإعراب القرآن للنحاس ص220.

[4] قلتُ: الكوفيون لا يُقدّرون (أنْ) المصدرية الناصبة، كما يوهم كلام المؤلف، وإنما يجعلون الناصبَ هو نفسُ مخالفةِ الفعل الثاني للأول، وصرفِهِ عن العطف عليه. والبصريون هم الذين يقدّرون (أن) بعد واو الجمع. راجع: معاني القرآن للفراء 235/1، والطبري 92/6، وإعراب القرآن للنحاس ص220، والبسيط للواحدي ق 68/أ، والإنصاف في مسائل الخلاف 107/2، والدر المصون 411/3.

[5] البيت منسوب للمتوكل الليثي الكناني في الجمل للفراهيدي ص96، والأمثال لأبي عبيد ص74؛ وللأخطل في الكتاب لسيبويه 42/3؛ ورجحّ البغدادي في خزانة الأدب 564/8، الشاهد (671)، أنه لأبي الأسود الدؤلي.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾

قال عبدالله بن عباس: وذلك أنه لما أخبرهم الله ﷻ على لسان نبيه ﷺ ما فُعل بشهدائهم يومَ بدرٍ من الكرامة والثواب في الجنة، رغبوا في ذلك وقالوا: اللهم أرنا قتالاً لعلّنا نُستَشهد به، فنلحق بإخواننا في الجنة، فأراهم الله ﷻ ذلك يومَ أُحُد فلم يثبتوا مع نبيهم ﷺ وانهزموا إلا من شاء الله تعالى منهم مِمَّن ثبت مع رسول الله ﷺ، فقُتل بعضهم وجُرح بعضهم، فأنزل الله ﷻ هذه الآية[١].

ومعناها: ولقد كنتم تمنون الموتَ بعدَ وقعة بدرٍ من قبل أن تنظروا إليه يومَ أُحُد، فقد رأيتموه يومئذ وأنتم تنظرون إلى السيوف فيها الموت. وهذا تعيير لهم بفشلهم عند الحرب مع صدق رغبتهم في الشهادة.

وذكر الزجاج أن معنى ﴿تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾: تمنون القتال الذي هو سبب الموت، قال: ومعنى ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وأنتم بُصَراء، كما يقال: (رأيتُ كذا وكذا)، وإن لَم يكن[٢] في عينك علَّة[٣]، واستدل على هذا[٤] بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ إلى آخر الآية[٥].

قوله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم 776/3 بالإسناد المسلسل بالعَوفيين الضعفاء. ولكن قد صحّ نحو ذلك عن مجاهد، وقتادة، وابن إسحاق، والسدي. راجع: الطبري 94/6-96.

(٢) كذا في الأصل، والصواب: «وليس» كما في معاني القرآن 473/1، والبسيط ق 68/ب، وزاد المسير 468/1.

(٣) تتمّة كلام الزجاج: «أي: قد رأيتَه رؤية حقيقيَّة، وهو راجع إلى معنى التوكيد».

(٤) أي على أن ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ في هذه الآية بمعنى القتال الذي هو سبب الموت.

(٥) الآية (77) من سورة النساء، والشاهد فيها الآية: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ فإنه يدلّ على الصحابة ﷺ إنما كانوا يتمنّون أن يُطلقَ لهم القتال. راجع: معاني القرآن 473/1.

﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

نزلت هذه الآية جوابًا لعذر المعتذرين من المنهزمين يومَ أُحُد: سمعنا صوتًا: إنَّ محمدًا ﷺ قد قُتل، فلذلك انهزمْنا! وذلك أن مُصعبَ بنَ عمير كان يَذُبُّ عن رسول الله ﷺ، فلما قُتِلَ ظَنَّ قاتِلُه أنه قتل النبيَّ ﷺ، فنادى: قتلتُ محمدا ﷺ![1]. ويقال: إن إبليس- لعنه الله- نادى في الناس بذلك[2].

ومعنى الآية: وما محمد ﷺ إلا كمن تقدَّمه من الرسل - صلوات الله عليهم -، قُتِلَ بعضُهم، ومات بعضهم، أفإن مات محمد ﷺ أو قُتل في طاعة الله تعالى، رجعتم إلى دينكم الكفرِ، وقلتم: لو كان نبيا لما قُتل؟! وفي هذا توبيخ لمن يترك القتال على الدين، وبيانٌ أن الأنبياء عليهم السلام لا يَبقَون أبد الدهر.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، معناه: من يرجع إلى دينه الشركِ فلن يَنقُص مِن ملك الله تعالى وسلطانه شيئًا، وإنما يضرُّ نفسه، وسيجزي الله المؤمنين المجاهدين.

وإنما سَمَّى الارتدادَ انقلابًا على سبحانه وتعالى العقب لأن الردّة رجوعٌ إلى أقبح الأديان، كما أن الانقلاب على العقب قهقرى أقبحُ ما يكون في المشي

---

[1] رواه إمام المغازي ابن إسحاق في سياقه لأحداث الغزوة عن أشياخه من التابعين. راجع: سيرة ابن هشام 73/2، والطبري 153/6-154.

[2] قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما في خبره الطويل عن غزوة أُحُد، أخرجه أحمد 368/4-370 (2609)، وابن المنذر 439/2-440، وابن أبي حاتم 787/3، والحاكم في المستدرك 296/2، وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ». ورُوي عن الزهري نحوه مرسلا عند عبد الرزاق في تفسيره 417/1-418.

والتنكيل بالنفس[١].

وسمّى المطيعَ شاكرًا لأن الطاعاتِ كلَّها شكرٌ لله ﷻ على نِعَمه.

قولـــه ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

معناه: ما كانت نفسٌ لتموت إلا بأمر الله تعالى، كتب الله ﷻ كتابا إلى أجلٍ لِرزقه وعمره. وفي هذا تحريض للمؤمنين على القتال، أي لا تتركوا الجهاد خشيةَ الموت والقتل، فإنهم لن يملكوا قتلكم، وإنما هو من إذن الله تعالى لملَكِ الموت في قبض الأرواح عند انتهاء الآجال. والأجل: الوقت المعلوم.

وقوله ﷻ: ﴿ كِتَٰبًا ﴾ مصدر منصوب يدل على فعل محذوف سابق [٢]، ومثله من التوكيد قوله ﷻ: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [٣] بعد قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[٤].

ومعنى ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾: من يرد بعمله الـــمِدحَةَ والرياء لا يُحرَم حظَّه المقسومَ له في الدنيا من غير / أن يكون له حظٌّ في الآخرة. وقد

---

[١] البسيط للواحدي 69/أ.

[٢] والتقدير: «كتب الله ذلك كتاباً»، وهو مؤكد لمضمون جملة: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

[٣] جزء من الآية (24) من سورة النساء.

[٤] جزء من الآية (88) من سورة النمل. وهو مؤكِّد لعجيب صُنْعه تعالى المذكور قبلَه في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾. راجع: الكتاب لسيبويه 381/1-382، والطبري 107/6، ومعاني القرآن للزجاج 474/1، والدر المصون 419/3.

فسره الله ﷻ في آية أخرى، وهي قوله ﷻ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾[١].

ويقال: معنى هذه الآية: من أراد بالجهاد ثوابَ الدنيا لَم يُحرَم حظَّه من الغنيمة[٢].

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾، فمعناه: ومن يُرد بعمله ثواب الآخرة، نعطه منها مع ما يُقسم له من الرزق في الدنيا.

ومعنى ﴿ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾: سنجزي المطيعين. قال بعضهم: يجزيهم الجنة في الآخرة، وقال بعضهم: لا يحرمهم الدنيا بإرادهم ثوابَ الآخرة [٣]، كما قال ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ ﴾[٤].

قوله ﷻ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ ﴾

معناه: كم من نبيٍّ قاتل معه جماعات كثيرة فما فتروا فيما بينهم لما أصابهم في طاعة الله، وما جبُنوا عن قتال عدوهم، وما خضعوا لعدوّهم؛ والله يرضى عمل الصابرين على قتال عدوّهم لدين الإسلام.

وفي ﴿ كأين ﴾ ثلاثُ لغات: ﴿ كَأَيِّن ﴾ بتشديد الياء على وزن «كعَيِّنْ»، و﴿ كَائِن ﴾ على وزن «كَاعٍ»[٥]، و﴿ كَإِنْ ﴾ على وزن

---

[١] جزء من الآية (18) من سورة الإسراء.

[٢] ذكره الماوردي في النكت والعيون 428/1 عن « بعض البصريين »، ونسبه الطوسي في التبيان 9/3 لأبي علي الجبائي البصري.

[٣] بنحوه قال ابن إسحاق. راجع: سيرة ابن هشام 112/2، وتفسير الطبري 109/6.

[٤] جزء من الآية (20) من سورة الشورى.

[٥] قرأ بهذه اللغة، ابنُ كثير وأبو جعفر، إلا أن أبا جعفر يسهّل الهمز بعد الألف . وقراءة الباقين

«كَعٍ»[1].

وأصل هذه الكلمة كاف التشبيه و «أيّ» للاستفهام و «إِن» للشرط[2]، وحروف الأفراد تؤدّي معاني، فإذا رُكِّبَت أَدَّت معاني بخلاف الأول، وهذا مثل (لولا) و(لوما) و(هلاّ)، كلمات تقتضي التحريضَ عند التركيب، وكانت قبل التركيب تؤذي غيرَ ذلك المعنى.

وفي ﴿قَـٰتَلَ﴾ ثلاث قراءات: ﴿قَـٰتَلَ﴾ على معنى: قاتل النبي ﷺ ومعه ربيون؛ **والثاني:** ﴿قُتِلَ﴾[3] على معنى: قُتِل النبي ﷺ، ويُوقَف عليه؛ **والثالث:** ﴿قُتِلَ﴾ بغير وقفٍ عليه، على معنى: قُتِلَ معه الربيون لمجاهدتهم معه[4].

قال الحسن رضي الله عنه: لَم يُقتل أحدٌ من الأنبياء - صلوات الله عليهم- قطُّ في معركةٍ[5].

هي على اللغة الأولى: ﴿كَأَيِّن﴾. راجع: المبسوط ص 147، والروضة 2/594-595، والنشر 2/242.

[1] قُرئ بهذه اللغة في قراءة شاذّةٍ تُنسب إلى ابن محيصن. راجع: المحرر الوجيز 3/251، والقرطبي 5/350، والبحر المحيط 3/368.

[2] لَم أجد من جعل« كَأَيِّن » مركّبا من ثلاثة حروف. وإنما جعلوه مركّبا من حرفين: كاف التشبيه، و«أيٍّ». راجع: المفصّل للزمخشري ص 169، المحرر الوجيز 3/251، البسيط للواحدي69/ب، القرطبي5/349، البحرالمحيط3/368، القاموس مادة«أ ي ي».

[3] هذه قراءة نافع، وابن كثير، والبصريِّين (أبي عمرو، ويعقوب). وقرأ الباقون: ﴿قَـٰتَلَ﴾ بالألف. راجع: المبسوط ص148، والروضة 2/595، والنشر 2/242.

[4] راجع: الإيضاح في الوقف والابتداء 2/585-587، والتذكرة لابن غلبون 2/363.

[5] لَم أجده مُسندا عنه. وقد عزاه إليه الماوردي في النكت والعيون 1/428، وابن عطية في المحرر الوجيز 3/254، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن 5/351، وغيرهم.

تنبيه: تحرّف قول الحسن في المطبوع من النكت والعيون إلى«ما قتل نبي قط**إلا** في معركة»!

ولو وُقف على ﴿قُتِلَ﴾ لأَدَّى إلى أن نبيًّا قُتل في معركة؛ وعلى هذا [1] يكون معنى ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾: ما وهن من بقي منهم، وهذا كما يقول الرجل: (قُتِلْنا وسُلِبْنا)، وهو لَم يُقتل، وإنما يريد بذلك: قُتِل قومُه.

وأما ﴿رِبِّيُّونَ﴾، فهو جمع رِبَّةٍ[2]، والرِبَّةُ الواحدةُ عشرةُ آلاف.

ويقال: هو جمع رِبِّيٍّ، وهو العالِم التقي الصابر [3]، منسوب إلى الرب جل وعز[4]، كما يقال: (إلهيٌّ)؛ وأما كسر الراء، فكما يقال للمنسوب إلى أَمس: (إِمْسيّ) بكسر الهمزة، وكما يقال للمنسوب إلى الدهر: (دُهريّ) بضم الدال.

والوهْن: انكسار الجِدّ بالخوف ونحوه. والضعف: نقصان قوة البدن. والاستكانة: الخضوع وإظهار الضعف وهي افتعال من السكون[5].

قولــه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾

حكاية قول الربِّــيين من إتباع النبيين - صلوات الله عليهم- المتقدمين. ومعناه: ما كان قولهم عند قتالهم عدوَّهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا الصغائر والكبائر.

ومعنى الإسراف في اللغة: مجاوزة الحد بارتكاب الذنوب العظام.

---

[1] أي على ما سبق مِن أنه لَم يُقتل أحدٌ من الأنبياء في معركة، وإنما الذي قُتل هم الربّيون.

[2] قلتُ: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ ليس جمعا للربَّة، وإنما منسوب إليه، واحِده (رِبِيٌّ) بياء النسبة. راجع: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص113، وتهذيب اللغة 129/15-130«رب ب».

[3] هكذا فسّره الحسن البصري. راجع: الطبري 113/6-115، وابن أبي حاتم 781/3.

[4] راجع: معاني القرآن للأخفش 423/1.

[5] راجع: النكت والعيون 428/1، والبسيط ق70/ب، والقرطبي 353/5.

ومعنى ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾: ثـبّتها للقتال بتقوية قلوبنا، وأَعِنَّا على القوم الكافرين بإلقاء الرُّعب في قلوبهم.

أي هلاّ قُلتم أيها المؤمنون كما قال الربِّـيُّون، وهلاّ قاتلتم كما قاتلوا ؟!

ويُقرأ: ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ في أول هذه الآية بالرفع[1]، على تقدير أنه اسم كان، والخبر ما بعد ﴿إِلَّآ﴾؛ والأكثر في الكلام أن يكون الاسم ما بعد (إلا)، فينتصب ﴿قَوۡلَهُمۡ﴾ للخبر كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾[2]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾[3]، ونحو ذلك[4].

قولــه ﷻ: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾

معناه: فأعطاهم الله النصر والفتح والثناء الحسن في الدنيا والجنة في الآخرة؛ والله يحب المؤمنين المجاهدين.

وفي الآية دلالة أنه قد يجوز اجتماع الدنيا والآخرة لواحد. وعن علي - كرم الله وجهه - أنه قال: «**من عمل لدنياه أَضَرَّ بآخرته، ومن عَمِلَ لآخرته أَضَرَّ بدنياه، وقد يجمعهما الله لأقوام**»[5].

---

(1) هي قراءة شاذة، تُنسب إلى الحسن، وعبد الله بن أبي إسحاق، وإلى ابن كثير برواية حماد بن سلمة عنه. راجع: الشواذ ص23، إعراب القرآن للنحاس ص 221، شواذ القراءات للكرماني ق26/ب، الإتحاف ص229.

(2) جزء من الآية (56) من سورة النمل، وكذا من الآيتين(24)، و(29) من سورة العنكبوت.

(3) جزء من الآية (25) من سورة الجاثية.

(4) راجع: معاني القرآن للفراء 237/1، والطبري 122/6، ومعاني القرآن للزجاج 477/1.

(5) ذكره الجصاص في أحكام القرآن 57/2، ولَم أجده مسندا إليه ﷺ.

قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ ﴾

معناه: إن تطيعوا اليهود والنصارى فيما يقولون لكم: «إن محمدا ﷺ لو كان حقًّا لما ظهر عليه المشركون»، يصرفوكم إلى دين الشرك، فتنصرفوا مغبونين إلى دينكم الأول.

قوله ﷻ: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠ ﴾

معناه: بل الله وَلِيُّكم وناصركم، وهو خير المانعين من الكفار لأَنَّ أحدًا لا يقدر أن ينصركم كنصره، ولا أن يدفع كدفاعه، وعند / نصره لا يؤثر فعلُ غيرِه.

ومن قرأ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ ﴾ بنصب الهاء[1]، فعلى معنى: بل أطيعوا الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١ ﴾

بشارة من الله ﷻ بإسكان الرعب في قلوب الكفرة بعد وقعة أُحُد.

ومعنى الآية: ﴿سَنُلۡقِي﴾ سنقذف، ﴿ فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ﴾: المخافَةَ، عقوبةً لهم بإشراكهم بالله شيئا لَم يترل الله به كتابا فيه عذرٌ وحجة لهم، ومصيرهم في الآخرة النارُ، وبئس مقام الظالمين النار في الآخرة.

وأصل السلطان: القوة، وسلطانُ الملِك: قوَّتُه، والتسليط على الشيء:

[1] هي قراءة شاذة، نُسبت إلى الحسن، كما في المحرر الوجيز 3/259، والبحر المحيط 3/376.

التقوية عليه. وإنما سُميت الحجة سلطانًا لقوّتها على قمع الباطل وقهر المبطل[1].

وأصل الكلمة في ﴿ٱلرُّعُبَ﴾ بضم العين، إلا أن أكثر القراء يقرؤون بتسكين العين لاستثقال الضمّتين[2].

وفي الآية دلالةُ صحة نبوةِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ؛ لأنه أخبر بإلقاء الرعب في قلوب المشركين فكان كما أخبر، كما رُوي في الخبر أن أبا سفيان صعد جبلا يومَ أُحُدٍ ينادي: اعْلُ هُبَل! اعْلُ هُبَل! فاستأذن عمرُ النبيَّ ﷺ في أن يُجاوبه، فأذن له، فنادى عمر رضي الله عنه: بل الله أعلى وأجل! فقال أبو سفيان: يومٌ بيومٍ، وحنظلة بحنظلة![3] فقال عمر: لا بواء[4]، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: نشدتُك يا ابن الخطاب! أمحمد ﷺ في الأحياء؟ فقال عمر: إي والله! يسمع كلامك، فقال أبو سفيان: أين الموعد؟ يعني نتحارب بعد هذا، فقال النبي ﷺ: «**قل: ببدر الصغرى**»[5][6].

---

[1] راجع: أحكام القرآن للجصاص 57/2، ومقاييس اللغة، والمفردات مادة « س ل ط».

[2] قرأ أبو جعفر، وابن عامر، والكسائي، ويعقوب بضم العين، والباقون بالسكون. راجع: المبسوط ص148، والروضة 596/2، والنشر 216/2.

[3] فسّره السدي في روايته، فقال: «وَقَتَلُوا [أي المشركون] يَومَئِذٍ حَنظَلَةَ بنَ الرَّاهِب، وَكَانَ جُنُبًا فَغَسَّلَتْهُ الملائكةُ، وكان حَنظَلَةُ بنُ أَبِي سُفيَانَ قُتِلَ يَومَ بَدرٍ».

[4] كتب في الهامش: «لا بواء أي لا سواء». راجع: تهذيب اللغة 428/15 « ب و ء». ولكنّ الروايات كلها وردت بالسين: لا سواء.

[5] في جميع الروايات التي وقفتُ عليها، أبو سفيان هو الذي حدّد مكانَ الالتقاء للفريقين فوافق النبي ﷺ على ذلك قائلا: «**عَسَى**»، وفي رواية ابن إسحاق: أَمَرَ ﷺ أحد أصحابه أن يجيبه بـــ « نعم ».

[6] **[حسن بنحوه]** أخرجه بنحوه أحمد 368/4 (2609)، وابن المنذر 439/2، وابن أبي حاتم 786/3، وحاكم في المستدرك 296/2، من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما بإسناد حسن، دون قوله: «حنظلة بحنظلة»، ودون ذكر المواعدة باللقاء ببدر. فالأول ورد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند أحمد 418/7 (4414) بإسناد ضعيف، وله شاهد من مرسل التابعي الجليل عُبيد بن عُمير عند الطبري 157/6، ومن خبر السدّي عند الطبري 152/6. والثاني جاء في حديث ابن عباس عند الطبري 84/6-85 بإسناد ضعيف، ويشهد له مرسلُ مجاهد عند الطبري 250/6، وابن المنذر 502/2، وكذا خبرُ ابن إسحاق عند ابن هشام في السيرة 94/2.

وهو موضع يُسمَّى بدر الصغرى[1].

وكانت وقعةُ أُحُدٍ على ثلاث سنين من الهجرة، وبدر الصغرى على أربع سنين، فخرج النبي ﷺ ببدر الصغرى على الموعد، ورُعِبَ الكفار ولَم يتجاسروا على الحضور[2]. ولهذا قال ﷺ: «**نُصِرْتُ بالرُّعبِ حتىَّ إنَّ العَدُوَّ ليَرْعَبُ مِنِّي عَلَى مسيرةِ شهرٍ**»[3].

قوله ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾** ﴾

معنى الآية - والله تعالى أعلم- : لقد أنجزكم الله تعالى وعْدَه الذي وَعَدَه لكم بالنصر على عدوكم يومَ أُحُدٍ إن تصبروا وتتقوا، وذلك أنه لما صافَّ رسول الله ﷺ المشركين يومَ أحد جعل عبدَالله بنَ جُبيرٍ الأنصاريَّ مع خمسين من الرُّماة على ما يلي قِبَلَ خيل المشركين خلفَ المسلمين لئلا يأتيهم المشركون مِن خلفهم، وقال لهم: «**إذا رَأَيتُمُوهم يَقتُلونَنا أَو نقتُلُهُم فلا**

[1] قلتُ: «بدر الصغرى» ليس اسمَ موضع، بل اسم الغزوة التي كانت في نفس الموضع الذي وقعت فيه غزوة بدر الكبرى. يدل على ذلك ما جاء في مُرسل مجاهد عند الطبري 250/6، أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ: «موعِدكم بدرٌ حيث قتلتم أصحابَنا». وليس لــ«بدر الصغرى» ذِكرٌ في كتب الأماكن والبُلدان. والله أعلم.

[2] تُعرف هذه الغزوة ببدر الصغرى، وبدر الموعد، وبدر الآخرة. راجع لقِصَّتها : سيرة ابن هشام 209/2، والمغازي للواقدي 384/1، وطبقات ابن سعد 55/2.

[3] **[صحيح]** أخرجه أحمد 224/35 (21299)، والدارمي (2510)، وابن حبان في صحيحه (6462)، من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ بنحوه. وهو عند البخاري (التيمّم/ ح335) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ بلفظ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**».

تَبْرَحُوا مِن مَكَانكُم»[1].

فلما هزم الله تعالى المشركين ورأى الرماة الناسَ من المسلمين يقعون في الغنائم ظَـــنُّوا أنَّ مَن أخذ شيئا فهو له، فتركوا ما أمرهم رسول الله ﷺ، وأقبلوا على النهب إلا عبدَالله بنَ جبير وثمانيةً مِن أصحابه ﭫ؛ فخرج خالد بن الوليد مع مائتين وخمسين فارسا من المشركين من قِبَلِ ذلك الشعب، وكان هو يومئذ مشركا، فقتلوا مَن بقي من الرماة ودخلوا خلف فئة المسلمين، وتفرَّقَ المسلمون، ورجع المشركون فحملوا حملةَ رجلٍ واحدٍ فصار المسلمون من بين قتيل وجريح ومنهزم[2].

فذلك قوله ﻷ: ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾، يقول: تستأصلونهم قتلا في أول الحرب بأمره وعلمه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾، يقول جَبُنتم مِن عدوكم، واختلفتم في الأمر الذي أمركم رسول الله ﷺ من الثبات على المركز، وعصيتم الرسول من بعد ما أراكم الله ﻷ من النصرة على عدوكم.

قال بعض المفسرين: جواب ﴿ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ هاهنا مقدر، كأنه قال: إذا فشلتم وتنازعتم امتُحِنْـــتُم بما رأيتم من القتل والبلاء[3].

وقال بعضهم[4]: الواو في قوله ﻷ: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ زائدة، كما في

---

[1] **[أخرجه البخاري]** في صحيحه (المغازي/ باب غزوة أحد/ ح4043) من حديث البراء بن عازب ﭭ بلفظ: «**لا تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيهِم فَلا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُم ظَهَرُوا عَلَيْنَا، فَلا تُعِينُونَا**».

[2] راجع قصة الرماة في حديث البراء بن عازب ﭭ عند البخاري في صحيحه (الجهاد والسير/ باب ما يُكره من التنازع والاختلاف/ ح3039)، و(المغازي/ باب غزوة أحد/ ح4043)، وفي حديث ابن عبّاس ﭭ عن أحداث الغزوة الذي سبق تخريجه آنفا عند تفسير الآية السابقة، وفي ص197 عند تفسير الآية (144). وراجع أيضا: المغازي للواقدي 229/1-233، والطبقات لابن سعد 33/2-40.

[3] راجع: الكشاف1/454، والبسيط ق72/ب، والمحرر الوجيز3/263، والدر المصون3/437.

[4] هو الفرّاء في معاني القرآن 238/1.

قوله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ [1].

وقال امرؤ القيس:

ولَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحَيِّ وانْتَحى[2]

معناه: انتحى.

قال سيبويه: متى أمكن أن لا يجعل حرف من كتاب الله ﷻ ملغى فهو أولى من غيره[3].

ومعنى ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا ﴾: مِن الرماة مَن يريد الدنيا، وهم الذين وقعوا في الغنائم ولَم يثبتوا عند المركز، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾، أراد به الذين ثبتوا معهم حتى قُتِلوا.

وقوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ ﴾ أي صرفكم الله عن المشركين بالهزيمة. قيل: إن المراد بالصرف في هذا الموضع رفعُ النصر.

وقيل: معنى ﴿صَرَفَكُمۡ﴾ أَذِنَ لكم في الانصراف، فإنه لما بقي الباقون من المسلمين وفيهم قِلَّة لَم يُمكنهم الثباتُ للعدو، فصاروا مأذونين بالانصراف غير مأمورين / بالقتال حينئذ[4].

ومعنى ﴿ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ ﴾: ليعاملكم معاملة الـمُبتلين بأن يُجازيكم على

---

[1] جزء من الآية (73) من سورة الزمر

[2] هذا الشطر الأول من البيت (29) من معلّقته المشهورة، وشطره الثاني:

«بنا بطنُ خبْتٍ ذي حِقافٍ عقَنْقَلِ»

راجع: ديوانه ص39، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص23.

[3] لَم أهتد إليه في «الكتاب».

[4] هذا التأويل لأبي علي الجبّائي المعتزلي، أَوَّله فرارا من القول بأن انصراف المسلمين عن الكفار كان بمشيئة الله تعالى وتخليقه وتقديره، وذلك لأنَّ المعتزلة تنكر أن تكون المعاصي بمشيئة الله وأن تكون هي وغيرُها من أفعال العباد مخلوقةً لله. راجع: تفسير الرازي 39/9.

ما يظهر من عملكم لا على ما يعلمه فيكم. ويقال: معناه ليبتليكم أولياؤُنا، وأضاف الابتلاء إلى نفسه على جهة التفخيم للأولياء [١]، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ ﴾ [٢] وأراد به أولياءَ الله ﷻ[٣].

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ ﴾ أي لَم يُعاقبكم عند ذلك، فلم تُقتَلوا جميعا، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾: ذو مَنٍّ عليهم بالعفو والتجاوز.

وفي الآية دلالة أَنَّ النصر من الله ﷻ في جهاد العدو مُضَمَّنٌ باتّباع أمره والاجتهاد في طاعته، وعلى هذا جرت عادة الله ﷻ في نصر المسلمين على أعدائهم. ولهذا حين كان المسلمون من الصدر الأول لا يقاتلون إلا للدِّين فرض الله ﷻ على عشرين أَلَّا يَفِرُّوا من مائتين، كما قال الله ﷻ: ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ ﴾ [٤]، وكان عدد المسلمين وسلاحهم يومئذ أقلَّ فمَنَحَهم الله ﷻ يوم بدر أكتاف المشركين، وكان

---

[١] هذا اختيار الطبري في هذه الآية ونظائرها، راجع كلامَه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ﴾ [البقرة/143]، وعند قوله: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ ﴾ الآتي بعد آيتين. الطبري 2/641-645، و6/169-170.

[٢] جزء من الآية (57) من سورة الأحزاب.

[٣] قلتُ: ليس المرادُ بإيذاء الله تعالى، إيذاءَ أولياءه بدليل سياق الآية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ فالله ﷻ فرّق بين إيذاءه وبين إيذاء أولياءه، وغاير بين الجزاء المتوعَّد عليهما. ثمّ إنه ورد في السنة ما يؤيّد ظاهر الآية، ومن ذلك الحديث الإلهي : «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**». رواه البخاري (التفسير/ سورة الجاثية/ ح 4826) ومسلم (الألفاظ من الأدب وغيرها/ باب النهي عن سبّ الدهر/ ح2246).

[٤] جزء من الآية (65) من سورة الأنفال.

المشركون شاكِّين[1] في السلاح، فقتل المسلمون منهم ما شاءوا وأسروا كيف شاءوا، ثم لـــمَّا خالط المسلمين بعد ذلك من لَم يكن لهم مثلُ بصائرهم خفَّف الله تعالى عن الجميع، فقال – عزَّ مِن قائل– : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ [ضُعْفًا][2] فَإِن [تَكُن][2] مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾[3]. ومعلوم أنه لَم يُرد ضعفَ قُوَى الأبدان، ولا عدم السلاح، لأن قوة أبدانهم كانت باقيةً، وكان عددهم أكثرَ وسلاحُهم أوفرَ، وإنما أراد به أنه خالطهم مَن ليس له قوةُ البصيرة مثل ما للأوَّلين. فالمراد بالضعف هاهنا ضعفُ النِيَّة، وأَجْرَى الجميعَ مجرىً واحداً في التخفيف إذ لَم يكن من المصلحة تميزُ ذوي البصائر منهم بأعيانهم وأسمائهم مِن أهلِ ضعف اليقين[4].

قوله ﷻ: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

راجع إلى قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾؛ لأنَّ عفوَه عنهم لا بد أن يتعلق بذنب منهم، وذلك الذنب ما بَـــيَّنه بقوله: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ

---

[1] في الهامش: « الشاك بالتشديد والتخفيف: اللابس للسلاح التام. من (س)». قلتُ: لَم أهتد إلى معرفة مراد الناسخ بـــ (س). وراجع: تهذيب اللغة 316/9، ولسان العرب 451/10 مادة «ش ك ك».

[2] هذا على قراءة نافع. راجع: النشر 277/2.

[3] جزء من الآية (66) من سورة الأنفال.

[4] راجع: أحكام القرآن للجصاص 58/2-59.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾.

ومعناه: إذ تُبعِدون هَرَبًا في الأرض بالهزيمة. والإصعاد: السير في مستوى الأرض، ويقال: (أَصْعَدَ فلان من مكة إلى موضع كذا)[1].

وقرأ الحسن رضي الله عنه: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾ بفتح التاء والعين[2]، والصعود: هو الارتقاء إلى المكان المرتفع.

قال[3]: وقد كانوا يَصعدون الجبل مُنهزِمين، وكان رسول الله ﷺ يدعوهم: «**إلَيَّ يا معشر المسلمين!**» و«**يا أصحاب البقرة وآل عمران! أنا رسول الله ﷺ!**» فلم يلتفت إليه منهم أحد حتى أتوا أعلى الجبل[4].

ولا تنافي بين القراءتين لأنه كان يومئذ في المنهزمين صاعِد ومُصعِد، ويَحتمِل أنهم ذهبوا في بطن الوادي أوَّلا ثم صعدوا الجبل.

ومعنى ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾: لا تعرجون ولا تقيمون على رسول الله ﷺ، ولا يقيم بعضكم على بعض.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي مِن خَلفِكم، وذلك أنه لما انهزم المسلمون لَم يبقَ مع رسول الله ﷺ يومئذٍ إلا ثلاثة عشر نفسًا، خمسةٌ من المهاجرين: أبو بكر، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد، وثمانيةٌ من الأنصار[5].

---

(1) راجع: معاني القرآن للفراء 239/1، وللزجاج 478/1-479، والطبري 146/6.

(2) راجع: معاني القرآن للفراء 239/1، والطبري 145/6، وشواذ القراءات للكرماني 27/أ.

(3) أي الحسن البصري.

(4) **[ضعيف]** أخرجه ابن أبي حاتم 790/3، عن الحسن مرسلا إلا أن دعاء النبي ﷺ فيه بلفظ: «**إليَّ عباد الله! إليَّ عباد الله!**». وكذا ذكره الهوّاري في تفسيره 322/1. وبنحوه قال السدّي أيضا؛ أخرجه الطبري 147/6. وراجع: الدر المنثور 73/4.

وأما النداء بـــ «**يا أصحاب سورة البقرة**»، فالمشهور أنه كان في غزوة حُنين، كما أخرجه الإمام أحمد 298/3 (1776) من حديث العباس رضي الله عنه بإسناد صحيح.

(5) ذكر أسماء هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم ابنُ عطيّة في المحرر الوجيز 273/3 عن ابن فورك. وفي تعيينهم أقوال أخرى، راجعها في تفسير السمعاني 370/1، واللباب لابن عادل 3/6.

ومعنى ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾: جزاكم غمًّا متصلا بِغمٍّ، فأحد الغَمَّين الهزيمة وقتلُ إخوانهم، والثاني إشراف خالد بن الوليد عليهم في خيل المشركين مِن فَمِ الشعب، فدعا رسول الله ﷺ، وقال: «**اللَّهُمَّ إنَّ هذه العصابةَ هُم الَّذِينَ يَعبُدُونَكَ في هذه البلدةِ، وإنهم إن يُقْتَلُوا لا تُعبَدْ، اللَّهُمَّ اصْرِفْهُم عَنَّا**»، فصرفهم الله ﷻ[(١)].

وقال بعضهم: الغم الأول هو القتل والجراح، والثاني بأنهم سمعوا بأن النبي ﷺ قُتِل فأَنْساهم الغمَّ الأولَ[(٢)].

وقوله ﷻ: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أي إذا نالكم غمُّ النبي ﷺ نسيتم له كلَّ غمٍّ من فوات الغنيمة ووجود الهزيمة. وقيل: معناه أنَّ مَن تزاحمت الغموم عليه واعتاد ذلك يَقِلُّ حُزْنُه وتَأَسُّفُه على ما يفوته من الدنيا.

وقال الزجاج: معنى ﴿أَثَٰبَكُم غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ جزاكم غمًّا بِغَمٍّ؛ بما غَمَمْتُم به النبيَّ ﷺ بمفارقة المكان الذي أمركم بحفظه[(٣)].

---

(١) **[ضعيف]** رُويت قصة إشراف خالد بن الوليد بنحوها، عن ابن جريج مُعضلا عند الطبري 78/6، وابن المنذر 393/1. وكذا عن السدّي إلا أنه ذكر أبا سفيان بدل خالد بن الوليد. راجع: الطبري 152/6-153. وراجع للقصة أيضا: سيرة ابن هشام 86/2.

وأما كونها هي الغم الثاني المذكور في الآية، فقول الكلبي (تنوير المقباس ص 76)، ومقاتل في تفسيره 197/1، والسدّي (الطبري 153/6، وابن أبي حاتم 791/3).

(٢) هذا قول قتادة، والربيع بن أنس. راجع: تفسير عبد الرزاق 419/1، والطبري 151/6-152، وابن المنذر 452/2.

فائدة: وقد جمع ابن إسحاق بين القولين حيث فسّر الآية بقوله: «أي كَرْبا بعد كرب، بقَتل مَن قُتل من إخوانكم، وعُلُو عدوّكم عليكم، وما وقع في أنفسكم مِن قول مَن قال: (قُتل نبيكم)، فكان ذلك مما تتابع عليكم غمًّا بغم». سيرة ابن هشام 114/2-115. وهو اختيار الطبري في تفسيره 158/6.

(٣) معاني القرآن للزجاج 479/1، ولفظه: «أي أَثَابكم بأن غممتم النبيَ ﷺ = أن نالكم غمٌّ بما عوقِبتم به للمخالفة». وراجع: الكشّاف 454/1، وزاد المسير 479/1.

ويقال: أن قوله تعالى: / ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ متصل بقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾[1].

ومعنى ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: عالِم بأعمالكم من اغتمام المسلمين وشماتة المنافقين.

قولـــه ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

وذلك أنه لما افترق الفريقان بعث رسول الله ﷺ عليًّا - كرم الله وجهه- في إثرهم، وقال له: « **انظُرْ، فإنْ هم اجتَنَبُوا الخيلَ ورَكِبُوا الإبلَ فهم يُريدون مَكَّةَ، وإنْ رَكِبُوا الخيلَ وسَاقُوا الإبلَ فهم يُريدون المدينةَ** »، فخرج علي ؓ في إثرهم فإذا هُم راكبو الإبل وقائِدُو الخيلِ، قالوا: قد اجتمعنا لنتحارب ثانيا، فرجع عليٌّ -كرم الله وجهه- إلى رسول الله ﷺ وأخبره عن حالهم وعمَّا قالوا، فقال ﷺ: «**كَذَبُوا؛ فإنَّهم عازِمُو الانصرافِ إلى مَكَّةَ**». فكان كما قال رسول الله ﷺ، وأَمِنَ المسلون، وألقى الله ﷻ عليهم النوم، فما بقي منهم أَحَدٌ إلا ضرب ذقـــنُه صدرَه، إلا

---

[1] ذكر هذا القولَ الواحدي في البسيط 74/أ ونسبه إلى «بعض النحويين».

مُعَتِّبَ بنَ قُشَير[1] وأصحابَه الذين كانوا يَشُكُّون في أمر محمد ﷺ [2]؛ لَـــمَّا عَلِمَ الله ﷻ من باطنهم خلافَ ما عَلِمَه من المؤمنين منعهم ما أعطى المؤمنين، فتردَّدُوا في الخوف على أنفسهم وسوءِ الظنِّ بربِّهم، يَئِسُوا من نَصره، وشَكُّوا في سابق وَعدِهِ وصادقِ عهدِهِ.

ومعنى الآية: ثم أنزل عليكم من بعد الغم الذي كنتم فيه أمنًا.

وقوله: ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل من الأَمَنَةِ، أي آمَنَكم أمْنًا تنامون معه؛ لأن الخائف لا ينام. ومن هذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**النُّعاسُ في الصَّلاةِ مِنَ الشَّيطَان، وفي القِتَالِ مِنَ الرَّحمن**»[3].

وقوله ﷻ: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾، من قرأ: ﴿يَغْشَىٰ﴾ بالياء كان نعتًا للنعاس، ومن قرأ بالتاء كان نعتا للأَمَنَة. وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ [تُمْنَىٰ]﴾[4]، يُقرأ: ﴿يُمْنَىٰ﴾ بالياء والتاء[5].

والمراد بالطائفة التي غشيهم النعاس في هذه الآية أهلُ الصدق واليقين.

---

[1] قيل: إنه كان منافقا، وقيل: إنه تاب، وقد ذكره ابن إسحاق فيمن شهد بدرًا . راجع: سيرة ابن هشام 522/1، والإصابة 264/10.

[2] ذكره ابن إسحاق، والسدي بنحوه دون ذكر ما يتعلق بـــ«معتّب بن قشير». راجع: سيرة ابن هشام 94/2، والطبري 160/6-161. وأما قصة معتّب، فعند الطبري 168/6، وابن المنذر 454/2-455، وابن أبي حاتم 795/3، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه بإسناد صحيح.

[3] **[حسن موقوفا]** أخرجه عبد الرزاق في المصنف 499/2، وابن أبي شيبة 27/7 (19622)، والطبري 163/6، وابن أبي حاتم 793/3، وابن المنذر 454/2، وغيرهم، بإسناد حسن. ولفظه عند الأكثر: «**النُّعَاسُ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيطَانِ، وَالنُّعاسُ فِي القِتَالِ أَمَنَةٌ مِنَ الله**». وقد رُوي الجزء الأول منه مرفوعًا بلفظ: «**العُطَاسُ وَالنُّعَاسُ وَالتَّثَاؤُبُ فِى الصَّلَاةِ ، وَالْحَيْضُ وَالْقَيْءُ وَالرُّعَافُ مِنَ الشَّيْطَانِ**». أخرجه الترمذي (2748) – واللفظ له –، وابن ماجه (969) بإسناد ضعيف. راجع: سلسلة الأحاديث الضعيفة 392/7 (3379).

[4] الآية (37) من سورة القيامة.

[5] قرأ يعقوب، وعاصم برواية حفص، بالياء: ﴿يُمْنَىٰ﴾ على أنه نعت للمنيّ. وقرأ الباقون بالتاء على أنه نعت للنطفة. راجع: النشر 394/2، والحجة لابن زنجلة ص737.

وقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ رفعٌ بالابتداء. وهذه الطائفة هم المنافقون مُعَتِّب بن قُشَير وأصحابُه؛ أحزنتْهم أنفسُهم.

يقال لكل من خاف وحزن في غير موضع الحزنِ والخوفِ: (أَهَمَّتْهُ نَفْسُهُ)[١].

ومعنى ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾: يظُنُّون أن لا ينصرَ الله ﷻ محمَّدًا ﷺ وأصحابه ﷺ، كظنِّهم في الجاهلية [٢]. ويقال: كظَنِّ الجهَّال، وهم المشركون[٣].

وأما قوله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖ﴾، ففيه وجهان؛ **أحدهما**: هل نطمع أن يكون لنا شيء من الظَفَرِ والدَّولة؟[٤] **والثاني**: لو كان الأمر إلينا ما خرجنا، ولكِنَّا أُخرِجْنا إلى القتال مُكرَهين [٥]. قل لهم – يا محمد[ﷺ]– : إن النصر والظفر والدولة، كلُّ ذلك لله ﷻ.

من نصب قوله تعالى: ﴿كُلَّهُۥ﴾[٦] جعله توكيدا للأمر، ومن رَفَعه جعله جعله اسمًا مستأنفًا خبر ﴿إِنَّ﴾ [٧].

وقوله تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَ﴾ أي المنافقون يُسِرُّون

---

[١] بنحوه قال أبو مسلم، محمد بن بحر الأصفهاني (ت 322هـ)، ولفظه: « من عادة العرب أن يقولوا لمن خاف: (قد أَهَمَّته نَفْسُهُ) ». مفاتيح الغيب للرازي 47/9.

[٢] كذا في تفسير الكلبي (تنوير المقباس ص76).

[٣] وهذا قول قتادة والربيع بن أنس. راجع: الطبري 166/6.

[٤] هذا الاستفهام على جهة التكذيب، أي: لا نطمع أن يكون لنا شيءٌ من النصر الذي وُعِدناه. راجع: النكت والعيون 431/1، والبسيط ق74/ب-75/أ، وزاد المسير 481/1.

[٥] هذا قول الحسن البصري كما في المصادر السابقة، ولَم أجده مسندا إليه.

[٦] هي قراءة الجمهور عدا البصريَّين: أبا عمرو ويعقوب، فإنهما قرءا بالرفع. راجع: المبسوط ص148، والروضة 596/2، والنشر 242/2.

[٧] أي أنَّ من قرأ بالرفع، فقد جعله اسما مستأنفا — أي مبتدأً – في الجملة الاسمية ﴿كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ الواقعة خبرً لـــ ﴿إِنَّ﴾. راجع: الطبري 168/6، والحجة لابن خالويه ص 115، إعراب القرآن للنحاس ص222، والكشف عن وجوه القراءات 361/1.

ويُضمرون في قلوبهم ما لا يظهرون لك بألسنتهم، يقولون سِرًّا: لو كان لنا من النصر والدولة شيءٌ، وكان دينُ محمد ﷺ حقًّا، ما قُتِلَ أصحابنا هاهنا في اتِّباعه. ويقال: معناه لو لَم يُخرِجنا إلى الحرب رؤساؤنا ما قُتِلنا.

وأما قوله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، فمعناه قل للمنافقين: لو تخلَّفتم أنتم في بيوتكم لخرج الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى المكان المنكشف من مَصَارِعِهم ومواضعِ قَتْلِهِم - لا محالةَ- لـــنُفوذ قضاء الله ﷻ.

ويقال: معناه لو كنتم في بيوتكم لما أخطأكم ما كُتِبَ عليكم.

ويقال: معنى الآية لو كنتم أيها المنافقون في بيوتكم لبرز الذين فُرِضَ عليهم القتال - وهم المؤمنون المخلصون- إلى موضع القتال صابرين محتسبين[(١)].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، فهو معطوف على قوله ﷻ: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾[(٢)]، ومعناه: وليختبرَ ويُظهرَ ما في قلوبكم بأعمالكم / لأنه عَلِمَه غيبًا، فيعلمَه مشاهدةً.

ومعنى ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: يُبينَ ما في قلوبكم، فيُذهِبَ نفاق من شاء منكم، والله عليم بما في القلوب من الخير والشر.

قولــه ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ

---

(١) قلتُ: وهو قول ضعيف مخالف لسياق الآية، ولذا لَم يذكره جماهير المفسرين، بل اقتصروا على القول الأول، وقد ذكره الماوردي في النكت 431/1، بلا نسبة. ونسبه الطوسي في التبيان 24/3 لأبي القاسم البلخي المعتزلي.

(٢) ورد ذلك قبل آيتين، في الآية (152).

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾

معناه - والله تعالى أعلم- : أن الذين انهزموا منكم - معشرَ المؤمنين- يومَ التقى جمعُ رسولِ الله ﷺ وأصحابِه ﭫ وجمعُ أبي سفيان وأصحابِه، إنما استزلهم الشيطان عن أماكنهم ببعض ما كسبوا، وهو مفارقة المكان الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، ولقد عفا الله عنهم حين لَم يستأْصلهم.

ويقال في معنى الآية: إن هؤلاء لَم يتولَّوا على جهة المعاندة والفرار من الزحف، ولكن أَذْكَرَهم الشيطانُ خطاياهم التي كانت منهم فكرهوا لقاء الله تعالى إلا على حالةٍ يَرضونها، ولذلك عفا الله عنهم [1]. ولهذا قيل: إن الشيطان إذا لَم يقدر أن يوسوس إلى الإنسان في الدعاء له إلى المعصية، وسوس إليه بأن يُرِيَه شيئًا طاعةً.

ومعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾: متجاوز لذنوبهم، لَم يعجل بالعقوبة عليهم.

ورُوي أنَّ رجلا من الخوارج أتى عبدَالله بن عمر، فسأله عن عثمان ﭬ: أكان هو في الخمسين الذين هربوا يوم أُحُد؟ فقال: نعم، قال: أَشَهِدَ يومَ بدر؟ فقال: لا، فقال: أَشَهِدَ بَيعة الرضوان؟ فقال: لا، فَوَلَّى الرجلُ يهتزُّ فرحًا، فلما أحسَّ ابنُ عمر ببُغضه عثمانَ ﭬ، قال له: ارجعْ واجلسْ! فرجع وجلس، فقال له ابنُ عمر: أمَّا يوم بدر، فإن النبي ﷺ خَلَّفَه على ابنته أمِّ كلثوم[2]، يقوم عليها فإنها كانت مريضة فتوفِّيتْ يومَ هَزَمَ المسلمون الكفار،

---

[1] هذا قول الزجاج في معانيه 481/1، وتبعه عليه النحاس في معانيه 500/1، وهو قول غريب جدًّا، لَم يُنقل عن أحدٍ من الصحابة أو التابعين، أو تابعيهم.

[2] في الهامش: المعروف أنها رُقَــيَّة، على هذا أطبق الرواة، وإنما تزوّج أمُّ كلثوم بعد ذلك. اهـــ قلت: وهو كما قال، فقد أخرج أحمد 525/1 (490) عنه ﭬ بإسناد حسن أنه قال ردًّا على من نَقَم عليه تخلُّفَه يومَ بدر: « **وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدرٍ، فإنِّي كنتُ أُمَرِّضُ رُقَيَّةَ بِنْتَ رَسُولِ الله ﷺ** ...».

فكان النبي ﷺ والمسلمون في الغزو، وعثمان في تكفين ابنة رسول الله ﷺ ودفنِها والصلاةِ عليها، فلما رجع النبي ﷺ جعل أجرَه كأجرهم وسَهْمَه كسهمهم، وأما بيعة الرضوان، فقد ضرب النبي ﷺ بيساره على يمينه [(١)] فقال: هذا عن عثمان، وعَلِمْنا أنَّ ضربَ يسارِ النبي ﷺ على يمينه ليس بأَقَلَّ من ضرب يمينِ غيرِه على يمينه، وأمَّا يوم أُحُد، فقد ذكر ﷻ العفوَ عنهم بقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، فقام الرجل خَزْيَانَ ناكِساً رأسَه[(٢)].

قولـــه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

خطاب للمؤمنين المخلصين، معناه: لا تكونوا كمنافقي أهل الكتاب [(٣)] عبدِ الله بن أُبَيٍّ وأصحابِهِ، قالوا لإخوانهم إذا ساروا في الأرض تُجَّارًا مسافرين فماتوا من سفرهم ذلك، أو كانوا في الغَزْوِ فَـــقُتِلوا: لو كانوا عندنا، ما ماتوا في سفرهم، وما قتلوا في الغزو.

---

(١) الذي في الروايات: أنه ﷺ أخذ بيمينه، وقال: «**هذه يَدُ عُثمانَ**» فضرب بها على شماله.

(٢) **[صحيح بنحوه]** أخرجه بنحوه أحمد في المسند 52/10 (5772)، والبخاري في صحيحه (كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ/ باب مناقب عثمان ابن عفان رضي الله عنه/ ح3699).

(٣) قال الناسخ في الهامش: «في تفسير الواحدي عن ابن عبّاس: (يريد قوما من المنافقين)، ولَم يذكر منافقي أهل الكتاب، وهو أولى والله أعلم». قلتُ: وهو كما قال، فوَصْفُ المصنف لعبدالله بن أبي وأصحابه بـــ «منافقي أهل الكتاب» غريب جدًّا، فلم يكن ابنُ أبيٍّ من أهل الكتاب قبل إسلامه حتى يصدق عليه هذا الوصف. وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما الذي ذكره الناسخ، ففي البسيط للواحدي ق76/أ، ولَم أجده مسندا إليه إلا من طريق الكلبي في تنوير المقباس ص77 بنحوه.

وإنما قال: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾، وحرف «إذا» يُستعمل في الاستقبال، وإنما يُستعمل في الماضي حرف «إذ»، لأن الغَرَضَ من هذا اللفظ بيانُ أنَّ شَأْنَ المنافقين هذا أبدًا، فيما مضى وفيما يستقبل، وهو نظير قول القائل: (إن فلانا إذا حدَّثَ صدق) أي أن ذلك عادته أبدا[1].

والغُزَّى: جمعُ غازٍ، كما يقال: (ضارب وضُرَّب) و(راكع ورُكَّع)، وقد يجمع الغازي على غُزاةٍ، كما يقال: (قاضٍ وقُضَاة)، ويُجمع على غُزَّاءٍ، كما يقال: (صائم وصُوَّام)[2].

واللام في قوله ﷻ: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لامُ العاقبة، وتقديره: لِتَصير عاقبةُ أمرِهم إلى أن يجعل الله تعالى ما ظَـنُّوا حَزَنًا يتردد في أجوافهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ تحذير عن التخلف عن الجهاد خشيةَ الموت والقتلِ لأَنَّ الإحياءَ والإماتةَ إلى الله ﷻ في الحضرِ والسفرِ، وحالِ القتال وغيرِ حال القتال.

وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ترغيب في الطاعة وتحذير عن المعصية.

قوله ﷻ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا [تَجْمَعُونَ][3] ﴿١٥٧﴾﴾

---

(1) راجع في تقرير ذلك: معاني القرآن للفراء 243/1-244، وللزجاج 485/1.

(2) راجع: الصحاح مادة «غ ز و»، والبسيط ق76/ب، والقرطبي 376/5.

(3) هذه قراءة الجمهور عدا حفصا عن عاصم، فإنه قرأ بالياء : ﴿يَجْمَعُونَ﴾. راجع: المبسوط ص148، والروضة 597/2، والنشر 243/2.

معناه: لَو قتلتم في طاعة الله أو مُتُّم فيها، مَغفرةُ[1] الله ﷻ ورحمته خير لكم مما تجمعون من الأموال. وإنما قال ذلك - وإن كان هذا معلوما - لأن من الناس من آثر الحياة الدنيا على الجهاد في سبيل الله لخشية القتل، فبَيَّنَ الله ﷻ / أن ما يحصل من الثواب والمغفرة على الجهاد خيرٌ مما تؤثرونه أنتم في الحياة الدنيا.

ومن قرأ: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالياء، فعلى الخبر، معناه: خير لكم أيها المؤمنون مما يجمع المنافقون من الدنيا.

قولــه ﷻ: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨﴾

معناه: لئن متُّم على فُرُشِكم أو قُتِلتم في الغزو لإلى الله ترجعون في الآخرة. أي كيف ما دارت القصة فإنَّ مصيركم إلى الله ﷻ، ولَأَنْ تصيروا إلى الله تعالى بالقتل الذي تستحقون عليه العوض خير من أن تصيروا إليه بالموت الذي لا تستحقون عليه العوض. وهو نظيرُ قولِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- :

فإنْ تكنِ الأبدانُ للموت أُنشِئَتْ ... فقتْلُ امرئٍ بالسيفِ في اللهِ أفضلُ[2]

واللام في ﴿لَئِنْ﴾ لامُ القسم، وتصلح أن تكون للابتداء والتأكيد [3]، واللام في ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ جواب القسم، ويصلح أن يكون مؤكِّدًا لجواب

---

[1] كذا في الأصل؛ بحذف اللام التي تقع في جواب« لو»، وهو جائز كقوله تعالى:﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة70]. وفي تفسير الحداد165/2: «لَمغفرةٌ».

[2] هو في تاريخ دمشق187/14، وروح المعاني105/4، منسوبًا إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما.

[3] المعروف عند النحاة أن اللام الداخلة على أداة الشرط تكون موطئة للقسم، ولا تكون للابتداء. راجع: مغني اللبيب 262/1.

الشرط[١].

ويُقرأ: ﴿مِتُّمْ﴾ بكسر الميم أيضا [٢]، وهما لغتان: (مات يموت) و(مات يمات) [٣].

قولــه ﷻ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

معناه: فبرحمةٍ عظيمةٍ من الله تعالى لِنْتَ لهم حتى صار لِيُنُك لهم سببا لدخولهم في الدين، لأن النبي ﷺ أتاهم بالحجج والبراهين مع لينٍ وخُلُقٍ عظيمٍ، ولهذا قال ﷺ : « **إنَّمَا أَنَا لكُم مِثْلُ الوالِدِ لِوَلَدِه، فإذَا أَتَى أَحدُكُم الغائِطَ فلا يَستَقْبِلِ القِبْلَةَ ولا يَستَدبِرْهَا، وَلكِنْ شَرِّقُوا أَوغَرِّبُوا** »[٤].

---

[١] لا يصح أن تكون جملة ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ جوابا للشرط، وإنما هي جواب القسم، واللام فيها لامُ جوابِ القسم، وذلك لأمرين؛ **الأول:** أنه إذا اجتمع القسم والشرط، يجاب السابق منهما، ويحذف جواب المتأخر، والسابق هنا القسم بدليل اللام الموطئة للقسم في﴿لَئِنْ﴾. **والثاني** : أن اللام لا تدخل على جواب الشرط، وإنما تدخل في جواب القسم. راجع: الكشّاف 458/1، شرح ابن عقيل على الألفية35/4-37، ومغني اللبيب 262/1.

[٢] هي قراءة نافع، وحمزة، والكسائي، وخلف. وقرأ الباقون بالضم: ﴿مُتُّمْ﴾. راجع: المبسوط ص148، الروضة 597/2، والنشر 242/2-243.

[٣] راجع: الحجة لابن زنجلة ص178-179، والدر المصون458/3-459.

[٤] **[صحيح]** أخرجه أحمد 326/12 (7368)، والدارمي (701)، والنسائي في المجتبى (الطهارة/ النهي عن الاستطابة بالروث/ ح40) وابن خزيمة (80)، وابن حبّان 279/4 (1431)، وغيرهم من حديث أبي هريرة ؓ مرفوعا دون قوله: «**وَلكِنْ شَرِّقُوا أَوغَرِّبُوا**»، فهو جزء من حديث أبي أيوب الأنصاري ؓ في الصحيحين؛ البخاري (كتاب الصلاة/ بابُ قبلةِ أهلِ المدينة وأهلِ الشام والمشرقِ / ح394)، ومسلم (الطهارة/ باب

وفي الآية مِنَّةٌ على المؤمنين إذ جُعِلَ رسولُ الله ﷺ رحيمًا بهم.

وأما حرف «ما» في قوله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، صلةٌ وتوكيدٌ عند أكثر أهل النحو، لا يمنع الباءَ مِن عملها[(١)].

وقال بعضهم[(٢)]: معناه: فبِشَيءٍ رحمةٍ من الله تعالى، وكذا قالوا في: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾[(٣)]: فبِشَيءٍ نقضِهم[(٤)].

قال الزجاج: لو قرئ: (فبما رحمةٌ من الله) برفع الرحمة على معنى: فبما هو رحمةٌ من الله، لجاز ولكن لا يقرأ بها لأن القراءة سنة مُتَّبعة[(٥)].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾، فمعنا: لو كنتَ – يا محمد ﷺ – خَشِنًا في القول، سَيِّءَ الخلق، قاسيَ القلب، لَتفرَّقوا من حولك، فلم تَرَ منهم أحدًا، ولكن الله تعالى جعلك سهلا سَمْحًا طَلِقًا لَطِيفًا لَيِّـنًا بارًّا رحيما.

والفظاظة: الجفوة في القول.

وأصل (الفَظِّ): الفَظِظ، كما يقال: (صَبٌّ)[(٦)] أصله: صَبِبٌ، ومِثله في غير المضاعف من (فَرِقَ يَفرَقُ)، و(رَجُلٌ فَرِقٌ)[(٧)].

الاستطابة/ ح264).

(١) راجع: معاني القرآن للأخفش427/1، وللزجاج428/1، والبسيط ق77/أ-ب.

(٢) كابن كيسان النحوي، كما في مشكل الإعراب لمكّي ص178.

(٣) جزء من الآية (155) من سورة النساء، والآية (13) من سورة المائدة.

(٤) «ما» على هذا القول، نكرة موصوفة بـ ﴿رَحْمَةٍ﴾، أو أنها نكرة تامّة و ﴿رَحْمَةٍ﴾ بدل منها. راجع: مشكل الإعراب لمكّي ص178.

(٥) معاني القرآن للزجاج 482/1.

(٦) في الهامش: «رجل صَبٌّ: عاشق مشتاق، وقد صَبِبْتَ يا رجل، بالكسر، تَصَبُّ. والله أعلم». وهذا منقول من الصحاح، مادة «ص ب ب».

(٧) هذه الألفاظ كلها من باب (فَعِل يَفعَل)، وهي غير متعدّية بنفسها، ولذا جاء اسم الفاعل منها على (فَعِلٌ)، وهو القياس فيها، إلا أنه لـمّا كان (فظِظٌ) و(صَبِبٌ) من المضاعف أدغم فيهما

ويُسمَّى ماءُ الكرش: (فَظًّا) لِغِلَظِ مشرَبه[١].

وأما قوله ﷻ: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ معناه: تجاوَزْ عنهم في الجريمة التي تكون بينك وبينهم، وكانوا عَصَوُا النبي ﷺ في الانهزام وتركِ المركز وتركِ الإجابة لدعوته: «**ارجعوا**»[٢]، فندبَ الله تعالى رسولَ الله ﷺ إلى العفو عنهم بالثَّناء عليه في حسن خُلُقِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، معناه: واستغفِرْ لهم الله ﷻ في الذنب الذي يكون منهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، فمعناه: إذا أردتَ أن تعمل عملا مما لَم يكن عندك فيه وحيٌ، فناظِرهم، واعمل بتدبيرهم ومشُورَتهم.

وكان النبي ﷺ مستغنيا عن مشاورتهم فإنه كان ﷺ أَسَدَّهُم[٣] رأيًا، لكنَّ الله ﷻ إنما أمره بالمشاورة لتقتدي به الأُمَّةُ، وليكون فيه تطييبٌ لنفوس المؤمنين ورفعٌ لأقدارهم وثناءٌ عليهم في حُسن سرائرهم[٤].

ويقال: إن في المشورة ردَّ الملامة، لأَنه يقول: فعلتُ بمشورتكم[٥].

وعن سهل بن سعد الساعدي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **مَا شَقِيَ عبدٌ قطُّ بِمَشُوْرَةٍ، وَمَا سَعِدَ بِاستِغْنَاءِ بِرَأْيٍ** »[٦].

المثلان فصارا (فَظًّا) و(صَبًّا). راجع: معاني القرآن للزجاج 483/1، والبسيط ق77/ب.

[١] راجع: معاني القرآن للزجاج 483/1، وتهذيب اللغة 261/14-262 «ف ظ ظ».

[٢] سبق تخريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ [153] بلفظ: «**إليَّ عباد الله!**». وأما لفظة «**ارجعُوا**» فقد وردت في رواية ابن جريج عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، عند الطبري 148/6، وابن المنذر 451/2، بلفظ: «**أَي عبادَ الله ارجعُوا!**».

[٣] أشير في الهامش أنه في نسخة: «أَرشدَهم».

[٤] وجهُ الثناء: « أن باطن ضمائرهم مرضيٌّ عند الله تعالى، لولا ذلك لَم يأمره بمشاورتهم، فدلّ ذلك على يقينهم وصحّة إيمانهم...». أحكام القرآن للجصّاص 61/2.

[٥] قاله السمرقندي في بحر العلوم 260/1.

[٦] **[موضوع]** أخرجه محمد بن سلامة القضاعي في مسند الشهاب 6/2 (773) من طريق

ومعنى المشورة في اللغة: إظهار الرأي، يقال: (شُرْتُ الدابةَ أَشُورُها) إذا امتحنتَها وعرفتَ هَيئَتَها في السير، ويقال: (شُرْتُ العسلَ وأَشَرتُه) إذا أخذتَه من موضع النحل، ويقال: (فلانٌ حَسَنُ الصُورة والشُورة [١]) أي حسن الهيئة واللباس[٢]. والشَّوَار: متاع البيت[٣].

فأما قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾، فمعناه: إذا عزمتَ على شيءٍ فثِقْ بالله وفَوِّضْ إليه ولا تَتَّكِلْ على المشورة.

وفي هذا دليل أن الله ﷻ إنما أمره بالمشورة فيما لَم يكن عنده وحي، لأن العزيمة فيما فيه الوحيُ لا بد أن تكون سابقةً على المشورة [٤].

وذهب بعض الناس إلى أن الله ﷻ إنما أمر نبيَّه ﷺ بمشورهم في أمور الدنيا خاصة، وهذا بعيد لأن النبي ﷺ كان يقتصر من دنياه على القوت والكفاف الذي لا / فضل فيه، وإنما كان يشاور أصحابه في أمر الحروب التي تشترك فيها الآراء كما رُوي أنه نزل في غَزَاةِ بدرٍ موضعًا فقال له: الــحُباب بن الــمُنذر: إن كان نزولك هاهنا بوحي الله فسمعًا وطاعةً، وإن كان رأيا فالآراء مشتركة، فقال ﷺ: «**لا بَل رَأْيٌ**»، فقال: إنَّ بالقرب من هاهنا لموضعَ كَمِينٍ فالانتقال من هاهنا أحسن، فانتقلوا ونزلوا مكانا آخر،

صالح بن محمد الترمذي، عن سليمان بن عمرو، عن أبي حازم، عن سهل ﵁ مرفوعا.
وفيه آفتان: **الأولى**: صالح بن محمد الترمذي؛ فإنه متّهم ساقط؛ (ميزان الاعتدال 300/2).
الثانية: سليمان بن عمرو؛ وهو النخعي، كذّاب؛ (الجرح والتعديل 132/4).
فائدة: هذا الحديث، وإن كان موضوعًا مرفوعًا، لكنّه من الحِكَم الشائعة في الرعيل الأول، فقد أخرج ابن وهب في الجامع 393/1 (281)، ومن طريقه ابن حبّان في روضة العقلاء ص202، عن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي حسين القرشي – وهو ثقة فاضل من صغار التابعين– أنه قال: «**كان يقال: ما هلك رجلٌ عن مشورة، ولا سَعِدَ بِتَوَحُّدٍ**».

(١) في النسخة المشار إليها في الهامش: «والشارة».
(٢) راجع: معاني القرآن للزجاج 485/1، ومقاييس اللغة، واللسان مادة «ش و ر».
(٣) « الشُوار » مُثلّث الشين. راجع: «المثلّث ذو المعنى الواحد» للبعلي الحنبلي ص136.
(٤) راجع: أحكام القرآن للجصاص 62/2.

وجعلوا حوضَ الماء وراءَ أنفسهم[1]، وكذلك شاور النبيُّ ﷺ أصحابَه في أُسَارَى بدرٍ[2]، وسنذكر تلك القصةَ في موضعها، إن شاء الله تعالى[3].

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، تحريض للمسلمين على التوكل.

قولــه ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

معناه: إن يمنعْكم الله تعالى من عدوِّكم فلا غالب لكم من العدو مثل يومِ بدرٍ، وإن يخذلكم بأن يَكِلَكم إلى أنفسكم ويرفع نصرَه عنكم كيومِ أُحُدٍ فمن ذا الذي يمنعُكم من عدوكم مِن بعد خذلانه إياكم؟ وبالله فليتوكل المؤمنون في النصرة.

قولــه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

معناه: وذلك أنهم اتّهموا رسول الله ﷺ في الغنائم يومَ أُحُدٍ حتى وقعوا في عسكر المشركين يأخذون الغنائم فظنوا أنَّ من أخذ شيئا تُركَ وإياه، وأن النبيﷺ لا يُقسم لهم كما لَم يُقسِم يوم بدرٍ، ولهذا تركت الرُّماةُ المركزَ ووقعوا في الغنائم[4].

---

[1] راجع: سيرة ابن هشام 620/1، ومغازي الواقدي 53/1.

[2] خبر مشاورة النبيﷺ لأبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما في صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم/ ح1763) من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما.

[3] وقد وَفَى المصنف بذلك في ج2، ق12/أ عند تفسير الآية (68) من سورة الأنفال.

[4] هذا قول الكلبي، ومقاتل. راجع: تفسير مقاتل 200/1، الكشف والبيان للثعلبي 196/3، العجاب 779/2.

وعن عبدالله بن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهما أنهما قالا: نزلت الآية في قَطيفةٍ حمراءَ فُقِدَتْ يومَ بدرٍ، فقال بعض الناس: لعل النبيَّ ﷺ أخذها، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

ومعنى الآية: ما كان لنبي أن يخونَ أصحابه فيستأثرَ شيئا من الغنيمة على وجه. والفائدة في تخصيص النبي ﷺ بالذكر بيان أنَّه لَم يكن ليقدم على الخيانة مع النبوة، إذ الخيانةُ من النبي ﷺ أعظمُ مِن خيانةِ غيره، فكان تخصِيصُهُ بالذكر -وإن كانت خيانة غيره محرَّمة - كما قال الله عز وجل: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[٢]، وإن كان الرجس من الأوثان وغيرِ الأوثان محرَّمًا.

وقيل: فائدة ذكر النبي ﷺ أنه إذا لَم يكن له أن يخون وهو المتبوع فكيف يكون لأَحَد ممن يتبعه أن يخون.

ومن قرأ: ﴿أَن يُغَلَّ﴾ بضم الياء[٣]، فمعناه أن يُنسب إلى الغُلول كما يقال: (فَسَّقْتُ فلانًا)، أي لا ينبغي لأصحابه أن يُخَوِّنوه[٤].

---

(١) **[حسن]** حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه أبو داود (كتاب الحروف والقراءات/ ح 3971)، والترمذي (كتاب تفسير القرآن/ سورة آل عمران/ ح3009)، والطبري 194/6، و195، وابن المنذر470/2، وغيرهم، وقال الترمذي:«هذا حديث حسن غريب».

وفي رواية مجاهد عن ابن عباس: أن المنافقين اتّهموا النبي ﷺ في شيء من الغنيمة فأنزل الله عز وجل الآية. أخرجه الطبراني في الكبير 101/11 (11174)، ومن طريقه الواحدي في أسباب النزول ص256، بإسناد حسن.

وأما مُرسل سعيد بن جبير، فقد أخرجه الطبري 195/6 بإسناد ضعيف عنه.

(٢) جزء من الآية (30) من سورة الحج.

(٣) هي قراءة المدنيِّين، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب. وقرأ الباقون ﴿يَغُلَّ﴾ بالبناء للفاعل. راجع: المبسوط ص148، والروضة597/2، والنشر243/2.

(٤) فأصل الفعل على هذا: «يُغَلَّل» على زنة «يُفَسَّق»، ثُم خُفِّفَت عين الفعل، فصار«يُغَلّ» على زنة «يُفْعَل»، ونظير ذلك قراءة نافع:﴿يُكْذِبُونَك﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾

وقيل: معنى ﴿يُغَلَّ﴾: يُوجَد غالاً، كما يُقال: (أَحمَدتُ فلانًا) أي وجدتَه حامدًا [1].

ويقال: معناه ليس حق النبيﷺ أن يُستَر عنه شيء من الغنائم [2]، أَنْ كان النبيﷺ هو القاسم للغنيمة بين الغانمين.

ومعنى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي يَخُنْ، ويأتِ بما خان يوم القيامة، كما رُوي في الخبر أنه يُمَثَّل له ذلك الشيء في النار، ثم يقال له: انزل إليه فخذه، فيهبط إليه حتى إذا انتهى إليه حمله على ظهره فإذا انتهى إلى الباب سقط عنه إلى أسفل جهنّم، ويرجع ويأخذه، ولا يزال ذلك دأبه إلى ما شاء الله [3].

ويقال: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ بِوَبال ما غل، أي يُؤخذ بجزائه يوم القيامة.

وأما قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾، معناه: تُوَفَّى كلُّ نفسٍ جزاءَ ما عملت مِن خيرٍ أوشرٍ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يُنقص مِن حسناتهم ولا يُزادُ على سيئاتهم.

[الأنعام/33]. راجع: معاني القرآن للفراء 1/246، والطبري 6/199-200.

[1] كذا قال، والصواب في معنى (أحمدتُ فلانا): وجدته محمودًا، هكذا فسّره سيبويه في الكتاب 4/60، وابن قتيبة في الغريب ص115، والأزهري في تهذيب اللغة 4/252. وراجع: الحجة لابن زنجلة ص180-181، والكشف 1/363-364، والمحرر الوجيز 3/285.

[2] وهذا قول أبي عُبيدة، فإنه قال: «﴿أن يُغَلَّ﴾ أن يُخَان»؛ مجاز القرآن 1/107.

[3] **[حسن لغيره]** أخرجه ابن أبي حاتم 3/804-805، والبيهقي في شعب الإيمان 6/176 (4025) من طريق محمد بن أبان، عن علقمة بن مرثد، عن ابن بريدة، عن أبيه مرفوعا، بلفظ: «**إنَّ الحجرَ لَيَزِنُ سَبْعَ خَلِفاتٍ فَيُلْقَى في جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبعِينَ خَرِيفًا، وَيُؤتَى بالغُلُولِ فَيُلقَى مَعَهُ، ثُمَّ يُكَلَّفُ صَاحِبُهُ أَن يَأتِيَ به**». فيه محمد بن أبان الجعفي، وهو ضعيف؛ (تعجيل المنفعة ص357). وله شاهد من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفا، بلفظ: «**مَا مِن أَحَدٍ يَغُلُّ غُلُولا إلا كُلِّفَ أَن يَأتِيَ به مِن أَسْفَلِ دَرْكِ جَهَنَّم**». أخرجه أبو إسحاق الفزاري في السير ص234 (387)، وابن أبي حاتم 3/805 بإسناد لا بأس به.

والغلول في اللغة: أخذ الشيء في الخفية، ومنه (الغَلَل)، وهو الماء الذي يجري في أصل الشجر، (والغِلُّ): الحِقْد، (والغِلالة): الثوب الذي يُلبَس تحت الثياب، ويقال: (تَغَلَّلَتُ بالغَالِيَةِ[١]، وتَغَلَّيتُ) إذا جعلتَها في أصول الشعر[٢].

وعن عبادة بن الصامت أنه قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ إلى جنب بَعِيرٍ من المغنم، ثم تناول سَنامَ البعير فأخذ وَبْرَةً منه فقال: « **أَيُّها النَّاسُ، إنَّ هذه مِنْ غَنَائِمِكم فأَدُّوا الخيطَ والمِخْـيَطَ وما دُونَ ذلك وما فَوقَ ذلك، فإنَّ الغُلولَ عارٌ على أهلِهِ، ونارٌ وشَنَارٌ[٣] يومَ القيامة** »[٤].

وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ أخذ وَبْرَةً فقال: « **لا يَحِلُّ لي مِن غَنَائِمِكُم مِثلُ هذا إلا الـخُمُس، والـخُمُسُ مَردُودٌ فِيكُم** »[٥].

ورُوي عن رسول الله / ﷺ أنه سُئل بوادي القُرى[٦]: لمن الغنيمة ؟ فقال: «**للهِ خُمُسُها، وَأَربَعَةُ أَخماسِهَا للجَيشِ**»، فقيل: وهل أحدٌ أَحَقُّ بها مِن أَحَدٍ ؟ فقال ﷺ: «**لا، وَلا السَّهْمَ تَستَخْرِجُهُ مِن جَسَدِكَ لَسْتَ أَحَقَّ بِهِ**

---

[١] الغالية نوع من الطيب، ولعلّ تسميتَه لغَلاءِ قِيمته. راجع: مقاييس اللغة 388/4 «غ ل و».

[٢] راجع: معاني القرآن للزجاج 484/1-485، ومقاييس اللغة 375/3-377 «غ ل ل».

[٣] **الشَّنَار**: العارُ، والعيبُ، والأمرُ المشهورُ بالشُّنْعَةِ. راجع: تهذيب اللغة 233/11 «ش ن ر».

[٤] **[حسن صحيح]** رواه أحمد 371/37 (22699)، و387/37 (22714)، و455/37 (22795)، وابن ماجه (كتاب الجهاد/باب الغلول/ح2850) –واللفظ له–، وابن حبان 193/11 (4855)، بطرق تقوّي بعضها بعضا. وله شاهد بنحو مثله من حديث العرباض ﷺ عند أحمد 385/28 (17154) بإسناد لا بأس به؛ وآخر بنحوه من حديث عبدالله بن عمرو ﷺ عند أحمد 339/11-341 (6729)، وأبي داود (الجهاد/باب في فداء الأسير بالمال/ح2694)، والنسائي في المجتبى (الهِبة/هبة المشاع/ح3688) بإسناد حسن.

[٥] ورد ذلك في حديث عُبادَة ﷺ من الطريقين الأوليين عند الإمام أحمد، وفي حديث عبدالله بن عمرو ﷺ (التخريج السابق). وله شاهد آخر من مسند عمرو بن عبسة ﷺ عند أبي داود (الجهاد/باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه/ح2755) بإسناد صحيح.

[٦] نُسب إلى كثرة القرى فيه. وهو اليوم يُعرف بـ «وادي العُلا»: مدينة عامرة شمالَ المدينة على قُرابة (350) كيلا. معجم المعالِم الجغرافية في السيرة النبوية، ص250.

مِن أَخِيكَ الــمُسلِمِ»[١].

وفي التغليظ في الغلول أخبارٌ كثيرةٌ ، وردت في غير الطعام والعَلَف[٢].

فأمَّا في الطعام والعلف، فقد وردت في إباحة ذلك من الغنيمة أخبارٌ مستفيضةٌ عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين ﵃[٣].

روي عن عبدالله بن أبي أوفى أنه قال: أَصَبْنا طعامًا يومَ خيبر فكان الرجلُ يأخذ منه قَدْرَ ما يكفيه ثم يَنْصَرِفُ[٤].

وعن عبدالله بن المغفل أنه قال: وجدتُ جِرابًا مِن شحمٍ يومَ خيبر فالتزمتُهُ، وقلتُ: لا أُعطِي أحدًا منه شيئًا اليومَ! ثم التفتُّ فإذا رسول الله ﷺ يتبسَّم[٥].

قــوله ﷻ: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ ﴾

استفهام بمعنى تقريرِ حال الفريقين، يقول: ليس من اتبع رضوان الله وأخذ الحلال من الغنيمة كمن استوجب سخَطَ الله بأخذ الغلول والحرام.

ويقال: معنى ﴿ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي بوَّأ سخط الله تعالى في نفسه،

---

(١) **[صحيح]** أخرجه ابن زنجويه في كتاب الأموال 568/1 (1136)، والبيهقي في الكبرى 324/6، و336، و62/9، من حديث رجل من بَلْقَين–أي بني القين–، قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ، وهو بوادي القرى، فقلتُ ... فذكره بمثله إلا أن فيه «تَسْتَخْرِجُهُ مِن جَنْبِكَ» بدل «جَسَدِكَ». وقد صحّحه الحافظ ابن كثير في تفسيره 82/7 عند تفسير الآية (41) من سورة الأنفال.

(٢) وقد جمع جملةً صالحة منها ابن حبّان في صحيحه 182/11-197 (كتاب السير/باب الغلول).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة جملة صالحة منها في المصنَّف 421/11-424 (كتاب السير/ باب فِي الطَّعَامِ والعَلَفِ، يُؤخذ منه الشَّيء في أَرضِ العَدوِّ).

(٤) **[صحيح]** أخرجه أحمد 469/31 (19124)، وأبو داود (الجهاد/باب في النهي عن النهبى إذا كان في الطعام قلة في أرض العدو/ح2704) –واللفظ له–، والحاكم في المستدرك 126/2، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري»، ولَم يتعقّبه الذهبي.

(٥) **[أخرجه مسلم]** في صحيحه (الجهاد والسير/باب أخذ الطعام من أرض العدو/ح1772).

وجعل نفسه مَباءَةَ السخط[1].

وقيل في معنى الآية: أفمن اتبع رضوان الله بالجهاد في سبيل الله كمن باء بسخطٍ منه بالفرار من الجهاد[2].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ راجع إلى من باء بسَخَطِ الله ﷻ، أي بئس النار المصير[3] صاروا إليه، ولفظ (بِئْسَ) يُستعمل في الشدة كما يستعمل في القبح.

قولــه ﷻ: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

معناه: أن الذين يتّبعون رضوان الله تعالى ذَوُو درجاتٍ رفيعةٍ، والآخرون ذَوُو دَرَكاتٍ خَسِيسَةٍ[4]؛ فإن لأَحَدِ الفريقين درجاتٍ في الجنة وللآخر دركاتٍ في النار، كما روي في الخبر: « **أنَّ أهلَ الجَنَّةِ ليَرَونَ أهلَ عِلِّيين كما يَتَرَاءَون الكوكبَ الدُّرِّيَّ في أُفُقِ السَّمَاء، وأَنَّ أَبَا بَكرٍ وعُمَرَ مِنهُم، وأَنْعَمَا** »[5]، معناه: زادا[1].

---

[1] أي مقرَّ السخط، ومنزلَه. راجع: تهذيب اللغة 426/15 « ب و أ ».

[2] هذا قول الزجاج حيث حمل الآية على المنافقين الذين تخلّفوا يوم أحد. راجع: معاني القرآن للزجاج 486/1، وزاد المسير 493/1.

[3] كذا في الأصل، وفي تفسير الحدّاد 170/2، وهو خطأ، والصواب: «بئس المصير النار»، وذلك لأنه لا يجوز بالإجماع أن يتقدّم المخصوص على الفاعل، ويجوز عند الكوفيين أن يقال: «بئس النار مصيرًا». راجع: شرح قطر الندى ص204.

[4] هذا قول الحسن، وابن إسحاق، وظاهر اختيار الطبري، أن الآية تعم أهل الخير وأهل الشر. راجع: ابن أبي حاتم 807/3، وسيرة ابن هشام 117/2، والطبري 210/6.

[5] **[حسن لغيره، وأصله في الصحيحين دون ذكر أبي بكر وعمر]** أخرجه أحمد 310/17 (11213)، و47/18 (11467)، والترمذي (المناقب/ باب مناقب أبي بكر الصديق ؓ/ح3658) -وحسّنه-، وغيرهم، من طُرق عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري ؓ. وعطية ضعيف في الحديث (ميزان الاعتدال 89/3)، إلا أنه توبع عند أحمد 301/17 (11206) من طريق مجالد عن أبي الودّاك عن أبي سعيد بمثله، ومجالد بن سعيد الهمداني، فيه لين (ميزان الاعتدال 438/3). وأصل الحديث في الصحيحين بلفظ: « **إِنَّ**

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[2]، ولا يكون الأسفل إلا لِمَا له أعلى وأوسط.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية خاصةٌ في المؤمنين [3]، أي هم طبقاتٌ بعضهُم أرفعُ من بعضٍ في الجنة، وهذا كما يقال: (بنو تميمٍ كذا وكذا بيتًا) أي هم أهلُ كذا وكذا من البيوت.

ومعنى ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾: أي عالِم بمن يغل وبمن لا يغل.

قولــه ﷻ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾

معناه: لقد أنعم الله ﷻ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا، وهو النبي ﷺ بعثه الله تعالى من العرب معروفَ النسب، عرفوه بالصدق والأمانة، وكان يُسمَّى الأمينَ قبلَ الوحي.

ويقال: بعثه الله ﷻ من جِنس بني آدم، ولَم يُبعث من الملائكة لأن

أهلَ الجنَّةِ يَتَراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهِم كَمَا تَتَراءَوْنَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابرَ فِي الأُفُقِ مِن المشرق أَو المغرب لِتَفاضُلِ مَا بَينَهُم»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله تِلكَ مَنَازِلُ الأَنبِيَاءِ لا يَبلُغُهَا غَيرُهُم؟ قَالَ: « **بَلَى! وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ** ». البخاري (بدء الخلق/باب ما جاء في صفة الجنة/ح 3256)، ومسلم (الجنة وصفة نعيمها/باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يُرى الكوكب في السماء/ح2831).

(1) راجع: غريب الحديث لأبي عُبيد 141/1، والنهاية في غريب الحديث 83/5.

(2) جزء من الآية (145) من سورة النساء.

(3) ذهب إليه الضحاك – أخرجه عنه ابن المنذر 476/2–، وكذا مقاتلٌ في تفسيره 201/1، والفراء في معاني القرآن 246/1.

الرسول إذا كان من جنسهم كان تعلُّمُهم منه أسهلَ عليهم.

وقُرئ في الشواذ: ﴿مِّنۡ أَنفَسِهِمۡ﴾ بنصب الفاء[1]، يعني أشرف الناس؛ لأن العرب أفضل من غيرهم، وقريش أفضل العرب، وبنو هاشم أفضل قريش، فجعل الله تعالى رسوله ﷺ من بني هاشم[2].

وقوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي يقرأ عليهم القرآن بما فيه من أقاصيص الأُمَمِ السَّالِفَة وهو أُمِّيٌّ لَم يقرأ الكتب.

ومعنى ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: يطهّرهم من الشرك والذنوب [3]، ويأخذ منهم الزكاة التي يطهّرهم بها [4]؛ يقال لعامل الصدقات: (مُصَدِّقٌ)؛ لأنه يأخذ الصدقة.

ويقال: معنى ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾: يشهد لهم بالزَّكاء[5].

ومعنى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: يعلمهم القرآن والفقه، وإن كانوا مِن قبلِ أن يأتيهم محمد ﷺ لفي ضلال عن الهدى وخَطَإٍ بَيِّن. وهذا كالرجل يقول لولده: (لقد علَّمتُك وأدَّبتُك وإن كنت من قبلُ لفي غاية من الجهل).

---

[1] راجع: الشواذ لابن خالويه ص23، والبحر المحيط 417/3.

[2] كما قال ﷺ: « **إنَّ الله اصْطَفَى كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إسلمعِلَ، وَاصْطَفَى قُرَيشًا مِن كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِن قُرَيشٍ بني هَاشِمٍ، وَاصطَفَاني مِن بني هَاشِم** ». أخرجه مسلم (ح2276).

[3] كذا قال ابن جريج، وفسّره ابن عبّاس بمعناه حيث قال: «يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص». راجع: الطبري 577/2 عند تفسير الآية (129) من سورة البقرة.

[4] هذا قول الفرّاء في معاني القرآن 246/1.

[5] بنحوه قال ابن إسحاق في تفسير الآية، ولفظه: «... ويخبركم برضاه عنكم إذا أطعتموه، لتستكثروا من طاعته ...». سيرة ابن هشام 117/2، وابن المنذر 478/2.

قولــه ﷻ: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾

قيل: إن الواو في أول هذه الآية واوُ النَّسَق دخلت عليها ألف الاستفهام فبقيت مفتوحةً على هيئتها، وهذا كما يقول القائل: (فلان يقول كذا) فَيُجابُ: (أَوَهو ممن يقول ذلك؟)[1].

ومعنى الآية: أَلَمَّا أصابتكم مصيبة يومَ أُحُدٍ، قد أصبتم مثلَيها يومَ بدرٍ- أي قتلتم يوم بدر سبعين منهم وأسرتم سبعين، وقُتِلَ منكم يوم أُحُد سبعون ولَم يُؤْسر منكم أحد- قُلتم: مِن أين أصابَنا هذا، ونحن[2] مسلمون؟ قل يا محمد ﷺ: هو مِن عند أنفسكم لمخالفتكم أمرَ رسولالله ﷺ بالخروج عن المدينة وقد كان أمركم بالمقام فيها ليدخل عليكم الكفار فتقتلوهم في أزقَّتِها[3].

ويقال: ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾، إنما أصابكم هذا مِن عند قومكم بمعصية الرُّماة، بتركهم ما أمرهم به النبيﷺ [4].

إن الله على كل شيءٍ من النصر وغيرِ ذلك قادر.

---

(١) راجع: معاني القرآن للأخفش 427/1، وللزجاج 487/1.

(٢) في الأصل: «نحن» من غير واو الحال، ولا بدّ منها لاستقامة النص. وهو على الصواب في الطبري 214/6، وبحر العلوم للسمرقندي 263/1، وتفسير الحداد 172/2.

(٣) إليه ذهب قتادة، أن المراد بقوله تعالى: ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ هو إصرارهم على الخروج إلى العدوّ مع أن النبي ﷺ كان قد أشار عليهم بخلافه. راجع: الطبري 215/6.

(٤) قال الواحدي: «وهو قول أكثر أهل التأويل»، البسيط ق81/أ. قلتُ: وممن ذهب إليه، مقاتل في تفسيره 201/1، والواقدي في المغازي 325/1، والفراء في معاني القرآن 247/1، والنحاس في معاني القرآن 507/1. وهو ظاهر قول السدي، وابن إسحاق. راجع: سيرة ابن هشام 118/2، والطبري 217/6، وابن كثير 253/3.

قولـــه ﷻ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ﴾

معناه: وما أصابكم - معشرَ المسلمين- يومَ أُحُدٍ، يومَ التقى جيش المسلمين وجيش المشركين، فبعلم الله ﷻ وقضائه وإرادته.

وقد يُسمّى العلمُ إِذْنًا كما قال الله ﷻ: ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾[1]، أي إعلام من الله تعالى ورسوله.

ويقال: أراد بالإذن التخليةَ بين المؤمنين والكافرين، وإلا فالله تعالى لا يأذنُ في المعصية، ولكن لَمَّا كان الإذنُ هو الإطلاقُ بكلامٍ يُسمع، سُمّي التخليةُ باسم الإذن[2].

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ لا يجوز حمله على ظاهره؛ لأن ظاهره

---

(1) مطلع الآية (3) من سورة التوبة.

(2) هذا قول القفّال الشاشي (ت 365 هـــ) - كما في البحر المحيط 422/3-، والقاضي عبدالجبار في متشابه القرآن ص172، واختاره الزمخشري في الكشّاف 464/1. قلتُ: وهو من اعتزالهم؛ لأن فيه فرارًا مِن إثبات أنَّ ما فَعَله المشركون مِن إيقاع الضرر بالمسلمين يومَ أُحُد، أنه كان بتقدير الله وإرادته ومشيئته. ولعلَّ أصلَ هذا التأويل، مقالة أبي موسى المرداز المعتزلي (ت226هـــ): إن الله يوصَف بأنه أراد المعاصي، بمعنى أنه خلّى بين العباد وبينها، لا أنه شاءها وقدّرها. راجع: مقالات الإسلاميين ص512.
ومنشأ الخطأ عدم التفريق بين الإذن الشرعي، والإذن الكوني المرادف للمشيئة. فالأول منفي عن المعاصي قطعًا، وأما الثاني فهو شامل لجميع ما يقع في الكون طاعةً كان أو معصيةً، وهو المراد في هذه الآية. راجع: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ص537، وشرح الطحاوية لابن أبي العز ص447.

يقتضي حدوثَ علمٍ لله ﷻ لَم يكن[1]، لكنَّ العلمَ يُذكر ويراد به المعلوم، كما يقال: (اللهم اغفِرْ لنا عِلْمَك فينا) أي معلومَك فينا، فيكون معنى قوله ﷻ: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: وليَرَى الله إيمانَ المؤمنين بثبوتهم على ما نالهم، ويرى المنافقين بفَشَلِهم وقلَّةِ صبرهم على ما يترل بهم في ذات الله ﷻ.

وقيل: معنى ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: وليعرفَ أولياءُ الله تعالى المؤمنين متميِّزين من المنافقين، إلا أن الله ﷻ أضاف العلم إلى نفسه تعظيم ا لأوليائه[2].

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فقد رُوي أن عبدالله بن أُبَيٍّ وأصحابَه لما رجعوا إلى المدينة قبلَ القتال قال لهم عبدالله بن جبير[3]: تعالَوا إلى أُحُدٍ فقاتلوا في طاعة الله تعالى أو ادفعوا عن أنفسكم وحريمكم — ويقال: معنى ﴿ٱدْفَعُوا۟﴾ أَكْثِرُوا سوادَنا حتى ندفع القوم بكثرتكم[4]– قال المنافقون: لا يكون قتالٌ اليومَ، ولو نعلم أَنْ يكونُ قتالٌ لكُنَّا معكم[5].

---

[1] قلتُ: لا مانع من حمله على ظاهره، إذ العلم بالشيء موجودا ليس هو العلمَ السابقَ بأنه سيوجد، بل هو علم يحصل عند وجود الشيء، وهذا التجدّد — أو الحدوث على اصطلاح المتكلمين — في العلم بالشيء من أنه سيقع إلى كونه قد وقع = أمرٌ دلّت عليه النصوص، وأثبته السلف وأئمة السنّة. راجع: مجموع الفتاوى لابن تيمية 496/8.

[2] قد سبق في ص(208) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [152] أن هذا مذهب ابن جرير الطبري في مثل هذه الآيات.

[3] كذا في الأصل، والصواب أن القائل هو أبو جابر، عبدُالله بن عمرو بن حرام ﷺ، كما في خبر السدي وابن إسحاق، وسيأتي تخريجه.

[4] هذا هو المروي عن سهل بن سعد، وابن عباس ﷺ، والسدي، وابن جريج في آخرين. راجع: الطبري 224/6، وابن المنذر 482/2، وابن كثير 253/3.

[5] ذكره بنحوه السدي، وابن إسحاق في خبره عن أشياخه من التابعين. راجع: سيرة ابن هشام 64/2، والطبري 222/6-223. وقد حكى الحافظ ابن حجر اتفاق المفسرين على أن الآية نزلت في عبدالله بن أبيّ وأتباعِه الذين رجعوا قبل القتال. العجاب 783/2.

يقول الله ﷻ: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾، أي كانوا قبل هذا القول عند المؤمنين أقربَ إلى الإيمان بظاهر حالهم حتى هتكوا سترهم وأظهروا ميلهم إلى الكفر فصاروا في ذلك اليوم أقربَ إلى الكفر.

وقوله تعالى: ﴿ أَقْرَبُ ﴾ لا يقتضي أن يكون لهم نصيب من الإيمان، كما يقول الرجل لخصمه: (أنا أَحَقُّ منك وأصدق وأَبَرّ)، لا يريد به أن يجعل لصاحبه نصيبًا في الصدق.

وأما قوله ﷻ: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾، كنايةٌ عن كَذِبهم في قولهم: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾.

وذِكرُ الأفواه على معنى التأكيد؛ لأن الرجل يقول بالمحاجر[1] وبالإشارة، ونظير هذا قوله ﷻ: ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾[2]، وقوله ﷻ: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾[3].

ومعنى[4] ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾: أي الله تعالى أعلم منهم بأنفسهم فيما يخفون من الشرك.

قوله ﷻ: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾

معناه: هم الذين قالوا لإخوانهم من المنافقين بالمدينة وقعدوا هم بأنفسهم عن الجهاد: لو أطاعَنا المسلمون الذين خرجوا إلى القتال ما قُتلوا في الغزو،

---

[1] المحاجر: جمع « الـمَحجِر » كمَجلِس، وهو ما يبدوا من النقاب من العين. راجع: تهذيب اللغة 82/4، والصحاح 624/2، مادة «ح ج ر».

[2] جزء من الآية (79) من سورة البقرة.

[3] جزء من الآية (11) من سورة الفتح.

[4] في الأصل: «والمعنى»، ولعل الصواب ما أثبت.

قل لهم يا محمد ﷺ: فادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين في مقالتكم: لو لَم يخرجوا إلى القتال ما قتلوا؛ بل كان يجوز أن يَدخُلَ عليهم العدو فيقتلوهم في قَعْرِ بيوتهم.

قال الفقيه أبو الليث رحمه الله: سمعت بعض المفسرين - رحمهم الله- يقول: لَمَّا نزلت هذه الآيةُ مات يومئذ سبعون نفسًا من المنافقين[١].

قولــه ﷻ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وابنِ مسعود، وجابرٍ رضي الله عنهم، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **لَمَّا أُصِيبَ إخوانُكم يومَ أُحُدٍ جعَلَ الله تعالى أَرْواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجَنَّةِ وتَأكلُ مِن ثِمارِها، وتَأْوِي إلى قَنادِيلَ مِن ذَهَبٍ تحتَ العرشِ فَلمَّا رَأَوا طِيْبَ مُنقَلَبِهِم** [٢] / **ومَطعَمِهِم ومَشرَبِهِم وما أَعَدَّ الله ﷻ لهم مِن الكرامةِ قالوا: يَا لَيتَ إخوَانَنا عَلِمُوا ما أَعَدَّ اللّهُ تعالى لنا مِن الكرامةِ وما نحن فيه مِن النَّعِيمِ فلم يَنْكُلُوا** [٣] **عند اللِّقَاء ولَم يَجْـــبُنُوا في الحرب، فقال الله ﷻ: أنا أُبَلِّغُهُم عَنْكُم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث** »[٤].

---

[١] بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي 263/1. قلتُ: ولَم أجد ذلك في شيء من كتب الحديث والتفسير المأثور والمغازي، ولا إخاله يصحّ؛ إذ لو كان صحيحا لاستفاض خبره، فإن مثله مما تتوفر الدواعي على نقله. والله أعلم.

[٢] في أكثر روايات الحديث: « مَقِيْلِهم ».

[٣] أي فلم يَنْكِصُوا أويَجْـــبُنُوا. راجع: القاموس المحيط ص1375 مادة «ن ك ل».

[٤] **[صحيح]** هذا لفظ حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما، أخرجه ابن إسحاق في المغازي (سيرة ابن هشام

قال عبدالله بن مسعود ﷺ: « **يقول الله ﷻ لهم: ما تَشتَهُونَ؟ فيقولون: مَا نَشْتَهِي ونحن نَسْرَحُ في الجنة حيث نشاء؟ ثَلاثًا، ثم يقولون في الثالثة: رَبَّنَا نحبُّ أن تُرَدَّ أَرْوَاحُنا في أَجسَادِنَا فنُقْتَلَ فيك مرَّةً أُخرَى** »[١]، قال: « **وَأَروَاحُ أَهلِ الكُفْرِ في أَجْوَافِ طَيرٍ سُودٍ تَغدُو وتَرُوحُ عَلَى النَّارِ**»[٢].

وعن عبدالله بن عباس ﷺ: أنه قال: إذا أقبل العبدُ إلى العدوِّ في سبيل الله تعالى اطَّلعت عليه زوجتاه من الحور العِين، فقالتا: اللَّهم وَفِّقْهُ وسَدِّدْه، فإذا أدبر قالتا: اللَّهم اعْفُ عنه وتجاوَزْ عنه، فإذا أقبل باهى الله ﷻ به ملائكتَه، فيقول: « **انظُرُوا إلى عَبدِي يَبْذُلُ نَفْسَه ودَمَه ابتغاءَ مَرْضاتِي** »، فتقول الملائكةُ: يا رَبِّ أَلاَ نذهبُ فننصُرَه؟ فيقول لهم: « **خَلُّو عَن عَبدِي، فَطَالَما سَهَرَ ونَصَبَ في طَلَبِ النَّصرِ ابتغاءَ مَرضاتِي، أَحَبَّ لِقَائي وأَحبَبْتُ لِقاءَه** »، فيقاتِلُ حتى يُقتَلُ، فتَنزِلُ إليه زوجتاه من الحور العين حتى يستريحَ

119/2)، ومن طريقه أحمد4/218 (2388، و2389)، وأبو داود (الجهاد/باب في فضل الشهادة/ ح2520)، والطبري6/228، وغيرهم، بإسناد صحيح.

وأما حديث ابن مسعود ﷺ، فعند مسلم (الإمارة/باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة/ ح1887) بنحوه، إلا أنه ليس فيه ذكر تمنّي الشهداء أن يَعرِف إخوانُهم حالَهم.

وأما حديث جابر ﷺ، فورَدَ في شأن أبيه الذي استشهد يوم أُحُدٍ وفيه: أنَّ الله كلَّمه كِفاحاً، وسأله أن يَتَمَنَّ، ... فقال: «**يا رَبِّ، فأَبْلِغْ مَن وَرائِي**»، فأنزل الله الآية. علّقه البخاري في «خلق أفعال العباد» ص55 بصيغة الجزم، وأخرجه الترمذي (التفسير/باب ومن سورة آل عمران/ح3010)، وابن ماجه (باب فيما أنكرت الجهمية/ ح190) – واللفظ له–، وابن أبي عاصم في السنة 1/413 (615)، وابن حبّان في صحيحه 15/490 (7022)، وغيرهم، وقال الترمذي:« هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ».

[١] هذا جزء من حديث ابن مسعود ﷺ المرفوع الذي سبق تخريجه.

[٢] أخرجه عبدالرزاق في تفسيره 3/147، وابن أبي حاتم10/3267، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ [غافر /٤٦] عن الـهُزَيل بن شرحبيل، عنه ﷺ بلفظ: «**إنَّ أرواحَ آلِ فِرعَون فِي أَجْوافِ طَيرٍ سُودٍ تَغْدُو عَلَى جَهَنَّم وَتَرُوح عَلَيْهَا ، فَذَلِكَ عَرْضهَا**». وهو في تفسير الثوري ص263، والطبري20/337، موقوفًا على الهزيل.

ويسكُنَ إليهما، وتَجيئه الملائكةُ وتُبَشِّرُه بالجنَّة والكَرامَةِ، ثم يُؤخَذُ رُوحُه فيُجعَلُ في جوف طائرٍ أخضرَ على حَسَبِ ما تقدَّم ذكرُه[١].

ومعنى الآية: ولا تَظُنَّنَّ يا - محمد ﷺ - الشهداءَ المتقولين في طاعة الله ﷻ أنهم أموات، بل هم أحياء عند ربهم يرزقون التُّحفَ، مُعجَبين بما أعطاهم الله ﷻ مِن رزقه، ويطلبون السُرُورَ بقُدُوم من لَم يَقْدَم عليهم من إخوانهم، فيقولون: ليت إخوانَنا قُتِلُوا كما قُتِلنا فنالوا مِن الثواب ما نلنا.

وقال السدي ﵁: يُرفَع إلى الشهيد كتابٌ فيه خَبَرُ مَن يَقْدَمُ عليهم من إخوانه فيتعجَّل السرورَ بذلك كما يُبَشَّرُ الإنسانُ بقدوم غائبٍ له فيتعجَّل السرورَ به قبل قُدُومه[٢].

ويقال: معنى ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ أي يستبشرون بأن لا خوفٌ على إخوانهم الذين يأتونهم من بعدهم من المؤمنين وأنهم لا يحزنون في الآخرة[٣].

ويقال: معناه[٤]: يستبشرون بإخبار الله ﷻ إخوانَهم الذين لَم يُقتَلُوا بما لهم من الكرامة، ويستبشرون أيضا أن لا خوفٌ عليهم[٥].

وقد اختلف المفسرون في قوله ﷻ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، قال بعضهم: معناه بحيث لا يملك ضَرَّهم ولا نفعهم إلا الله ﷻ، ولَم يُرِد به إثباتَ المسافة والمكان لأن المسافة والمكان لا يجوزان إلا على الأجسام[٦].

---

(١) **[ضعيف جدًا]** هو من رواية المتّهم ابن السائب الكلبي، كما في الكشف والبيان 205/3.

(٢) أخرجه الطبري 238/6، وابن أبي حاتم 814/3 بنحوه.

(٣) بنحوه قال ابن زيد. راجع: الطبري 238/6.

(٤) في الأصل: « معنى »، ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) رُوي عن سعيد بن جُبير بنحوه. راجع: ابن أبي حاتم 814/3، وزاد المسير 502/1.

(٦) هذا من كلام الجهمية وأفراخهم الذين ينفون علوّ الله على عرشه بشبهة أنه يقتضي التجسيم. أما أئمة السنّة، فقد استدلوا بنظائر هذه الآية التي ورد فيها اختصاص بعض

وقال بعضهم[1]: معناه بل أحياءٌ في علم ربهم، وليسوا بأموات كما تحسبَونهم، وهذا نظير قول القائل: (هذا عندَ فلان كذا) أي في علمِ فُلانٍ.

وجميع هذا الذي ذكرناه في هذه الآية دليلٌ أنَّ الشهداءَ أحياءٌ في الحال، لا أن معناه: أنهم سيَحْيَون ويُبعَثُون في الآخرة ويستبشرون بالذين لَم يلحقوا بهم في الفَضْلِ من المؤمنين[2]؛ لأن في هذا التأويلِ الأخيرِ إبطالَ تخصيصِ الشهداءِ وحملَ ظاهرِ اللفظِ على المجاز دون الحقيقة.

وقال بعضهم: معنى الآية لا تحسبنَّهم أمواتًا في دِينهم، بل أحياءٌ في دِينهم يكتب أُجُورُهم[3].

قولـــه ﷻ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٧١﴾

معناه: يستبشرون بجنّة الله وما أعد الله تعالى لهم من الكرامة، ويستبشرون أن الله تعالى لا يُضيع ثواب الموحدين.

المخلوقات بأنها ﴿عِندَ﴾ الله، على أن الله تعالى فوقَ عرشه بائنٌ من خلقه، وأن أهلَ السماوات مِنَ الملائكة وأرواحِ الشهداء أقربُ إليه سبحانه من أهل الأرض، إذ لو كان موجَب العندية معنى عامًّا مثل دخولهم تحت قدرته ﷻ لما كان للاختصاص فائدة، ولصحَّ وصفُ جميع المخلوقات بأنها عنده. راجع: الرد على الجهمية للدارمي ص100، مجموع الفتاوى لابن تيمية 165/5، و405، ونونية ابن القيم، الأبيات (1240-1251).

(1) كالجبّائي المعتزلي فيما نقله عنه تلميذه القاضي عبدالجبار في متشابه القرآن ص172.

(2) صاحب هذا التأويل الفاسد هو أبو القاسم الكعبي البلخي المعتزلي (ت 329 هـ). راجع مقالته والرد عليها في مفاتيح الغيب للرازي 91/9-93.

(3) ذكره الزجاج في معاني القرآن 488/1 بلا نسبة، وذكر الرازي في مفاتيح الغيب 95/9 نحوَه عن أبي بكر الأصمِّ المعتزلي (201 هـ). **قلتُ**: وهذا أيضا تأويل فاسد، مخالف لظاهر القرآن، وما ثبت السنّة الصحيحة من أن الشهداءَ أحياءٌ حياةً حقيقيةً في الجنة.

ومن قرأ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بالكسر[١]، فهو على الابتداء. وفي حرف ابن مسعود: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، وهذا يؤيد قراءة الكسر. وبالله التوفيق.

قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

يجوز أن يكون أوَّلُ هذه الآية في موضع الخفض على النعت للمؤمنين، والأحسن أن يكون في موضع الرفع على الابتداء وخَبَرُه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾[٣].

ومعنى الآية: الذين أجابوا الله تعالى بالطاعة، والرسولَ ﷺ بالخروج إلى بَدْرٍ الصغرى من بعد ما أصابهم الجراح، للذين وافوا منهم الميعاد واتَّقَوا سخط الله تعالى ومعصيتَه، ثوابٌ وافرٌ في الجنة.

قال ابن عباس ﵄: / وذلك أنهم تَواعَدُوا يومَ أُحُدٍ أن يجتمعوا ببدر الصغرى في العام القابل، فلمَّا حضر الأجلُ نَدِمَ المشركون فَلِقَي أبو سفيان نُعَيمَ بنَ مسعودٍ[٤]، وكان يخرج إلى المدينة للتجارة، فقال: إذا أتيت المدينةَ فخوِّفهم كيلا يخرجوا ولك عشرٌ من الإبل إن رددتَهم، فلما قَدِم نُعَيمٌ المدينةَ وكان أصحابُ رسول الله ﷺ يريدون موافاة أبي سفيان، قال لهم: بئس الرأيُ رأيتم، أَتَوكم في دياركم وقراركم فلم ينفلت منكم إلا الشريد،

---

[١] وهي قراءة الكسائي وحدَه. راجع: المبسوط ص149، والروضة2/599، والنشر 1/244.

[٢] راجع: الطبري6/239، ومعاني القرآن للزجاج1/489، وشواذ القراءات للكرماني27/ب.

[٣] معاني القرآن للزجاج 1/489.

[٤] أسلم نُعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني بعد ذلك زمن الخندق ﵁. راجع ترجمته في: الإصابة في تمييز الصحابة 11/108.

تريدون أن تأتوهم في ديارهم؟ وقد جمعوا لكم عند اللطيمة [(١)]، أَمَا إنَّ الرجلَ الواحدَ منهم يطيق عشرة منكم، إذًا والله ما ينفلت منكم إلا الشريد، فكَرِهَ أصحابُ رسول الله ﷺ الخروجَ إليهم وتثاقلوا، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك منهم قال: « **وَالَّذِي نفسي بِيَدِه لأَخرُجَنَّ إلَيهم وإن لَم يَخرُجْ معي مِنكم أَحَدٌ!** »، فمضى رسول الله ﷺ للميعاد ومعه نحو من سبعين رجلا حتى انتهوا إلى بَدْرٍ فلم يخرج إليهم أبوسفيان ولَم يَلقَوا بها أحدًا من المشركين، فتَسَوَّقُوا من السوق حاجتهم ثم انصرفوا، فذلك قول الله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [(٢)].

قولـــه ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

معناه: الذين قال لهم نُعَيم بنُ مسعودٍ: إنَّ أبا سفيان وأصحابَه قد جمعوا لكم فاخشوهم ولا تَخرُجُوا إليهم، فزادهم هذا القول تصديقًا ويقينًا وجرأةً على القتال، كما قال الله ﷻ في آية أخرى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ إلى آخرة الآية[(٣)].

ومعنى ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾: ثِقَــتُنَا بالله، ويقال: كافينا الله ﷻ، أي هو الذي يكفينا أمرَهم، ونعم الناصرُ والحافظُ.

---

(١) اللَّطِيمة: سوقٌ فيها أوعية من العطر ونحوه من البياعات. تهذيب اللغة 241/13 «ل ط م». وقد أخرج الطبري 251/6 عن عكرمة، قال: «كانت بدر مَتجرًا في الجاهلية».

(٢) هذا من رواية المتّهم محمد بن السائب الكلبي، كما في تفسير الهوّاري 334/1، وبحر العلوم 265/1. قلتُ: والصحيح في سبب نزول هذه الآية وما بعدها، أنها نزلت في شأن وقعة حمراء الأسد التي كانت في الغدِ من يومِ أُحُد ، وسيذكره المصنف بعد آيتين.

(٣) الآية (22) من سورة الأحزاب.

وإنما ذكر في الآية - والله أعلم - نُعَيمَ بنَ مسعودٍ بلفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ لأَنَّ الواحدَ قد يُذكر بلفظ الجماعة على معنى الجنس، وهذا كما يقالُ فيمن خرج من السجن ورأى إنسانًا واحدًا: (خرج فلانٌ من السجن ورأى الناسَ ورآه الناسُ)، ويقول الرجل: (سمعتُ الناسَ يقولون كذا) وإن كان سمع مِن واحدٍ، ولهذا قالوا: مَن حَلَفَ وقال: (إن كلَّمتُ الناسَ فعبدي حرٌّ)، وكلَّمَ رجلا واحدًا حَنَثَ[1]. ويجوز أن يكون قول نُعَيمٍ فشا في المدينة فكان الناس يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾.

قوله ﷻ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾

معناه: فانصرفوا بأجرٍ من الله ﷻ، ﴿وَفَضۡلٖ﴾، وهو ما تسوَّقُوا به من السوق.

ورُوي أنهم اشتروا أَدَماً، وزَيتًا، وأشياءَ غيرَ ذلك بسعرٍ رَخيصٍ فربحوا على ذلك[2].

ومعنى ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾: لَم يُصِبْهم قتلٌ ولا جراحة، واتبعوا رضوان الله تعالى في الخروج إلى المشركين، والله ذو مَنٍّ عظيمٍ بدفع المشركين عن المؤمنين.

---

[1] راجع: أحكام القرآن للجصاص 65/2، وأصول السرخسي 154/1.

[2] لَم أجده مُسندًا. وقد ذكر الزجاج في معاني القرآن 490/1، ومكّي في الهداية إلى بلوغ النهاية 1179/2، والواحدي في البسيط 84/6، بنحوه غيرَ أن عندهم «زَبِيبًا» بدل «زيتًا».

قولـــــه ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

قال بعضهم[(١)]: أراد بالشيطان نُعيمَ بنَ مسعودٍ، وكُلُّ عاتٍ مُتَمَرِّدٍ فهو شيطان. ويقال: معنى الآية: ذلك التخويف من عمل الشيطان ووسوسته[(٢)].

وأما قوله: ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾، قيل: إن معناه: يُخَوِّفُ المنافقين ومن لا حقيقة له في إيمانه[(٣)]، فلا تخافوا المشركين في الخروج إليهم، وخافوني في القعود عن الجهاد إن كنتم مُصَدِّقين بما أعلمتكم أنِّي أنصركم وأُلقِي الرعبَ في قلوب الكفار.

وقيل: معنى ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ أي مِن أولياءِه [(٤)]؛ لأَنَّ التخويف يَتَعدَّى إلى مفعولَين[(٥)]، كما قال الله ﷻ في موضع آخر: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾[(٦)] أي ببأسٍ شديدٍ[(٧)].

---

(١) كمحمد بن السائب الكلبي كما في تنوير المقباس ص79.

(٢) هذا تفسير الجمهور، ولَم يذكروا غيره. راجع: الطبري 255/6، ومعاني القرآن للزجاج 490/1، والنكت والعيون للماوردي 438/1.

(٣) بنحوه قال الحسن، ولفظه: «إنما كان ذلك تخويف الشيطان، ولا يخاف الشيطان إلا وليّ الشيطان»؛ أخرجه ابن أبي حاتم 821/3 . ونسبه الماوردي في النكت والعيون 438/1 إلى السدي أيضا، قلت: وفيه نظر إذ المروي عن السدّي خلافَه كما سيأتي.

(٤) هذا قول جمهور السلف كمجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدي في آخرين. راجع: الطبري 255/6-256، وابن المنذر 506/2-507، وابن أبي حاتم 820/3-821.

(٥) يتعدّى إلى الأول بنفسه، وإلى الثاني بواسطة حرف الجر، فأصله: (يخوِّفكم من أوليائه) أو: (بأوليائه). ثم حُذف المفعول الأول وحرف الجر، فانتصب المفعول الثاني.

(٦) جزء من الآية (2) من سورة الكهف.

(٧) راجع: معاني القرآن للفراء 248/1، والغريب لابن قتيبة ص 116، والطبري 256/6، ومعاني القرآن للنحاس 512/1، والبسيط ق85/أ.

وفي قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ دليل أن هذا القول الثاني هو الأصح.

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ﴾ إلى آخر هذه الآيات الأربع نزلت في حرب أُحُدٍ، وذلك أنَّه لما رجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، قال ﷺ: « **رَحِمَ الله تعالى قومًا انْتَدَبُوا لِهؤلاءِ المشركين لِيعْلَمُوا أَنَّا لَم نُستَأصَلْ** »، فانتدب قومٌ ممن أصابهم الجراح في ذلك اليوم، فشَدُّوا على المشركين حتى كشفوهم عن القتلى بعد أن مَثَّلُوا / بحمزة، وقد كانوا هَمُّوا بالمثلة بقتلى المسلمين، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فانهزموا، فصَلَّى رسولُ الله ﷺ على القتلى المسلمين ودفنهم بدمائهم، فجاء أناسٌ من العرب وقد مروا بأبي سفيان ومن معه بموضعٍ يُسمَّى حمراءَ الأَسَدِ[١]، فقالوا للمسلمين: تركناهم مُتَأَهِّبين للرجوع إلى المدينة لقتلِ بقيَّتِكم. فعند ذلك قال المسلمون: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، فأمر رسول الله ﷺ أصحابَه بالمسير إليهم، فلمَّا صاروا إلى حمراء الأسد - وهي على رأسِ ثمانيةِ أميالٍ من المدينة - لَم يروا المشركين هناك، فانصرف المسلمون إلى المدينة بنعمة من الله ﷻ، وهي كفاية الله ﷻ لهم شَرَّ قريشٍ حتى لَم يَنَلْهم منهم شرٌّ ولا ضُرٌّ[٢].

---

[١] هو جبل أحمر جنوب المدينة على (20) كيلا، إذا خرجت من ذي الحليفة تؤم مكّة رأيت حمراء الأسد جنوباً. معجم المعالِم الجغرافية في السيرة النبوية ص105.

[٢] هذا السياق لوقعة حمراء الأسد فيه نكارة شديدة من جهة ذكر وجود المشركين بأُحُدٍ بعد انتهاء المعركة يمثّلون بالقتلى، وأن النبي ﷺ صلّى عليهم عند دفنهم. ولكن قد ثبت أصلُ القصة، وصحَّ كونُها هي سببَ نزولِ هذه الآيات. فقد أخرج البخاري (المغازي/ باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾/ ح4077) عن عائشة ﵂ أنها قالت لعروة في هذه الآية: « يَا ابنَ أُختِي، كَانَ أَبوَاكَ منهُم: الزُّبيرُ وأبوبكرٍ، لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ الله ﷺ ما أَصَابَ يَومَ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ عَنهُ المشرِكُونَ خَافَ أَن يَرْجِعُوا، قَالَ: «**مَن يَذهَبُ فِي إِثْرِهِم** ؟» فَانْتَدَبَ مِنهُم سَبعُونَ رَجُلا». وإليه ذهب عكرمة، وعمرو بن دينار، والحسن، وقتادة، والسدي، وابن إسحاق، على اختلاف بينهم في تفاصيل القصّة. وقال ابن كثير بعد أن

قالوا: وسَمَّى الله تعالى هذه الكفاية فضلا لئلا يُقَدَّر في هذه النعمة أنها مستحَقَّة لا محالة.

وفي قوله ﷻ: ﴿ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ بيان أنه ﷻ يتفضل عليهم مِن بعدُ بنعيم الدنيا والآخرة. وبالله التوفيق.

قولـــــه ﷻ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾

معنى الآية – والله تعالى أعلم –: ولا يحزنك – يا محمد ﷺ – الذين يبادرون إلى الــجَحْدِ والتكذيب، وهم اليهود؛ كانوا يكتمون صفة النبيﷺ في التوراة، وكان يشقّ ذلك عليه ﷺ.

ويقال: هم مشركو قريشٍ[١]، كانوا يُكَذِّبونه، وكان الناس يقولون: لو كان حقًّا لاتَّبعه أقرباؤه، وكان يشق ذلك عليه.

ويقال: نزلت هذه الآية في قوم ارتدوا عن الإسلام، فاغتمَّ النبي ﷺ ولَم يَأمن أن يضُرُّوه بردَّهم[٢]، فآمَنَه تعالى مِن ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ أي لَم ينقصوا شيئًا من مُلكِ الله تعالى وسُلطانِه، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا﴾ نصيبًا من الجنة في الآخرة.

سرد الروايات: «وهكذا قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: إن هذا السياق نزل في شأن غزوة حمراء الأسد، وقيل: نزلت في بدر الموعد، والصحيح الأول». راجع: سيرة ابن هشام 101/2-102، والطبري 241/6-243، وابن أبي حاتم 816/3، والأسباب للواحدي ص261-262، وابن كثير 270/3.

[١] نسبه الثعلبي في الكشف والبيان 215/3، والواحدي في البسيط ق86/أ، وابن الجوزي في زاد المسير 508/1 إلى الضحاك.

[٢] ذكره الماوردي في النكت والعيون 439/1 بلا نسبة، ونسبه الطوسي في التبيان 56/3 إلى أبي عليّ الجبّائي.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ﴾ يُريد إحباطَ ثوابِ أعمالهم بما استحقُّوه من جرائمهم[1].

وقال الحسن ﷺ: معناه يريد فيما حَكَمَ مِن عَدْلِ حُكْمِهِ أنَّ مَن اختار الكفرَ على الإيمان فلا حَظَّ له في الآخرة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ظاهر المراد.

قولـــه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُـرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

معناه: أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان لَم ينقصوا من ملك الله ﷻ، وإنما أَضَرُّوا بأنفسهم حيث استوجبوا لأنفسهم العذابَ، ولهم عذاب وَجِيعٌ في الآخرة.

فإن قيل: كيف أعاد قوله ﷻ: ﴿لَن يَضُـرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾، وما الفائدة فيه؟ قيل: إنَّ المراد به في الآية الأولى تسليةُ النبيﷺ، والمراد به في الآية الثانية بيانُ أنَّ مَضَرَّةَ كفرهم لاحقةٌ بهم[3].

قولـــه ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

من قرأ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء[4]، فالخطاب للنبي ﷺ، لا تَظُنَّنَّ يا

---

(1) أخرجه الطبري 258/6، وابن أبي حاتم 822/3.

(2) ذكره الـــهُوَّاري في تفسيره 335/1، وكذا ابن أبي زمنين 336/1 عن الحسن بلفظ: « ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾: أي اختاروا الكفر على الإيمان ».

(3) بنحوه قال الطوسي في التبيان 57/3-58.

(4) هي قراءة حمزة وحده، وقرأ الباقون بالياء على اختلاف بينهم في فتح السين وكسرها.

محمد ﷺ اليهود والنصارى والمنافقين، أَنَّ إملاءَنا خيرٌ لهم من أن يموتوا كما مات شهداءُ أُحُدٍ.

ويقال: معناه: ولا تحسبن إملاءنا لهم لِخَيرٍ وتوبةٍ تقع منهم، إنما إملاؤنا لهم أن تكون عاقبةُ أمرهم أن يزدادوا بذلك معصيةً على معصيةً، ولهم عذاب مُهينٌ يُهانون فيه.

ويقال: إن المرادَ بالذين كفروا مشركو قريش [(١)]؛ كأَنَّ الله تعالى قال: ولا تَظُنَّنَّ يا محمد ﷺ أَنَّ ما أصابوا من الظَّفَر يوم أُحُدٍ خير لأنفسهم، وإنما كان ذلك ليزدادوا معصيةً، فَيُزاد في عقوبتهم.

ويجوز وقوعُ فعلِ الحسبان على الاسم ويراد به ما بعده ؛ لأَنَّ الحسبان يتعدَّى إلى مفعولَين كقولك: (حَسِبْتُ زيدًا مُنطَلِقًا)، فيكون تقدير الآية: لا تَحسَبَّنَ إمْلاءَنا للذين كفروا أَنَّ ذلك خيرٌ لهم. وهذا كما قال الشاعر:

فَمَا كانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ واحدٍ... ولكنَّهُ بُنيانُ قومٍ تَهَدَّما [(٢)]

معناه: ما كان هلكُ قيسٍ هلكُ واحدٍ[(٣)].

ومن قرأ: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ﴾ بالكسر في الموضعين[(٤)]، فلأن الحسبان ليس

راجع: المبسوط ص149، والروضة 599/2، والنشر 244/2.

(١) قاله مقاتل في تفسيره 206/1.

(٢) هو لعَبْدَةَ بنِ الطيِّب، يرثي قيسَ بن عاصم بن سنانٍ السعدي التميمي ﷺ في ميميّته. وهو من شواهد « الكتاب » 156/1. وراجع الميميّة في: الشعر والشعراء 728/2، والمجالسة وجواهر العلم 168/3، وبهجة المجالس وأنس المجالس 514/2.

(٣) راجع: معاني القرآن للزجاج 491/1.

(٤) هي قراءة شاذّة، قرأ بها يحيى بن وثّاب. راجع: الشواذ ص23، وإعراب القرآن للنحاس ص226-227، وشواذ القراءات ق27/ب.

بفعلٍ حقيقيٍّ[١] فيَبطُلُ عملُه مع « إِنَّ » كما يبطل عمله مع اللام[٢]، تقول: (حَسِبْتُ لَعبدُ الله منطلقٌ)[٣].

ويجوز أن يكون « ما » في قول الله ﷻ: ﴿ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ عِمَادًا وصِلَةً، وتقدير ذلك: ولا تَحسَبَنَّ أَنَّ إملاءَنا خيرٌ لهم[٤].

ومنهم من جعل « ما » في هذا الموضع اسمًا [٥]، يكتبها على الانفصال[٦]، أي لا تحسبنَّ أَنَّ الذي نملي لهم خيرٌ لهم.

والإملاء في / اللغة: إطالة المدة، والـــمُلاوة: الحين من الدهر، والـــمَلَوان: الليل والنهار[٧].

ونظير اللام من قوله ﷻ: ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ﴾ قولُه ﷻ: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[٨][٩]. وقد يقول الرجل للآخر: (ما

---

[١] وذلك لأنه لا يدلّ على حَدَثٍ مستقلّ، وإنما يدخل على ما أصلهما المبتدأ والخبر، فأشبه الأفعالَ الناقصة كـــ«كان» وأخواتها، والحروفَ كـــ«إن» وأخواتها؛ ولأنه يعتريه ما يُبطل عملَه من التعليق والإلغاء.

[٢] وهذا ما يسمّيه النحاة بالتعليق.

[٣] هذا الكلام في توجيه كسر «إن» نقله الزجاج في معاني القرآن 491/1 عن المبرّد.

[٤] وصف المصنف لـــ«ما» بأنها صِلَةٌ فيه نظر، إذ معنى«صِلَة» أنها زائدة، ولا يصح أن تكون كذلك، بل هي مصدريّة قطعا، ويدل عليه التقدير الذي قدّره المصنف نفسه«أَنَّ إملاءَنا » حيث أوَّلَ «ما» مع الفعل بالمصدر. وراجع: التبيان في إعراب القرآن للعكبري 221/1.

[٥] ممن جعلها كذلك: أبو عُبيدة في مجاز القرآن 108/1.

[٦] قلتُ: هي موصولة في رسم جميع المصاحف؛ والرسم سنّة متّبَعة فلا يُخالَف. راجع: المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص78، والكشاف 472/1.

[٧] راجع: تهذيب اللغة 291/15، ومقاييس اللغة 352/5، مادة «م ل و».

[٨] مطلع الآية (8) من سورة القصص.

[٩] علّق الناسخ في الهامش على ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ ﴾ و﴿ لِيَكُونَ ﴾ بقوله: «هذه لام العاقبة ». قلتُ: لا سواء، فإن فرعون لَم يُرِدْ أن يكون موسى عليه السلام عدوا له، لكن كان عاقبة أمره أن صار ﴿ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾، فاللام لام العاقبة؛ وأما الله ﷻ، فقد أراد وشاء وقدَّر —

زادك وعظي إلا شرًّا، وما كان وعظي إلا وبالاً عليك)، إذا كان لا يقبل موعظته.

ومن قرأ: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، فمعناه لا يَظُنَّنَّ الكفارُ أنَّ إملاءَنا خيرٌ لهم.

قوله ﷻ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

قال عبدالله بن عباس: وذلك أَنَّ قريشا من أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: إنك تزعم فيمن خالفك أنه من أهل النار، وإذا تَرَكَ دينَنا واتَّبع دينَك فهو من أهل الجنة، فأخبِرْنا عن هذا، من أين هو؟ وأخبِرْنا مَن يأتيك ومن لا يأتيك؟[١] فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢].

ومعناها: لَم يكن الله لِيَترُكَ من كان في علمه السابق أنه يؤمن على ما أنتم عليه من الكفر حتى يَميز الكافر والمنافق من المؤمن المخلص، وما كان الله

حكمةً منه وعدلا- أن يزدادوا إثما، فاللام في ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟﴾ للإرادة والتعليل. والقول بأن هذه اللام نظيرُ تلك، قول المعتزلة، ومرادهم بذلك: أن الله لَم يُرِدْ أن يزداد الكفار إثما، وإنما فقط علم أن عاقبة أمرهم سيكون كذلك. ومؤدى قولهم هذا، أنه يقع في الكون ما لا يريده الله ﷻ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.راجع: تنـزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبدالجبّار ص 83، تفسير الماتريدي 538/2-540، والبسيط ق87/أ، وأنوار التنـزيل للبيضاوي 50/2.

[١] كذا في الأصل وفي بحر العلوم؛ وعند غيرهما: «فأخبِرْنا مَن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك».

[٢] هذا من رواية الكلبي الكذاب. راجع: بحر العلوم 268/1، والكشف والبيان 217/3، وأسباب النزول للواحدي ص262، والعُجاب 799/2. **قلتُ:** وأصح منه، وأليق بظاهر لفظ الآية، وأوفق لسياقها، ما قاله مجاهد في نزول الآية: «مَيَّز بينهم يومَ أُحُد، المنافقَ مِنَ المؤمن». أخرجه الطبري 263/6، وابن المنذر 510/2، وابن أبي حاتم 824/3.

لِيُظهرَكم ويُوقِفَكم - يا أهلَ مكَّة - على مَن يَصيرُ منكم مؤمنًا قبلَ أن يؤمن، ولكنَّ الله يصطفي من يشاء للنبوة والرسالة فيوحي إليه ما يشاء لأنَّ الغيب لا يَطَّلِعُ عليه إلا الرسلُ - صلوات الله عليهم- بوحي من الله عز وجل ليقيموا البرهان على أنَّ ما أتوه به من عند الله تعالى وهذا كما قال الله عز وجل في آية أخرى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [1].

ومعنى ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾: صَدِّقُوا بالله ورسله.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي تُصدِّقُوا وتتَّقوا الشرك والمعصيةَ، فلكم ثواب عظيم في الجنة.

ومن قرأ: ﴿يَمِيزَ﴾ بالتخفيف وفتحِ الياء[2]، فهو من الــمَيزِ، وهو الفرق، ويسمَّى العاقل مميزاً لأنه يَفرُقُ بَينَ الحقِّ والباطل.

وأصل الاجتباء الجمع[3]، كأنَّ الله عز وجل يخلِّص رسولَه صلى الله عليه وسلم لنفسه حتى يكون له بأَجمَعِه.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت في المنافقين، فإنهم أعلنوا الإسلامَ وأَسَرُّوا الكفرَ وصلَّوا مع المؤمنين، فسأل المخلصون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يميز الله تعالى بين الفريقين ويطلعهم على سرائر المنافقين، فأنزل الله عز وجل هذه الآية[4].

ومعناها: أن الله تعالى لا يترك المؤمنين على ما أنتم عليه - أيها

---

(1) الآيتان (26-27) من سورة الجن.

(2) وهي قراءة المدنيِّين، وابن كثير، وابن عامر، وأبي عمرو، وعاصم. وقرأ الباقون — وهم يعقوب، والكوفيّون عدا عاصمًا - : ﴿يُمَيِّزَ﴾ بضم الياء الأولى وتشديد الأخرى. راجع: المبسوط ص149، والروضة 599/2-600، والنشر 244/2.

(3) تقول: (جَبَيتُ المال أجْبِيه جبايَةً) إذا جمعتَه. راجع: مقاييس اللغة «ج ب ي».

(4) نُسب هذا القول إلى أبي العالية في الكشف والبيان للثعلبي 218/3، وأسباب النــزول للواحدي ص263.

المؤمنون- بظاهر الحال حتى يُظهر نفاق المنافقين بالدلائل التي تظهر منهم مِن تخلُّفِهم عن الجهاد وتثبيطهم المخلصين عنه، وما كان الله ليجعل لكم علامةً تعرفون بها حقيقةَ ما في قلوب المنافقين، ولكنَّ الله يصطفي من رسله من يشاء فيطلعه على الغيب.

قوله ﷻ: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾

من قرأ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ بالتاء[1]، فمعناه: لا تَظُنَّنَّ يا محمد ﷺ بُخْلَ الذين يبخلون بما أعطاهم الله تعالى من فضله من المال فيمنعون ذلك من حق الله تعالى في الزكاة والجهاد وسائرِ وجوه البرِّ الذي [2] أوجب الله تعالى عليهم، لا تَظُنَّنَّ ذلك خيرًا لهم.

وإنما حُذِفَ ذكرُ البخل في أول الآية[3] لأن المضاف إليه قد يُذكر ويراد به المضاف كما في قوله ﷻ: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾[4]، ولأن الفعل المذكور بقوله ﷻ: ﴿ يَبْخَلُونَ ﴾ يدل على البخل، وهو كقول القائل:

إذا نُهيَ السفيهُ جرىٰ إليه ... وخالف، والسفيه إلىٰ خلاف[5]

---

[1] هي قراءة حمزة وحده. راجع ما سبق عند الآية (178).

[2] كذا في الأصل، وفي تفسير الحدّاد 182/2: «التي».

[3] إذ التقدير: لا تحسبنّ بخل الذين يبخلون ...الخ.

[4] جزء من الآية (82) من سورة يوسف.

[5] البيت في معاني القرآن للفراء 249/1، وتفسير الطبري 268/6، وبهجة المجالس 621/2 بلا نسبة. والشاهد فيه قوله: «جرىٰ إليه» أي جرى إلى السَّفَه، فاكتفى بذكر السفيه عن السَّفَهِ، كما اكتُفِيَ في الآية بـــ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ عن البخل.

وأما ﴿هُوَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾، للفصل، ويسميه الكوفيون العماد[1].

ومعنى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾: بُخْلُهم بحقِّ الله تعالى شرٌّ لهم.

وقوله ﷻ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي سيأتون يومَ القيامة بما بخلوا به مِن الزكاة ونفقةِ الجهاد كهيئة الطوق في أعناقهم. وهذا كما قال الله ﷻ في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾[2].

وعن عبدالله بن عباس ﭭ موقوفا عليه، ومرفوعا إلى رسول الله ﷺ، أنه قال: « **يَأْتِي كَنْزُ أَحَدِكُم شُجَاعًا أَقْرَعَ له زَبِيبَتَان[3] فَيَتطَوَّقُ / في عُنُقِهِ، يَلْدَغُ بِخَدَّيهِ ويقُولُ: أَنَا الزَّكَاةُ الَّتي بَخِلْتَ بِيْ في الدُّنيا**»[4].

ومن قرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، فالفعلُ للباخلين، كأنه قال: ولا يحسبنَّ الذين يبخلون البخلَ خيرًا لهم.

---

[1] راجع: معاني القرآن للفراء 248/1، وللزجاج 492/1.

[2] جزء من الآية (35) من سورة التوبة.

[3] في هامش الأصل: «الزبيبتان: الزَبَدَتان في الشِّدقين، ويقال: هما النُكتتان السوداوان فوق عَينَيه؛ من **ص**». أي من الصحاح «زب ب». قلتُ: المتعيّن هنا المعنى الثاني، فالمراد الحية ذو النكتتين، وهو أخبث ما يكون من الحيَّات. وأما الزَّبَدَتان، فإنما تكونان في فم الإنسان إذا غضب أو أكثر الكلامَ حتى يُزبد. راجع: تهذيب اللغة 120/13، ومقاييس اللغة 6/3 «زب ب».

[4] **[صحيح بنحوه]** لَم أجده عن **عبدالله** بن عباس ﭭ موقوفا، ولا مرفوعا. وإنما روي عن **عبدالله** بن مسعود ﭬ نحوَه بالوجهين، فالموقوف عند الطبري 272/6-273، وابن أبي حاتم 827/3، والطبراني في الكبير 262/9، من عدة طرق بألفاظ متقاربة. وأما المرفوع، فأخرجه أحمد 48/6 (3577)، والترمذي (التفسير/باب ومن سورة آل عمران/ح3012) – وصحّحه -، والطبري 273/6، وغيرهم. وقد صحَّ أيضا بنحوه من حديث أبي هريرة ﭬ عند البخاري (الزكاة/باب إثم مانع الزكاة/ح 1403)، ومن حديث عبدالله بن عمر ﭭ عند أحمد 22/10 (5729)، وابن خزيمة (2257).

وذهب بعضهم إلى أن المراد بهذه الآية اليهود، بخلوا بِـــبَيان صفةِ رسول الله ﷺ، وأبخل الناس من بخل بعلمه[1].

ومعنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ على هذا القول: سيُطوَّقون وِزرَه ومَأْثَمه كقوله ﷻ: ﴿ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ ﴾ [2].

والأظهر أن هذه الآيةَ في بخل المال.

والبخل في اللغة: منع الحق الواجب، ولذلك يُعَدُّ ذَمًّا فيما بين الناس.

وقال ﷺ: « **وأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الـــبُخْلِ؟** »[3].

وأما منعُ التَفَضُّلِ، فلا يكون بُخلا، ولو جُعِلَ ذلك بُخلا لكان صاحبُ المالِ العظيمِ لا يَتَخَلَّصُ من البخل إلا بإخراج مَالِه كلِّهِ مِن ملكِهِ.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فهو تحريض على الإنفاق، ومعناه: يموت أهلُ السموات وأهلُ الأرض كلُّهم من الملائكة والجن والإنس ولا يبقى إلا الله ﷻ. وإذا كانت الأموال لا تبقى للناس ولا يحملونها مع أنفسهم إلى قبورهم فالأجدر بهم أن ينفقوها في الوجوه التي أمر بها الله ﷻ فيستوجبون بها الحمدَ والثوابَ.

وإنما سمّى الله تعالى هذا ميراثا، والأملاكُ في الحقيقة كانت لله ﷻ قبلَ الخلق، لأنه خاطب الخلقَ على قدرِ عقولهم، وهم يُسمُّون ما يخلص للحَيِّ من

---

[1] روي بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبري 270/6، وابن أبي حاتم 826/3، بالإسناد المسلسل بالعَوفـــيّين الضعفاء. وهو اختيار الزجاج في معاني القرآن 492/1.

[2] جزء من الآية (31) من سورة الأنعام.

[3] **[صحيح]** أخرجه البخاري في الأدب المفرد (296)، وأبو الشيخ في كتاب الأمثال (92) و(93)، وأبو نُعيم في معرفة الصحابة (4987)، والبيهقي في شعب الإيمان 298/13 (10361) و(10362)، من طُرُق عن حجّاج الصوّاف، ثني أبي الزبير، ثنا جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ ؟**»، قَالُوا: الجَدُّ بنُ قَيْسٍ، على أنَّا لَنُبَخِّلُهُ! فَقَالَ ﷺ: « **وَأَيُّ دَاءٍ** ...» الحديث.

الميت ميراثًا، فلذلك ذكر بلفظ الميراث[١]. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي عالِم بمن يؤدي الزكاة وبمن يمنعها. وفي هذا تأكيد للوعد والوعيد لأنه إذا عَلِمَ جازى المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

قولـــــه ﷻ: ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ﴾

نزلت هذه الآيةُ في فِنْحَاصِ بنِ عازُورَاء اليهودي وأصحابِه، قالوا حين نزل قوله ﷻ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ [٢]: نَرَى إلهَ محمدٍ ﷺ يستقرضنا فإذًا هو فقير ونحن أغنياء[٣]. وإنما قالوا ذلك تلبيسًا على سَفِلَتِهم وطعنًا في النبوَّة على أنه لو كان ﷻ هو الذي بعث محمدًا ﷺ - وهو القادر على كل شيء - لَم يكن ليستقرضَ! وكانوا يعلمون في أنفسهم أَنَّ لفظَ الإقراض تَلَطُّفٌ في الاستدعاء إلى الإنفاق.

وإنما سمى اللهﷻ الصدقةَ قرضًا من حيثُ إنَّ المقرِض يُرَدُّ عليه مالُهُ ويبقى له الشكر، وكذلك اللهﷻ يَرُدُّ على المتصدق ضِعفَ صَدَقَتِهِ ويبقى له الثواب.

ومعنى ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾: ستَكتبُ الكِرَامُ الكاتبون عليهم بِأَمْرنا قولَهم ذلك وقَتْلَهم الأنبياءَ بغير جُرمٍ منهم.

---

[١] راجع: معاني القرآن للزجاج 493/1، وبحر العلوم للسمرقندي 269/1.

[٢] جزء من الآية (245) من سورة البقرة، والآية (11) من سورة الحديد، والمقصود هنا آية البقرة لأن سورة الحديد متأخرة في النـــزول، نزلت بعد فتح مكّة.

[٣] اتّفق المفسرون على أن الآية نزلت في اليهود بسبب مقالتهم هذه. وإنما اختلفوا في تعيين قائله من اليهود؛ ذهب عكرمة، والسدّي، وابن إسحاق، ومقاتل إلى أنه «فنحاص»، وذَكَر قتادة أنه «حُيَيُّ بنُ أخطب». راجع: الطبري 278/6-280، ابن المنذر 514/2-517، وأسباب النزول للواحدي ص263-265.

ويقال: معنى ﴿سَنَكْتُبُ﴾ سنحفظ[١]، وأَجْرَى على الحفظ[٢] اسمَ الكتابة لأَنَّ الكتابة إنما تكون للحفظ.

ويُقرأ: ﴿سَيُكْتَبُ﴾ على فعلِ ما لَم يُسَمَّ فاعِلُه، ﴿وَقَتْلُهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ بضم اللام، ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء[٣].

وفي هذا زجرٌ لليهود عن المعصية، فإنهم إذا علموا أنَّ ما يعملونه مكتوبٌ في المصاحف وأنهم يَقرَؤُونه في الآخرة على رؤوس الأشهاد، كانوا أبعدَ من المعاصي في الدنيا لو تَفكَّروا.

ومعنى ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: نقول لهم يومَ القيامة: ذوقوا العذابَ الـــمُحرِقَ. ويقال للذي يُؤْيَسُ مِن العفو: (ذُقْ ما أنت فيه) أي لستَ بمتخلِّصٍ منه[٤].

وقيل: إن النار لا تذاق، ولكن لَمَّا كانت وجوهُ الكفار تَعبسُ عند رُؤيتها أُطْلِقَ اسمُ الذوق عليها لأَنَّ الدواءَ إذا ذِيقَ تبيَّنَتِ الكراهةُ والبغضُ في وجه ذائقه.

قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

معناه: ذلك العذاب بما أقدمتم على الكفر والتكذيب وقتل الأنبياء صلوات الله عليهم. وإنما أضاف إلى اليد على وجه الصلة لأن العمل أكثر ما يكون باليد.

---

[١] هذا قول أبي عُبيدة في مجاز القرآن 110/1.

[٢] في الأصل: «اللفظ»، والـــمُثبَت من النسخة المشار إليها في الهامش.

[٣] انفرد حمزة بهذه القراءة. راجع: المبسوط ص150، الروضة 600/2، والنشر 245/2.

[٤] راجع: معاني القرآن للزجاج 494/1.

وأما قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾، فمعناه: وبأن الله لا يُعذِّب أحدًا بغير ذنب، ولا يمنع أحدًا جزاه حَسَبَ استحقاقه، خيرًا فعله العبدُ أو شرًّا.

وليس لأحد أن يقول: إذا لَم يكن الله ظالما أصلا فلماذا نفى أن يكون[1] ظلاَّمًا؟ لأَنَّ الفائدة في هذا اللفظ بيان أَنَّ العذاب الذي يتوعَّد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفعله بهم لو كان ظُلمًا لكان عظيمًا، فنفاه على حدِّ عِظَمه.

قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾

نزلت الآية في كعبِ ابن الأشرف وجماعةٍ من اليهود قالوا: أمرنا الله في التوراة أن لا نُصَدِّقَ رسولا يزعم أنه من عند الله تعالى حتى يأتيَنا بقربانٍ فتجيءَ نارٌ من السماء لها دَوِيٌّ وحَفِيفٌ [2] تأكل القربان كما كان في زمن موسى وزكريا ويحي وغيرهم من الأنبياء قبلَهم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ [3]. فكان هذا القولُ تَكَذُّبًا منهم على الله عَزَّ وَجَلَّ واعتلالا ومدافعةً في الإيمان بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا احتجاجا / صحيحا، فاحتجَّ الله عليهم بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي﴾، أي قل لهم – يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قد جاءكم رسل من قبلي بالعلامات الواضحات المعجزات وبالذي قلتم في أمر القربان، فَلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين في مقالتكم؟ وكانوا قتلوا زكريا ويحي وجماعةً من الأنبياء – صلوات الله عليهم – وزعموا أنهم قَتَلُوا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

---

[1] في الأصل: «يقول»، وليس له وجه صحيح.

[2] الدويّ والحفيف بمعنى، وهو الصَوت يكون لتَلَهُّب النار، أو مرور الريح، أو جناحي الطائر أو غير ذلك. راجع: الصحاح مادتَي «دوي»، «ح ف ف».

[3] رُوي بنحوه عن الكلبي وغيره. راجع: الكشف والبيان 223/3 للثعلبي، والأسباب للواحدي ص265، ومعالِم التنزيل للبغوي 144/2-145.

قولــه ﷻ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

معناه: فإن نَسبُوكَ - يا محمد ﷺ - إلى الكذب فلستَ بأَوَّلَ رسولٍ كُذِّبَ، لقد كُذِّبَ نوحٌ وهودٌ وصالحٌ وغيرُهم من الأنبياء - صلوات الله عليهم - جاؤوا بالعلامات الواضحات وبالزُّبُر.

والزبر: جمع زَبُور، وهو كُلُّ كتابٍ ذي حكمةٍ، يقال: (زَبَرْتُ) إذا كتبت، و(زَبَرْتُ) إذا قرأت[1].

وقيل: إن الزَبُور هو الكتاب الذي يكثر فيه تَكَرُّرُ المزاجر، وهو مأخوذ من الزَّبْرِ، يقال: (زبرتُ الرجل) إذا زَجَرتَه[2].

وأما ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾، فهو الكتاب المبيِّن للحلال والحرام.

قوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: لما نزل قوله ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[3]، قالت الملائكة: هلك أهلُ الأرض، فلمّا نزلت هذه الآية أيقنت الملائكةُ بالهلاك[4].

ومعنى الآية: كل نفسٍ ذائقةٌ شدائدَ الموت، وإنما تُعطَونَ جزاء أعمالكم

---

(1) فهو «فعول» بمعنى المفعول، أي المكتوب أو المقروء. راجع: معاني القرآن للزجاج 495/1، ونزهة القلوب للسجستاني ص254، مقاييس اللغة «زب ر».

(2) راجع: تفسير السمعاني 386/1، والصحاح «زب ر»، والقرطبي 446/5.

(3) الآية (26) من سورة الرحمن.

(4) **[موضوع]** هذا من رواية الكلبيّ، كما في بحر العلوم للسمرقندي 271/1.

بتمامها يومَ القيامة، أي لا تَغْتَرُّوا بتنعُّمِ الكفار، ولا تحزنوا لشدائد المؤمنين، فإنَّ كلا الفريقين يتفرقون، فلا بُؤسَ يبقى ولا نعيمَ في الدنيا، وليست الدنيا دارَ جزاءٍ على الأعمال، وإنما الآخرةُ هي دارُ الجزاء؛ لأنَّ نعيم الدنيا مكدَّرٌ لا يصفو، وإن عُجِّل للمؤمنين بعضُ النعيم فذلك لا يكون إلا مَشُوبًا بغموم الدنيا، وإنما يُوَفِّي الله ﷻ جزاءَ الكلِّ في الآخرة على اتصال ودوام.

ومعنى ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾: مَن أُزِيل وبُعِّدَ عن النار وأُدخِلَ الجَنَّةَ فقد نجا وسَعِدَ في الجنة.

يقال لِكُلِّ من نجا من هَلَكَةٍ أو لَقِيَ ما يُغتَبَطُ به: (فَازَ)، وسُمِّي المفازةُ مفازةً مع أنها مَهْلَكَةٌ على سبيل التفاؤل، كما سمِّي اللديغُ: (سليماً)، والأعمى: (بصيرًا)[1].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، قال ابن عباس: متاع الغرور مثلُ القِدْرِ والسُّكُرُّجَةِ[2] والقماش، متاع في الدنيا ثم يذهب ويَفْنَى، كذلك الحياة الدنيا[3].

ويقال: إن متاعَ الغرورِ ما يَسُرُّ الإنسانَ في الحال ويُمَنِّيه الأمانيَّ، ثم يُوبِقُهُ في الهلكة، وكما أنَّ التاجرَ يَهرُب من متاع الغرور وهو ما يُسارع إليه الفسادُ مثلُ الزُّجاج الذي يُسرِع إليه الكسرُ ولا يُصلِحُهُ الجبْرُ، كذلك ينبغي للحيِّ أن يهرب من الدنيا الفانية إلى متاع الآخرة.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: لَمَّا قُبِضَ رسولُ الله ﷺ سَجَّيناهُ بِثَوبٍ وجَلَسْنَا حولَه نبكي، فأَتانا آتٍ نسمعُ صوتَه ولا نَرَى شخصَه، فقال: السلامُ

(1) راجع: معاني القرآن للزجاج 495/1.

(2) السُّكُرُّجَة: إناء صغير يؤكل فيه الأُدُم والكوامخ، وهو فارسي معرّب. راجع: المعرَّب للجواليقي ص75، و245، ولسان العرب مادة «س ك رج».

(3) هذا من رواية الكلبي؛ ذكره الثعلبي في الكشف والبيان288/5، والبغوي في معالِم التنـزيل 315/4، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد/26].

عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فقلنا: وعليكَ السلامُ ورحمةُ الله وبركاته، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقرأ الآية إلى آخرها، ثم قال: إنَّ في الله تعالى خَلَفًا من كُلِّ هالكٍ، وعَزَاءً مِن كُلِّ مُصيبةٍ، ودَرَكًا من كُلِّ فَائتٍ، فبالله فَثِقُوا، وإياه فارْجُوا، فإنَّ المصابَ مَن حُرِمَ الثوابَ، قال: فتحدَّثْنَا أنه جبريل عليه السلام[1].

قوله عز وجل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

وذلك أن الله عز وجل لما ذكر الجنة في الآية المتقدمة أتى عَقِبَها بما يدعو إليها ويُوجبها، فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، ومعناه: لتُختَبَرُنَّ بالنقص والذهاب في الأموال، وفي أبدانكم بالأمراض والأوجاع.

ويقال: إنَّ المرادَ بالابتلاء فرائضُ الدين مثلُ الجهاد في سبيل الله والإنفاق فيه[2].

ويقال للواحد من المذكَّرين: (لَتُبلَيَنَّ)، وللاثنين: (لَتُبْلَيَانِّ)، وللجماعة: (لَتُبْلَوُنَّ)، ويقال للمرأة: (لَتُبْلَيِنَّ) بكسر الياء، وللاثنتين: (لَتُبْلَيَانِّ)، ولجماعةِ النساءِ: (لَتُبْلَيْنَانِّ)، زيدت الألفُ لاجتماع النونات[3].

---

(1) [ضعيف جدًا] لَم أجده من مسند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، إنما أخرج ابن أبي حاتم 832/3 نحوَه من حديث علي رضي الله عنه، إلا أن الآتي فيه هو الخضر عليه السلام. وفي إسناده «علي بن أبي علي اللهبي» (تحرّف في المطبوع إلى "الهاشمي"، والتصويب من ابن كثير 285/3)، وهو متروك، منكر الحديث. راجع: الجرح والتعديل 197/6، وميزان الاعتدال 147/3.
وروي نحوه من حديث جابر، وأنس، ومرسل علي بن الحسين رضي الله عنهم، بأسانيد واهية، استقصى أكثرَها وتكلّم عليها الشيخ الألباني في الضعيفة 641/11-645.

(2) هذا قول الحسن البصري رحمه الله، نسبه إليه الواحدي في البسيط ق91/أ، ولعلّه مخرّج في تفسير يحي بن سلاّم البصري، إذ به فُسِّرت الآية – ولكن بلا نسبة – في مختصرَيه: تفسير الهوّاري 339/1، وتفسير ابن أبي زمنين 339/1.

(3) راجع: معاني القرآن للزجاج 496/1.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فمعناه: ولتسمعُنَّ من الذين أُعطُوا التوراةَ والإنجيلَ وسائرَ كُتُبِ الله ﷻ - وهم اليهود والنصارى - ومِن مُشركي العرب كلامَ أَذًى كثيرًا؛ أما مِن اليهود فقولُهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾[١]، وقولُهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ونحوُ ذلك، ومن النصارى قولهم: (إنَّ المسيحَ ابنُ الله، وثَالِثُ ثلاثة)، ومن المشركين قولُهم: (الملائكة بنات الله)، وعبادتُهم الأوثانَ، ونَصْبُهم الحربَ لرسول الله ﷺ.

والأذى: ما يكره الإنسانُ ويغتمُّ به.

ومعنى ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾: إن تصبروا على أذى الكفارِ، وتتقوا معصيةَ الله ﷻ، فإنَّ ذلك من عزم الأمور وخيرِها.

والعَزْم في اللغة: تَوطينُ النَّفسِ على أمرٍ من الأمور[٢].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا / بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

معناه: وقد أخذ الله ميثاقَ أهلِ الكتاب ليُبَيِّنُنَّ الكتابَ بما فيه مِن نَعتِ محمدٍ ﷺ وَصِفَتِه لِلنَّاس ولا يخفون شيئًا مِن ذلك.

من قرأ: ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُ﴾ بالياء[٣]، فعلى الحكاية لأنهم غُيَّبٌ.

ومن قرأ بالتاء فعلى المخاطبة التي كانت في أَخْذِ الميثاق، أي قال لهم:

---

[١] جزء من الآية (30) من سورة التوبة.

[٢] فيكون معنى الآية: إن هذه من الأمور التي يجب توطين النفس عليها. راجع: الكشاف 478/1.

[٣] هذه قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم برواية أبي بكر. وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب. راجع: المبسوط ص150، والروضة 601/2، والنشر 246/2.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾[1].

وقوله ﷻ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي رَمَوا به خلفَ ظهورهم. يقال للذي يترك الشيء ولا يعمل به: (جَعَلَ ذلك الأمر خلفَ ظهره).

ومعنى ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: اختارُوا بكتمانِ نعت النبي ﷺ وصفتِهِ عَرَضًا يسيرًا من المأكل والهدايا التي كانت لعلمائهم من رُؤَسائهم، فَبِئْـــسَ ما يختارون الدنيا على الآخرة.

وقال الحسن وقتادة ﵄: المراد بهذه الآية كلُّ من أُوتِيَ علمًا فكتمه[2].

قولـــه ﷻ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

في الآية قولان؛ أحدهما: أنها نزلت في اليهود، كانوا يقولون: (نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب الأَوَّلِ والعلمِ الأَوَّلِ)، يريدون الفخر والمنَّ والسُّمْعَةَ والرياءَ لكي يُثني عليهم ويَحمَدُهم سَفِلَتُهُم على ما يفعلون مِن بَيَانِ صِفَةِ كِتابِهم [3].

---

[1] راجع: الطبري 6/297-298، ومعاني القرآن للزجاج 1/496.

[2] لَم أجد قولَ الحسن على ما ذكره المؤلف، وإنما وجدت أنه قال في الآية: «هم اليهود والنصارى». أخرجه ابن أبي حاتم 3/836. وأما قول قتادة، فإليكم لفظَه النفيسَ بتمامه، قال: « ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ الآية، هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمَن عَلِمَ شيئًا فليعلِّمْه، وإياكم وكتمانَ العلم، فإنَّ كتمانَ العلم هَلَكة، ولا يتكلَّفنَّ رجلٌ ما لا عِلْمَ له به، فيخرجَ من دين الله فيكونَ من المتكلِّفين، كان يقال: (مَثَلُ عِلمٍ لا يقال به، كمَثَلِ كنزٍ لا يُنفَقُ منه ! ومَثَلُ حكمةٍ لا تُخرج، كمثل صَنَمٍ قائم لا يأكل ولا يشرب)، وكان يقال: (طوبى لعالِمٍ ناطقٍ، وطوبى لمستمع واعٍ)، هذا رجلٌ عَلِمَ علمًا فعلَّمه وبَذَلَه ودعا إليه، ورجلٌ سمع خيرًا فحفظه ووعاه وانتفع به ». أخرجه الطبري 6/296 – واللفظ له-، وابن المنذر 2/527.

[3] قد ذهب كثير من السلف، كابن عبّاس ﵄، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدّي في

والثاني: أنها نزلت في المنافقين كانوا يأتون النبيَّ ﷺ ويخالطون المسلمين ويُراءون بالأعمال إليه، يحبون أن يُحمَدوا ويُمدَحوا على ذلك[1].

وأما قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾، فمعناه: لا تَظُنَّـنَّهُم يا - محمدُ ﷺ - بمنجاةٍ، أي بُعْدٍ من العذاب، ولهم عذابٌ وَجيعٌ في الآخرة.

وتكرار ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾[2] في هذه الآية لطول القصة، كقول العرب: (لا تَظُنَّنَّ زيدًا إذا جاءك وحدَّثك بكذا وكذا، فلا تَظُنَّنَّه كاذبًا). ويجوز أن يكون خبرُ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ الأولِ مضمرًا، تقديره: لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أَتَوا ويحبون أن يحمدوا بما لَم يفعلوا = نَاجِينَ وأَنَّ ذلك خيرٌ لهم.

ومن قرأ: ﴿بِمَآ أُوتُواْ﴾ [3]، فمعناه بما أُعطُوا من الدنيا[4].

ومن قرأ: ﴿بِمَآ ءَاتَواْ﴾ [5]، فمعناه بما أَعطَوا مِنَ النَّفَقَةِ والصَّدَقَة.

آخرين إلى أن الآية نزلت في اليهود، على اختلاف بينهم في بيان قِصَّة السبب. واللفظ الذي ذكره المؤلف، مرويّ عن الكلبي كما في تفسير الهوّاري 340/1. وراجع لآثار الباقين: الطبري 301/6-306، وابن أبي حاتم 838/3-841.

(1) هذا قول أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: «إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرَجَ النبيُّ ﷺ إلى الغَزْوِ تخلَّفوا عنه وفَرِحُوا بمقعدهم خلافَ رسولِ الله ﷺ، فإذا قَدِمَ النبيُّ ﷺ اعتذروا إليه وحَلَفُوا، وأَحَبُّوا أن يُحمَدُوا بما لَم يَفْعَلُوا، فنزلت فيهم الآية». أخرجه البخاري (التفسير/ باب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾/ ح4567)، ومسلم (صفات المنافقين/ح2777)، والطبري 300/6، وغيرهم.

(2) في الأصل: «ولا تحسبنّ»، وهو خطأ.

(3) هي قراءة شاذة، قرأ بها سعيد بن جُبير، وتُنسب إلى أبي عبد الرحمن السُّلَمِي. راجع: الشواذ لابن خالويه ص23، شواذ القراءات للكرماني ق28/أ، والمحرر الوجيز 315/3.

(4) قال سعيد بن جُبير في معنى قراءته: «اليهود يفرحون بما آتى الله إبراهيمَ عليه السلام»، أي مِن الكتاب والنبوّة. أخرجه الطبري 304/6، وراجع: والمحرر الوجيز 315/3.

(5) هذه -أيضا- قراءة شاذة، تُنسب إلى الأعمش وغيره. راجع: الشواذ لابن خالويه ص23-24، وإعراب القرآن للنحاس ص229، وشواذ القراءات للكرماني ق28/أ.

قولـــه ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩﴾

معناه: ولله خزائنُ السمواتِ والأرضِ؛ فخزائن السموات: المطرُ، وخزائن الأرض: النباتُ.

ووجهُ اتِّصالِ هذه الآية بما سبق أَنَّ في هذا تكذيبَ اليهود في قولهم:﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾، وبيانَ أَنَّ مَن كان مالكَ السماوات والأرض فهو قادرٌ على الانتقام من الكفار والإثابةِ للمؤمنين، وعلى كل شيءٍ من الأشياء. وبالله التوفيق.

قولـــه ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾

معناه: إنَّ في خلق السماوات بما فيها من الشمس، والقمر، والنجوم، والأرض بما فيها من الجبال والشجر والنبات والدواب، واختلاف الليل والنهار في المجيء والذهاب واللون، لعلاماتٍ واضحاتٍ لذوي العقول مِن الناس على توحيد الله ﷻ[1].

وذلك أن تعاقبَ الأعراضِ المتضادَّةِ في السماوات والأرض مع استحالة وجودها عاريةً منها - والأعراضُ محدَثةٌ - دليلٌ على حدوث السماوات

---

[1] يقصد المؤلف بالتوحيد- كما سيأتي في كلامه - إثباتَ الصانع القديم لهذا الكون، وهو أمرٌ لَم يُنكره الكفّار الذين بُعث إليهم النبيﷺ، وإنما أنكروا توحيدَ العبادة والمعادَ، ولذا كان مطلوب الآيات التي أمرت بالنظر والتفكّر = أن يتوصّل الناظر إلى إثبات أن الله تعالى هو الإله الحق الذي تُفرَد له العبادة، وأن يتوصل إلى إثبات المعاد وأن الله لَم يخلق الخلقَ عبثًا بحيث لا يأمرهم ولا ينهاهم. ومما يدلّ على ذلك هنا، أن الله أخبر عن أولي الألباب أنَّ تفكُّرَهم أدَّاهم إلى أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

والأرض؛ لأن الأجسامَ إذا لَم تَخْلُ من الأعراض مثل الحركة والسكون والاجتماع والافتراق، لَم تكن الأجسامُ سابقةَ الأعراض، وما لَم يَسْبِقِ الــمُحْدَثَ فهو مُحْدَثٌ. ويُستَدَلُّ بحدوثِها على أنَّ لها مُحْدِثًا لاستحالةِ وُجُودِ حادثٍ لا مُحْدِثَ له، ويندرج من ذلك إلى أن مُحْدِثَها قديمٌ؛ لأَنَّ محدِثَ الأجسام لو كان محدَثًا لاحتاج إلى مُحْدِثٍ آخر فكان يتسلسل إلى ما لا نهاية له[1].

ويُستدَلُّ مِن خلق السموات والأرض إلى أَنَّ مُحْدِثَها حيٌّ عالِمٌ قادرٌ سميعٌ بَصيرٌ، ومِن ذلك إلى أنه لا يُشبِهُ الأجسامَ ولا شيئًا من الأشياء، فإنه لو أشبهها لَم يَخْلُ مِن أن يُشبِهَها من جميع الوجوه أو مِن بَعضِها، فإن أشبهها من جميع الوجوه فهو محدَث مثلُها، وإنْ أشبهها من بعض الوجوه فواجب أن يكون مُحْدَثًا من ذلك الوجه لأنَّ حكمَ المتشابِهَينِ واحدٌ مِن حيث اشْتَبَهَا، فوجب أن يتساويا في حكم الحدوث من ذلك الوجه، وأن يجوزَ على كلِّ واحدٍ منهما ما يجوز على الآخر من التغيير والزيادة والنقصان.

وفي مجيء الليل والنهار على التعاقب على مقدارٍ معلومٍ حتى أَنَّ مقدار النهار في كل صيف يكون على مقداره في الصيف الماضي، دليلٌ على أن الذي يأتي بهما عالِم لا يسهو ولا يغفل عن شيء.

---

[1] هذا دليل المتكلمين من الجهمية والمعتزلة والأشعرية على إثبات حدوث العالَم وأنّ له صانعا، وهو مبنيٌّ على أمرين: أن الجسم لا يخلو عن «الأعراض» التي هي الصفات، والثاني: ما لا يخلو عن الأعراض فهو مُحدَث لأن الأعراض لا تكون إلا مُحدَثة. وهذه الطريقة هي أساس «الكلام» الذي اشتهر ذمُّ السلف والأئمة له، وهي طريقة باطلة أَدَّتْ بمن اعتمد عليها في أصول دينه إلى نفي صفات الله تعالى كلّها (كصنيع المعتزلة)، أو الاختياريِّ منها (كصنيع الأشاعرة)، بشُبهةِ أنها أعراض أو حوادث، لا يتّصف بها إلا الجسم الحادث. راجع: مجموع الفتاوى 3/303-306، و6/33-50، و12/140؛ والصفدية ص275-276؛ ودرء التعارض 1/38-41، و1/301-310؛ كلها لابن تيمية رحمه الله.

/ قوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾

بيان لصفة أولي الألباب.

وفي قوله ﷻ: ﴿ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا ﴾ قولان؛ **أحدهما**: أن المراد بذلك الذكر المطلق، أي يذكرون الله تعالى في جميع أحوالهم؛ لأن الإنسان لا يكون إلا على إحدى هذه الحالات الثلاث إلا في النادر[1].

والثاني: أن المراد بالذكر الصلاةُ، أي لا يَدَعون الصلاة صَحُّوا أو مَرِضُوا، يُصَلُّون قيامًا إن استطاعوا، وجلوسًا إن لَم يستطيعوا قيامًا، ومضطجعين إن لَم يستطيعوا جلوسًا [2].

ومعنى ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾: يتفكرون في عِظَمِ شأنهما وما فيهما من الآيات والعِبْرات، قائلين: يا ربَّنا ما خلقتَ هذا الخلْقَ لِلباطل والعبث، بل خلقتَه دليلا على وَحدَانيَّتك وصِدْقِ ما أَتَتْ به أنبياؤُك، تتريهًا لك وبراءةً لك مِن أن تكون خلقْتَهما باطلا، فادفَعْ عنَّا عذابَ النار.

رُوي أنه لما نزلت هذه الآيةُ قال ﷺ: « **وَيْلٌ لِمَن لاكَهَا بَينَ فَكَّيهِ ولَم يَتأَمَّلْ فِيهَا** »[3].

---

[1] وهذا قول مجاهد وابن جريج. راجع: الطبري 309/6، وابن المنذر 534/2.

[2] بنحوه قال قتادة، ولفظه: « وهذه حالاتك يَا ابْن آدم، اذْكُرِ الله وأنت قائم، فإن لَم تستطع فاذكره جالسًا، فإن لَم تستطع فاذكره وأنت على جنبك، يسرٌ مِن الله وتخفيفٌ ». أخرجه الطبري 309/6، وابن المنذر 533/2، وابن أبي حاتم 842/3.

[3] **[حسن صحيح بمعناه]** أخرجه ابن المنذر 532/2-533، وابن حبّان في صحيحه 387/2 (620)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص153-154، وص160، بإسنادَين حَسَنَين عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة ﵂ مرفوعا بلفظ: «**وَيلٌ لِمَن قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**».

وهذا حثٌّ على النظر في دلالات اللهﷻ وزجرٌ عن الاتكال على التقليد.

قولُـــه ﷻ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾

من دُعاءِ أولي الألباب. ومعناه: يا ربَّنا إنَّك مَن تُدخِلِ النارَ يومَ القيامة فقد أَهَنْـــتَه وأَذلَلْتَه، ويقال: أوقَفْتَه مَوقِفًا يُستحيَى منه، واسم الخزي يَحتمِل الفضيحةَ، ويَحتِمل الحياءَ[1].

وفي تفسير قتادة: إنك من تُخَلِّدْ في النار فقد أخزيته[2].

ومعنى ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾: ما لهم مِن مانعٍ يمنعهم مما يُراد بهم من العذاب.

قولــه ﷻ: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾

معناه - والله أعلم -: يقولون ربَّنا إننا سمعنا محمدًا ﷺ يدعو الخلقَ إلى الإيمان بأن آمِنُوا بربِّكم فَأَجَبْنا إلى ما دعانا إليه وأَمَرَنا به.

وعن محمد بن كعب القرظي أنه قال: المنادي كتاب الله ﷻ، يدعو

---

[1] (خَزِيَ الرجلُ) أي لحقه انكسار وهوان، فإن كان مِن نفسه– وهو الاستحياء - قيل: (خَزِيَ يَخزَى خَزَايةً)، وإن كان من غيره – وهو الإذلال والفضيحة – يقال: (خَزِيَ يَخزَى خِزْيًا). راجع: تهذيب اللغة 204/7-205، ومفردات القرآن ص153 مادة «خ ز ي».

[2] أخرجه ابن المنذر 535/2. وقد أخرج ابن أبي عاصم في «السنّة» 591/1 (885)، والطبري 312/6، وابن أبي حاتم 842/3، والنحاس في معاني القرآن 526/1، عن قتادة عن أنس ﷺ بنحوه، إلا أن في إسناده مؤمَّلَ بنَ إسماعيل العدوي، وهو صدوق كثير الخطأ (تهذيب التهذيب 193/4).

الناسَ كلَّهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله[١].

وأما وضعُ اللام موضعَ «إلى»[٢]، لأن اللامَ للغرض الذي هو الغاية، و«إلى» للغاية، فصَحَّ أن يُوضَع أحدُهما موضعَ الآخر[٣].

ومعنى ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي اغفر لنا الكبائرَ وما دون الكبائرِ، وكَفِّرْ عنَّا شركَنا في الجاهلية، هكذا قال الكلبي[٤].

وقيل: إن الذنوب والسيئات بمعنى واحد[٥].

وقيل: إنما جمع بين اللفظين لأن المغفرة قد تكون ابتداءً، وتكفيرُ السيئات إنما يكون بطاعاتٍ أعظمَ منها، وهو نظير إحباط الطاعة بالمعصية[٦].

ومعنى ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أي اجعل أرواحَنا مع أرواح الأنبياء والصالحين الذين كانوا قبلنا.

ويقال: هذا دعاء الاستعاذة من شَرِّ آخر الزمان كقول يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٧][٨].

---

[١] أخرجه الطبري 314/6، وابن المنذر 536/2، وابن أبي حاتم 842/3، ولفظه عند الطبري: «هُو الكِتَابُ، ليس كلُّهم لَقِيَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم». وهذا القول اختاره الطبري.

[٢] وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلۡإِيمَٰنِ﴾.

[٣] راجع: معاني القرآن للفراء 250/1، والبسيط ق 93/ب، والبحر المحيط 473/3.

[٤] ذكره السمرقندي في بحر العلوم 274/1.

[٥] ذكره السمرقندي في بحر العلوم 274/1 بلا نسبة.

[٦] قال بنحوه الواحدي في البسيط ق 93/ب.

[٧] تتمّة الآية (101) من سورة يوسف.

[٨] يقصد المصنف – والله أعلم – أنه إذا حُمِلَ قولُهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ ودُعاء يوسف عليه السلام، على أنه طلبٌ للموت – وذلك منهيٌّ عنه في الأصل–، يكون المراد من دعائهم الاستعاذة من الفتن التي تضر بالدين في آخر الزمان، فإنه عندئذ يحسن سؤال الموت، وذلك كما في الدعاء النبوي: «**وَإِذَا أَرَدْتَ فِتنَةً فِي قَومٍ فَتَوَفَّنِي غَيرَ مَفتُونٍ**». أخرجه الترمذي (تفسير القرآن/ سورة ص/ ح3235) من حديث معاذ رضي الله عنه، وقال: «سألت محمد ابن إسماعيل [البخاري] عن هذا الحديث، فقال: هذا حديث حسن صحيح».

والأبرار يجوز أن يكون جمعُ « بَارٍّ » كما يقال: (صاحب وأصحاب)، ويجوز أن يكون جمع « البَرِّ » كما يقال (جَدّ وأجداد) و(ثَوب وأثواب)[١].

وعن الحسن رضي الله عنه: « **أنَّ البَرَّ هو الذي لا يؤذي الذرَّ** »[٢].

قولــه عز وجل: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

معناه: ويقولون: يا ربَّنا وأعطنا ما وعدتَنا على لسان رسلك، ولا تَخذُلنا ولا تُعَذِّبنا يومَ القيامة، إنَّك لا تُخلِفُ ما وعدتَ من الجنة والثواب للمؤمنين.

فإن قيل: ما فائدة الدعاء لإنجاز الوعد مع العلم بأن الله عز وجل منجزٌ وعدَه؟ قيل: فائدته التعبُّدُ والخضوع والخشوع له ورفع الحاجة إليه في عموم الأحوال.

وقيل: معناه واجعلْنا من أهل استحقاق ثوابِك، لا ممن يستحق عقابَك، وانصرْنا على الكفار كما وعدتَنا[٣].

قولــه عز وجل: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟

---

(١) راجع: معاني القرآن للزجاج 501/1، وإعراب القرآن للنحاس ص230.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص457، والطبري 206/24، وابن أبي حاتم 846/3، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم 337/1، بطُرُقٍ عنه.

(٣) وهذا هو الذي رجّحه الطبري، أنّ هذا سؤالٌ لتعجيل النصر على أعدائهم، فكأنهم قالوا: «ربنا آتنا ما وعدتنا من نُصرتك عليهم عاجلاً، فإنك لا تخلف الميعاد، ولكن لا صبرَ لنا على أناتك وحِلْمك عنهم، فعجِّل خِزْيهم، ولنا الظفرَ عليهم». الطبري 318/6. وراجع: مفاتيح الغيب للرازي 152/9-153.

﴿فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

معناه: فأجابهم ربهم بأني لا أُحبِط عملَ عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى، بعضكم أولياء بعضٍ في الدين، الآخِرُ من الأول والأولُ من الآخِرِ، فالذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وأُخرجوا من أوطانهم، وأُوذوا في طاعتي، وقاتلوا المشركين مع محمدﷺ، وقتلهم العدوُّ في الجهاد = لأُكَفِرنَّ عنهم ذنوبهم ولأُدخِلَنّهم بساتين تجري من تحت شجرها ومساكنها الأنهارُ، جزاءً من عند الله.

وقوله ﷻ: ﴿ثَوَابًا﴾ نصبٌ على المصدر، معناه: لأُثِيبَنَّهم ثواباً، / كما في قول الله ﷻ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [١] وقوله ﷻ: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢][٣].

والله عنده حُسن الجزاء للموحدين المطيعين.

ومن قرأ: ﴿وَقُتِّلُوا﴾ بالتشديد[٤]، فعلى معنى التكثير والمبالغة وتقطيع الأعضاء.

ومن قرأ: ﴿وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا﴾ على التقديم والتأخير[٥]، فلأنَّ الواو لا توجب الترتيب، ويجوز أن يكون معناه: وقُتِلَ بعضُهم وقاتل بعضُهم، كما يقال: (قُتِلْنَا) أي قُتِلَ عشائرُنا[٦].

---

(١) جزء الآية (24) من سورة النساء.

(٢) جزء الآية (88) من سورة النمل.

(٣) راجع: معاني القرآن للزجاج 500/1.

(٤) هذه قراءة ابن كثير وابن عامر، وقرأ الباقون بالتخفيف. راجع: المبسوط ص150، والروضة 603/2، والنشر 246/2.

(٥) هي قراءة حمزة والكسائي وخلف. راجع: المصادر السابقة.

(٦) راجع: إعراب القرآن للنحاس ص230، والحجة لابن زنجلة ص187-188.

قولــه ﷻ: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٩٧ ﴾

ابتداء هذه الآية خطابٌ للنبي ﷺ، والمراد به أصحابه، كأنه قال: لا يغرنك أيها السامع ذهابُ اليهود ومجيئُهم في تجارتهم ومكاسبِهم في الأرض؛ منفعةٌ يسيرةٌ في الدنيا تنقطع وتفنى، ثم مصيرهم إلى جهنَّم وبئس الفراش النار.

ويقال: إنما كان النبي ﷺ لا يغرُّه شيءٌ لتحذير الله ﷻ له عن الاغترار بشيءٍ وتأديبه إياه، فحَسُن الخطابُ له[1].

قولــه ﷻ: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ١٩٨ ﴾

تقديرُ هذه الآية مع ما قبلها – والله أعلم -: لا يعجبنَّك يا محمد ﷺ تقلُّبُ أولئك الكفار في نعيم الدنيا، بل ما أُعطيَ المتقون في الآخرة أفضل، فإن الذين اتَّقَوا ربهم ووحَّدوه وأطاعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه لهم بساتينُ تجري من تحت شجرها ومساكنها الأنهارُ مقيمين فيها.

﴿ نُزُلًا ﴾ أي رزقا وثوابا لهم، وهذا نصبٌ على التفسير [2]، كما يقال: (هذا الشيءُ هبةً لك وصدقةً)[3] ونحو ذلك[4]. ويجوز أن يكون نصبًا على

---

(1) ذكره في النكت والعيون 444/1، وزاد المسير 532/1 بلا نسبة.

(2) أي على التمييز.

(3) الصواب أن يقال: (هذا الشيء لك هبةً) بتأخير «هِبَةً» وجوبًا، لأنه إما تمييز وإما حال، وكلاهما لا يتقدّم على عامله إلا إذا كان عامله فِعلاً متصرِّفًا.

(4) هذا قول الفرّاء في معاني القرآن 251/1، وتابعه عليه الطبري 326/6.

المصدر على معنى أُنزِلُوا نُزُلاً[١]. ويقال: جُعِلَ ذلك لهم نُزُلاً.

والنُّـــزُل: ما يُهَيَّأُ للنازل مِن كرامةٍ وبرٍّ وطعامٍ وشرابٍ وملهًى ومَنظرٍ حسنٍ كما جَرَتِ العادةُ به في إيصال النُّـــزُلِ إلى الضيف[٢].

ومعنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾، أي ما عند الله تعالى من الجزاء والثواب خيرٌ للصالحين مما لهم في الدنيا.

ثم أخبر الله ﷻ عن حال مَن آمَنَ مِن أهل الكتاب وخشوعِهم ورغبتِهم عن أن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، فقال ﷻ:

﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ ﴾

معناه: وإنَّ من أهل الكتاب لمن يُصدِّقُ بالله والقرآنِ والتوراةِ والإنجيلِ والزبورِ وسائرِ كتب الله ﷻ، وهم عبدالله بن سلام وأصحابه[٣].

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي ذليلةً أَنفُسُهم لله ﷻ، لا يشترون بمحمد ﷺ والقرآنِ عَرَضًا يسيرًا كما فعله رؤساءُ اليهود، أولئك لهم ثوابهم عند ربهم.

---

[١] هذا اختيار الزجاج في معانيه 501/1.

[٢] راجع: الصحاح، ومقاييس اللغة مادة «ن ز ل».

[٣] هذا قول ابن زيد، أن الآية فيمن أسلم من اليهود، أخرجه الطبري 329/6. وقد رُوي عن أنس رضي الله عنه أن الآية نزلت في شأن النجاشي رحمه الله، أخرجه البزار في المسند 149/13، والنسائي في التفسير 356/1 (108)، وابن المنذر 541/2-542، وابن أبي حاتم 846/3، والواحدي في أسباب النزول ص 271-272، والضياء في المختارة 61/6-63 (2307، و2308، و2309)، بطرق عنه.

وذهب مجاهد إلى أنها عامّة في مُسلِمَة أهل الكتاب، وهو اختيار الطبري، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. راجع: الطبري 330/6.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ إذا حاسب فحسابُه سريعٌ، لا يُؤَخَّرُ جزاءُ أعمالهم يومَ القيامة لطول الحساب.

قولــه ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

معناه: يا أيها الذين أقرُّوا بتوحيد الله تعالى ونبوةِ رسوله ﷺ اصبِرُوا على أداءِ الفرائض واجتنابِ المحارم، وصَابِرُوا أعداءَكم في ا لجهاد - ومصابرةُ العدو: ملاقاةُ صبرِهم على مكروههم بالصبر عليهم في مقابلتهم - ورابِطُوا خيولَكم على الجهاد.

والرباط والمرابطة: أن يربِطَ كلٌّ واحدٍ من الفريقين خيولَهم في الثَّغْرِ ليُوعِدَ به صاحبه[١].

ويقال: معنى المرابطة أن يَربطَ كلٌّ واحدٍ من المقاتِلَين لقتال صاحبه.

ويقال: معنى المرابطة المحافظةُ على الصلوات[٢]، كما رُوِيَ في الخبر، هو: « **انتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعدَ الصَّلاةِ، فذلِكُمُ الرِّبَاط** »[٣].

وأصل الرَّبطِ الشدُّ، والرِّباطُ الحبلُ الذي يُشَدُّ به[٤].

ثم أكد الله ﷻ هذه الطاعات بالتقوى فقال - عزَّ مِن قائل- :

---

[١] راجع: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص117.

[٢] هذا قول التابعي الجليل أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف، أخرجه ابن المبارك في الزهد (408) ومن طريقه الطبري 334/6-335، والواحدي في أسباب النزول ص272.

[٣] **[أخرجه مسلم]** في صحيحه (الطهارة/ باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره/ ح 251) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا بلفظ: «**أَلا أَدُلُّكُم عَلَى مَا يَمحُو اللَّهُ به الخطَايَا وَيَرفَعُ به الدَّرَجَاتِ؟**»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى المسَاجِدِ، وَانتِظَارُ الصَّلاةِ بَعدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ**».

[٤] راجع: القاموس مادة «ر ب ط».

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ أي اتقوا الله في كلِّ ما أمركم به، ولا يكن كدُّكم الجهادَ فقط، لكي تكونوا على رَجَاءِ الفلاح. وإنما غَيَّب عنهم ما أمرهم ليكونوا حَذِرين وَجِلِين[1]؛ فإنَّ ابنَ آدم إذا أَمِنَ طغى.

وعن جعفر بن محمد الصادق ﷺ أنه قال في معنى هذه الآية: « اصبِرُوا عن المعاصي، وصابروا مع الطاعات، ورَابِطُوا الأرواحَ بالمشاهدة لكي تبلغوا مواقفَ أهل الصدق فإنها محلُّ الفلاح »[2].

وعن أُبَيٍّ بن كعب ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: « **مَن قَرَأَ سُورةَ آلِ عِمرَان أُعطِيَ بِكُلِّ آيَةٍ مِنهَا أَمَانًا عَلَى الصِّرَاطِ** »[3]. وبالله التوفيق.

---

[1] مراد المصنف – والله أعلم – أنه ﷻ غَيَّب متعلّق التقوى فلم يَقُل: (اتقوا الله في كذا)، ليكون المؤمن متّقيا ربَّه، حَذِرًا وَجِلا، في جميع شؤونه وفي كل اللحظات من حياته.

[2] ذكره شيخ الصوفية أبو عبد الرحمن السلمي (ت 412هـ) في تفسيره المسمّى «حقائق التفسير» 137/1. قلتُ: لا إخاله إلا موضوعًا على جعفر الصادق ﷺ، فإن مصطلح «المشاهدة» – وهو مصطلح صوفي – لَم يكن معروفًا في عصر التابعين.

[3] **[موضوع]**. هو جزء من الحديث الطويل في بيان فضائل القرآن سورةً سورةً؛ رواه العقيلي في الضعفاء 443/1، والواحدي في الوسيط 410/1، والمصنف بإسناده المذكور في آخر التفسير جـ3 ق200/ب، وابن الجوزي في الموضوعات 390/1-394، بأسانيد ساقطة. وأخرج العقيلي عن ابن المبارك أنه قال عن الحديث: «أظنّ الزنادقة وَضَعَتْه». وقال ابن الجوزي: «وهذا حديث في فضائل السور مصنوعٌ بلا شك». وقال الشوكاني: « ولا خلاف بين الحفّاظ بأن حديث أُبَيّ بن كعب هذا موضوع» الفوائد المجموعة ص296.

سورة النساء، مدنيَّة، وهي مائة وخمس وسبعون آية عند البصريين / وست وسبعون عند الكوفيين[(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى [تَسَّآءَلُونَ][(٢)] بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

قال ابن عباس ﷺ: قد يكون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ عاما، وقد يكون خاصًّا لأهل مكة، وهو في هذا الموضع عامٌّ لجميع الناس[(٣)].

ومعنى ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾: اخشَوا وأَطِيعُوا ربكم.

وإنما ابتدأ الله ﷻ هذه السورةَ بالموعظة لأنَّ الآمِرَ بالأشياء والناهي عن الأشياء إذا ابتدأَ الكلامَ بالوعظ كان ذلك أنجعَ للسامعين.

---

(١) ومائة وسبع وسبعون في العدّ الشامي. وعَدُّ الحجازيين كمثل البصريين. والاختلاف في فاصلين: ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾ عُدَّ لدى الكوفيين والشاميين، ولم يعدّه الباقون؛ وقوله تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [١٧٣] عُدَّ في الشامي، ولَم يُعَدَّ عند الباقين. راجع: البيان في عد آي القرآن للداني ص146، وفنون الأفنان لابن الجوزي ص282.

(٢) هذه القراءة بتشديد السين، قراءة المدنيَّين (أبي جعفر ونافع)، وابن كثير، وابن عامر، والبصريَّين (أبي عمرو ويعقوب). وقرأ الباقون – وهم الكوفيّون– بتخفيف السين. راجع: المبسوط ص153، والروضة 604/2، والنشر 247/2.

(٣) لَم أجده مسندا إليه إلا عند الفيروزآبادي في تنوير المقباس ص 84، من طريق الكذّاب محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عنه. وقد أخرج ابن أبي حاتم 852/3 عن ابن عباس ﷺ بإسناد آخر ما يدل على معنىً قريبٍ منه، وهو أنه قال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ للفريقَين جميعا من الكفّار والمنافقين»، فإن هذا يعني أن الآية ليست خاصةً لأهل مكّة بل تشمل أهل المدينة، فإن المنافقين لَم يكونوا إلا بها.

ثم أخبر – جل ذِكره– بما يدل على أنه واحد، وأنَّ حقَّه سبحانه أن يُتَّقَى، فقال – عزَّ مِن قائل –: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أي خلقكم جميعا من نفس آدم عليه السلام وحدَها. وإنما أَنَّثَ النفس لاعتبار اللفظ دون المعنى، وهذا كما قال الشاعر:

أبوكَ خليفة ولدتْه أخرىٰ ... وأنتَ خليفة ذاكَ الكمالُ[١]

فقال: (وَلَدَتْه أخرى) وإن أراد به ذكرًا لأن لفظ الخليفة مؤنث.

وإنما منَّ الله تعالى علينا بأن خلقنا من نفس واحدة لأن ذلك أقربُ إلى أن يَعطِفَ بعضُنا على بعضٍ ويرحمَ بعضُنا بعضًا لرجوعنا جميعا في القرابة والأخوة إلى أصل واحد.

وأما قوله عز وجل: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، فمعناه: خلق من نفسِ آدم عليه السلام زوجَها حوَّاءَ، خَلَقَها من ضِلْعٍ من أضلاعه اليسرى – وهي القُصَيرَى[٢] – بعدما أَلقَى عليه النومَ، فلم يُؤْذِه[٣]، ولو آذاهُ ما عطف عليها أبدا[٤].

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « **إنَّ المرأةَ خُلِقَتْ مِن ضِلْعٍ أعوَجَ، فإنْ أردتَ أَنْ تُقيمَها كَسرتَها، وإنْ تَركْتَها وَفِيها عِوَجٌ استَمْتَعتَ بها عَلَى عِوَجٍ**»[٥].

وأما قوله عز وجل: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ﴾، معناه: نَشَرَ وفَرَقَ مِن آدمَ وحوّاءَ خلقًا كثيرًا من الرجال والنساء.

---

[١] أنشده الفرّاء في معاني القرآن 208/1، ولا يُعرف قائله. وراجع: الطبري 340/6.

[٢] القُصَيرى والقُصْرى: أسفل الأضلاع، أو آخر ضلع في الجنب. راجع: القاموس«ق ص ر».

[٣] الضمير المستتر في «فلم يُؤْذِه» راجع إلى الخلق، أي لَم يُؤذِ آدمَ خلقُها من بعض أضلاعه.

[٤] هذا قول مجاهد. وقال بنحوه قتادة والسدّي وابن إسحاق إلا أنهم لَم يحدّدوا الضلع. راجع: الطبري 341/6-642.

[٥] **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (أحاديث الأنبياء/باب خلق آدم وذرّيته/ ح 3331)، ومسلم (الرضاع/باب الوصية بالنساء/ ح1468)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بزيادة «**فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**» في آخره.

وقوله – تعالى جَدُّه– : ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي اتَّقُوا معاصيَ الله بحقه الذي فرضه عليكم. وحقيقة الاتقاء أن تجعلَ بينك وبين الشيء الذي تَـــتَّقيه حاجزًا يحجز بينك وبينه.

والفائدة في إعادة الأمر بالتقوى أنَّ الثانيَ لبيان أن حَقَّه ﷻ أن يُتَّقى لأَنكم تسألون به.

ومعنى ﴿تَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بالله بعضُكم بعضًا من الحوائج والحقوق، يقول الرجل للرجل: (أنشدتك بالله) و(أسألك بالله).

ومن قرأ بتشديد السين، فلإدغام التاء في السين لقُرب مخرجهما، ومن قرأ بالتخفيف فلأنَّ التاءَ الثانية حُذِفَت لاجتماع التاءين[١].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾، ففيه قراءتان؛ من قرأ بالنَّصبِ[٢]، فمعناه: واتقوا الأرحامَ أن تقطعوها[٣].

وقد رُوي في الخبر مَا يوافِقُ مَا ورد به التريل، قال ﷺ: « **يقول الله ﷻ: أنا الله الرحمنُ، وَهِيَ الرَّحِمُ شَقَقْتُ لها اسمًا مِن اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَها وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَها قَطَعْـــتُهُ**» [٤].

---

[١] راجع: معاني القرآن للزجاج 6/2.

[٢] وهم جميع القَرَأَةِ ما عدا حمزة، فإنه قرأ بالجرّ عطفًا على الضمير في «بِهِۦ». راجع: المبسوط ص153، والروضة 604/2، والنشر 247/2.

[٣] بهذا فسّر قراءةَ النصبِ جميعُ مفسّري السلف كابن عبّاس وعكرمة ومجاهد وابن زيد وغيرهم. راجع: الطبري 347/6–349.

[٤] **[صحيح إن شاء الله]** أخرجه أحمد 198/3 (1659)، و216/3 (1686)، والبخاري في الأدب المفرد (53)، وأبو داود (الزكاة/باب في صلة الرحم/ح1694)، والترمذي (البر والصلة/باب ما جاء في قطيعة الرحم/ح 1907) – وصححه –، وابن حبان في صحيحه 186/2 (443)، من حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ. وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي سعيد، وابن أبي أوفى، وعامر بن ربيعة، وأبي هريرة، وجُبير بن مطعم».

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: « **مَا مِن شَيءٍ مِمَّا أُطِيعَ اللَّهُ تعالى فِيهِ بِأَعْجَلَ ثَوَابًا مِن صِلَةِ الرَّحِمِ، وَمَا مِن شَيءٍ مِمَّا يُعصَى اللَّهُ فِيهِ بِأَعجَلَ عُقُوبَةً مِنَ البَغْيِ، وَاليَمِينُ الفَاجِرَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِعَ** »[1].

وعن هذا قال أصحابنا – رحمهم الله – : إنَّ الهبةَ لِذي الرحم الـمَحْرَمِ تقعُ قُربةً لله تعالى، فلا يصحُّ الرجوعُ فيها كما لا يصحُّ الرجوع في الصدقة[2].

وأما من قرأ: ﴿والأَرْحَامِ﴾ بالخفض[3]، فمعناه يتساءلون باللهِ وبالرَحِمِ، وهو قولهم: (أسألك بالله وبالرَّحِم)[4].

قال الزجاج رحمه الله: استقبح النحويون نسقَ الاسمِ الظاهرِ على المضمر

---

[1] **[ضعيف بهذا اللفظ]** أخرجه الجصاص في أحكام القرآن 2/69-70، والأصبهاني في مسند أبي حنيفة ص242-243، والبيهقي في شعب الإيمان 6/481 (4501)، من طرق عن أبي حنيفة عن ناصح، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا. وناصح – وهو ابن عبدالله الـمُحَلَّمي الكوفي – متروك منكر الحديث (ميزان الاعتدال 4/240). وله متابعتان في مسند أبي حنيفة، لكنّهما ضعيفتان أيضا. وقد رواه معمر بن راشد الأزدي في «الجامع» 11/170، عن يحيى بن أبي كثير مُرسلا، وهو الصواب كما نصّ عليه الإمام أحمد فيما نقله عنه البيهقي في شعب الإيمان 10/345.
وقد صحّ في الباب حديث أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَا مِن ذنب أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِى الدُّنيَا – مع مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ – مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ** ». أخرجه أحمد 8/34 (20374)، وأبو داود (الأدب/ باب النهي عن البغي/ ح 4902)، والترمذي (صفة القيامة والرقائق/ ح 2511) وقال: « هذا حديث حسن صحيح».

[2] هذا مذهب الحنفيّة، أنّ من وهب لِذِي رَحِمٍ محرمٍ فليس له الرجوعُ في هِبَته، أبًا كان الواهب أو غيره، لأنها جرت مجرى الصدقة في أن موضوعها القُربة واستحقاق الأجر، وأجازوا الرجوع في ما وهبه لغيرِ ذي رَحِمٍ إذا لَم يُثَبْ عليها. وذهب الجمهور إلى تحريم الرجوع مُطلقا إلا للوالد في ما وهب لولده، لقوله ﷺ: «**لا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُعْطِيَ العَطِيَّةَ، فَيَرْجِعَ فِيهَا، إلا الوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ**». رواه أحمد 4/26 (2119)، وأبو داود (البيوع/ باب الرجوع في الهبة/ ح3539). راجع: أحكام القرآن للجصاص 2/70، وبدائع الصنائع 6/127-128، والمغني 8/277، والحاوي الكبير 7/545، والمحلّى 9/127-136.

[3] وهي قراءة صحيحة متواترة، قرأ بها حمزة كما سبق.

[4] كذا فسّر القراءةَ مجاهد، والحسن، وإبراهيم النخعي. راجع: الطبري 6/344-345.

المجرور، لا يقولون: (مررتُ بك وزيدٍ)، و(به وزيدٍ) إلا مع إظهار حرف الخفض مع المظهر، يقولون: (بك وبزيدٍ)[1].

قال المازني[2]: الاسم الثاني في العطف شريكُ الأَوَّلِ فكما لا يصلح أن يقال: (مررتُ بزيدٍ وكَ)، كذلك لا يقالُ: (مررتُ بِكَ وزيدٍ)[3].

وقد جاء عطف المظهر على المضمر في الشعر، قال الشاعر:

قد كنتَ مِن قبلُ تهجونا وتَشتِمُنا ... فَاذْهَبْ فما بِك والأيامِ من عَجَبِ[4]

وأما قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، فمعناه: أن الله كان حفيظا لأعمالكم[5]، ومن ذلك سُمِّيَ الحافظُ للإنسان رقيبًا. وقال بعضهم: معنى ﴿رَقِيبٗا﴾ عليم[6]. والعليم والحفيظ متقاربان؛ لأن العليم بالشيء حافظ له.

---

(١) معاني القرآن للزجاج 6/2. وما ذَكَرَه من استقباح النحاة، فهو خاص بالبصريين منهم، وأما الكوفيون فقد أجازوا ذلك. راجع: الإنصاف 34/2. وقد وافق الكوفيين في هذه المسألة، ابنُ مالك حيث قال في ألفيّته (شرح ابن عقيل 196/3):

وعودُ خافضٍ لدىٰ عطفٍ على ... ضميرِ خفضٍ لازمًا قد جُعِلا

وليس عندي لازمًا إذ قد أتى ... في النثر والنظم الصحيح مُثبَتَا

(٢) هو بَكْر بن محمدِ بن حبيبِ بن بقية، أبو عثمان المازني، أحدُ أئمةِ النَّحو. قال عنه تلميذه المبرد: «لَم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان». توفّي 249هـ. راجع: سير أعلام النبلاء 270/12، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة 463/1.

(٣) نقله الزجاج في معاني القرآن 7/2-8، والنحاس في إعراب القرآن ط1 231. وتعليل المازني عليل؛ لأنه يجوز أن تقول: (رأيتك وزيدًا)، وكان ينبغي على تعليله أن لا يجوز ذلك بناءً على عدم جواز: (رأيت زيدًا وك). راجع: البحر المحيط (ط. دار الكتب العلمية) 166/3.

(٤) هذا من شواهد «الكتاب» 383/2. ولَم يُعرف قائله. وراجع: الكامل 30/3، ومعاني القرآن للزجاج 7/2، والإنصاف 34/2.

(٥) هكذا فسّر مجاهد، أخرجه عنه الطبري 350/6، وابن أبي حاتم 854/3، وقال: «رُوي عن قتادة، ومقاتل بن حيّان، والثوري نحوُ ذلك».

(٦) بهذا فسّر ابن زيد، قال: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ على أعمالكم، يَعلمُها ويَعرِفُها». أخرجه الطبري 350/6.

قولـــه ﷻ: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

/ معناه – والله تعالى أعلم – وأعطوا اليتامى أموالهم بالإنفاق عليهم في حال الصِّغَر، وبالتسليم إليهم بعد بلوغ الـــحُلُم.

قال مقاتل: نزلت هذه الآيةُ في رجلٍ من غَطَفَان، كان في يده مالٌ لابن أخيه، فلما بلغ اليتيمُ طلب مالَه فمنعه العمُّ، فأنزل الله تعالى هذه الآيةُ فقرأها عليه رسول الله ﷺ، فقال الرجل: أطعنا الله وأطعنا الرسولَ ﷺ، نعوذُ بالله من الـــحُوب الكبير، فدفع إليه مالَه، فلما قبض الفتى مالَه أَنفقه في سبيل الله تعالى فقال النبيﷺ: « **لقد أَصَابَ الغُلامُ الأجرَ وبَقِيَ الوِزْرُ** ». قيل: يا رسول الله ﷺ كيف بقي الوزر – وقد أنفق في سبيل الله ﷻ – ؟ فقال: « **أَصاب الغلامُ الأَجرَ وبَقِيَ الوِزرُ عَلَى وَالِدِه** »[١].

وقيل: إنما سمى الله ﷻ البالغ في الآية يتيمًا لِقُربِ عهده بالـــيُتْمِ استصحابًا للاسم الأول، كما كان الكفار يُسمُّون النبي ﷺ يتيمَ أبي طالب[٢].

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾، فمعناه: لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموال اليتامى.

وعن مجاهد وأبي صالح، أنهما قالا: معناه لا تجعل رزقَك الحلالَ حرامًا بِتَعَجُّلِهِ[٣]، بأن تستهلك مال اليتيم فـــتُنفقَه أو تَتْجَرَ فيه لنفسك أو تُكسِبَه

---

[١] **[ضعيف جدًّا]** ذكره مقاتل في تفسيره 213/1. وبنحوه قال الكلبي كما في الكشف والبيان للثعلبي 242/3، وأسباب النزول للواحدي ص275. وأخرج ابن أبي حاتم 854/3 عن سعيد بن جبير ؒ نحوهَ مختصرًا دون ذكر قصة إنفاق الفتى.

[٢] قاله الزجاج في معاني القرآن 7/2.

[٣] كذا استظهرته، ويصحّ أن يكون الضبط: «تَتَعَجَّلُهُ»، كما هو في تفسير الحدّاد 201/2.

وتُعطيَه غيره فيكون ما تأخذه من مال اليتيم خَبِيثًا حرامًا وتُعطيه مالَكَ الحلالَ، ولكن آتوهم أموالهم بأعيانها[1].

وفي هذا دليل أنه لا يجوز لِوَلِيِّ اليتيمِ أن يستقرض مالَ اليتيم، ولا أن يستبدلَه من نفسه، قال أبو حنيفة رحمه الله: إلا أن يكونَ في بَيعهِ مالَ اليتيم مِن نفسه خيرٌ ظاهرٌ لليتيم فيجوز حينئذ لقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2][3].

وقيل في معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾: ولا تجعلوا الزائفَ بدل الجيد، والمهزولَ بدل السمين[4].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾، فمعناه: لا تأكلوا أموالهم مُضيفين إلى أموالكم، وذلك أنهم كانوا يخلطون أموال اليتامى بأموالهم حتّى تصير دَينًا عليهم، ثم كانوا يبيعونها مع أموالهم ويربحون عليها ويستَبِدُّون بتلك الأرباح.

ومعنى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾: إثما عظيمًا.

وقرأ الحسنُ: ﴿حَوبًا﴾ بالنصب[5].

والحوب في اللغة: زجرُ الإبل؛ يقال: (حَاب يحوبُ حَوبًا وحُوبًا وحَابًا).

---

[1] قول مجاهد، أخرجه الطبري 353/6 بلفظ: «لا تَعْجلْ بالرزقِ الحرامِ قبلَ أن يأتيَك الحلالُ الذي قُدِّرَ لك». وقول أبي صالح – وهو باذام مولى أم هانئ – أخرجه الطبري 353/6 وابن أبي حاتم 855/3 بمثله.

[2] مطلع الآية (152) من سورة الأنعام.

[3] راجع: أحكام القرآن للجصاص 74/2، و«مختصر اختلاف العلماء» له 80/5.

[4] رُوي نحوه عن ابن المسيِّب، والزهري، وإبراهيم النخعي، والسدي، والضحاك، واختاره الطبريّ. راجع: الطبري 352/6-355، وابن المنذر 550/2، وابن أبي حاتم 855/3-856.

[5] راجع: معاني القرآن للفراء 253/1، والشواذ لابن خالويه ص24.

وسمّي الإثم حُوبًا بضم الحاء لأنَّ ذلك مما يُزجَر عنه[(١)]، وحكى الفرَّاءُ عن بني أسد أنهم كانوا يقولون: (الحائب) للقاتل[(٢)].

قولــه ﷻ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

رُوي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: وذلك أنه لما نزل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ الآية[(٣)]، خاف الناس في أموال اليتامى أن لا يعدلوا، فكانوا يسألون رسول الله ﷺ في أمرهم، وكانوا يتزوَّجون من النساء ما شاءوا، فنـــزلت هذه الآية[(٤)].

ومعناها: إن خِفتم ألا تعدلوا في أمر اليتامى، فخافوا في النساء إذا اجتمعنَ عندكم أن لا تعدلوا بينهن[(٥)]، فتزوَّجُوا ما حَلَّ لكم من النساء، ولا تَنكِحُوا إلا ما يمكنكم إمساكُهُنَّ، ثِنْتان ثِنْتان، وثلاث ثلاث، وأربع أربع، ولا تزيدوا على الأربع الحرائر.

---

(١) راجع: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص118، والمفردات للراغب مادة «ح و ب».

(٢) معاني القرآن للفراء 253/1.

(٣) الآية (10) من هذه السورة.

(٤) لَم أجده بهذا السياق مسندا إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وإنما ذكره مقاتل في تفسيره 214/1 بلا نسبة. على أنه رُوي عن ابن عبّاس بنحو معناه، ولفظه: «كانوا في الجاهلية ينكحون عشرًا من النساء الأيامى، وكانوا يعظِّمون شأن اليتيم، فتفقَّدوا مِن دِينهم شأنَ اليتيم وتركوا ما كانوا ينكحون في الجاهلية ... فنهاهم عمّا كانوا ينكحون في الجاهلية». أخرجه الطبري 365/6، وابن أبي حاتم 859/3. وبنحوه قال سعيد بن جُبير وقتادة، وغيرهما، راجع: الطبري 363/6-366.

(٥) بنحوه قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في تفسير الآية؛ أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار 419/14، وابن أبي حاتم 857/3، بإسناد صحيح عنه.

وعن عائشة ﵂ أها قالت: كان الناس يتزوَّجون اليتامى ولا يعدلون في صَدُقاهن وسائرِ ما يجب لهنَّ من حقوق النكاح، وكان الرجل يرغب في اليتيمة التي تكون في حِجْرِه لِمَالها وجمالها، ولا يُقسِط في صداقها، فنهاهم الله ﷿ عن ذلك، فقال – عز من قائل –: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾، يعني في نكاح اليتامى فانكِحُوا ما طاب لكم من غيرِهنَّ[1]. أي إذا وقع منكم حَيفٌ في حق البالغات، كان طَلَبُ مرضاهن وتطييبُ أنفسهن بِتَزَوُّجهنَّ أَمْكَن.

وقال مجاهد ﵁: معناه إن تحرجتم في ولاية اليتامى إيمانًا وتصديقًا فتحرَّجُوا من الزنا فانكِحُوا الطيِّبَ مِنَ النساء[2].

والإقساط في اللغة: العدلُ؛ يقال: (أَقْسَطَ) إذا عَدَلَ، و(قَسَطَ) إذا جَارَ[3]. قال ﷺ: « **المقسِطُونَ في الدُّنيا عَلَى مَنَابِرَ مِن لُؤْلُؤٍ يَومَ القِيَامَة** »[4]. وقال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[5].

وإنما قال: ﴿ مَا طَابَ ﴾ ولَم يَقُل: (من طاب) لأنَّ ﴿ مَا ﴾ مع الفعل بمنـــزلة المصدر كأنه قال: فانكحوا الطيِّبَ، يعني الحلال من النساء[6].

وقوله ﷿: ﴿ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ بدل ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ ﴾ وهو مما لا

---

(1) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (الشركة/ باب شركة اليتيم وأهل الميراث/ ح 2494)، ومسلم (التفسير/ ح3018)، والطبري 6/359-360، وغيرهم.

(2) أخرجه الطبري 6/366، وابن المنذر 2/554 بنحو مثله.

(3) قال ابن الأثير: «أقْسَط يُقْسِط فهو مُقْسِط إذا عَدَل. وقَسَط يَقْسِط فهو قاسِط إذا جارَ. فكأن الهمزة في (أقْسَط) للسَّلْب كما يقال: شَكا إليه فأشْكاه». النهاية 4/60

(4) **[صحيح]** أخرجه معمر في الجامع 11/325، ومن طريقه أحمد في المسند 11/499 (6897) عن الزهري، عن ابن المسيب، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ﵄ مرفوعا.

(5) الآية (15) من سورة الجن.

(6) راجع: معاني القرآن للزجاج 2/8، والطبري 6/370.

ينصرف لأَنَّ (مَثْنى) مَعدولٌ عن اثنين[1]، وذلك نكرة[2]، و(ثلاث) معدول عن ثلاثة[3]، وهي على / لفظ التأنيث[4].

وذهب بعضُ من شَذَّ عن الإجماع مِن جملة الروافض إلى استحلال تسعِ نساء[5]، واستدلَّ بهذه الآية، وليس ذلك بشي، لا يقال: (مثنى وثلاث ورباع) إلا ويراد به على التفريق، ولا يُعبِّر أحدٌ بـــ (مثنى وثلاث ورباع) عن تسعة تسعة[6].

وقد روي عن قيس بن الحارث أنه كان عنده ثماني نسوةٍ، فلما نزلت هذه الآية أمره رسول الله ﷺ أن يُمسِكَ أربعًا ويُفارقَ أربعًا[7].

وقال ﷺ لغَيلانَ حين أَسلَمَ وتحتَه عشرُ نسوةٍ: « **أَمْسِكْ مِنهُنَّ أَربَعًا**

---

[1] كذا قال المؤلف، والصواب – والله أعلم – أنه معدول عن (اثنين اثنين) مكرّرا، لأنه لا يقال: (جاءني مثنى) بمعنى (جاءني اثنان)، وإنما يقال: (جاءني القوم مثنى) أي مُرَتَّبين اثنين اثنين. راجع: علل النحو لابن الورّاق ص462.

[2] أي أنه « نكرة يوصف به نكرة » كما قال الخليل فيما نقله عنه سيبويه. فالوصفيّة والعدل هما العلّتان اللتان بهما مُنع مِن الصرف. راجع: الكتاب 225/3.

[3] الصواب أن يُقال: (ثلاثة ثلاثة) بالتكرير.

[4] هذا قول الزجاج في معاني القرآن 9/2، أن العلّتين هما: «أنه معدول عن اثنين اثنين، وثلاث ثلاث، وأنه عَدلٌ عن تأنيث». وأما في كتابه «ما ينصرف وما لا ينصرف» ص59، فقد وافق الجمهورَ فجعل العلّتين العدول والوصفيّة. واجع: علل النحو ص461-462.

[5] قال ابن حزم رحمه الله: «لمَ يختلف في أنه لا يحلُّ لأَحَدٍ زواجُ أَكثَرَ مِن أربع نسوة أحدٌ من أهل الإسلام، وخالف في ذلك قوم من الرَّوافض لا يصحُّ لهم عَقْدُ الإسلام». المحلّى 441/9.

[6] راجع: معاني القرآن للزجاج 10/2، وللنحاس 13/2-14.

[7] **[ضعيف]** أخرجه أبو داود (الطلاق/باب فيمن أسلم وعنده نساء أكثر من أربع/ ح2241)، وابن ماجه (النكاح/ باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة/ ح1952) من طريق حُميضة بن الشمردل عن قيس بن الحارث – وقيل: الحارث بن قيس – رضي الله عنه. قال البخاري عن حُميضة: «فيه نظر»، وقال عن الحديث: «لَم يصحّ إسناده». التاريخ الكبير 133/3، و262/2. وقد روي مرسلا عن قيس بن عبدالله بن الحارث، قال: أسلم جدّي وعنده ثمان نسوة ...الخ. أخرجه البخاري في التاريخ الكبير262/2.

وفارِقْ سَائِرَهُنَّ »[١].

وأما قوله ﷻ: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾، فمعناه: إن خفتم ألا تعدلوا في القسمة والنفقة بين النسوة الأربع التي أحل الله تعالى لكم فتزوجوا امرأةً واحدةً لا تخافون الميل في أمرها، أو اقتصروا على الإماء حتى لا تحتاجوا إلى القَسْمِ بينَهُنَّ.

قوله ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أي التزوُّجُ بالواحدة والاقتصار على ملك اليمين أقرب إلى أن لا تميلوا ولا تجوروا[٢].

والعَولُ: مجاوزة الحدِّ[٣]، ومنه العَولُ في الفرائض لأنَّه مجاوزة مخرج الفرائض، ويقال للبكاء الشديد: العويل[٤].

---

[١] **[ضعيف، وعليه العمل]** أخرجه أحمد 238/10 (4710)، والترمذي (النكاح/ باب ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر نسوةٍ/ ح1128) وغيرهما، من طريق معمر عن الزهري، عن سالِم عن أبيه. وقد أَعلَّه النُّقَّادُ بمعمر؛ قالوا: إنَّه وَهِمَ في وصل الحديث، والصواب أنّه عن الزهري مُرسلا، وكان معمر يَهِم في حديثه في غير اليمن، وقد روى هو نفسه هذا الحديث في اليمن مرسلا كما عند عبدالرزّاق في المصنف 162/7، وكذا رواه مالك عن الزهري مُرسلا، كما في الموطأ برواية الشيباني (530). راجع: كلام الإمام أحمد في شرح علل الترمذي لابن رجب 313/1-317، و604/2؛ وكلام البخاري عند الترمذي في سننه عقبَ الحديث؛ وكلام مسلم في كتابه «التمييز» ص204. وقال الترمذي: «والعمل على حديث غيلان بن سلمة عند أصحابنا، منهم الشافعي وأحمد وإسحاق».

[٢] كذا فسّره جماهير المفسّرين: عائشة، وابن عبّاس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وأبي مالك الغفاري، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والسدّي ﷺ، قالوا: «﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ ألا تميلوا». وقال الواحدي: «ومعنى ﴿تَعُولُوا﴾: تميلوا وتجوروا عن جميع أهل التفسير واللغة» راجع: الطبري 376/6-379، وابن المنذر 556/2-558، وابن أبي حاتم 860/3، والبسيط ق99/ب.

[٣] حكاه الجصاص عن أهل اللغة؛ أحكام القرآن 84/2.

[٤] راجع: الصحاح للجوهري مادة «ع و ل».

وأما من قال: معنى ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي لا تَكثُرَ عيالُكم[١] - وهذا القول يُحكى عن الشافعي رحمه الله[٢]- فقد قيل: إنه خطأ في اللغة؛ لأنه لا يقال في كثرة العيال: (عال يَعُول)، وإنما يقال: (أعال يُعِيل) إذا صار ذا عيال[٣].

وفي الآية ما يبطل هذا التأويل، وهو قوله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ لأنَّ إباحةَ كلِّ ما ملكت اليمينُ أَزْيدُ في العيال من أربع نسوة[٤].

---

[١] قاله زيد بن أسلم؛ أخرجه عنه ابن أبي حاتم 860/3 بلفظ: «ذلك أدنى ألا يَكثُرَ مَن تعُولُوا». وبنحوه قال ابنه عبدالرحمن، ولفظه: «﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾ ذلك أقلُّ لِنَفَقَتِكَ، الواحدةُ أقلُّ من ثنتين وثلاثٍ وأربعٍ، وجاريَتُك أهون نفقةً من حُرَّةٍ، ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أهون عليك في العيال»؛ أخرجه الطبري 380/6.

[٢] نصُّ الشافعي رحمه الله: « وَقَولُ الله ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ يَدُلُّ - واَلله أَعلَمُ- أَنَّ على الرَّجُلِ نَفَقَةَ امْرَأَتِهِ، وَقَولُهُ ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أَنْ لا يَكثُرَ من تَعُولُونَ إذَا اقْتَصَرَ الْمَرْءُ على وَاحِدَةٍ ». الأمّ 275/6.

[٣] هذه التخطئة لأبي العبّاس المبرد، نقله النحاس في معاني القرآن 15/2-16، ونسبها الزجاج في معانيه 11/2 إلى جميع أهل اللغة. **قلتُ**: هذه التخطئة فيها نظرٌ من وجهين:
الأول: أن أصحابَ هذا القول - لا سيما الشافعي رضي الله عنه - أجلّ مِن أن يجهلوا الفرقَ بين (عال يعول) و(أعال يُعيل)، ومَن تأمَّل كلامَهم عَلِمَ أنهم إنما فسَّروا العولَ في الآية بمعنى الإنفاق، وهو معنى صحيح لا خلاف فيه، تقول: (عالَ الرجلُ أهلَه يعولهم) إذا أنفق عليهم؛ يدلّ على هذا أن الشافعي استنبط من الآية وجوبَ إنفاق الرجل على أزواجه، وكذا قولُ ابن زيد: « ذلك أقلُّ لنَفَقَتِكَ»، ومعلوم أن النفقة لا تكون قليلةً إلا إذا قَلَّ العيال. فتفسيرهما ليس من باب بيان المعنى المطابَقيّ، بل من باب الكناية. وراجع: الكشّاف 499/1-500.
والثاني: أنَّ الأزهريَّ قد أسند عن الكسائي قولَه: «ومِن العَرَب الفُصَحَاء مَن يقول: (عَال يعول) إذا كَثُرَ عياله». تهذيب اللغة 124/3 مادة «ع و ل».

[٤] راجع: معاني القرآن للزجاج 2/ 11. وقد دفع الزمخشريّ هذا القدحَ بقوله: «ليس كذلك، لأن الغرض بالتزوّج التوالدُ والتناسلُ بخلاف التسرِّي، ولذلك جاز العزل عن السَّراري بغير إذنهنَّ ، فكان التسرِّي مظنةً لِقلَّةِ الولد». الكشّاف 500/1.

وعن طاووس أنه قرأ: ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعِيلُوا ﴾ بالياء من العَيلَة[١]، يقال: (عال الرجل يَعِيلُ عَيلَةً) إذا افتقر.

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ ﴾، فقد ذهب الكلبيُّ إلى أن هذا خطابٌ للأولياء، كان الوليُّ إذا زوَّجَ امرأةً فإنْ كانت معهم في العشيرة لَم يُعطِها من مَهرها قليلاً ولا كثيرا، وإنْ كانت غريبةً حملوها على بعير إلى زوجها، لا يُعطونها مِن مهرها غيرَ ذلك البعيرِ[٢].

وقال مقاتل، وأكثر أهل التفسير على أن هذا خطاب للأزواج [٣]؛ كان الرجل يتزوج المرأة فلا يعطيها مهرَها، يقول: (أَرِثُكِ وتَرِثيني) [٤]. وهذا هو الأصح.

ومعنى الآية: أَعْطُوا النِّساءَ مهورَهنَّ، وهي جمع الصَّدُقَة.

وقوله ﷻ: ﴿ نِحۡلَةً ﴾ أي عطيةً من الله ﷻ للنساء حيث جَعَلَ المهرَ لَهُنَّ، ولَم يُوجِبْ عليهن شيئًا مِنَ الغرْمِ، مع كونِ الاستمتاع مشتَركًا بينهن وبين الأزواج.

يقال: (نَحَلْتُ الرجلَ نُحْلَةً [٥] ونُحْلَى) إذا أَعطَيتَ، ويقال: (نَحَلَ [٦] الجسمُ) إذا دَقَّ، ويجوز أن يكون النَّحْلُ سمّي نحلا لأن الله ﷻ نَحَلَ الناسَّ العَسَلَ الذي يخرج من بُطُونها[٧].

---

[١] راجع: الشواذ ص24. وضبط أبوحيّان قراءةَ طاووس بضمّ التاء: ﴿تُعِيلُوا﴾ مِن (أعال يُعيل) إذا كثر عيالُه، ونسب القراءةَبفتح التاء إلى طلحة بن مصرِّف؛ البحر المحيط510/1.

[٢] راجع: بحر العلوم للسمرقندي 281/1.

[٣] كذا العبارة في الأصل، وهي تستقيم بحذف «قال»، أو بحذف «على أن» كما هو في تفسير الحدّاد 205/2.

[٤] تفسير مقاتل 215/1. وراجع: النكت والعيون 451/1، وزاد المسير 10/2.

[٥] قال الفيروزآبادي: «النِّحلة بالكسر، ويُضَمُّ». القاموس مادة «ن ح ل».

[٦] (نحل) يأتي كمَنَعَ، وعَلِم، ونَصَرَ، وكَرُمَ. راجع: القاموس مادة «ن ح ل».

[٧] معاني القرآن للزجاج 12/2.

وعن هذا قالوا: إنَّ في كون المهر عطيةً من الله تعالى للنساء بيانَ أنَّ المرأة لا تقدر على دفع المهر عن نفسها عند وجود سبب وجوبه، وإن كان يمكنُها الإبراءُ عنه والهبةُ بعد الوجوب كالميراث الذي لا يقدر الوارثُ على دفعه عن نفسه في الابتداء، وإن كان يمكنه أن يَهَبَ بعد وجوبه وأن يُبرِئَ عنه إن كان دَينًا.

وقيل: معنى ﴿ نِحۡلَةٗ ﴾: ديانةً، يقال: (فلان يَنتَحِلُ بكذا وكذا) أي يدين به[1].

وأما قوله ﷻ: ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا ﴾، أي إن أحلَلْنَ لكم عن شيء من المهر. وقوله ﷻ: ﴿ نَفۡسٗا ﴾ نصبٌ على التمييز لأنه إذا قيل: ﴿ طِبۡنَ لَكُمۡ ﴾ لَم يُعلَم في أي صِنف وقع الطيب، فكأنه قال: فإن طَابَتْ أَنفُسُهُنَّ بهبةِ شيءٍ مِنَ المهرِ فكلوا الموهوب لكم ﴿ هَنِيٓـٔٗا ﴾ لا إثمَ فيه، ﴿ مَّرِيٓـٔٗا ﴾ لا ملامة فيه.

والهنيء والمريء لغتان على ((فَعِيل)) من (هَنُؤَ ومَرُؤَ) و(هَنِئَ ومَرِئَ) إذا صار سائغا، نحو (ظَرِيف) من (ظَرُفَ) و(سَمِيع) من (سَمِعَ) [2]؛ يقال: (هَنَأَني الطعامُ ومَرَأَني)، وإذا أفردوا قالوا: (أَمْرَأَني)، ولا يقال: (أَهْنَأَني) [3]، ومنه التَهنئة بالخير.

وقيل: إنَّ (مَرَأَني) مستقبل، أنَّه سَيُهضَمُ وأحمَدُ مَغَـبَّته، و(أَمْرَأَني) يُراد

---

[1] هو قول الإمام اللغوي محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي (ت 231هـ)؛ أسنده عنه غلام ثعلب في ياقوتة الصراط ص196. وذكره الزجاج في معاني القرآن 12/2 بلا نسبة.

[2] راجع: معاني القرآن للأخفش 433/1.

[3] راجع: الطبري 387/6.

به: قد انهضَمَ وحَمِدتُ مَغَــبَّتَه[١].

وأصلُ الــهَنيء: الــهَنْءُ، وهو أن تَطْلِيَ البَعِيرَ بالقَطِرَان، يقال: (هَنَأْتُ البعيرَ أَهْنَؤُهُ هِنَاءً وهَنْأً)[٢].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنَّه قال: « **إذَا كانَ أَحَدُكُم مريضًا فليسأَلِ امْرأَتَه دِرهَمين مِن مَهرِها حتى تَهَبَ له بطيبةِ نَفْسِهَا، فَلْيَشْتَرِ بذلك عَسَلاً ويَشربَه مع ماءِ المطرِ، وقد اجتمع الهنيءُ والمريءُ والشِّفَاءُ والماءُ المباركُ** »[٣]. يعني أن الله ﷻ سمّى المهرَ هَنيئًا مَريئًا إذَا وَهَبَتِ المرأةُ لزوجها، وسمّى العسلَ شفاءً[٤]، وسمَّى المطرَ ماءً مباركًا[٥]، فإذا اجتمعت هذه الأشياء يُرجَى له الشفاء.

قولــه ﷻ: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ ﴾

معناه - والله تعالى أعلم- : / ولا تُعطوا الجهَّالَ بمواضع الحق - وهم النساء والصِّبيان - أموالَكم التي جعلها الله تعالى قِوامَ أَمرِكم ومعيشتِكم، أي جعلكم تقومون بها قيامًا.

إذا علم الرجلُ أنَّ امرأتَه سفيهةٌ مفسِدَةٌ، وأنَّ ولدَه سفيهٌ مُفسِدٌ لَم ينبغِ

---

(١) قاله الزجاج معاني القرآن 2/12-13.

(٢) راجع: لسان العرب مادة «هـ ن أ».

(٣) **[حسن موقوفا]** أخرجه بنحوه ابن المنذر 2/560، وابن أبي حاتم 3/862 من طريق سفيان الثوري، عن السدّي، عن يعفور بن المغيرة بن شعبة، عنه ﷺ. والإسناد حسن كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (الطب/ باب دواء المبطون) 10/180.

(٤) وذلك في قوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ الآية [النحل/69].

(٥) وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ الآية [ق/9].

له أن يُسلِّطَ واحدًا منهما على ماله الذي هو قِوَامُ أمره.

ومن قرأ: ﴿ قِيَمًا ﴾[1]، فمعناه: التي جعل الله لكم قِيْمَةً للأشياء، فبها تقوم أمورُكم[2].

وعن عمر ﷺ، أنه قال: « **مَن لَم يَتَفَقَّهْ فلا يَتَّجِرْ في سُوقِنَا** »[3].

وأصل السَّفَه في اللغة: خِفَّةُ الحِلْم، وسمّي الفاسقُ سفيهًا لأنَّه لا وزنَ له عند أهلِ العلم والدين، ويُسمَّى ناقصُ العقل سفيهًا لخِفَّة عقله[4].

ومعنى ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا ﴾: أطعِموا النساءَ والأولادَ، ﴿ وَٱكۡسُوهُمۡ ﴾ مِن أموالكم، ﴿ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ أي عِدُوهم عِدَةً حسنةً، نحو أن يقول الرجل: (سأفعل كذا إن شاء الله ﷻ)[5]. ويقال معناه: عَلِّمُوهم أمرَ دِينكم[6].

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ

---

(1) هذه قراءة نافع وابن عامر، وقرأ الباقون ﴿قِيَٰمًا﴾ بالألف. راجع: المبسوط ص 153، والروضة 605/2، والنشر 247/2

(2) هذا قول الزجاج والبصريين. وذهب الفرّاء، والطبري، وأبو علي الفارسي، والكوفيون إلى أن ﴿قِيَمًا﴾ بمعنى ﴿قِيَٰمًا﴾ سواء. راجع: معاني القرآن للفراء 256/1، والطبري 398/6، ومعاني القرآن للزجاج 14/2، وإعراب القرآن للنحاس ص 235، والحجّة للفارسي 16-13/3.

(3) **[حسن إن شاء الله]** أخرجه الترمذي (أبواب الصلاة/ باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ/ح487) بلفظ: « **لا يَبِعْ في سُوقِنَا إلاَّ مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ في الدِّينِ** ». وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(4) مقاييس اللغة، والمفردات مادة « س ف ه ».

(5) وذلك كأن يقول: (إذا ربحتُ أعطيتُك كذا وكذا)، أو: (إذا رشدتم سَلَّمْنا إليكم أموالَكم إن شاء الله). راجع: الكشّاف 503/1.

(6) هذا قول الزجاج في معاني القرآن 14/2.

﴿ أَمۡوَٰلَكُمُ ﴾ أي لا تُعطوهم أموالَهم، واستدل بقوله ﷻ: ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ ﴾ على ذلك؛ قال: وإنما أضاف الله ﷻ أموالَ السفهاء إلى الأولياء لأنهم هم الذين يقومون فيها – وقيل: إنهم خلطوا أموالهم بأموال أنفسهم فأضاف الكل إليهم –، وهذا كما قال الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [1]، ولَم يكن الرجلُ منهم يقتل نفسه ولكن كان بعضُهم يقتل بعضًا، أي تقتلون الجنس الذي هو جنسكم[2].

قوله ﷻ: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾ ﴾

معناه: واختبروا اليتامى في عقولهم ودياناتهم وتدبيرهم أسبابَ أنفسهم حتى إذا بلغوا مبلَغَ النِّكاحِ، وهو الـحُلُم.

وفي هذا دليل جواز الإذن للصبي في التجارة لأنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية مذكورة بعد الابتلاء[3].

---

[1] مطلع الآية (85) من سورة البقرة.

[2] هذا كلام الزجاج في معاني القرآن 13/2. وقد روي نحوه عن سعيد بن جُبير رحمه الله مختصرا؛ أخرجه ابن المنذر 563/2، وابن أبي حاتم 863/3.

[3] قال الجصّاص: «أُمِرْنا باختبارهم قبلَ البلوغ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ فأخبرَ أنَّ بلوغَ النكاح بعد الابتلاء، لأنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ مذكورة بعد الابتلاء، وفي ذلك دليلٌ على جواز الإذن للصغير الذي يَعقل في التجارة، لأن ابتلاءَه لا يكون إلا بسَبْرِ حاله في العلم بالتصرف وحفظِ المال، ومتى أُمِرَ بذلك كان مأذونًا في التجارة». أحكام القرآن 91/2 بتصرّف يسير. وراجع: المغني لابن قدامة 347/6.

ومعنى ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ﴾: عَلِمْتم ووجدتُم منهم صلاحًا في عَقلِهم وحِفظًا لمالهم، فادفعوا إليهم أموالَهم التي عندكم، هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما [1].

وذهب السدي رحمه الله إلى أَنَّ معنى الرشدِ الصلاحُ في الفضل والدين [2].

والقول الأول هو الأصح لأن قولَه ﴿رُشْدًا﴾ مصدرٌ مُنكَّرٌ[3]، ولا خلافَ أنَّ الفاسقَ إذا كان حافظًا لماله لَم يَجُزْ مَنْعُ مَالِهِ عَنه[4].

وأما الإيناس في اللغة فهو الإحساس، فيكون المراد بالآية الإحساسَ بما به يُؤنَس الرشد؛ ومنه (الإنْسُ) خلاف الجنِّ لأنهم يُؤْنَسُ بهم[5].

وأما قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ أي لا تأكلوا أموالَ اليتامى بغيرِ حقٍّ؛ والإسرافُ: مجاوزةُ الحد بالزيادة.

وقوله: ﴿وَبِدَارًا﴾ يعني مبادرةَ كِبَرِهِم، أي لا تُبادروا إلى أَكْلِ أَموالهم مخافةَ أن يَكبَرُوا فيَأْخُذُوا أَموالَهم منكم.

وأما قوله عز وجل: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي ليتورَّعَ بغناه عن مال اليتيم ولا يُنقِصَ شيئًا من ماله.

---

[1] أخرجه الطبري 406/6، وابن أبي حاتم 865/3 من رواية علي بن أبي طلحة بلفظ: «إن عرفتم رُشدًا في حالهم، والإصلاحَ في أموالهم».

[2] لَم أجد عن السدّي إلا قولَه:«﴿رُشْدًا﴾ عُقُولا وصَلاحًا»، وإنما أُثِرَ اشتراط الصلاح في الدين عن الحسن وقتادة. راجع آثارَهم عند الطبري405/6-406. وهو اختيار الشافعي رحمه الله، قال: «وَالرُّشْدُ - والله أَعلَمُ- الصَّلاحُ في الدِّينِ حتى تَكُونَ الشَّهَادَةُ جَائِزَةً». الأمّ 451/4.

[3] النكرة في سياق الشرط، وإن كانت تعمّ، لكن عمومُها بدليٌّ، لا شموليٌّ، والله سبحانه وتعالى «شَرَطَ رُشدًا مَنكُورا، ولَم يشرط سائرَ ضُرُوبِ الرُّشدِ». أحكام القرآن للجصاص 94/2.

[4] راجع: أحكام القرآن للجصاص 93/2-94، والمغني 607/6.

[5] راجع: تهذيب اللغة 61/13-62 مادة «أ ن س».

وقوله ﷻ: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾، قال عمر بن الخطاب، وسعيد بن جبير، وعَبِيدَةُ السَّلْماني ﭫ: معناه إنْ كانَ فقيرًا فليأخذْ مِن مالِ اليتيم على جِهَةِ القَرْضِ مِقدَارَ الحاجة، فإذا أَيْسَرَ رَدَّ عليه[1].

وهكذا روى الطحاوي عن أبي حنيفة שּׁ[2].

وقال مكحولٌ، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة: إن لِوليِّ اليتيم أن يأخذَ من مال اليتيم قدرَ ما يَستُرُ عورَتَه ويَسُدُّ جَوعَتَه، لا على جهة القرض[3].

وعن ابن عباس أن رجلا جاء إليه فقال: إنَّ في حِجْرِي أموالَ اليتامى، أفتَأْذَنُ لي أن أصيب منها؟ فقال: «**إن كنتَ تَبْغِي ضالَّتَها، وتَهْنَأُ جَرْبَاهَا**[4]**، وتَلُوطُ حِياضَها** [5]**، فاشرَبْ غيرَ مُضِرٍّ بالنَّسْلِ ولا نَاهِكٍ في الـحَلْبِ**[6]»[7].

وعنه في رواية أخرى أن معنى ﴿ فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ في هذه الآية:

---

[1] وهو قول مجاهد أيضا، أخرج آثارهم الطبري 6/412-417، وابن المنذر 2/574-575، بأسانيد جيّدة.

[2] كذا في أحكام القرآن للجصاص 2/96، ولَم أجده فيما بين يديَّ من كتب الطحاوي.

[3] هذا أشبه بلفظ إبراهيم النخعي، حيث فسّر الأكلَ بالمعروف بقوله: «ما سدَّ الجوعَ، ووارى العورةَ»؛ أخرجه الطبري 6/419. وأما قول مكحول، فأخرجه الطبري 6/419 بلفظ أنه سُئل عن والي اليتيم: ما أكله بالمعروف إذا كان فقيرا، قال: «يده مع يده»، قيل له فالكسوة؟ قال: «يلبس من ثيابه، فأما أن يتّخذ من ماله مالا لنفسه فلا». وأما قول عطاء، فلفظه: «إذا احتاج فليأكلْ بالمعروف، فإن أَيسَرَ بعد ذلك فلا قضاء عليه». أخرجه الطبري 6/424. وأما قول قتادة، فلم أجده.

[4] أي تطلي النوق الجربى بالهِناء – وهو القطران– تُعالجها به. راجع: لسان العرب«هـ ن أ».

[5] أي تُطيّنها وتُصلحها. راجع: تهذيب اللغة 14/18-19 «ل و ط».

[6] أي غيرَ مبالغٍ فيه بحيث لا يبقى في ضرعها لبن. راجع: تهذيب اللغة 6/17 «ن هـ ك».

[7] أخرجه مالك في الموطأ (صفة النبي ﷺ/ باب جامع ما جاء في الطعام والشراب)، وعبد الرزاق في تفسيره 1/434، والطبري 6/420، وابن المنذر 2/571، وغيرهم من رواية القاسم بن محمد عنه.

« **لِيَأكُلْ مِن مالِ نفسه بالمعروف حتَّى لا يَأْكُلَ مِن مالِ اليتيم شيئًا** »[1].

وروى محمَّدٌ في كتاب الآثار عن أبي حنيفة عن رُجلٍ عن ابن مسعود أنه قال: « **لا تَأكُلْ مِن مال اليَتِيمِ قرضًا ولا غيرَه** »؛ قال: وهو قول أبي حنيفة[2].

وروى بشر بن الوليد[3] عن أبي يوسف أنه قال: لا تأكل من مال اليتيم إذا كان مقيما فإن خرج إلى تقاضي دينٍ لهم أو ضياعٍ لهم فله أن يُنفق ويكتسي ويركب، فإذا رجع رد الثِّيابَ والدابةَ إلى اليتيم[4].

وعن أبي يوسف في رواية أخرى أنَّ قولَه: / ﴿**فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ يجوز أن يكون منسوخًا بقوله ﷻ: ﴿**لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ**﴾[5][6].

فحاصل هذه الروايات أنَّ الأصحَ على مذهب أصحابنا أنَّه ليس لوصيِّ اليتيم أن يأكلَ مِن ماله قرضًا ولا غيرَ قرضٍ إلا أن يضطر إلى شيءٍ منه فيأخذَه بالضرورة ثم يردَّ إذا وجد؛ لأن الوصيَّ هو الذي أدخل نفسَه في الوصية وضَمِنَ القيام بها على غير بدل، فهو كالـــمُستَبْضَعِ[7]، ولو كان ما يأخذه

---

[1] هذه رواية مِقسم عنه؛ أخرجها بنحوه ابن أبي حاتم 869/3، والنحاس في الناسخ والمنسوخ 152/2-153، والجصاص في أحكام القرآن 95/2، والحاكم في المستدرك 302/2. وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولَم يخرجاه»، وسكت عنه الذهبي.

[2] كتاب الآثار 653/2.

[3] هو الإمام الفقيه العابد قاضي العراق أبو الوليد، بشر بن الوليد الكندي. لازم أبا يوسف وتفقّه عليه وروى كتبه. توفّي 238 هـــ. راجع: سير أعلام النبلاء 673/10.

[4] راجع: «مختصر اختلاف العلماء» للجصاص 78/5.

[5] جزء من الآية (29) من سورة النساء.

[6] راجع: «مختصر اختلاف العلماء» للجصاص 78/5، والناسخ والمنسوخ للنحاس 146/2.

[7] «الـــمُستبضَع» بفتح الضاد، من الاستبضاع، وهو: بَعْثُ البِضاعَةِ مع من يتّجر بها تبرُّعًا، والربح كلّه لربّ المال. ويُقال له (الإبضاع) أيضا، فيقال لصاحب المال: (مُسْتَبْضِعٌ)،

أجرةً له على عمله لكان لا يفرق الحال بين أن يكون الوصي غنيًّا أو فقيرًا، ولا خلافَ بين أهل العلم أنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله إن كان غنيًّا.

ولهذا فَرَّقُوا بين ما يأخذه وليُّ اليتيم وبينَ أرزاق القضاة والمفتين من أهل العلم لأن أولئك يحلُّ لهم الأخذُ مع الغنى، وهو شيء جعله الله ﷻ لهم ولِكُلِّ مَن قام بشيءٍ من أمور الإسلام؛ لأنه لو لَم يُجعل لهم ذلك في بيت مال المسلمين لَم يتفرَّغوا لشيءٍ من أمور أنفسهم. وليس ما يأخذونه على طريق الأجرةِ؛ لأنَّ ما يفعلونه فرضٌ عليهم، ولا يجوز الأخذ للأجرة على شيء من الفروض، وقد كان للنبي ﷺ سَهمٌ من الـــخُمُسِ، ولا يجوز أن يقال: إنه ﵇ كان يأخذ الأجرة على شيء من الدين، كيف وقد قال الله ﷻ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾[1].

وسئل عبدالله بن مسعود عن قوله ﷻ: ﴿ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِ ﴾[2]، أَهُوَ الرُّشا؟ قال: « **لا، ذاك كفرٌ، إنما هو هدايا العمال** »[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾، أي بعد بلوغهم وإيناس الرشد منهم، ﴿ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وثيقةً لكم، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾: شهيدًا ومُجَازِيًا لكم في الآخرة، إلا أنَّ الإشهادَ فيما بين الناس من أحكام الدنيا

وَ(مُبْضِعٌ) بِالكَسْرِ، ويُقال لِلعَامِلِ المتبرِّع: (مُسْتَبْضَعٌ)، وَ(مُبْضَعٌ مَعَهُ) بِالفَتْحِ . راجع: الموسوعة الفقهية الكويتية 172/1، و175/3.

(1) جزء الآية (23) من سورة الشورى.

(2) مطلع الآية (42) من سورة المائدة.

(3) جاءت عن ابنِ مسعود ﵁ عدّة روايات بنحوه معناه، مِنها ما أخرجها الطبري 433/8 بلفظ: « **مَن شَفَعَ شَفَاعَةً لِيَرُدَّ بِهَا حَقًّا أَو يَرْفَعَ بِهَا ظُلْمًا، فَأُهدي له فَقَبِلَ، فهو سُحْتٌ** »، فقيل له : يا أَبَا عبدالرَّحمَنِ مَا كُنَّا نرى ذلك إلاَّ الأَخْذَ عَلَى الحُكْمِ، قَالَ: « **الأَخْذُ على الحُكْمِ كُفْرٌ** ». وراجع الروايات الأخرى في «أخبار القضاة» لأبي بكر البغدادي 51/1-53، والطبري 429/8-432.

لضروب من المصلحة.

والحسيب: ((فَعِيل)) من الحساب في العدد، والحسْب في الكفاية [1].

وانتصاب الحسيب على القطع[2]، يريد وكفى بالله الحسيب حَسِيبًا.

قولــه ﷻ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

وذلك أن العربَ كانت لا تُوَرِّثُ إلا مَن طاعَنَ بالرِّماح وذَادَ عن المال وحازَ الغنيمةَ[3]، فأعلم الله سبحانه أن حقَّ الميراث للرجال والنساء.

قال عبدالله بن عباس: توفي أَوْسُ بنُ ثابتٍ الأنصاري، وتَرَكَ ثلاثَ بناتٍ له وترك امرأةً يقال لها: أُمُّ كُحَّةَ[4]، فقام رجلان من بَنِي عمِّهِ قتادةُ وعُرْفُطَةُ – وكانا وصيَّين له – فأخذا مالَه ولَم يُعطيا امرأَتَه ولا بَناتِهِ شيئًا من المال، فجاءت أم كُحَّةَ إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أَوسَ بنَ ثابتٍ توفي وترك ثلاثَ بناتٍ، وليس عندي ما أُنفِقُ عليهن، وقد ترك أَبُوهن مالاً حَسَنًا، وهو عند قتادةَ وعُرْفُطَةَ، ولَم يُعطياني ولا لِبَنَاتي شيئًا من المال، وهُنَّ في حِجري لا يُطعَمْنَ ولا يُسقَينَ ولا يُرفعُ لهنَّ رأسٌ؛ فقال عليه السلام: « **ارْجِعِي إلى بَيتِكِ حتَّى أَنْظُرَ ما يُحدِثُ الله ﷻ إليَّ فِيهِنَّ** »، فرجعتْ إلى بيتها فأنزل الله ﷻ هذه الآية.

ومعناها: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ أي حظٌّ ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾،

---

[1] قال الواحدي: «فمِنَ الأول قولهم للرجل عند التهدّد: (حَسيبُه الله) ومعناه: مُحاسِبُهُ الله على ما يفعل من الظلم ... ومِن الكِفَاية قولهم: (حَسِيبك الله)، ومعناه: كافي إياك الله ». البسيط ق103/أ–ب.

[2] يعني بالقطع: الحال.

[3] أي أن أهل الجاهلية كانوا يورِّثون الرجال دون النساء والأطفال.

[4] ضُبِطَ في الهامش بالحاء المهملة، وضبطه الحافظ ابن حجر بالجيم؛ الإصابة في تمييز الصحابة 489/14.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ أي حظٌّ ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ يعني معلوما مُقدَّرًا جُعِلَ ذلك فرضًا لهم.

فلمَّا نزلت هذه الآية أرسل ﷺ إلى قتادةَ وعُرفُطَةَ أن: « **لا تَقْرَبَا مِن مالِ أَوْسٍ شيئًا، فإنَّه قد أَنزلَ الله ﷻ لِبَناتِهِ نَصِيبًا ولَمْ يُبَيِّنْ كم هُو؟ حتَّى أَنظُرَ كم يُبَيِّنُ الله ﷻ لَهُنَّ** ». فنزل بعد ذلك قوله ﷻ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [1]، فلمَّا نزلت آيةُ المواريث وبيانِ قسمتها أرسل ﷺ إلى قتادةَ وعُرفُطَةَ أن: « **ادْفَعَا إلى أُمِّ كُحَّةَ ثُمُنَ جَميعِ المالِ، وَادْفَعَا إليها لِبَناتِهَا الثُّلُثَيْنِ** »[2].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾

معناه - والله أعلم-: وإذا حضر قسمةَ المواريث ذَوُو قَرابةِ الميتِ في الرحم، واليتامى من ذَوِي الحاجة، والفقراءُ، فأعطوهم شيئا من المال قَبْلَ القسمة، ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي عِدُوهم عِدةً حسنةً؛ ويقال:

---

(1) الآيات (11-13) من هذه السورة.

(2) أخرجه أبوالشيخ في تفسيره – كما في الإصابة 286/1 – عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس ﵄. وذكر مقاتل في تفسيره 216/1، والواحدي في الأسباب ص 277 بنحوه معلّقا.

قلتُ: وأصحّ منه ما رُوي عن جابر ﵁ أنه قال: جاءت امرأةُ سعد بن الربيع بابنتَيها فقالت: يا رسولَ الله هاتان ابنتا سَعدٍ، قُتِل أبوهما معك يومَ أُحُدٍ، وإنَّ عمَّهما أخذ مالَهما؛ قال ﷺ: «يَقْضِي اللهُ في ذلك » فنزلت آية الميراث. رواه أحمد 108/23 (14798)، والترمذي (الفرائض/ باب ما جاء في ميراث البنات/ ح 2092) وقال: « هذا حديث حسن صحيح ».

اعتذروا منهم عند قِلَّةِ المال، وقولوا لهم: كُـــنَّا نحبُّ أن يكون أكثرَ من ذلك.

قال الحسن وإبراهيم النخعي: كانوا إذا قسموا العينَ، أي الذهب والفضة، أعطَوا من حضر القسمةَ مِن الأقرباء الذين لا يَرِثُون ومِن اليتامى والمساكين، وإذا بلغوا إلى قسمة الدوابِّ والرقيقِ والأرضين، قالوا لهم: ارجِعُوا بُورِكَ فيكم؛ فهو معنى قوله ﷻ / ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[1].

وعن سعيد بن جبير أنه قال: هذه الآيةُ يتهاون الناس بها، قال: وهما وَلِيَّان، أحدهما يَرِثُ، وهو الذي أُمِرُوا أن يرزقوهم ويعطوهم أَنْصِبَائهم، والآخر لا يرث، وهو الذي أُمِرُوا أن يقولوا لهم قولا معروفًا، قال: يقال لهم: هذا المال لِقَومٍ غُيَّبٍ أو لأَيتامٍ صغارٍ، ولسنا نملِكُ أن نُعطِيَ منه شيئا، وإذا حضر الغُيَّبُ وبلغ الصِّغَارُ أمرناهم أن يَعرِفُوا حقَّكم ويَتَّبِعُوا فيه وصيَّةَ ربِّهم؛ فهذا هو القول المعروف[2].

وروي عن عبدالله بن عباس فيه روايتان، **إحداهما**: أنَّ هذه الآية محكمةٌ غيرُ منسوخة[3]. وهو قول عطاء ومجاهد والزهري وجماعة [4]، حتَّى رُوي عن عَبِيدة السَّلْمَاني أنَّه ذبح للأقرباء شاةً من أموال اليتامى وأعطاهم، وقال:

---

(1) قول الحسن في مُختَصَرَي تفسير يحيى بن سلام البصري: تفسير الهوّاري 350/1، وتفسير ابن أبي زمنين 350/1. وأما قول إبراهيم النخعي، فلم أجده مسندا إليه، وقد ذكره الواحدي في البسيط ق104/أ، وابن الجوزي في زاد المسير 20/2.

(2) أخرجه الطبري 433/6، و442-443، وابن أبي حاتم 874/2 بنحوه بإسناد صحيح. وقد أخرجه البخاري (الوصايا/باب قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ الآية/ح 2759) بنحوه عنه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما موقوفا.

(3) هذه الرواية هي الصحيحة، رواها عنه سعيد بن جُبير، وعكرمة؛ وقد سبق تخريج رواية سعيد بن جُبير آنفًا من صحيح البخاري، وأما رواية عكرمة ففي الصحيح أيضا (التفسير/ باب: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ الآية/ح4576).

(4) راجع: الطبري 431/6-435، وابن المنذر 579/2-582، وابن أبي حاتم 875/3.

أُحِبُّ أن يكون ذلك من مالي لولا هذه الآيةُ، وقرأ عليهم الآية [١]. وعن ابن سيرين أنه فعل مثلَ ذلك أيضا[٢].

والرواية الأخرى عن ابن عباس: أنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآية المواريث[٣]؛ وهو قول سعيد بن المسيب والسُدِّي وأبي مالك وأبي صالح[٤].

وقيل: هذه الآية في إنفاذ وَصَاةِ الميت في هؤلاء. وقال زيد بن أسلم: هذا شيءٌ أُمِرَ به الـمُوصِي أن يجعل لمن لا يرث من قرابته صلةً، وكذلك اليتامى والمساكين إذا لَم يَخَفْ لذلك ضررًا على المورثين[٥].

والاستحباب في حقِّ الورثة الحضور البالغين؛ لأنها لو كانت واجبةً مع كثرة قسمة المواريث في عهد النبيﷺ والصحابةِ ومَن بعدهم لَـنُقِلَ وجوبُ ذلك واستحقاقُه لهؤلاءِ كما نُقِلَت المواريث لعموم الحاجَّة إلى ذلك.

وأما الذين قالوا: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ، فالمراد به عندهم نسخُ الوجوب بآيةِ المواريث؛ وخبرُ عَبِيدةَ السَّلْمانيِّ محمولٌ على أنَّ الورثةَ كانوا بلغوا الـحُلُمَ فَذَبَحَ الشاةَ مِن جُملة المال بإذنهم[٦].

---

(١) أخرجه الطبري 444/6، و445، وابن المنذر 581/2، وابن أبي حاتم 874/3.

(٢) أخرجه الطبري 445/6.

(٣) هذه الرواية ضعيفة، فقد أخرجها الطبري 436/6 بالإسناد المسلسل بالعوفيّين الضعفاء، وأخرجها ابن أبي حاتم 875/3 من طريق عثمان بن عطاء الخراساني، عن أبيه، عنه ﵁. وعثمان بن عطاء ضعيف (ميزان الاعتدال 48/3).

(٤) راجع: الطبري 435/6-436، وابن أبي حاتم 875/3-876.

(٥) أخرجه الطبري 437/6 بنحوه، ولفظه: «القسمة: الوصيّة، كان الرجل إذا أوصَى قالوا: فلان يُقسم ماله، فقال: ﴿ ارْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ يقول: أَوصُوا لهم».

(٦) راجع: أحكام القرآن للجصاص 106/2.

قولـــه ﷻ: ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ ﴾

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: كان الناس قبلَ نزول هذه الآية إذا حضروا ميتًا قالوا للمريض: أَوصِ لفلانٍ بكذا، ولفلانٍ بكذا، فلا يزالون كذلك حتى يذهبَ عامَّةُ مالِه فيبقى عيالُهُ بغير شيءٍ، فكره الله تعالى ذلك لهم وأنزل هذه الآيةَ، وانتهى الناس عن ذلك بعد نزولها وصارت الوصيَّةُ إلى الثلث لا يُزاد عليه[1].

رُوي عن رسول الله ﷺ أنَّه دخل على سعدِ بن عُبادةَ يَعوده، فقال سعد: يا رسول الله إنِّي ذو مالٍ وليس لي ولدٌ إلا جاريةٌ، أفأُوصِي بالثُّـــلُثَين؟ قال « **لا**»، قال: فالثلث؟ قال: « **الثُّلُث، والثُّلُثُ كَثِيرٌ، وإنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغنِيَاءَ خيرٌ مِن أَنْ تَدعَهُم فُقَرَاءَ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ** »[2].

وذهب بعضُ المفسرين إلى أنَّ هذه الآيةَ خطابٌ لمن يتصرَّفُ في أموال اليتامى، وأمرٌ لهم أن يُعامِلوا فيها بالواجب، معناه: ليخشَ الذين يخافون الضَّياعَ على ذُرِّيَّتِهم الضعافِ مِن بعد موتهم، فلا يفعلوا في أموال اليتامى إلا بما يحبُّون أن يُفعَلَ بأولادهم مِن بعد موتهم[3].

والقول السديد هو الذي لا خَلَلَ فيه من جهة الفساد، وهو مأخوذٌ مِن (سَدِّ الـــخَلَّةِ)[4].

---

[1] هذا من رواية الكلبي كما في تنوير المقباس ص85. وقد صحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحو معناه؛ أخرجه الطبري 447/6، وابن أبي حاتم 876/3 من رواية علي بن أبي طلحة عنه.

[2] **[متفق عليه]** أخرجه البخاري في مواضع (الوصايا/باب الوصيّة بالثلث/ح2744)، (مناقب الأنصار/باب قولِ النبي ﷺ: « اللهم أمضِ لأصحابي هجرتَهم »/ح3936)، وغيرهما؛ ومسلم (الوصيّة/باب الوصية بالثلث/ح1628).

[3] رُوي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما بالإسناد المسلسل بالعوفيين الضعفاء؛ أخرجه الطبري 451/6. وقد اختاره القاضي أبوبكر الباقلاني لأنه «أليق بما تقدَّم وتأخَّر من الآيات الواردة في باب الأيتام». راجع: مفاتيح الغيب للرازي 206/9.

[4] راجع: مقاييس اللغة مادة «س د د».

قولـــــه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾

نزلت هذه الآيةُ في حَنظلةَ بنِ الشمردل؛ كان يأكل مالَ اليتيم في حِجره ظلمًا[1].

ومعنى الآية: الذين يأكلون أموالَ اليتامى بغيرِ حَقٍّ، إنما يأكلون في بطونهم حراما. وسَمَّى الحرامَ ﴿نَارٗا﴾ لأنَّ الحرام يُوجِبُ النَّار، فسمَّاه باسمها على معنى أنَّ أجوافهم تمتلئُ نارًا في الآخرة.

قال السدي: من أكل مالَ اليتيم ظلمًا يُبعث يومَ القيامة ولَهَبُ النَّارِ يخرج من جوفِهِ وأُذُنَيه وعَينَيهِ وأَنْفِهِ، كلُّ مَن رَآه عَرَفَ أنَّه أكل مالَ اليتيم ظلمًا[2].

ومعنى ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾: سيدخلون النارَ في الآخرة ويَلزَمُونها. والصَّلَى ملازمة النار للاحتراق والتسخين أو الإنضاج؛ يقال: (صَلِيَ يَصْلَى صَلًى)[3]، ومنه قولهم: (اصطلى بالنَّارِ إذا دَفِئَ بها).

ومن قرأ: ﴿وَسَيُصۡلَوۡنَ﴾ بضم الياء[4]، فعلى فِعْلِ ما لَم يُسمَّ فاعلُه.

والسعير: النار المسعُورة الموقودة؛ يقال: (كفٌّ خَضِيبٌ) أي مخضوب[5].

---

[1] هذا من رواية المتهم محمد بن السائب الكلبي؛ تنوير المقباس ص86. وليس لحنظلة بن الشمردل أيُّ ذكرٍ في كتب السيرة، أو في كتب تراجم الصحابة.

[2] أخرجه ابن أبي حاتم 879/3.

[3] وفي الهامش: « الصِّلاء اسمٌ للوقود الذي يُصطلى به، إذا كسرتَ الصاد مددتَ، وإذا فتحتَها قَصَرْتَ». راجع: تهذيب اللغة 168/12، والقاموس ص1681 مادة «ص ل ي».

[4] هذه قراءة ابن عامر، وعاصم برواية أبي بكر. وقرأ الباقون بفتح الياء. راجع: المبسوط ص154، والروضة 605/2، والنشر 247/2.

[5] راجع: الطبري 456/6.

ولا شُبهةَ في أن الوعيدَ المذكورَ في هذه الآية راجعٌ إلى كلِّ مَن أَكَلَ شيئًا من مال اليتيم ظُلما، أو أَتلفَ عليه شيئًا من ماله؛ لأن الضرر الذي يرجع إلى اليتيم لا يختلف في حقّه بين الأكل والإتلاف، وإنما ذُكِرَ الأكلُ لأنَّ الأكْلَ هو المعظم فيما يُبتَغَى مِن التصرف.

وفي الآية دليل أنَّ من أَخَذَ مِن مالِ غير اليتيم مِمَّن ضَرَرُه ضَرَرُ اليتيم فهو داخل في هذا الوعيد.

قولــه ﷻ: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ / وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ [يُوصَىٰ][1] بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾

رُوي عن عبدالله بن عباس ﵄ أنه قال: كان المالُ للبنين وكانت الوصية للوالِدَين والأقربين في وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾[2] إلى أن نزلت هذه الآية، ثم صار ذلك منسوخًا بهذه

---

[1] هذه قراءة ابن كثير، وابن عامر، وعاصم برواية أبي بكر، في هذه الآية وفي التي بعدها. وقرأ المدنـيَّان، والبصريَّان، حمزة، والكسائي، وخلف بكسر الصاد ﴿يُوصِى﴾ في الآيتين. وأما عاصم برواية حفص، فقرأ هذه الآية بالكسر، وفي التالية بالفتح. راجع: المبسوط ص154، والنشر 248/2.

[2] الآية (180) من سورة البقرة.

الآية[1].

ومعنى الآية: يفرض الله تعالى عليكم في أولادكم، لأن الوصيةَ مِن الله ﷻ فرضٌ؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [2]، وهذا من الفرض المحكم علينا[3].

ومعنى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: للذكر الواحد من الأولاد مثل نصيب الاثنتين في الميراث، فإذا خَلَّفَ الرجلُ ابنًا وابنتين كان للابن النصف وللابنتين النصف، وإن خلَّف ابنًا وبنتًا فللابن الثلثان وللبنت الثلث، وإن كان الأولاد جماعةً فلكلِّ ذَكَرٍ سهمان ولكل أنثى سهمٌ.

واسم الولد يتناول وَلَدَ الرجلِ لصُلبِهِ حقيقةً، ويتناول مَن كان مِن صُلبِ بَنِـــيهِ مجازًا. فإذا كان للميت ولدٌ لِصلبه حُمِلَ اللفظُ على الحقيقة، وإن لَم يكن له ولدٌ لِصلبه حُمِلَ على مَن كان من صلب بنيه مجازًا.

وأما ولد البنات فلا يُعَدُّ مِن ولده في النسبة والتعصيب، ولكنهم من ذوي الأرحام، وأنشد القيسي[4]:

بَنُونا بَنُو أبنائِنا، وبَنَاتُنَا ... بَنُوهُنَّ أَبناءُ الرجالِ الأباعِدِ[5]

وعلى هذا قال أصحابنا فيمن أوصى لولدِ فلانٍ: إنَّ ذلك لولده لصُلبه، فإنْ لَم يكن ولدٌ لصُلبه فهو لولدِ ابنه، ولا يدخل أولاد البنات في هذه الوصية على أظهر الروايتين[6].

---

[1] أخرجه البخاري (الوصايا/بابٌ لا وصية لوارث/ح2747)، والطبري 459/6، وابن المنذر 588/2، وغيرهم بنحوه.

[2] جزء من الآية (151) من سورة الأنعام.

[3] راجع: معاني القرآن للزجاج 18/2.

[4] لَم أهتد إلى معرفة «القيسي» هذا، وقد يكون تصحّف من «القُتَيبِـــي» – وهو عبدالله بن مسلم بن قُتيبة الدينوري –، فقد أنشد هذا البيت في كتابه «غريب الحديث» 230/1.

[5] لا يُعرف قائله مع شُهرته في كتب النحاة، وأهل المعاني والبيان، والفرضيين. راجع: خزانة الأدب، الشاهد (73)، 445/1.

[6] راجع: أحكام القرآن للجصاص 116/2-117، وبدائع الصنائع 344/7-345.

فأما قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾، فمعناه: إن كانت الأولاد نساءً أكثرَ من اثنتين ليس معهن ذَكَرٌ فلهنَّ ثُلُثا ما ترك من المال والباقي للعصبة. قال ﷺ: «**مَا أَبْقَتِ الفَرَائِضُ فَلأَولى عَصَبَةٍ ذَكَرٍ**»[١].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةً﴾، من قرأ: ﴿وَٰحِدَةً﴾ بالنصب[٢] - وهو الأجود - فتقدير ذلك: وإن كانت المولودةُ واحدةً؛ ومن قرأ: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ بالرفع، فعلى معنى: وإن وَقَعَتْ مولودةٌ واحدةٌ بينَ أصحاب المواريث فلها نصف ما ترك الميت من المال[٣].

وأما بنات الابن، فهن بهذه المترلة إذا لَم يكن للميت بناتُ الصُّلب.

فإن قال قائل: لِمَ أعطيتُم الابنتين الثُّلُثَين، وفي الآية إيجاب الثلثين لِأَكثرَ مِن الاثنتين؟ قيل: في فحوى الآية دليلُ بيان فرض الابنتين، لأنَّ أولَ هذه الآيةِ يقتضي في أول العدد - وهو ذكرٌ وأنثى - أنَّ للابنةِ الواحدةِ مع الابن الثُّـلُثَ، فإذا كان لها مع الذكر الثلثُ، كانت بأَخْذِ الثلث عند عدم الذَّكَرِ أَولى، فَاحتجْنا إلى بيان حكم ما فوقَ الاثنتين، فلذلك[٤] نَصَّ على حكم ما فوقهما.

يدل عليه أنه إذا كان للابن الثلثان وللابنة الثلث، دلَّ أنَّ نصيبَ الابنتين الثلثان بحال، لأن الله تعالى جعل ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾[٥].

---

(١) **[متفق عليه]** أخرجه البخاري (الفرائض/باب ابنَي عمّ أحدهما أخ للأم والآخر زوج/ح6746)، ومسلم (الفرائض/باب ألحقوا الفرائض بأهلها/ح1615) من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما بلفظ: «**أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا تَرَكَتِ الفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**».

(٢) هي قراءة الجمهور عدا المدنيَّين (أبي جعفر ونافع)، فإهما قرءا بالرفع. راجع: المبسوط ص154، والروضة 605/2، والنشر 247/2.

(٣) راجع: معاني القرآن للزجاج 18/2، والكشف عن وجوه القراءات 378/1.

(٤) في الأصل: «فذلك»، والتصحيح من أحكام القرآن للجصاص 117/2.

(٥) يعني أنَّ الابن إذا أخذ الثلثين، دلّ على أنَّ للابنتين الثلثين أيضا لأن حظَّ الابن هو ﴿مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾. راجع: معاني القرآن للزجاج 19/2.

وجواب آخر: أن الله ﷻ جعل للأخت من الأب والأم النصفَ في آخر هذه السورة[1]، كما جعل للابنة الواحدة النصف في هذه الآية، وجعل للأختين هنالك الثلثين، فأَعطَينا الابنتين الثلثين قياسًا على الأختين في تلك الآية، وأعطَينا جملةَ الأخوات الثلثين قياسًا على البنات في هذه الآية[2].

ولا خلاف بين أهل العلم أن للأُنثيين الثلثين إلا شيئًا يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه جعل للابنتين النصفَ كنصيب الواحدة[3].

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه أعطى ابنَتَي سعدِ بنِ الرَّبيع – حين قُتِلَ شهيدًا – الثُّلُثَين من ماله، وأُمَّهما الثُّمُنَ، وجعل الباقي لعَمَّيهما[4].

وأما قوله ﷻ: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ الميتُ من المال ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أو لابْنِهِ ولدٌ، وهذا بيانُ ما يستحقه الأبوان مع الولد بالفرض، لا بيانُ جميعِ ما يستحقانه بالميراث مع الولد، فإنه قد يزيد ميراثُهما على ذلك. ألا ترى أنَّ الميت إذا ترك ابنةً وأبًا فَلِلابْنَةِ النصفُ والباقي للأب، فإذا ترك ابنةً وأُمًّا فللابنة النصفُ وللأم السُّدُسُ ويكون الباقي ردًّا عليهما على قدر سَهمِهما. وإذا ترك ابنةً وأبوين فللابنة النصف وللأبوين السدسان بالفرض ويبقى السدس يستحقه الأب بالتعصيب.

وإن كان الولد ذكرًا فللأبوين السدسان بحكم النصِّ والباقي للابن / لأنه أقرب تعصيبًا من الأب.

---

[1] وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخۡتٌ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ الآية [النساء/176].

[2] راجع: أحكام القرآن للجصاص 117/2، ولابن العربي 336/1-337.

[3] ما يُنسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما، لَم أجده مُسندا إليه، بل قال الزجاج: « لا أحسبه صحيحًا عن ابن عباس » معاني القرآن 20/2. وراجع: الإجماع لابن المنذر ص90، والمغني 11/9.

[4] إنما هو عمٌّ واحد في جميع الروايات، وليس اثنين. وقد سبق تخريجه في ص296 عند التعليق على سبب نزول قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ الآية [8].

وفي هذا بيان أنه إذا كان مع الأولاد ذَوُو سهامٍ نحو الأبوين والزوج والزوجة، أنهم متى أخذوا سهامهم كان الباقي بعد السهام بين الأولاد للذَّكَرِ مثلُ حظِّ الأنثيين، ولهذا قالوا: إن الإناث من أصحاب الفرائض إذا اختلطن بالذكور صِرْنَ عصبةً[1].

وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول: إنَّ الولدَ يحجُبُون الأمَّ من الثلث إلى السدس وإن لَم يَرِثوا، نحو أن يكونوا كفَّارًا أو مملوكين أو قاتلين، لأن الله عز وجل لَم يفرق في هذه الآية بين الولد الكافر والمسلم[2]؛ وقال عمر وعلي وزيد بن ثابت رضي الله عنهم: للأُمِّ الثلث وما بقي فللأب، وجَعلوا الكافرَ والرقيقَ بمنزلة الميت، وحملوا الآيةَ على ولد يحوز الميراث[3]، إذ لا خلاف بينهم إنَّ ابن الميت إذا كان كافرًا لَم يحجب أبا الميت[4].

ويُقال لمن يستدلُّ بقول ابن مسعود رضي الله عنه: لِمَ يَحجب الولدُ الكافرُ الأمَّ دون الأب؟ وظاهر قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ يقتضي حَجْبَ كل واحدٍ منهما عن ما زاد على السدس[5].

وأما إذا اجتمعت الابنة وابنة الابن، فقد روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قضى: «**للابنةِ بِالنِّصْفِ، ولابْنَةِ الابنِ بالسُّدُسِ**

[1] ويُسَمَّينَ: عصبةً بالغير. راجع: «السِّراجي» لسراج الدين السجاوندي الحنفي ص 39، وشرح سبط المارديني على الرحبية ص80-82.

[2] وكذا قال رضي الله عنه في الإخوة إذا كانوا نصارى أو مملوكين: إنهم يحجبون الأم. أخرجه عبدالرزاق في المصنف 279/10، وسعيد في سننه 67/1، وابن أبي شيبة 487/10.

[3] لفظ عمر رضي الله عنه: «**لا يحجبُ من لا يَرِثُ**»، وقال علي وزيد رضي الله عنهما في المملوكين وأهل الكتاب: «**لاَ يَحْجُبُونَ، وَلاَ يَرِثُونَ**». أخرجها عبدالرزاق في المصنف 280/10، وابن أبي شيبة 486/10-487.

[4] وذلك أن ابن مسعود رضي الله عنه خصّ الزوجين والأم – دون الأب – بكونهم يُحجَبون بالولد الكافر، وقال: «**لا يُحجَبُ غيرُهم**». أخرجه عبدالرزاق في المصنف 279/10.

[5] راجع: أحكام القرآن للجصاص 121/2.

تكملةَ الثُّلُثَين، وما بَقِيَ فللأُختِ مِنَ الأَبِ والأُمِّ »[١]؛ ولهذا قالوا: إنَّ الأختَ من الأب والأم مع البنات عصبةٌ[٢]، وكذلك الأخت من الأب إذا لَم يكن للميت أخت لأب وأم.

أما إذا كان للميت ابنتان وابنةُ ابْنٍ فلا ميراث لابنةِ الابْنِ، إلا أن يكون معها ابنُ ابْنٍ في درجتها أو أسفلَ منها فيكون الثلث الباقي بينهما، للذَّكَرِ مثلُ حظِّ الأنثيين في قوله عامَّةِ أصحاب رسول الله ﷺ[٣]، إلا ما يُحكى عن ابن مسعود ﷺ؛ وأما في قوله: فما بقي فلابنِ الابن خاصَّةً[٤].

وحكمُ الأختِ من الأب والأم مع الأخت من الأب كحُكم الابنةِ مع ابنة الابن[٥].

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾، فمعناه: إن لَم يكن للميت ولدٌ ذكرٌ ولا أنثى ولا لابنه ولدٌ، ووَرِثَه أبواه فلأمِّه الثلث مما ورثاه، ويكون الباقي للأب بقوله: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾.

وأما قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ أي للميت، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ مما ترك الميت، وما بقي فللأب لقوله ﷻ: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾؛ ونظير هذا قول الرجل: (هذه الدار لفلانٍ وفلانٍ، منها السدس لفلانٍ) فإنَّ الباقي يكون للآخر.

وفي الآية دليلٌ أنَّ الإخوة يحجبون الأمَّ عن الثلث إلى السدس، وأقل

---

(١) **[أخرجه البخاري]** في صحيحه (الفرائض/ باب ميراث ابنة ابن مع ابنةٍ/ ح6736).

(٢) وتُسمَّى: عصبةً مع الغير. راجع: السِّراجي ط40، وشرح سبط الماردييني على الرحبية ص82.

(٣) كعائشة، وعلي، وزيد بن ثابت ﷺ. راجع آثارهم في مصنف ابن أبي شيبة 10/470-471، و476، وفي السنن الكبير للبيهقي 6/230.

(٤) قولُ ابن مسعود ﷺ في المصادر السابقة. وراجع: أحكام القرآن للجصاص2/123-124.

(٥) فإذا هلك هالك عن شقيقةٍ وأخت من الأب، فالشقيقة لها النصف، والأخت من الأب لها السدس تكملةَ الثلثين. راجع: «السراجي» ص28.

الإخوة ثلاثة لأنَّ الجمعَ الصحيحَ لا يكون أقلَّ من ثلاثةٍ. ولا خلاف أنَّ الحجبَ يقع بثلاثةٍ من الإخوة والأخوات، وأنَّ ذلك لا يقع بالواحدة.

ثم قال عامَّة الصحابة: إن حكمَ الاثنين في هذا حكمُ الثلاثة [(١)]، لأنَّ العرب تُسمِّي الأَخَوَين إخوةً[(٢)]، والاثنان في حكم الميراث بمنزلة الثلاثة كما في الابنتين والأختين، فكذلك في الحجب.

وعن قتادة ﷺ أنه قال: إنما حَجَبَ الإخوةُ الأمَّ من غيرِ أن يَرِثُوا مع الأب لأنَّه يقوم بنكاحِهم والنفقةِ عليهم دون الأمِّ [(٣)].

وذهب جماعة من الصحابة إلى أنَّ الجدَّ (أبا الأبِ) يحجُبُ الإخوةَ لأنَّه يقوم مقام الأب إذا لَم يكن الأب في الأحياء[(٤)].

وفي الآية دليل أنَّ الابنَ وابنَ الابنِ يحجبان الإخوةَ لأهما أقربُ تعصيبًا مِن الأَبِ، فكانا أولى بحجْبِ الإخوةِ[(٥)].

[(١)] لَم يُخالف في ذلك أحدٌ إلا ما يُروي عن ابن عبّاس ﷺ، وسيأتي قريبا. وراجع: الطبري 6/464-465.

[(٢)] قيل لزيد بن ثابت ﷺ: يَا أَبَا سَعِيدٍ إنَّ اللهَ يَقُولُ : ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ وَأَنْتَ تَحْجُبُهَا بِأَخوَينِ؟ فَقَالَ: «**إِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّى الأَخْوَيْنِ إِخْوَةً**». أخرجه البيهقي في الكبير 227/6 بإسناد حسن. وراجع: معاني القرآن للزجاج 22/2.

[(٣)] أخرجه الطبري 468/6، وابن أبي حاتم 883/3.

[(٤)] هذا قول أبي بكر، وابن عبّاس، وابن الزبير، وغيرهم ﷺ. قال البخاري: «وَلَم يُذكَر أَنَّ أَحَدًا خالف أَبَا بَكرٍ فِي زَمَانِهِ وأَصحابُ النَّبيِّ ﷺ مُتَوَافِرُونَ»، وقد خالفه بعدَ زمانه: عُمَر، وعَلِيٌّ، وزيد، وابنُ مسعود ﷺ، فوَرَّثوا الإخوة مع الجدّ على اختلافٍ بينهم في كيفيَّة ذلك؛ صحيح البخاري (الفرائض/ باب ميراث الجد مع الأب والإخوة). وراجع: فتح الباري 20/12.

[(٥)] وجه ذلك: أن الأب يحجُبُ الإخوةَ ويحوز جميع ما بقي بعد أخد الأمِّ للسدس لقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾، والبنون أقرب تعصيبًا من الأب لأهم يحجبونه حجبَ نقصان مِن أَخذِ ما بقي تعصيبًا إلى أَخذِ السدس فرضًا لقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾. فإذا كان الإخوةُ يُحجَبون بالأب الذي هو نفسه محجوب بالبنين حجبَ نقصان، فلأن يُحجَبوا بالبنين من بابٍ أولى.

والإخوةُ والأخوات من الأب محجوبون بالأخ للأب والأم[١].

وقال ابن عباس: حكم الاثنين من الإخوة والأخوات في حَجبِ الأم كحُكم الواحدة[٢]، فإذا كانوا ثلاثةً حجبوا الأم من الثُّلث إلى السُّدس، وكان السدس لهم، والسدس للأم، والباقي للأب[٣].

وفي رواية أخرى عنه أنه لا يكون السُّدس للإخوة إلا أن يكونوا إخوةً للأم دون الأب[٤]

وكان من مذهبه أنه لا يُورِّثُ من الجدَّات إلا واحدةً وهي أم الأم [٥]،

---

[١] وذلك إجماعًا. راجع: الإشراف على مذاهب العلماء لابن المنذر 329/4، وشرح سبط المارديني على الرحبية ص77-78

[٢] اشتهر عند الفقهاء والمفسرين أن ابن عباس رضي الله عنهما لا يرى حجب الأم بالأخوين، وإليك ما رُوي عنه في ذلك: رَوَى شعبة بن دينار، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنه دخل على عثمان رضي الله عنه فقال: لِمَ صار الأَخَوَانِ يَرُدَّان الأُمَّ إلى السُّدُس وإنَّما قال الله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ والأَخَوَان في لسانِ قومِكَ وكلامِ قومكَ لَيسَا بإخوةٍ؟ فقال عثمان رضي الله عنه: «هل أَستَطِيعُ نَقْضَ أَمرٍ كان قبلي وَتَوَارَثَهُ النَّاسُ وَمَضَى في الأَمصَارِ؟» أخرجه الطبري 465/6، والبيهقي في الكبير 227/6. **قلتُ**: وفي ثبوت هذا الأثر نظر، وكذا في دلالته. أما الثبوت، فلأن راويه «شُعبة»، قال عنه إمامُ أهلِ بلده مالكُ بن أنس: «ليس بثقة»، وقال ابن حبّان: «روى عن ابن عباس ما لا أصل له حتى كأنه ابن عباس آخَر» راجع: تفسير ابن كثير 374/3، وتهذيب التهذيب 170/2. وأما الدلالة، فلأنه ليس صريحًا في أن ابن عبّاس رضي الله عنهما لا يرى حجب الأم بأَخَوَين، وإنما فيه أنه استشكله فسأل عثمان رضي الله عنه عن وجهِ ذلك.

[٣] أخرجه عبدالرزاق في المصنف 256/10 – ومن طريقه الطبري 468/6، والبيهقي في الكبير 227/6 – عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**السدس الذي حَجَبَتْهُ الإخوةُ الأُمَّ = لهم، إنما حَجبُوا أُمَّهم عنه ليكونَ لهم دونَ أبيهم** ». وقال الطبري: «وأمَّا الَّذي رُوِيَ عن طاووس، عن ابنِ عَبَّاسٍ، فَقَولٌ لِمَا عليه الأُمَّةُ مُخَالِفٌ، وذلك أَنَّه لا خلافَ بين الجميعِ أن لاَ مِيرَاثَ لأَخِي مَيِّتٍ مع والدِهِ، فكفى إجماعُهم على خلافه شاهدًا على فسادِهِ». الطبري 469/6.

[٤] ذكرها الجصاص في أحكام القرآن 119/2، ولَم أجدها مسندةً إليه.

[٥] لَم أجده عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، بل رُوي عنه خلاف ذلك، فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف 523/10 من طريق ليث عن طاووس عنه أنه قال:«**تَرِثُ الجدَّاتُ الأَرْبَعُ جَمِيعًا**».

تقوم مقام الأمِّ فتَرِثُ السُّدُسَ تارةً والثلث أخرى[1].

وروي أنَّ جدَّةً جاءت إلى أبي بكر ﷺ وطلبتْ ميراثَ حَافِدِها، فقال لها أبو بكر: «**لا أَجِدُ لكِ فِي كتابِ الله ﷻ شيئًا**»، فقام المغيرة بن شعبة وشَهِدَ أنَّ رسول الله ﷺ أعطى الجدة أُمَّ الأُمِّ السُّدُسَ، فقال: «**ائتِ معكَ بِشَاهِدٍ آخَرَ**»، فجاء محمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ وشَهِدَ بمثل شهادته، فأعطاها أبو بكر الصديق ﷺ السُّدُسَ[2].

وبهذا الخبر أخذ أصحابنا - رحمهم الله-، وقالوا: إن الجدَّةَ والجدَّتَين والثلاث مشتركات في السُّدُسِ إذا كُنَّ مستويات، إلا الجدَّةَ الفاسدةَ وهي أم أب الأم[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٍ [يُوصَىٰ] بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، فمعناه أنَّ هذه القسمة بعدَ فضلِ المال على الدَّين وبعد إمضاء الوصية من الثلث إن

---

[1] وهذا مذهب ابن حزم ﷺ، واستشهد له بما أسنده في المحلّى 272/9 من طريق شريك عن ليث عن طاووس عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: « **الجدَّةُ بِمَنـزِلَةِ الأُمِّ إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمٌّ** » وَقَالَ طَاوُس: «الجدَّةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ تَرِثُ مَا تَرِثُ الأُمُّ». قلتُ: قول طاووس صريح في أن الجدّةَ مِثلُ الأمِّ في قدرِ فَرضِها، وأمَّا قول ابن عبّاس ﷺ فليس صريحا في ذلك، ولذا قال الماوردي: «ومنهم مَن مَنَعَ أن يكونَ هذا مذهبًا له، وتأوَّلَ قولَه: (إِنَّهَا بِمَنزِلَةِ الأمِّ) فِي الميراثِ لا فِي قَدْرِ الفرضِ ...»؛ الحاوي الكبير 110/8 (بتصرّف يسير).

[2] [**حسن صحيح**] أخرجه مالك في الموطأ (الفرائض/باب ميراث الجدّة)، وأبو داود (الفرائض/باب في الجدّة/ح2894)، والترمذي (الفرائض/باب ما جاء في ميراث الجدّة/ح2101) - وقال: «هذا حديث حسن صحيح » -، وابنُ حبّان في صحيحه 390/13 (6031)، وغيرُهم من حديث قبيصة بن ذُؤَيب ﷺ. والحديث مُرسل، فإن قَبيصة وُلِدَ عامَ الفتح، فلَم يُدرك أَبا بكر ﷺ، إلا أنّه صحيح لكونه مرسلَ صحابيٍّ، ومراسيل الصحابة مقبولة. راجع: البدر المنير لابن الملقّن 206/7-210.

تنبيه: تصحيح الترمذي للحديث سقط من المطبوع، وهو موجود في النسخة الخطيّة المشهورة: نسخة الكَروخي ق139/أ، ونقله أيضا ابنُ الملقِّن في البدر المنير 207/7.

[3] راجع: «مختصر الطحاوي» ص146، و«السراجي» ص31.

كان / الـــميِّتُ أوصى بها.

ومن قرأ: ﴿ يُوصِى ﴾ بكسر الصاد، فعلى إضافة الوصيَّة إلى الميت.

فإن قيل: كيف ذكر الله تعالى الوصيةَ قبل الدَّين، والدَّينُ مقدَّمٌ على الوصية؟ قيل: إن كلمة ﴿ أَوْ﴾ لا تُوجب الترتيب، ولكنَّها توجب تأخير قسمةَ الميراث في هذه الآية عن أحدهما إذا انفرد، وعن كلِّ واحدٍ منهما إذا كان أحدُهما مضمومًا إلى الآخر، فكأنه قال: مِن بَعدِ أحدِ هَذَين [١]. فإذا كان كذلك لَم يُعرف بالآية وجوبُ البداية بأحدهما عند اجتماعهما في التركة، واحتَجْنا في معرفة ذلك إلى دليلٍ آخر.

وقد رُوي عن عليٍّ – كرم الله وجهه– عن رسول الله ﷺ: أَنَّه « قَضَى بِالدَّينِ قَــبْلَ الوَصِيَّةِ »[٢].

وهذا شيء قد أجمعتِ الأُمَّةُ عليه[٣]، حتى رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: ما بالنا نُقَدِّم أفعالَ العمرةِ على أفعال الحجِّ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[٤]؟ فقال رضي الله عنه: «كما تُقَدِّمون الدَّينَ على الوصيَّةِ،

---

[١] الصواب أن يُقال: «مِن بعدِهما جميعًا»، إذ تعبير المصنف: «مِن بَعدِ أحدِ هَذَين» يُوهم أن الأمر على التخيير بينهما. وراجع: أحكام القرآن للجصاص 138/2.

[٢] **[ضعيف، وعليه العمل]** أخرجه الشافعي في الأم 217/5، فقال: « وقد رُوي في تَبْدِئَةِ الدَّينِ قبلَ الوَصِيَّةِ حَدِيثٌ عن النبي ﷺ لا يُثبتُ أهلُ الحديثِ مِثلَه؛ أخبرنا سُفيان، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عَلِيٍّ رضي الله عنه ... ». وأخرجه أحمد 33/2 (595)، والترمذي (الوصايا/ باب ما جاء: يُبدأ بالدين قبل الوصية/ ح 2122)، وغيرهما، كلّهم من طريق أبي إسحاق به. والحارث – وهو ابن عبدالله الأعور – ضعيف لا يُتابع عليه (تهذيب التهذيب 331/1). وقال الترمذي عقِبَ الحديث: « والعمل على هذا عند عامَّةِ أهلِ العلم أنه يُبدَأ بالدَّين قبلَ الوصية ».

[٣] حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ، كالشافعيِّ في الأم 216/5، والطبري في تفسيره 469/6، وابن عبد البرّ في الاستذكار 388/23، والبغوي في معالِم التتريل 177/2.

[٤] مطلع الآية (196) من سورة البقرة.

وقد قال الله تعالى ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾»[1].

وأما قوله ﷻ: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾، فمعناه: أنَّ المذكورين في الآية – آباؤكم وأبناؤكم– لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا في الدنيا والآخرة؛ أمَّا في الدنيا فقد يكون الولد أكثر نفعًا لوالده، وقد يكون الوالد أكثر نفعًا لولده، وأمَّا في الآخرة فإنْ كان الأبُ أرفعَ درجةً في الجنة سأل الله ﷻ أن يرفعَ ابنَه إليه فيُرفَع، وإن كان الولدُ أرفعَ درجةً سأل الله ﷻ أن يرفع أباه إليه فيُرفَع[2].

وفي هذا جوابُ طعن الملحدين، عن قولِ بعضهم: هلاَّ كان الرجالُ أولى بالميراث لكونهم قَوَّامين على النساءِ الضعاف؟! وعن قول آخرين منهم: لِمَ جاز تفضيل الذَّكَر على الأنثى في قسمةِ الميراث والأُنثى أولى بالزيادة لعَجْزِها عن التصرُّف وقُعُودها عن الحِيلة ؟! فبـيَّنَ الله تعالى في آخر هذه الآيةِ أنَّه – جل ذكره – فَرَضَ الفرائضَ على ما هو عنده حكمةٌ ومصلحةٌ لهم، ولو وُكِلَ ذلك إليكم لَم تعلموا أيُّهم أنفعُ، فوَضَعْـتُم الأموالَ على غيرِ حكمةٍ.

وقيل: معنى ﴿لَا تَدۡرُونَ﴾: لا يَدري أحدُكُم أهو أقربُ وفاةً فينتفع ولدُهُ بماله أم الولدُ أقربُ وفاةً فينتفع والدُهُ بماله[3].

---

[1] أخرجه الشافعي في الأم 218/5، ومن طريقه البيهقي في الكبير 268/6، بإسناد حسن.

[2] روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﭭ، قال: « ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ أطوعُكُم لله من الآباء والأبناء، أرفعُكُم درجةً يومَ القيامة، لأنَّ الله سبحانه يُشَفِّعُ المؤمنين بعضَهم في بعضٍ ». أخرجه الطبري 471/6، وابن المنذر 589/2، وابن أبي حاتم 884/3.
وتصديقُه في القرآن، قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ [الرعد /٢٣]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور/21]. وراجع تفسير الآيتين عند ابن كثير (136/8، و232/13).

[3] هذا القول نسبه ابن الجوزي في زاد المسير 29/2 إلى « ابن بحر »، وهو المفسّر أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني المعتزلي (ت 322 هـ).

وأما قوله ﷻ: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، نصبٌ على الحالِ والتوكيدِ[1] من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾[2].

ومعنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي لَم يزلْ؛ كان عالِمًا بالمواريث وغيرها، حكيما حين بَيَّنَ قِسمةَ المواريث على الحكمة.

قال سيبويه: كأنَّ القومَ شاهدوا علمًا وحكمةً فخوطبوا على قدر عقولهم، فقيل لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي كأنَّ ذلك لَم يزل على ما شاهدتم[3].

وعن الحسن البصري ﷺ، أن معناه: كان الله عليمًا بالأشياء قبل خلقها، حكيمًا فيما يُقَدِّرُ مِن تدبيره منها[4][5].

ويقال: إن الخبر عن الله ﷻ في هذه الأشياء بالماضي كالخبر بالاستقبال والحال، لأن الأشياء عنده تعالى على حالٍ واحدةٍ، ما مضى وما يكون وما هو كائن[6].

---

[1] أي هو «منصوب على الحال المؤكدّة» كما قال مكّي في الهداية إلى بلوغ النهاية2/1245.

[2] راجع: معاني القرآن للزجاج 2/ 25.

[3] ذكره الزجاج في معاني القرآن 2/25، ولَم أجده في «الكتاب».

[4] كذا في الأصل، وفي تفسير الحدّاد 2/218: «فيها».

[5] ذكره الزجاج في معاني القرآن 2/25، والواحدي في البسيط ق 108/أ، ولَم أجده مُسندا إليه.

[6] ذكره الزجاج في معاني القرآن 2/25 بلا نسبة، ولَم يرتضه. وقد تقّدم في ص 193، وص233 التعليقُ على كلام يشبه هذا، فراجعْه.

قولــه ﷻ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

معناه – والله أعلم– : ولكم يا معشرَ الرجال نصفُ ما ترك نساؤكم إن لَم يكن لهن ولد ذَكَرٌ أو أنثى منكم، أو مِن غيركم، ولا لأبنائهنَّ ولدٌ.

فإن كان لهن ولدٌ يحوز الميراثَ مِن ذَكَرٍ أو أنثى، أو ولدُ ابنٍ منكم أو من غيركم، فلكم الربع مما تركن من المال.

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، أي مِن بعدِ قضاءِ دينٍ عليهنَّ أو إمضاءِ وصيةٍ أَوصَين بها من الثلث.

وأما قوله ﷻ: ﴿مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾، فمعناه: وللنساء الربع مما تركتم أيُّها الأزواج من المال إن لَم يكن لكم ولد يحوز الميراثَ مِن ذكرٍ أو أنثى، أو ولدُ ابن منهنَّ أو مِن غيرهن، [فإنْ كان لكم ذلك] [1] فلهن الثمن مما تركتم من المال من بعد قضاء دَينٍ عليكم أو إمضاءِ وصيةٍ أوصيتم بها من الثلث.

وكان عبدالله بن عباسﷺ يقول: إذا كان للميتِ زوجةٌ أو زوجٌ وأبوان،

[1] سَقَط في الأصل، واستدركتُه من تفسر الحدّاد 219/2.

كان للأمِّ ثُلُثُ المالِ كاملاً، وقال: «لا أَجِدُ في كتابِ الله ﷻ ثُلُثَ ما بَقِي»[1].

وأما عامَّة الصحابة ﷺ، كانوا يجعلون فرضَ الباقي مِن الزَّوجَين بعد موت الآخر استحقاقًا على كلا الأَبوَين[2]، ويجعلون للأُمِّ ثلثَ ما بقي من المال بعد فرض الباقي من الزوجين[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٌ﴾، ففيه قراءتان؛ من قرأ: ﴿يُورَثُ﴾ بنصب الراء[4]، فتقديره يورَث / مُتَكَلَّلاً كلالةً.

قال ابن عباس: الكلالة أن يموت الرجل ولا ولد له ولا والد[5].

وعن أبي بكر، وعمر، وجابر، وقتادة، والزهري ﷺ أنَّ الكلالةَ اسمٌ لِمَا عدا الوالدَ والولدَ[6].

---

[1] رواه عبدالرزاق في المصنف 254/10، وابن أبي شيبة 466/10، والبيهقي في الكبير 228/6، عن عكرمة بلفظ: بعثني ابنُ عبَّاسٍ إلى زيد بن ثابت أَسأَلُهُ عَن زوجٍ وأبوَيْنِ، فقال زيد: «لِلزَّوجِ النِّصْفُ، وَلِلأُمِّ ثُلُثُ ما بَقِيَ وهو السُّدُسُ»، فأرسلَ إليه ابنُ عبَّاسٍ: «أَفي كتاب الله تجد هذا؟»، قال: «أَكره أن أُفضِّلَ أمًّا علَى أَبٍ»، وكان ابنُ عَبَّاسٍ يُعطي الأُمَّ الثُّلُثَ مِن جميع المالِ.

[2] أي يكون نصيب الباقي من الزوجين كالحق الثابت في جميع المال قبلَ قسمةِ الميراث، فيأخذ الزوج نصيبه، ثم يتقاسم الأبوان ما فَضُل.

[3] هذا مذهب عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وزيد ﷺ. راجع: مصنف عبدالرزاق 252/10-254، وسنن سعيد بن منصور 37/1، ومصنف ابن أبي شيبة 464/10.

[4] وهي القراءة المتواترة، اتفق عليها القَرَأَةُ العشر. وقُرِئَ في الشواذ بكسر الراء مخفَّفًا ﴿يُورِثُ﴾، ومشدَّدًا: ﴿يُوَرِّثُ﴾، وكلاهما نُسبَ إلى الحسن وغيره. راجع: معاني القرآن للنحاس 37/2، الشواذ ص25، المحتسب 182/1، إتحاف فضلاء البشر ص238.

[5] أخرجه الطبري 477/6-478 بعدة طرق عنه.

[6] الكلالة على هذا القول اسم للوَرَثَة، وعلى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما هو اسم للميّت الموروث عنه. قول الشيخين رضي الله عنهما، أخرجه الطبري 475/6 من رواية الشعبي المرسلة عنهما. وأما قول جابر رضي الله عنه ففي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ جاء يعوده، فسأله جابر رضي الله عنه: «لا يَرِثُنِي إلا كَلالَةٌ، فَكَيْفَ الْمِيرَاثُ؟» فنزلت آية الكلالة التي في آخر السورة. البخاري

والظاهر أنَّ هذا الاسم في اللغة مِن: (تَكَلَّله النَّسَبُ)، أي أحاط به، وسُمِّي الإكليلُ إكليلاً لإحاطته بالرأس، فيكون معنى الآية: يُورَثُ بِتَكَلُّلِ النَّسَبِ. والوالد والولد خارجان من ذلك لأنهما طَرَفان للرجل، وهما أصلُ النسب وعَمودُه الذي ينتهي إليهما، فيُعتبر معنى الإحاطة فيما وراءهما، وهو أن يتكلَّلَهُ النَّسبُ مِن الجوانب وتنقطِعُ أطرافه[1].

ومن قرأ: ﴿يُورِثُ﴾ بكسر الراء[2]، جعل الكلالةَ مفعولاً [3]، ومِن حقِّ المفعول أن يكون منصوبًا.

والهاء في الكلالة تأنيثُ الجمعِ[4].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾؛ معناه: وإن كان رجلٌ أو امرأةٌ يورث كلالةً.

(المرض/باب وضوء العائد للمريض/ح 5676)، ومسلم (الفرائض/باب ميراث الكلالة/ح1616). وأما قتادة، والزهري، فلم أجد عنهما إلا مثلَ قولِ ابن عبّاس رضي الله عنهما، قالا: «الكلالة: من ليس له ولدٌ، ولا والدٌ». أخرجه عبدالرزاق في تفسيره 485/1، ومن طريقه الطبري 479/6.

قلتُ: لا تنافي بين القولَين، فإن الكلالةَ مصدرٌ يصحّ إطلاقه على كلا الوارثِ والمورث، ولذا قال ابن زيد: «الميّت الذي لا ولد له ولا والد، والحيُّ كلّهم كلالة، هذا يَرِثُ بالكلالة، وهذا يُورث بالكلالة». أخرجه الطبري 481/6. وراجع: تهذيب اللغة «ك ل ل»، والبسيط 108/ب.

[1] راجع: نزهة القلوب للسجستاني ص379 ، وأحكام القرآن للجصاص 129/2.

[2] هذه قراءة شاذّة تُنسب إلى الحسن البصري وغيره؛ وقد سبقت الإشارة إليها قريبا.

[3] على هذا الإعراب يتعيّن أن يكون الكلالةُ هم الورثةَ، والمفعول الثاني محذوف، والتقدير: إن كان الميّت يُورثُ الكلالةَ مالَه. راجع: مجاز القرآن119/1، والتبيان للعكبري ص236.

[4] يرى المصنف أنَّ الكلالةَ جمعٌ، والهاء في آخره هاء الجمع كما هي في (وَرَثَة)، و(قضاة)، و(بُعُولة)، ونحوها. ولَم أجد هذا عند غيره، وإنما نصّ أئمة اللغة على أنَّه مصدر، ولذا يُطلق على الواحد، كما يُطلق على الجماعة. راجع: مجاز القرآن 119/1، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي للأزهري ص176، والبسيط108/ب، وتاج العروس مادة «ك ل ل».

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ﴾ لا خلافَ بين الأُمَّة أنَّ المراد بالأخ والأخت في هذه الآية الأخُ والأختُ من الأم دون الأب [(١)]، لكلِّ واحد منهما السدس مما ترك الميت من المال.

وفي قراءةِ أبيٍّ بن كعبٍ ﷺ وسعد بن أبي وقاص ﷺ: ﴿وَلَه أخٌ أو أختٌ لِأُمٍ﴾[(٢)].

ولهذا قالوا: إنَّ الأخ والأخت للأم لا يرثان مع الولد وولد الابن، ولا مع الأب والجد (أبي الأب)، ولو خلَّينا وظاهرَ آيةِ الكلالة في آخر هذه السورة[(٣)] لكُنَّا نقول: إن الأخت من الأب والأم لا ترث مع ابنة الصُّلبِ [(٤)]، ولكنَّا تركنا الظاهرَ بالخبر المرويِّ عن عبدالله بن مسعود على نحو ما تقدَّم ذكرُهُ في الآية التي قبل هذه الآية[(٥)].

وذهب بعض المفسرين إلى أن الكلالة [(٦)] اسمٌ للميت وصفةٌ له، ودخول

---

(١) حكى الإجماع على ذلك غيرُ واحد، كابن المنذر في «الإجماع» ص93، والسمرقندي في بحر العلوم 287/1، والسمعاني في تفسيره 405/1، وابن عطية في المحرر الوجيز 43/4.

(٢) قراءة أبيٍّ ﷺ ذكرها الزمخشري في الكشاف 517/1، وأبوحيّان في البحر المحيط 547/3 بلفظ: «وَلَهُ أخٌ أو أختٌ مِنَ الأُم». وأما قراءة سعد ﷺ، فأخرجها سعيد بن منصور في سننه (التفسير) 1187/3 (592)، والطبري 483/6، وابن أبي حاتم 888/3، عن القاسم بن ربيعة بن قانف، أنه سمع سعدًا يقرأ: «وَلَهُ أخٌ أو أختٌ مِن أم». والقاسم هذا مجهول، سكت عنه البخاري في تاريخه 159/7، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل 111/7، وذكره ابن حبّان في الثقات 302/5. وهذه اللفظة لو صحّت عن أبيٍّ وسعدٍ ﷺ، فإنما تكون – والله أعلم – قراءةً تفسيريةً.

(٣) وهي: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ الآية [النساء/176].

(٤) وقد قال به ابن عبّاس ﷺ. أخرجه عبدالرزاق في المصنف 254/10-255.

(٥) راجع: ص (310).

(٦) في الأصل: «الكلام»، وهو تحريف واضح، وقد صححه الناسخ في هامش (ب).

الهاء في ذلك كما يقال: (علامة) و(نَسَّابة)؛ قالوا: والكلالة مصدرٌ من: (كَلَّ يَكِلُّ كلالةً) إذا أَعْـيَا، فيكون معنى الآية: يُورَثُ على بُعدٍ وكَلالٍ وإعياءٍ مِنَ النَّسَب[1]، ويقال: يُورَث وهو كالـمُعْيِي ليس له جانبُ الصعود ولا جانب الهبوط، وقد يقام المصدر مقام الاسم[2].

وروى طاووس عن ابن عباس أنَّ الكلالة من عدا الولد[3]، وكان يُورِّثُ الإخوةَ من الأم مع الأب[4]، وإنما أخرج الولد من الكلالة لأنَّه بعضُ الميت، وأما أبو الميت فليس بعضَه، فصار كالأخ من الأب والأم.

وأما قوله ﷻ: ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾، فمعناه: إن كانت الإخوةُ للأُمِّ أكثرَ من واحدٍ فَهُم كلُّهم سواءٌ في مِقدار الثلث، لا يُفضَّلُ الذَكَرُ على الأنثى، ولا يُزاد الإخوةُ مِن الأُمِّ على الثلث شيئًا وإن كثروا.

وقوله ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ أي من بعد قضاء دَينٍ على الميت أو إمضاء وصيةٍ إن كان أوصى بها.

---

[1] راجع: الكشاف 516/1، وزاد المسير 32/2، ومفاتيح الغيب للرازي 229/9.

[2] قد سبق بيان ذلك في الهامش قبل صفحتين.

[3] ولفظه: عن طاووس، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كنتُ آخرَ الناس عهدًا بعُمَرَ رضي الله عنه، فسمعتُه يقول: (القولُ ما قلتُ)، فقلتُ: وما قلتَ؟ قال: (الكَلالَةُ مَن لا وَلَدَ له)». أخرجه عبدالرزاق في المصنف 303/10، وسعيد بن منصور في سننه (التفسير) 1182/3 (589)، والطبري 480/6، والبيهقي في الكبير 225/6، وقال: «كذا في هذه الرواية، والذي رُوِّينَا عن عُمَرَ وابنِ عَبَّاسٍ في تفسير الكَلالَةِ أَشْبَهُ بدلائل الكتاب والسنَّةِ مِن هذه الرواية، وأولى أن يكونَ صحيحًا لانْفرادِ هذه الرواية وتظاهُرِ الرِّوايات عنهما بخلافها. والله أعلم».

[4] سبق بيانه وتخريجه في ص(308) عند تفسير الآية السابقة.

وأما قوله ﷻ: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ نصبٌ على الحال[1]، معناه: يُوصي بها الميت غيرَ مضارٍّ في حال وصيَّتِهِ، بأن يزيدَ على الثلث، أو يُفضِّلَ بعضَ الوَرَثَةِ على بعضٍ بوصيَّةِ نَفسِهِ.

قال[2] رسول الله ﷺ: « **إنَّ الله ﷻ قد أَعْطَى كُلَّ ذِي حقٍّ حَقَّهُ، فلا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ إلا أن يُجيزَهَا الوَرَثَةُ** »[3].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نصبٌ على المصدر والتوكيد[4].

ومعنى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: عليم بما دَبَّرَ مِن هذه الفرائض، حليمٌ حَلُمَ عن من عصاه بأن أخرَّه وقَبِلَ توبتَه، فلا يَغتَرَّنَّ أحدٌ بإمهاله العاصي فإنه سيجازيه في الآخرة.

وقد اختلفت الصحابة ﭫ فيما إذا اجتمعت الفرائضُ وزادت على المال؛ فرُوي أن عمر ﭬ أولُ من أعال الفرائض، وقال: «**أَرَى أن أَقسِمَ المالَ**

---

(١) راجع: إعراب القرآن للنحاس ص237.

(٢) في الأصل: «قال قال» مكرَّرًا.

(٣) **[حسن صحيح دون قوله: «إلا أن يجيزها الورثة»]** أخرجه أحمد 215/29 (17666)، والترمذي (الوصايا/باب ما جاء لا وصيّة لوارث/ح 2121)، وغيرهما من حديث عمرو بن خارجة ﭬ بإسناد حسن دون تلك الزيادة، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وبمثله رُوي من حديث أبي أمامة ﭬ بإسناد حسن، أخرجه أحمد 628/36 (22294)، وأبوداود (الوصايا/باب ما جاء في الوصية للوارث/ح2870)، والترمذي (2120)، وغيرهم، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن» كما في نسخة الكروخي ق 140/أ. وأما زيادة «**إلا أن يُجيزَهَا الوَرَثَةُ**» فرُويت من طُرُقٍ ضعيفة عند الدارقطني 171/5-173، والبيهقي في الكبير 264/6. وراجع: البدر المنير 263/7-272، وإرواء الغليل 96/6-98.

(٤) أي أنها مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي قبلها، والتقدير: أي يوصيكم الله بذلك وصيةً. راجع: معاني القرآن للأخفش 438/1، والتبيان للعكبري ص237.

عَلَيكُم بالحِصَصِ»[١]، يعني يَضرِبُ كلٌّ ذي حقٍّ بمقدار حقه كالديون [٢] في التركة إذا كانت التركةُ لا تَفِي بدَين أكثرهم.

وهو قول ابنِ مسعود وزيدِ بن ثابت رضي الله عنهما [٣].

وعن علي -كرم الله وجهه- أنه سُئِلَ عن ابنتين وأبوين وامرأة، فقال: «**صار ثُمُنُها تُسْعًا**» [٤][٥].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه كان يُنكر العولَ، ويقول: « **يُنظرُ إلى أَشَدِّ أصحابِ الفرائضِ في فريضته تَغييرًا فيُدخَلُ البَخْسُ عليه** »؛ قال: « **وَهُمُ البناتُ والأَخَوات يتغيَّر فرضُهُنَّ بمخالطةِ البنتِ والإخوةِ** »[٦].

---

[١] أخرجه البيهقي في الكبير253/6 من حديث ابن عبّاس عنه بلفظ:«**وَاللهِ مَا أَدْرِي كَيْفَ أَصْنَعُ بِكُمْ، وَاللهِ مَا أدري أَيَّكُمْ قَدَّمَ اللهُ ولا أَيَّكُمْ أَخَّرَ، وَمَا أَجِدُ فِي هَذَا المالِ شَيئًا أَحسَنَ مِن أَن أَقْسِمَهُ عَلَيْكُمْ بِالْحِصَصِ**». وقد أخرجه الحاكم في المستدرك 340/4 مختصرا، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مُسلم، و لم يُخرجاه »، وسكت عنه الذهبي.

[٢] في الأصل: « كالديون الديون » بالتكرار.

[٣] حكاه إبراهيم النخعي عنهما؛ أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 495/10. ورُوي عن زيد بن ثابت من وجه آخر عند سعيد بن منصور في سننه 43/1.

[٤] وذلك أن أصل المسألة قبلَ العول من أربع وعشرين للزوجة منها الثمن = ثلاثة، ولكل واحد من الأبوين السدس=أربعة، وللبنتين الثلثان = ستة عشر، فإذا جُمعت الفروض تعول المسألة إلى سبع وعشرين، وفرض الزوجة (ثلاثة) يساوي تُسُعَ ذلك.

[٥] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف 499/10، والدارقطني في سننه 120/5 (4063)، والبيهقي في الكبير 253/6.

[٦] جاء ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي سبق تخريجه آنفا في إعالة عمر رضي الله عنه للفرائض، فيه أنه أنه قال معلّقًا على قضاء عمر : «**وَايْمُ اللهِ! لَو قَدَّمَ مَن قَدَّمَ اللهُ، وَأَخَّرَ مَن أَخَّرَ اللهُ مَا عَالَت فَرِيضَةٌ** »، فقيل له: وأَيُّها قَدَّم الله و أَيُّها أخَّر؟ قال:«**كلُّ فريضةٍ لَم يُهبِطها الله عز وجل عن فريضةٍ إلا إلى فريضةٍ فهذا ما قدَّمَ الله عز وجل، وكلُّ فريضةٍ إذا زالتْ عن فرضِها**

قال عطاء: سمعتُ ابنَ عباس يقول: « **أَتَرَونَ الذي أَحْصَى رَمْلَ عَالِجٍ**[1] **عدَدًا جَعَلَ في مالٍ قَسَمَه نِصفًا ونصفًا وثُلُثًا ؟!** » يعني إذا كان للميت زوجٌ، وأختٌ لأب وأم، وأخٌ وأختٌ لأم، قال: « **هذا النصفُ، ولهذه الأخرى النصفُ، فأَينَ موضعُ الثلث ؟!** »، قال عطاء: فقلتُ له: إنَّ هذا لا يُغني عنك ولا عنِّي شيئًا، لو مِتُّ أو مِتَّ قُسِمَ ميراثُنا على ما عليه القوم مِن خلافِ رأيك! قال: « **إن شَاءُوا فلندْعُ أبناءَنا وأبناءَهم ونِساءَنا ونِساءَهم وأَنفُسَنا وأَنفُسَهم، ثم نبتهلْ فنجعل لعنةَ الله على الكاذبين! ما جَعَلَ الله في مالٍ نصفًا ونصفًا وثلثًا!** »[2].

واختلف الصحابة – رضي / الله عنهم – في مسألة المشتَرَكة[3]، وهي أن تُخلِّفَ الميتةُ زوجَها، وأمَّها، وإخوتَها لأمِّها، وإخوتَها وأَخَوَاتِها لأبيها وأمِّها. قال عليٌّ وابن عباس وأُبَيّ بن كعب وأبو موسى الأشعري ﷺ: للزوج النصفُ، وللأمِّ السدس، وللأَخَوَين من الأم الثلثُ، وسقطت الإخوةُ والأخواتُ من الأب والأم[4].

[و]لَم يكن لها إلا ما بَقِي، فتلك التي أَخَّرَ الله ﷻ؛ كالزوج و الأُم، والذي أَخَّرَ كالأخواتِ والبنات، فإذا اجتمع مَن قدَّمَ الله ﷻ ومَن أَخَّرَ بُدِئَ بمن قَدَّمَ فأُعطِيَ حقَّه كاملاً، فإن بَقِيَ شيءٌ كان لمن أَخَّرَ».

[1] عالج: رَمْلٌ عَظِيمٌ فِي بلاد العَرَبِ يَمُرُّ في شمال نَجدٍ قُرْبَ مدينةِ حائلَ إلى شَمَالِ تَيْمَاءَ. راجع: معجم المعالِم الجغرَافيَّةِ في السِّيرةِ النَّبويَّةِ ص197.

[2] أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقّه» 2/123-124 بإسناد جيّد. وهو في سنن سعيد بن منصور 1/44 بنحوه مختصرا.

[3] سمّيت بذلك لأنَّ بعضَ أهلِ العلم شَرَّك فيها الأَشِقَّاءَ مع الإخوة للأم في نصيبهم (الثلث)، وتسمّى أيضا: «الـمُشَرَّكة». راجع: القاموس «ش ر ك»، والمغني لابن قدامة 9/24.

[4] أما قضاء علي ﷺ فمستفيض عنه بطرقٍ عدَّةٍ عند ابن أبي شيبة في المصنف 10/478، والبيهقي في الكبير 6/255، و257. وأما قول أُبَيٍّ وأبي موسى ﷺ، فعند ابن أبي شيبة في

وبهذا أخذ أصحابُنَا ﷺ[١]، وقالوا: إنَّ العَصَـــبَةَ لا يرثون إلا ما يبقى من أصحاب الفرائض، واستدلوا بإجماع الصحابة كلِّهم على أن الميتةَ لو تركتْ زوجًا، وأُمًّا، وأخًا لأُمٍّ، وإخوةً وأخواتٍ لأبٍ وأُمٍّ، أنَّ للزوج النصفَ، وللأمِّ السدسَ، وللأخ من الأم السدسَ، وما بقي فللإخوة والأخوات من الأب والأم للذَّكَرِ مثلُ حَظِّ الأنثيين لا يدخلون مع الأخ للأم في نَصِيبه[٢].

وكان قولُ عمر ﷺ مثلَ ما ذكرنا حتَّى احتجَّ الإخوةُ من الأب والأم، فقالوا له: يا أميرَ المؤمنين لنا أبٌ وليس لهم أبٌ ولنا أمٌّ كما لهم أمٌّ، فإن كنتم حرمتُمُونا بآبائِنا فورِّثُونا بأُمِّنا كما وَرَّثْتُم هؤلاءِ بالأُمِّ، واحسِبُوا أنَّ أبانا كان حمارا! ألسنا تراكَضْنا في رَحِمٍ وَاحِدٍ؟ فقال عمر ﷺ: « **صَدَقْتُم** »، فأَشْرَكَ بَينهم[٣].

وبهذا أَخَذَ مالكٌ والشافعيُّ ﷺ [٤]. والله أعلم.

المصنف 479/10 من طريق جابر الجعفي – وهو ضعيف – عن الشعبي عنهما. ولَم أجد شيئًا عن ابن عباس ﷺ مسندا إليه، إلا أنَّ ابنَ عبد البر ذكر أنَّه رُوي عن ابن عباس ﷺ كلا القولين – التشريك وعدمه – إلا أنَّ المشهور عنه أنَّه لَم يُشرِّك. الاستذكار 424/15.

[١] هو قول أبي حنيفة وأصحابه، وأحمد، والطبري، وابن المنذر. راجع: أحكام القرآن للجصاص 133/2، والاستذكار 424/15، والمغني 24/9.

[٢] راجع: أحكام القرآن للجصاص 133/2-134.

[٣] هذه القصة مع اشتهارها في كتب الفقه والتفسير والفرائض، لَم أجدها مُسندةً، إلا أنه قد ثبت عن عمر ﷺ من غيرِ وجهٍ أنه أشرك بين الأشقَّاء والإخوة للأم كما في المصنف لعبد الرزاق 251/10، ولابن أبي شيبة 476/10-467، والسنن الكبير للبيهقي 255/6-256. وراجع للقصة: أحكام القرآن للجصاص 133/2، والمغني 24/9، وتفسير ابن كثير 379/3.

[٤] راجع: الأم للشافعي 184/5، والاستذكار 424/15.

قولـــه ﷻ: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ ﴾

معناه – والله أعلم–: هذه فرائض الله تعالى التي أمركم بها في المواريث وأَمْرِ اليتامى.

والحدود: هي الأمكنة التي لا ينبغي أن تُتَجاوَز، ويقال: معناه تفصيل الله ﷻ بين فروضه، والحد هو الذي يفصل بين الشيئين، ومنه حدّ الجدار[1].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي مَن يُقِم حُدُودَ الله ﷻ وحدودَ رسوله ﷺ في أمر المواريث وغيره، يُدخِلْه بساتين تجري من تحت شجرها الأنهار.

ويُقرأ: ﴿نُدۡخِلۡهُ﴾ بالنون[2]، والياءُ أقرب إلى لفظ الآية.

وقوله ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصبٌ على الحال، أي يُدخلهم مُقَدَّرين للخلود فيها كما يقال: (مررتُ بِرجلٍ معه بازٌ صائدًا به غدًا) أي مُقَدَّرٌ للصيد به غدًا [3].

ومعنى ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾: تلك النجاة الوافرة فـــازوا بها في الجنة.

---

[1] راجع: الطبري 489/6، ومعاني القرآن للنحاس 38/2.

[2] قرأ به المدنيَّان (أبو جعفر ونافع)، وابنُ عامر، وقرأ الباقون بالياء. راجع: المبسوط ص 154، والروضة 107/2، والنشر 248/2.

[3] راجع: معاني القرآن للزجاج 27/2.

قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ [نُدۡخِلۡهُ][1] نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾

معناه – والله أعلم- : ومن يعص الله ورسولَه في قسمة المواريث فلم يقسمْها – وذلك أن المنافقين كانوا لا يُقِرُّون للنساء والصبيان الصغار من قسمة المواريث شيئًا – نُدخِلْه نارًا خالدا فيها، وله عذابٌ مهين.

قولــه ﷻ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾

رُوي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما وجماعةٍ من المفسرين في معنى هذه الآية أنَّ النساءَ اللاتي يَزنِينَ من حرائركم من الثَّيِّـــبَات المحصَنات فاطلبوا عليهن أربعةً منكم من الشهود مِن أحراركم من المسلمين العدول، فإن شهدوا عليهن بالزنا فاحبسوهنَّ في البيوت – وهي السُّجونُ (بيوتٌ معروفةٌ في المدينة) – حتَّى يتوفَّاهُنَّ الموت في الحبس، ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ مخرجًا من الحبس قبلَ الموت[2].

وفي هذه الآية دليلٌ أن القاضي لا يقضي بعلم نفسه في الحدود [3]، وإنما

---

[1] هذا على قراءة المدنِيَّـــين (أبي جعفر ونافع)، وابن عامر. وقرأ الباقون بالياء ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾. راجع: المبسوط ص154، والروضة 107/2، والنشر 248/2.

[2] هذا خلاصة ما رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبير رضي الله عنهم، إلا أن تفسير البيوت بالسجون تفرَّد به سعيد بن جُبير رحمه الله دون غيره. راجع: الطبري 493/6-494، وابن المنذر 600/2، وابن أبي حاتم 893/3-894.

[3] وإليه ذهب جمهور الفقهاء، أن القاضي لا يجوز له القضاءُ بعلمه في الحدود الخالصة لله تعالى كالزنا، وشُرب الخمر، واختلفوا في حكم القاضي بعلمه في حقوق الآدميين. راجع: الحاوي الكبير 321/16، وبدائع الصنائع 6/7-7، والمغني 30/14-31.

يقضي بالإقرار أو بالشهادة؛ لأن الله ﷻ أثبت الفاحشة في أول الآية ثم أمر باستشهاد أربعة من الشهود.

﴿ وَٱلَّٰتِي ﴾ جمعٌ على غير لفظ الوحدان [(١)]، وأما (اللواتي) فجمعٌ على القياس كالفاعل والفواعل.

قولـــه ﷻ: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ ﴾

قال ابن عباس ﭭ: الفتى والفتاة اللذان لَم يُحصَنَا إذا أَتَـيَا بالزنا فآذوهما بالسب والتعيير لهما، يقال لهما: (زَنَيتُما! وفجرتما! وانتهكتما حرمات الله تعالى!)[(٢)].

ويقال: عنى باللَّذَين يأتيانها البكرين لأنهما يُحَدَّان، وأراد بالأَذَى الضربَ بالنعال[(٣)].

ومعنى ﴿ فَإِن تَابَا ﴾: من الزنا، ﴿وَأَصۡلَحَا﴾ العملَ بعدَ التوبة، ﴿ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ ﴾ لا تَسبُّوهما ولا تُعيِّرُوهما، إن الله ﷻ لَم يَزَلْ متجاوزًا عن الناس رحيمًا بهم بعد التوبة.

ويجوز أن يُذكَرَ ﴿كَانَ﴾ في مثل هذا الموضع على وجه الصلة، كما قال الشاعر:

---

(١) جاء لفظ (اللاتي) على وزن الفاعل كالقاضي، ولَم يأت على زِنَةِ إحدى صِيَغ الجمع المعروفة، ولذا قال بعض علماء العربية: إنه ليس جمعًا، بل هو «اسمٌ وُضِعَ للجمع». راجع: اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري 119/2.

(٢) لَم أجده إلا بنحوه من رواية الكلبي عند الفيروزآبادي في تنوير المقباس ص67. وقد رُوي نحوه عن سعيد بن جُبير أيضا؛ أخرجه ابن أبي حاتم 896/3.

(٣) قاله ابن عباس ﭭ في رواية علي بن أبي طلحة عنه، ولفظه: «أُوذِيَ بالتعيير، وضُرِبَ بالنِّعال». أخرجه ابن المنذر 603/2، وابن أبي حاتم 895/3-896.

فكيف إذا حَلَلْتَ دِيارَ قومٍ ... وإخوانٍ لنا كانوا كرامِ[(١)]

أراد: وإخوانٍ كرامٍ، وأَلغى «كان» في الشعر.

وأما الحدُّ المذكورُ في هاتين الآيتين فكان مشروعًا في أوَّلِ الإسلام حين كان التعيير في الناس يحلُّ محلَّ الـجَلد، فكان الزانيان يُعيَّرَان، إلا المرأةَ المحصنةَ فإنها كانت تُحبَس في البيوت بلا تزويجٍ ولا تخليةٍ عقوبةً لها إلى أن تموت، أو يجعل الله لها سبيلا.

ثم نُسخ هذا الحكم بما رُوي عن عبادةَ بنِ الصامتِ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قد جَعَلَ الله لهنَّ سَبِيلاً، البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وتَغريبُ عَامٍ، والثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ ورَجْمٌ بالحِجَارَةِ**»[(٢)].

وكان هذا النسخُ نسخَ القرآن بالسنة، ثم نُسِخَ التغريبُ في البكر عندنا بقوله ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[(٣)]؛ لأن ظاهر تلك الآية يقتضي أن الجلد بيانٌ لجميع الحكم المتعلق بالزنا، إذ لو لَم يُجعل ذلك كذلك لكان قصورا في البيان في مواضع الحاجة.

ونُسِخَ جلدُ الزاني الثيب المحصَنِ لـحديث ماعِزٍ أن النبي ﷺ رجمه ولَم يجلده[(٤)].

---

(١) البيت للفرزدق، أنشده الخليل بن أحمد في «الجمل» ص125، وسيبويه في «الكتاب» 153/2، والمبرد في «المقتضب» 116/4، كلهم بلفظ: « ... وجيران لنا كانوا كرامِ ».

(٢) **[أخرجه مسلم]** في صحيحه (الحدود/ باب حد الزنا/ح 1690)، وأحمد 338/37 (22666)، وأبو داود (الحدود/ باب في الرجم/ ح4415) وغيرهم بنحوه مثله.

(٣) مطلع الآية (2) من سورة النور.

(٤) **[متفق عليه]**. قصة رجم ماعز بن مالك الأسلميّ رضي الله عنه مشهورة مستفيضة من روايةِ عددٍ من الصحابة رضي الله عنهم، فمن ذلك حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عند البخاري في صحيحه (الحدود/باب رجم المحصن/ح6814). وأخرج القصة مسلم في صحيحه (الحدود/باب من

وعن عمر ﷺ أنه قال: «**لولا أن الناس يقولون: زادَ عمرُ بن الخطاب في كتاب الله ﷻ، لكَتَبْتُ على حاشية المصحف: ﴿ إنَّ الشَّيخَ والشَّيخَةَ إذا زَنَيَا فَارْجُمُوهما نَكَالاً مِنَ الله ﷻ وَيَتُوبُ الله على مَن تَابَ ﴾**»[١].

وقال الشافعي ﷺ: جَلدُ الثيِّبِ المحصَنِ منسوخٌ، وتغريبُ البِكر غيرُ منسوخ[٢].

وعند داود[٣] ومن تابعه من أصحاب الظاهر ليس شيءٌ منهما منسوخا[٤].

اعترف على نفسه بالزنا) من حديث جابر بن سمرة، وابن عباس، وأبي سعيد، وبريدة ﷺ.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الحدود/ باب ما جاء في الرجم) عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، أن عمر ﷺ خطب الناس فقال: « **إيَّاكُم أَن تَهلِكُوا عَن آيَةِ الرَّجْمِ، أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: لا نَجدُ حَدَّيْنِ فِي كِتَابِ الله! فَقَد رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا، وَالَّذِي نفسي بيَدِهِ لَولا أَن يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الخطَّاب في كتَاب الله تعالى، لَكَتَبْتُهَا: ﴿ الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا ٱلْبَتَّةَ ﴾ فَإِنَّا قَدْ قَرَأْنَاه** ». وقد علّقه البخاري في صحيحه (الأحكام/ باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء أو قبل ذلك للخصم) عن عمر ﷺ بلفظ: « **لَولا أَن يَقُولَ النَّاسُ: زَادَ عُمَرُ بْنُ الخطَّاب في كتَاب الله لكتبتُ آيةَ الرجمِ بيَدِي** ».

(٢) راجع للشافعي ﷺ: الأم 7/334-340، واختلاف الحديث ص203-206، والرسالة و245-251. وهو مذهب جمهور العلماء، يُوجبون التغريب مع الجلد، إلا أن مالكًا والأوزاعيَّ جعلاه خاصًا بالرجال دون النساء. راجع: التمهيد 9/87، والمغني 12/322.

(٣) هو رئيس أهل الظاهر، الإمام الفقيه داود بن علي بن خَلَف الظاهري، أبو سليمان البغدادي، تفقَّه على إسحاق بن راهويه، وأبي ثور؛ وسمع منهما ومن طبقتهما. كان من أوعية العلم، ذا دين متين، رأسا في معرفة الخلاف، يعظّم النصوص وينكر القياس، ويرد على أهله. توفي ببغداد سنة (270) هـ. راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 13/97.

(٤) الجمع بين الجلد والرجم، مذهب علي ﷺ، فقد أخرج أحمد في مسنده 2/255 (942) بإسناد صحيح، أنه ﷺ أُتي بمُحصَنةٍ فَجَرَتْ، فجمع لها بين الجلد والرجم وقال: «**جلَدتُهَا بكتابِ الله، وَرَجَمْتُهَا بسُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ**». وهو مذهب ابن راهويه، وداود الظاهري، ورواية عن أحمد. راجع: التمهيد 9/79، والاستذكار 24/49، والمحلّى 11/233-234، والمغني 12/308، و313.

ومن الفقهاءِ من يقول: إنَّ خبرَ عُبادةَ ليس بناسخ للقرآن لأن الله ﷻ أوجب الإمساكَ في البيوت إلى غاية، وخبرُ عُبادةَ ورد في بيان تلك الغاية [١]، وأما من جعل هذا الخبر ناسخًا للآية، فعلى معنى أن فيه إزالةَ حكمِ الآية بالخبر، وهو معنى النسخ[٢].

فإن قيل: لو كان الرجمُ منقولا من جهة الاستفاضة الموجبة للعلم لَمَا أنكرته الخوارجُ بأَسرِها[٣]، قيل: إن الخوارج لَم يجالسوا فقهاء المسلمين ولا نَقَلَةَ الأحاديث، وانفردوا عنهم ورَدُّوا أخبارَ من ليس على مقالتهم، وهذا لا يوجب قطع التواتر. ألا ترى أن فرائض صدقات المواشي ثابتةٌ بالنقل المستفيض ولا يعرفها إلا فقيهٌ قد سمعها، أو صاحبُ مواشٍ تكثر بلواه بوجوبها[٤].

وذهب بعضُ المتأخرين من أهل التفسير أنَّ المرادَ بقوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾ المرأة تزني بالمرأة، ومخرجهن من الحبس أن يقضيَ الله تعالى لهن بمن يتزوجهن ويقوم عليهن، قال: والمراد بقوله

---

(١) ممن قال به من الفقهاء: الخطَّابي في «معالِم السنن» 316/3 عند شرح حديث عُبادةَ ﵁، وابن العربي المالكي في «أحكام القرآن» 354/1، بل أغربَ ابنُ العربي فادّعى الإجماع على «أنّ هذه الآية ليست منسوخة»!

(٢) وهذا الخلاف، وإن كان أقرب إلى كونه لفظيا، إلا أن بعضهم بنى قولَه فيه على ما ترجّح لديه في المسألة الأصولية: «هل القرآن يُنسخ بالسنة ؟»، فمن رأى عدمَ جوازِ نسخِ القرآن بالسنة جعل خبر عُبادةَ ﵁ تفسيرًا للآية وبيانًا لِمُجملها، أو جعل الآيةَ منسوخةً بآية سورة النور، لا بخبر عُبادةَ ﵁. راجع: المغني 308/12.

(٣) **قلتُ**: تعميم نسبة إنكار الرجم إلى جميع الخوارج فيه نظر لأمرين؛ **الأول**: أن «الإباضية» من فِرَق الخوارج لا يُنكرون الرجم بل يُثبتونه كما في مُسنَدهم المختلق مُسند الربيع بن الحبيب (الأحكام/ باب في الرجم والحدود) ص237. **والثاني**: نَصَّ أصحابُ المقالات أنَّ الأزارقة من الخوارج – أتباع نافع بن الأزرق – هم الذين أنكروا الرجم. راجع: مقالات الإسلاميين ص89، والمحلى 231/11 و233، الفرق بين الفِرَق للبغدادي ص84.

(٤) راجع: أحكام القرآن للجصاص 155/2.

ﷻ: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ ﴾ الرجل يزني بالرجل[1].

وكان الحسن يقول: إن الآية الثانية، وإن كانت متأخرةً من الآية الأولى في التلاوة، فهي إنما نزلت قبلها وهي منسوخة بها؛ قال:كان حد الزنا في الابتداء الإيذاء باللسان فصار منسوخًا بالحبس في البيوت ثم صار الحبسُ منسوخًا بالجلد والرجم إلا أن النبي ﷺ أمر بوضع هذه الآيةِ في التلاوة بعد الأولى[2].

وهذا ليس بقويٍّ لأن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ ﴾ كنايةٌ عن الفاحشة، والتصريحُ بذكر الفاحشة في الآية الأولى، ولا يجوز أن يَسبِق ذِكرُ الكناية عن المكنيِّ عنه[3].

قولـــه ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

معناه : إنما التجاوز من الله تعالى للذين يعملون المعصيةَ بجهالة ثمَّ يتوبون من قبل أن ينـــزل بهم سلطان الموت، لا في وقت المعاينة فأولئك يقبل الله تعالى توبتهم، وكان الله عليمًا بأهل التوبة، حكيمًا حكم بقبول التوبة.

وقد اتفق أهل التفسير أنه لا يجوز أن يكون معنى الجهالة المذكورة في الآية أن لا يكون الرجل عاقلا، أو لا يعلم أنَّ ذلك سيئةٌ، فإنَّ ذلك ليس

---

[1] لعلّ مراد المصنف بـــ «بعض المتأخرين» هو المفسّر المعتزلي أبو مسلم، محمد بن بحر الأصفهاني (ت322هـــ)، فإنه قد اختار نحو هذا القول كما في التبيان للطوسي 143/3-144، ومفاتيح الغيب 239/9.

[2] ذكره الهوّاري في تفسيره 358/1.

[3] راجع: أحكام القرآن للجصاص 153/2.

بذنب إذا لَم يكن الرجل مفرِّطا[١].

ثم اختلفوا في معنى الجهالة، قال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «كُلُّ ذَنْبٍ أَذنَبَ العبدُ فهو جَهَالَةٌ» [٢].

وقال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على ذلك[٣].

وإنما سميت المعصيةُ جهالةً وجهلاً لقُبحها.

ويقال: لِجَهلِ فاعلِها بما يكون عليه من المضرَّة في فعلها، وما يكون من قَدْرِ العقابِ عليها؛ فإنَّ الإنسان وإنْ كان يعلم استحقاق العقوبة على المعصية فلا يعلم كُنْهَهَا وتفصيلها كما يعلم استحقاق الثواب على الطاعة ولا يعلم تفصيله[٤].

ويقال: معنى الجهالة اختيارُ اللذة الفانية على الباقية [٥]، وهذا تشبيهٌ بالجاهل في الذمِّ وقلَّةِ التَحفُّظ والتحرُّز كما قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٦]، ومعلوم أن الأنبياء – صلوات الله عليهم – يعلمون المعصيةَ، وعن هذا قال

---

(١) راجع: البسيط للواحدي ق111/ب.

(٢) أخرجه الطبري 507/6، وابن المنذر 605/2 بنحو مثله.

(٣) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره 441/1 – ومن طريقه الطبري 507/6 - بلفظ: اجتمع أَصحابُ رسولِ الله ﷺ، فرَأَوا أَنَّ كُلَّ شَيءٍ عُصِيَ به الله تعالى فهو جهالة، عَمْدًا كان أو غَيرَهُ.

(٤) بنحوه قال الكلبي والفراء؛ وضعّفه الطبريّ رحمه الله – وكذا الواحدي – لأنَّ مفهومَه أنَّ من عَلِمَ مضرَّة المعصية، وكُنهَ ما فيها فليس له على الله توبة، «وذلك خلاف الثابت عن رسول الله ﷺ من أنَّ كلَّ تائب عسى الله أن يتوبَ عليه ». راجع: تنوير المقباس ص87، ومعاني القرآن للفراء 259/1، والطبري 511/6، والبسيط 111/ب.

(٥) قاله الزجاج في معاني القرآن 29/2.

(٦) تتمة الآية (33) من سورة يوسف.

بعض أهل التفسير: إنَّ معنى الجهالة في هذه الآية أن يتعمَّد المعصيةَ[1]، وإنما سمّي جهالةً لأن المؤمن لا يقصد بالمعصية مخالفة الله تعالى ولكنه يَعرِضُ نفسه للعقوبة ويجعلها على الخطَر.

وذهب بعضهم[2] إلى أن معنى الجهالة أن يكون / عاصيًا وإن جهل أن ذلك ذنبٌ إما بتأويلٍ أو إعراضٍ عن النَّظَر مع التمكن من العلم بذلك والتحرُّزِ منه، قالوا: وإنما دخل المتعمِّدُ للذنب في هذه الآية لأنَّ التوبةَ من العمد أوجبُ من التوبة عن ذنب المتأول.

وإنما سمَّى الله تعالى ما قبلَ معاينة أسباب الموت قريبًا لأن كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، لأنَّ المرءَ لا يأمنُ من الـــمَنيَّةِ في كلِّ وقتٍ وساعةٍ، وكلُّ ما يكون هذا صفته فهو موصوف بالقرب.

ورُوي عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**مَن تابَ قبلَ موتِهِ بِسَنَةٍ تاب الله عليه** »، ثم قال: «**إنَّ السَّنَةَ لكثيرةٌ، من تاب قبلَ موتِهِ بشَهرٍ تابَ الله عليه** »، ثم قال: «**إنَّ الشهرَ لكثيرٌ، من تاب قبلَ موتِهِ بجُمُعَةٍ تاب الله عليه**»، ثم قال: «**إنَّ الجمعة لكثيرة، من تاب قبلَ موتِهِ بيومٍ تاب الله عليه**»، ثم قال: «**إنَّ اليومَ لكثيرٌ، من تاب قبلَ موتِهِ بساعةٍ تاب الله عليه**»، ثم قال: «**إنَّ السَّاعَةَ لكثيرةٌ، من تاب قبلَ أن يُغَرغِرَ بنفسه تاب الله عليه**»[3].

---

[1] هو قول الضحاك؛ أخرجه الطبري 509/6.

[2] كأبي علي الجبائي المعتزلي، كما في التبيان للطوسي 146/3.

[3] **[موضوع]** أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد 261/9-262 من طريق محمد بن مروان، عن الوضين، عن خالد بن معدان، عن عُبادة ﷺ. وهذا الإسناد تالف؛ فيه محمد بن مروان السدّي، وهو متروك متّهم بالكذب (ميزان الاعتدال 32/4)؛ ثمّ إن رواية خالد بن معدان عن عُبادة ﷺ مُرسَلة، فإنه لَم يصحّ سماعه منه (مراسيل ابن أبي حاتم ص52).
وله شاهد بمثله من حديث أبي هريرة وابن عباس ﷺ عند الحارث بن أبي أسامة في

وعن الحسن ﷺ أنه قال: لَمَّا أُهبِطَ إبليسُ إلى الأرض قال: بِعِزَّتِكَ لا أفارقُ ابنَ آدمَ مَا دام الروحُ في جسده، قال الله ﷻ: « **وَبِعِزَّتِي لا أَحجُبُ التوبةَ عن عَبْدِي ما لَم يُغرغِرْ بِنَفْسِهِ** »[1].

قولــه ﷻ: ﴿ **وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨** ﴾

معناه: وليس قبول التوبة للذين يعملون المعصية مقيمين عليها حتى إذا عاين أحدُهُم أسبابَ الموت - الشَّرَقَ، والنَّزْعَ، ومعاينةَ مَلَكِ الموت - قال: إني تُبْتُ الآن، ولا الذين يموتون على الكفر، أولئك خَلَقْنا وهَيَّأنا لهم عذابا مؤلما، وهي النار التي هي مصيرهم إليها.

وذهب الربيع إلى أن المراد بـــ ﴿ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ المنافقون، ثُمَّ عطف الكافرين المجاهرين بالكفر على المنافقين[2].

وأما حالة المعاينة فلا يعلمها الحاضرون للميت، وإنما يعلمها من حضرته

مُسنده – كما في بُغية الباحث للهيثمي (201) – لكنّه لا يُفرح به فإن فيه داود بن المحبر، وميسرة بن عبد ربّه، وهما «معروفان بالوضع » كما قال الحافظ في المطالب العالية 547/13 (3252).

[1] أخرجه الطبري 514/6 بإسناد صحيح إلى الحسن، قال بلغني أن رسول الله ﷺ قال: إنَّ إبلِيسَ لَمَّا رَأَى آدَمَ أَجْوَفَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ لاَ أَخْرُجُ مِن جَوفِهِ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ فَقَالَ الله: «**وَعِزَّتِي لاَ أَحُولُ بَينَهُ وَبَينَ التَّوبَةِ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ**». وأخرجه السمرقندي في بحر العلوم 267/2 (سورة الحجر/25-41) من وجهٍ آخر عن الحسن بنحوه. وله شاهد من مُرسل أبي قلابة البصري بنحوه، أخرجه الطبري 513/6-514.

[2] أخرجه الطبري 518/6. وهو قول شيخِهِ أبي العالية الرياحي كذلك، أخرجه ابن المنذر 608/2 و609 (1488 و1492) عن الربيع عنه.

تلك الحالة.

وإنما لَم تُقبَلِ التوبةُ عند المعاينة لأنه يصير عند ذلك مُلْجَأً إلى فعل الحسنات وتركِ القبائح، ومَن يكون بهذه الصفة لا يكون مُكَلَّفًا لأنه لا يستحق الـــمَحمِدَةَ على فعله ولا المذمَّة، وإذا زال عنه التكليف لَم تصحَّ منه التوبة، ولهذا لا يكون أهلُ الآخرة مكلفين.

مُلحَق:

تراجم المفسّرين الذين ورد ذكرهم في الكتاب

إبراهيم النخعي (ت 96هـ) [١]

هو ا لإمام، الحافظ، فَقِيهُ العِرَاقِ، أبو عمران إبراهيم بن يزيد بنِ قَيسٍ النَّخَعِيُّ، اليمانِيُّ، ثُمَّ الكوفي، أحدُ الأعلام. أخذ عن كبار التابعين، لاسيّما أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه كعلقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، فكان بصيراً بِعِلم ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه، ومراسيله عنه صحيحة.

الأَخفش (ت 210هـ أو بعده)[٢]

هو إمام النحو، أبو الحسن سعيد بن مَسعَدة البلخي، ثم البصري، مولى بني مُجاشِعٍ. أخذ عن الخليل بن أحمد، ولزم سيبويه حتى برع. له «معاني القرآن»، مطبوع في مجلّدين. قال أبو حاتم السجستاني: «كان الأَخفَشُ قَدَرِيًّا، رجلَ سُوءٍ، كتابُهُ في المعاني صُوَيلح، وفيه أَشياء في القَدَرِ».

ابن جريج (ت 150هـ) [٣]

هو الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ الحَرَم، أبو خالد وأبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي الأموي المكي. أخذ القراءة عن مجاهد بن جبر، وروى عن عطاء، وابن المنكدر، وعمرو بن دينار وغيرهم. يُرسل التفسير كثيرا عن مجاهد، وابن عبّاس رضي الله عنهما، قد أخذ غالبه بواسطة صُحُف وكتب. وله أقوال حسنة في التفسير من رأيه.

الحسن البصري (ت 110هـ)[٤]

هو التابعيّ الجليل، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار الأنصاري مولاهم، أبو سعيد البصري. سَمع من أنس، وجابر بن عبدالله، وأبي بكرة، وغيرهم، كما أنه

---

[١] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 520/4، وتهذيب التهذيب 92/1.

[٢] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 206/10، وبُغية الوعاة 590/1.

[٣] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 325/6، وتهذيب التهذيب 616/2.

[٤] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 563/4، وتهذيب التهذيب388/1.

أرسل عن كثير من كبار الصحابة ﷺ. كان إمام أهل البصرة في العلم والزهد. وهو يميل في التفسير إلى الوعظ، وما يُروى عنه في التفسير في آيات العذاب والوعد والوعيد أكثر من غيره، وتفسيره يكاد يخلو من الأحكام. وروى عنه التفسير قتادة، ويونس بن عُبيد، مبارك بن فضالة، وعوف الأعرابي وغيرهم من الثقات، كما أن معمر يُرسل عنه التفسير كثيرا، وهو إنما أخذه عن قتادة عنه. وممن روى عنه التفسير عمرو بن عبيد المعتزلي، وهو متّهم في روايته عنه [١]. ومِن أوائل من اعتنى بجمع تفسير الحسن عن أصحابه: يحيى بن سلاّم البصري (ت 200هـ) في تفسيره [٢].

الربيع بن أنس (ت 139هـ) [3]

هو التابعي الصدوق الربيع بن أنس بن زياد البكريّ البصري. كان عالِم مرو في زمانه، إلا أنه ليس من المفسّرين، وإنما هو راوية أبي العالية الرياحي، روى التفسير عنه، كما أنه روى شيئا يسيرا عن الحسن البصري. فإذا رُوي شيء من التفسير موقوفا عليه، فهو – والله أعلم - مما أخذه عن شيخه أبي العالية.

الزجاج (ت 311هـ) [٤]

هو الإمام، نحويُّ زمانِه، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السَّرِي البغدادي، لَزم المبرّد، وتخرّج عليه. وأخذ عنه العربية أبو علي الفارسي، وأبو جعفر النحاس، وجماعة. ألّف «**معاني القرآن وإعرابه**» الذي غدا عُمدةً في غريب القرآن واشتقاقه، وفي إعرابه وتوجيه قراءاته. نقل منه الأزهري في «تهذيب اللغة» كثيرا. وكذا أفاد منه تلميذه النحَّاس في «معاني القرآن الكريم».

---

[١] راجع: تهذيب التهذيب 288/3.

[٢] لَم يُطبع منه إلا جزء من سورة النحل إلى الصافات، صدر عن دار الكتب العلمية (بيروت)، بتحقيق: هند شلبي. ولكن يُستفاد من مختصرَيه: تفسير هود بن محكَّم الهوَّاري، وتفسير ابن أبي زمنين، وهما مطبوعان كامِلَين.

(٣) راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 169/6، وتهذيب التهذيب589/1.

[٤] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 360/14.

زيد بن أسلم (ت 136هـ) [1]

هو الإمام، الحجّة، الفقيه، زيد بن أسلم القرشي العدويّ، أبو عبدالله المدني، مولى عمر بن الخطاب ﷺ. روى عن ابن عمر، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وغيرهم ﷺ. كان عالما بتفسير القرآن، وله كتاب في التفسير ، رواه عنه ابنه عبدالرحمن.

ابن زيد (ت 182هـ) [2]

هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم، المدني. أخذ التفسير عن أبيه، وكان ضعيفا في رواية الحديث، إلا أنه كان صاحبَ قرآن وتفسير، جمع تفسيرا في مجلّد، وكتابا في الناسخ والمنسوخ. له أقوال حسنة في التفسير خاصةً في تفسير القرآن بالقرآن.

الزهري (ت 123هـ أو بعده)[3]

هو الإمام، العلم، الفقيه، حافظ زمانه، محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب الزهري ، أبو بكر المدني، نزيل الشام. تفقّه بسعيد بن المسيّب، وروى عنه، وعن أنس بن مالك ﷺ، وسالِم بن عبدالله بن عمر، وأبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف، وعمرة بنت عبدالرحمن، وغيرهم. قال الليث بن سعد: « مَا رَأَيتُ عَالِماً قَطُّ أَجمَعَ من ابن شهاب، يُحَدِّثُ في التَّرغِيبِ، فتقول: لا يُحسن إلاَّ هذا، وإن حَدَّثَ عن العَرَبِ وَالأَنسَابِ، قُلْتَ: لاَ يُحسن إلاَّ هذا، وإن حَدَّثَ عن القرآن والسنَّة، كان حَدِيثَه ». وأكثر ما رُوي عنه من التفسير، ففي آيات الأحكام أو المغازي.

---

[1] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 316/5، وتهذيب التهذيب658/1.

[2] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 349/8، وتهذيب التهذيب 507/2.

[3] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 326/5، وتهذيب التهذيب696/1.

السُّـــدِّيّ (ت 127)[١]

هو التابعيّ المفسّر إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُّدي الكبير، أبو محمد الكوفي الأعور، أحد موالي قريش. عالِم بالتفسير على لين يسير فيه في الرواية. وتفسيرُه جَمعٌ، جمعه من تفسير ابن عباس ، وابن مسعود، وغيرهما من الصحابة ﷺ؛ ولذا يقول في بداية تفسيره: « عن أبي مالك [الغفاري]، وعن أبي صالح عن ابن عَبَّاسٍ، وعن مُرَّةَ الهمْدانيُّ عن ابن مَسعُودٍ، وعن ناسٍ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ ... » ثم يسوقها سياقا واحدا بلفظه، وقد يكون فيها المرسل والمسند، ولا يميّز بينهما، ولهذا يقال: ذكره السدّي عن أشياخه[٢]. وقد مرّ إبراهيم النخعي بالسدي وهو يفسر، فقال: « أما إنه يفسّر تفسيرَ القوم » يعني — والله أعلم — الصحابةَ ﷺ. وقد أكثر السدّي من رواية الإسرائيليات في التفسير. وراوية تفسير السدي هو أسباطُ بن نصر، فغالب تفسير السدّي مرويّ من طريقه، وعليه المُعَوَّل فيه، ويوجد شيء يسير من غير طريقه.

[تمييز:] هناك سديٌّ آخر، يقال له: «السدّي الصغير»، وهو محمد بن مروان الكوفي، متروك متّهم بالكذب، ليس له أقوال في التفسير، إنما يروي التفسير عن الكلبي[٣].

سعيد بن جُبَير (ت 95هـ)[٤]

هو الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسّر، سعيد بن جبير بن هشام الأسد ي الوالِبيُّ مولاهم، أبو محمد الكوفي. قرأ القرآن على ابن عبّاس ﷺ، وأكثَرَ من الرواية عنه. وكان ابن عباس ﷺ إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟ - يعنى سعيد بن جبير -. قال ميمون بن مهران: « لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاج إلى علمه». قتله الحجّاج سنة 95هـ.

---

[١] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 264/5، وتهذيب التهذيب 158/1.

[٢] راجع: تفسير آيات استشكلت لابن تيمية 164/1-167.

[٣] راجع: ميزان الاعتدال 32/4، وتهذيب التهذيب 692/3.

[٤] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 321/4، وتهذيب التهذيب 9/2.

سعيد بن المسيب (ت 90هـ)[١]

هو سيّد التابعين في زمانه، الفقيه، سعيد بن المسيب بن حَزْنٍ القرشي المخزومي، أبو محمد المدني. رأى عمر، وسمع عثمان، وعليا، وأبا هريرة، وعائشة، وابن عباس، وخلقًا سواهم ﷺ. كان يقال له: «فقيه الفقهاء»، وكان يُفتي والصحابة ﷺ أحياء. ومراسيله أصحّ المراسيل، بل كان أعلم الناس بقضاء عمر ﷺ وحديثه. قال علي بن المديني: « لا أَعلَمُ في التَّابِعِينَ أَحَداً أَوسَعَ علمًا من ابنِ المسَيِّبِ، هو عندي أَجَلُّ التَّابِعِينَ».

ابن سيرين (ت 110)[٢]

هو الإمام، الحافظ، الحجّة، محمد بن سيرين، أبو بكر البصري مولى أنس بن مالك ﷺ. سَمع أبا هريرة، وأنس بن مالك، وعبيدة السلماني وخلقا سواهم. لَم يسمع من ابن عبّاس ﷺ، ولكن روايته عنه صحيحة لأنه أخذها عن عكرمة عنه. كان حَسَن العلم بالفرائض والقضاء والحساب. وكان الشعبي يقول: عليكم بذلك الأصم – يعني ابن سيرين –. وقال ابن يونس: كان ابن سيرين أفطن من الحَسَن [البصري] في أشياء.

الشعبي (ت بعد 100هـ)[٣]

هو الإمام، التابعي، الفقيه، عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمرو الكوفي. سمع من عدّة من كبراء الصحابة ﷺ. كان من أفقه التابعين؛ قال أبو مجلز: «ما رأيت أفقه من الشعبي إلا سعيد بن المسيب ». وعن ابن سيرين، قال: «قدمتُ الكوفة، وللشعبي حلقة عظيمة، والصحابة يومئذ كثير».

---

[١] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 217/4، وتهذيب التهذيب 43/2.

[٢] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 606/4، وتهذيب التهذيب 585/3.

[٣] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 294/4، وتهذيب التهذيب 264/2.

أبو صالح (ت نحو 120هـ) [1]

هو باذام – ويقال: باذان – مولى أم هانئ بنت أبي طالب. ضعيف، يُرسل عن ابن عبّاس ﵄ في التفسير كثيرا، وله أقوال قليلة تُروى موقوفًا عليه، ولعلّها أيضا مما أخذها عن غيره. كان الشعبي يقول له: «ويلك! تفسّر القرآن وأنت لا تحفظ!». وأما ما يرويه الكلبي عنه عن ابن عبّاس ﵄ فنسخة موضوعة وضعها الكلبي.

الضحاك (ت بعد 100هـ)[2]

هو المفسّر الضحاك بن مزاحم الهلالي الخراساني. له باع كبير في التفسير والقصص، وإن كان ليس بالمجوّد في الحديث. يروي التفسير عن ابن عبّاس ﵄، ولَم يلقه، وإنما أخذه عن سعيد بن جبير. ورُوي أكثر تفسير الضحاك من طريق جويبر بن سعيد الأزدي[3]، وهو ضعيف في الرواية جدّا، ولكنه له اختصاص بالضحاك، وحاله في التفسير حسن.

طاووس (ت 106هـ أو بعده)[4]

هو الحافظ، عالِم اليمن، أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان الفارسيّ ثم اليمنيّ. لازم ابن عباس ﵄، حتّى صار من كبراء أصحابه. وروى عن أبي هريرة، وابن عمر، جماعةٍ من الصحابة ﵃. رُوي جلُّ تفسيره من طريق ابنه طاووس، ويوجد شيء يسير من طريق مجاهد، وغيره.

أبو العالية (ت 90هـ أو 93هـ) [5]

هو الإمام، المفسّر، المقرئ، رُفَيع بن مهران الرِّياحي البصري. أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي ﷺ بسنتين. قرأ القرآن على أُبَيٍّ بن كعب ﵁، وأخذ التفسير

---

[1] راجع لترجمته: الضعفاء للعقيلي 460/1، وتهذيب التهذيب 211/1.
[2] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 598/4، وتهذيب التهذيب 226/2.
[3] راجع لترجمته: تهذيب التهذيب 320/1.
[4] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 38/5، وتهذيب التهذيب 235/2.
[5] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 207/4، وتهذيب التهذيب 610/1.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، ويروى عنهما وعن غيرهما من الصحابة.

عَبِيدة السَّلْماني (ت نحو72هـ)[1]

هو التابعي المخضرم الفقيه، عَبِيدة بن عمرو السلماني المرادي الكوفي. اسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، ولَم يلقه. تفقّه على عليٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما ، وروى عنهما وعن غيرهما. رُوي أن شريحاً القاضي إذا أشكل عليه الأمر كتب إلى عَبيدة وانتهى إلى قوله.

وله أقوال يسيرة في التفسير، أكثرُها من رواية ابن سيرين عنه.

أبو عُبَيدة (ت نحو 210هـ)[2]

هو الإمام، العلاّمة، اللغوي، معمر بن المثنّى التيميّ مولاهم البصري. كان صحيح الرواية عن العَرَب، على ضعفٍ فيه في النحو. قال أبو العباس المبرد : «كان أبو عُبيدَة عالما بالشعر والغريب والأخبار والنسب، وكان الأصمعي يشركه في الغريب والشعر والمعاني، وكان الأصمعي أعلم بالنحو منه»، وقال الأزهري: «كان أبو عُبيدة صاحبَ أخبارٍ وغريبٍ، ولَم يكن له معرفة بالنحو»[3]. ألّف كتاب «مجاز القرآن» في الغريب، وهو مطبوع. نقل منه البخاري في صحيحه تفسيرَ الغريب في مواضع يسيرة. واستقى منه ابن قتيبة (ت 276هـ) كثيرا في كتابه «تفسير غريب القرآن»[4]. كما أن ابن المنذر (ت 319هـ) روى منه كثيرا في تفسيره بإسناده إلى أبي عُبيدة.

---

[1] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 40/4، وتهذيب التهذيب 45/3.

[2] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 445/9، وتهذيب التهذيب 126/4.

[3] راجع: تهذيب اللغة، مادة « ص و ر».

[4] قد كنتُ لاحظت ذلك بالنظر في الكتابين، ثمّ وجدت أن السيد أحمد صقر رحمه الله قد نصّ عليه في مقدمة تحقيقه لـ« تفسير غريب القرآن »، ص (ج)، والحمد لله رب العالمين.

عطاء بن أبي رباح (ت 114هـ)[1]

هو الإمام، عالِم المناسك ومفتي الحرم، عطاء بن أبي رباح أسلم، القرشي مولاهم، أبو محمد المكي. وُلد في خلافة عثمان، وسمع عددا من الصحابة ﷺ. يروي التفسير عن ابن عبّاس ﷺ، وله أقوال في التفسير من رأيه. وأكثر من يروي عنه ابن جريج.

عكرمة (ت 104هـ أو بعده)[2]

هو الحافظ، العلامة، المفسّر، عكرمة مولى ابن عباس ﷺ، أبو عبد الله المدني، البربري الأصل. كان من أعلم الناس بالسيرة والتفسير، إلا أنه اتُّهم بشيء من رأي الخوارج. وقد أخرج له البخاري، وتحايده مالِكٌ ومسلم. قيل لسعيد بن جبير: تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال: نعم، عكرمة. وقال قتادة: «عكرمة أعلم الناس بالتفسير».

الفرّاء (ت 207هـ)[3]

هو العلامة، النحوي، يحيى بن زياد بن عبدالله الأسد ي مولاهم، الكوفي، أبو زكريا الفراء. أخذ العربية عن الكسائي، ولازمه. كان يقال: «الفراء أمير المؤمنين في النحو». لَمَّا أملى «معاني القرآن» اجتمع له خلق، من جملتهم ثمانون قاضيا. وهو من أوائل مَن صنّف في معاني القرآن من النحاة الكوفيين؛ لَم يسبقه إلى ذلك إلا شيخه الكسائي. وكتابه هذا قد أفاد منه الطبري في تفسيره كثيرًا.

قتادة (ت 117-118هـ)[4]

هو الحافظ، قدوة المفسّرين والمحدّثين، قتادة بن دعامة السدوسي، أبو الخطاب البصري. كان من أوعية العلم، وممن يُضرب به المثل في الحفظ، إلا أنه كان يدلّس. سمع أنس بن مالك ﷺ، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وخلقًا سواهم. أخذ

---

[1] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 78/5، وتهذيب التهذيب 101/3.

[2] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 12/5، وميزان الاعتدال 93/3، وتهذيب التهذيب 134/3.

[3] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 118/10.

[4] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 269/5، وتهذيب التهذيب 428/3.

التفسير عن الحسن، وكان من أكبر أصحابه وأثبتهم، ولذا أَكْثَرَ في تفسيره من الوعظ، كشيخه الحسن. وهو أكثر التابعين تفسيرا بعد مجاهد. وغالب تفسيره مروي من طريق سعيد بن أبي عروبة، ومعمر بن راشد الأزدي[١].

القتيـــبـــي (ت 276هـ)[٢]

هو العلاّمة الكبير، ذو الفنون، خطيب السنة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري. حدّث عن إسحاق بن راهويه، وأبي حاتم السجستاني، وطائفة. نزل بغداد، وصنّف وجمع، وبَعُد صيته. وصار هو لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة [٣]. له تآليف كثيرة، منها «تأويل مشكل القرآن»، و«تفسير غريب القرآن»، و«كتاب المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير»، وهي مطبوعة.

الكسائي (ت 189هـ)[٤]

هو الإمام، شيخ القراءة والعربيَّة، أبو الحسن عليّ بن حمزة بن عبدالله بن بَهْمَن بن فَيرُوزٍ الأَسَدِيُّ مولاهم، الكوفي، الـمُلَقَّبُ بِالكِسَائِيِّ لكِساءٍ أَحرَمَ فيه. تلا على حمزة الزيَّات، وحدّث عن الأعمش، وجعفر الصادق، وجماعة، وجالس الخليل في النحو. قال الشافعي: «من أراد أن يتبحّر في النحو فهو عيال على الكسائيّ». هو أول النحاة من الكوفيين تأليفًا لـمعاني القرآن، وكتابه مفقود إلا ما وَصَلَنا من أقواله منثورةً في «معاني القرآن» للفراء، وكُتُب النحّاس، و«تهذيب اللغة» للأزهري، و «البسيط» للواحدي.

---

[١] ويرويه عن معمر عبدالرزاق في تفسيره، وهو الغالب في تفسير عبدالرزاق، ويوجد فيه شيء عن مجاهد، وغيره.

[٢] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 296/13.

[٣] راجع: مجموع فتاوى ابن تيمية 392/17.

[٤] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 283/4.

الكلبي (ت 146هـ) [١]

هو الأخباري، المفسّر، محمد بن السائب بن بِشر الكلبي، أبو النضر الكوفي. وكان أيضا رأسا في الأنساب، إلا أنه شيعيٌّ غالٍ متروك الحديث، بل متّهم بالكذب. ألّف تفسيرا للقرآن الكريم، فسّر فيها جميع الآيات، مع بيان أسباب نزولها، ولذا وصفه ابن عدي بقوله: « ليس لأحد تفسير أطول ولا أشبع منه »[٢]. وعِيب عليه أنه أسند هذا التفسير عن أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عبّاس ﵄. وقد روي عن أبي صالح أنه حلف على أنه لَم يقرأ على الكلبي من التفسير شيئًا [٣]. بل رُوي عن سفيان الثوري أنه قال: قال لنا الكلبي: «ما حدَّثتَ عني، عن أبي صالح، فهو كذب، فلا ترووه!»[3]. وهذا لا يعني أن كل ما تفسيره فهو باطل؛ إذ أن منه جملةً مما يوافق ما رواه الثقات عن ابن عباس ﵄، أو غيره من السلف كمجاهد. ولذا قال يحيى بن سعيد القطان: « تساهلوا في أخذ التفسير عن قوم لا يوثّقونهم في الحديث»، ثم ذكر ليث بن أبي سلم، وجويبر بن سعيد، والضحاك، ومحمد بن السائب، وقال: « هؤلاء لا يحمد أمرهم ، ويُكتب التفسير عنهم »[٤]. ويزداد تفسير الكلبي وهاءً إذا كان الراوي عنه السدّي الصغير: محمد بن مروان الكوفي؛ فإنه كذّاب[٥]، وتُسمَّى حينئذ هذه السلسلة — أعني: السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس — بسلسلة الكذب [٦]. وهي التي اعتمدها الفيروزآبادي في كتابه « تنوير المقباس من تفسير ابن عباس».

وقد أخرج الطبري وابن المنذر شيئا يسيرا من روايات الكلبي — من غير طريق السدي الصغير - في تفاسيرهما، وأما ابن أبي حاتم فلم يُخرج له شيئا. وكثيرٌ من

---

[١] راجع لترجمته الكامل في الضعفاء 114/6، وسير أعلام النبلاء 248/6، وتهذيب التهذيب 569/3.

[٢] يعني بالنظر إلى تفاسير بقية التابعين فإنها لَم تكن مستوعبة لجميع الآيات.

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل 271/7.

[٤] أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 194/2.

[٥] راجع: ميزان الاعتدال 32/4، وتهذيب التهذيب 692/3.

[٦] راجع: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 2336/6.

تفسيره منثور في «بحر العلوم» للسمرقندي، و«الكشف والبيان» للثعلبي، و«البسيط» للواحدي، و«أسباب النزول» له.

أبو الليث السمرقندي (ت 373هـ)[١]

هو الإمام، الفقيه، المحدّث، الزاهد، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي. له تفسير متوسّط للقرآن، مطبوع باسم «بحر العلوم». وهو تفسير جامع بين الرواية والدراية، رَوَى فيه أبو الليث كثيرا من الأحاديث بإسناده، علاوةً على ما نقله عن المفسرين قبله كالكلبي والزجاج.

مجاهد (ت 101-104هـ)[٢]

هو الإمام، الحجّة، شيخ القرّاء والمفسّرين، أبو الحجّاج مجاهد بن جبر المكّي. روى عن ابن عباس رضي الله عنهما فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآنَ، والتفسيرَ والفقه. وهو أكثرُ مَن رُوي عنه التفسير من التابعين، كيف لا وهو القائل: «عَرَضْتُ القرآن ثلاث عَرضَاتٍ على ابن عبَّاسٍ، أَقِفُهُ عند كُلِّ آيةٍ، أَسأَلهُ: فِيمَ نزلت؟ وكيف كانت؟». وقال: «استفرغَ علمي القرآنُ»، أي أنّه وضع كُلَّ علمه في القرآن. وقد دوّن تفسيرَه التابعيُّ الثقة القاسم بن أبي بزّة، ومن كتابه أخذ ابن أبي نجيح، وابن جريج، وابن عيينة، ليث بن أبي سليم، والحَكَم بن عتيبة الكندي[٣]. ومن طُرُقهم انتشر تفسير مجاهد، وأخرجه الطبري وابن أبي حاتم، وغيرهما.

أبو مالك الغفاري[٤]

هو التابعي الثقة غزوان الغفاري، أبو مالك الكوفي. روى عن ابن عبّاس، والبراء بن عازب، وعبدالرحمن بن أبزى رضي الله عنهم. رُويت عنه أقوال يسيرة في التفسير، رواها عنه

---

[١] راجع لترجمته: الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية 544/3.

[٢] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 449/4، وتهذيب التهذيب 25/4.

[٣] راجع: الثقات لابن حبّان 331/7.

[٤] راجع لترجمته: وتهذيب التهذيب 375/3.

السدّيّ، وحُصين بن عبدالرحمن السُّلَمي، ولعلّ أغلبها مما أخذه عن ابن عبّاس ﷺ، والله أعلم.

محمد بن إسحاق (ت 150هـ)[1]

هو العلامة، الأخباريّ، إمام المغازي، أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار القرشي، المطلبي مولاهم، المدني. ألّف السيرة النبوية، وصلت إلينا من خلال السيرة النبوية لابن هشام. قال الشافعي رحمه الله: « من أَرَادَ أَن يَتَبَحَّرَ في المغازي، فهو عيالٌ على مُحَمَّدِ بنِ إِسحاق ». وغالب ما أُثر عنه في التفسير، يتعلّق بالآيات الواردة في المغازي أو في قصص الأمم السابقة. توجد أقواله التفسيرية في سيرة ابن هشام، وفي تفسير الطبري وتفسير ابن أبي حاتم، وغيرهما من التفاسير المسندة.

محمد بن كعب القرظي (ت 120هـ)[2]

هو التابعي، الثقة، المفسّر، محمد بن كعب بن سُلَيم القُرَظِيُّ المدنيّ، من حُلَفاءَ الأوس، وكان أبوه من سَبي بني قريظة. حدّث عن أبي أيوب الأنصاري، وأبي هريرة، وابن عباس، وخلقا سواهم ﷺ. وهو ممن يُكثر من رواية الإسرائيليات في التفسير.

مقاتل (ت 150هـ)[3]

هو المفسّر مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني، أبو الحسن البلخي. قد أدرك الكبار من التابعين، لكنه في الرواية ضعيف جدًّا. له تفسير كامل للقرآن الكريم، مطبوع في ثلاثة أجزاء. وهو تفسير حسن، يُستفاد منه تفسير الغريب، ولكن يُتَوَقَّف في أسباب النزول المذكورة فيه؛ فقد قال نعيم بن حماد : رأيت عند سفيان بن عيينة كتابا لمقاتل بن سليمان، فقلت: يا أبا محمد تروى لمقاتل في التفسير ؟ قال : «لا، ولكن أستدل به وأستعين!». وقال ابن المبارك: « ما أحسَنَ تَفسيرَهُ لَو كان ثِقَةً! ».

---

(1) راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 33/7، وتهذيب التهذيب 504/3.

(2) راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 65/5، وتهذيب التهذيب 684/3.

(3) راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 201/7، وتهذيب التهذيب 143/4.

وقد قيل: إن مقاتلاً أفاد في تفسيره من تفسير الكلبي. والناظر يلاحظ شبهًا في كثير من الأحيان، لاسيّما في أسباب النـــزول التي تفرّد الكلبي بروايتها دون الثقات.

[تمييز:] هناك مفسّر آخر بنفس الاسم من نفس الطبقة. وهو مقاتل بن حيّان النَّبْطِي، أبو بسطام البلخي (توفي قُبيل 150هـــ). وهو ثقة فاضل صاحب سنّة، أخرج له مسلم وأصحاب السنن[1]. وقد أكثر ابن أبي حاتم من ذكر أقواله في تفسيره؛ بالإسناد تارة، وتعليقًا تارات. وأخرج الطبري في تفسيره شيئًا يسيرا منها. والضابط في التفريق بينهما في التفاسير التي تذكر أقوال كلا المقاتِلَين كتفسير الثعلبي والبغوي، أنه إذا ذُكر فيها «مقاتل» غير منسوب فهو ابن سُليمان، وأما ابنُ حيَّان، فلا يَرِد – غالبًا - إلا منسوبًا إلى أبيه. والله أعلم.

مكحول[2]

هو عالِم أهل الشام، الفقيه، أبو عبدالله مكحول الدمشقي، من صغار التابعين. وهو من سَبي «كابل»، وكان مولى لامرأة هذلية. سمع أنس بن مالك، وأبا أمامة الباهلي، وأبا إدريس الخولاني، وخلقًا سواهم. وأرسل عن كثير من الصحابة، وكبار التابعين. له أقوال يسيرة جدًّا في التفسير، وغالبها في آيات الأحكام.

---

[1] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 340/6، وتهذيب التهذيب 142/4.

[2] راجع لترجمته: سير أعلام النبلاء 155/5، وتهذيب التهذيب 148/4.

الخاتمة

(أهم النتائج والتوصيات)

فهرس الأعلام الواردة في النص المحقّق

الاسم / الكنية / اللقب	رقم الصفحة
إبراهيم بن حاطب	32
إبراهيم بن يزيد النخعي	297
أبو بكر الصديق ﵁	210، 229، 309، 314
أُبَيّ بن كعب ﵁	273، 316، 320
الأخفش (سعيد بن مِسعدة)	108، 162
امرؤ القيس بن عابس الكندي ﵁	116
امرؤ القيس الشاعر الجاهلي	207
أنس بن مالك ﵁	31
أوس بن ثابت الأنصاري ﵁	295، 296
إيشاع (أخت مريم ﵍)	61
بشر بن الوليد	(293)
ثعلب (أحمد بن يحيى) النحوي	(120)
جابر بن عبدالله الأنصاري ﵄	152، 236، 314
جالينوس	(86)
ابن جريج (عبدالملك بن عبدالعزيز)	16
جعفر بن محمد الصادق	134، 273
الجلاسِ بنِ سويدٍ ﵁	126، 130
أبو جهل	176

الحارثُ بن سويد رضي الله عنه 126، 130

الحباب بن المنذر رضي الله عنه 223

حذيفة بن اليمان رضي الله عنه 110

الحسن البصري 26، 32، 45، 55، 66، 74، 90، 138، 142، 143، 153، 158، 171، 195، 200، 210، 245، 261، 268، 280، 297، 312، 327، 330

الحسن بن علي عليهما السلام 101

الحسين بن علي عليهما السلام 101

حمزة بن عبدالمطلب عليه السلام 43، 244

حنظلة بن أبي سفيان 204

حنظلة بن الراهب رضي الله عنه 204

حنظلة بن الشمردل 300

حَنَّة (امرأة عمران) 61

أبو حنيفة 43، 280، 292، 293

خالد بن الوليد رضي الله عنه 211، 206

الخليل بن أحمد الفراهيدي 47

داود بن علي الظاهري (326)

الربيع 1، 9، 94، 331

الزبير بن العوّام رضي الله عنه 90

الزجاج 5، 10، 39، 45، 53، 88، 89، 125، 132، 193، 196، 211، 221، 277

الزهري (محمد بن مسلم بن شهاب)	140، 297، 314
زيد بن أسلم	298
ابن زيد (عبدالرحمن بن زيد بن أسلم)	13
زيد بن ثابت ﵁	305، 319
سام بن نوح ﵉	87
السدّي	184، 238، 291، 298، 300
سعد بن أبي وقاص ﵁	210، 315
سعد بن الربيع ﵁	304
سعد بن عُبادة ﵁	299
سعد بن معاذ ﵁	173
سعيد بن المسيب	298
سعيد بن جبير	36، 76، 224، 291، 297
أبو سفيان بن حرب ﵁	22، 102، 204، 206، 216، 240، 241، 244
أبو سهل الأنطاكي	(58)
سهل بن سعد الساعدي ﵁	222
سيبويه	47، 207، 312
ابن سيرين (محمد بن سيرين)	298
الشافعي (الإمام محمد بن إدريس)	285، 321، 327
الشعبي (عامر بن شراحيل)	116
أبو صالح (باذام)	279، 298
ابن صوريا (الحبر اليهودي)	44
الضحاك	11، 27، 50، 71، 93، 115، 179

طاووس	150، 286، 317
الطحاوي	292
طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه	210
ططيانوس	93
طُعْمَة بن أُبَيرِق	126، 130
عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها	282
ابن العازر (رجل أحياه عيسى عليه السلام)	86
أبو العالية (رُفيع بن مهران)	328
عبادة بن الصامت رضي الله عنه	226، 330، 325، 326
عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول المنافق	51، 57، 172، 178، 217، 234
عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه	228
عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما	143
عبدالله بن المغفل رضي الله عنه	228
عبدالله بن جبير الأنصاري رضي الله عنه	205، 206، 234
عبدالله بن سلام رضي الله عنه	159
عبدالله بن عباس رضي الله عنهما	1، 8، 11، 15، 16، 21، 34، 43، 45، 47 50، 51، 55، 79، 96، 98 116، 126، 130، 132، 133، 135، 141، 142، 144، 150، 163، 166، 175، 176، 178، 180، 183، 187، 196، 224، 236، 237، 240، 249، 252، 257، 258، 274، 281، 291، 292، 295، 297، 298، 301، 304، 308، 310، 313، 314، 317، 319، 320، 323، 324

عبدالله بن عمر رضي الله عنهما 133، 144، 216، 258

عبدالله بن مسعود رضي الله عنه 16، 32، 37، 155، 163، 177، 213، 236، 237، 239، 293، ، 294، 305، 306، 316، 319

عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه 210

عبدان بن الأشوع 116

أبو عُبيدة (معمر بن المثنّى) 34، 60، 89، 140

أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه 42

عَبِيدة السلماني 291، 297، 298

عثمان بن عفّان رضي الله عنه 183، 216، 217

عدي بن حاتم رضي الله عنه 106

عرفطة (ابن عم أوس بن ثابت الأنصاري) 295، 296

عطاء بن أبي رباح 292، 297، 320

عكرمة 43

علي بن أبي طالب عليه السلام 101، 138، 173، 202، 210، 212، 219، 288، 305، 310، 319، 320

عمار بن ياسر رضي الله عنهما 110، 147

عمر بن الخطاب رضي الله عنه 204، 229، 289، 291، 305، 314، 318، 321، 325

عمر بن عبدالعزيز 16، 134

غيلان بن سلمة رضي الله عنه 283

غيلان بن عمرو رضي الله عنه 102
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – عليها السلام – 101
الفراء (يحيى بن زياد الكوفي) 48، 114، 168، 281
فِنحَاص بن عازورا اليهودي (115)، 254
قتادة 11، 21، 31، 45، 50، 76، 125، 139، 150، 175، 178، 185، 261، 266، 292، 307، 314، 329
قتادة (ابن عم أوس بن ثابت الأنصاري) 295، 296
القتيـــبـــي 150
قطرب (محمد بن المستنير) (47)
قيس بن الحارث رضي الله عنه 283
القيسي 303
أم كحّة رضي الله عنها 295، 296
الكسائي (علي بن حمزة الكوفي) 114
كعب بن الأشرف اليهودي (22)، 110، 112، 113، 117، 118، 256.
الكلبي (محمد بن السائب) 22، 33، 38، 40، 44، 71، 79، 81، 108، 109، 124، 139، 149، 267، 286
لبيد بن ربيعة العامري الشاعر رضي الله عنه 89
أبو الليث السمرقندي 235
المازني (بكر بن محمد) (278)

ماعز بن مالك الأسلمي ﵁ 325

مالك بن أنس إمام دار الهجرة 144، 321

مالك بن عوف ﵁ 102

أبو مالك الغفاري 298

مجاهد 49، 76، 139، 140، 171، 279، 282، 297

محمد بن إسحاق المطلبي 1، 245

محمد بن الحسن الشيباني 293

محمد بن كعب القرظي 266

محمد بن مسلمة ﵁ 309

مسيلمة الكذّاب 53

مصعب بن عمير ﵁ 197

معاذ بن جبل ﵁ 103، 110

معتّب بن قشير (213)، 214

ابن المعتز (180)

مغيرة بن شعبة ﵁ 314

مقاتل بن سليمان الأزدي 150، 179، 279، 286

مكحول الشامي 292

أبو موسى الأشعري ﵁ 320

نافع بن عبدالرحمن المدني المقرئ 122

نعيم بن مسعود ﵁ 240، 241، 242

أبو هريرة ﵁ 63

وَحْوَحُ بنُ الأسْلَت رضي الله عنه 126
يهوذا (مَلِك اليهود) 93
يهوذا بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام 107
أبو يوسف القاضي 293

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

المقدمة 1

أسباب اختيار الموضوع 3

الدراسات السابقة 4

خطة البحث 5

القسم الأول (قسم الدراسة) 7

الفصل الأول: التعريف بالمؤلف 8

المبحث الأول: عصر المؤلف، ونبذة سريعة عن الحركة في علم التفسير في زمانه 9

المبحث الثاني: اسمه، وكنيته، ونسبه 11

المبحث الثالث: مولده، ونشأته، وحياته 12

المبحث الرابع: شيوخه وتلاميذه 14

المبحث الخامس: عقيدته، ومذهبه 16

المبحث السادس: مكانته العلمية، ومؤلفاته 18

المبحث السابع: وفاته 19

الفصل الثاني : دراسة الكتاب المحقّق 20

المبحث الأول : اسم الكتاب وتوثيق نسبته للمؤلف 21

المبحث الثاني: بيان منهج المؤلف فيه 23
مدخل: منهج المؤلف إجمالا 23
المطلب الأول: منهجه في تفسير القرآن بالقرآن 24
المطلب الثاني: منهجه في التفسير بالمأثور 27
المطلب الثالث: منهجه في التعامل مع القراءات 31
المطلب الرابع : موقفه من آيات الصفات 35
المطلب الخامس: إيراده لأقوال المعتزلة في تفسيره والرد على بعضها 37
المطلب السادس: منهجه في تفسير آيات الأحكام، واستنباط المسائل الفقهية.. 40
المطلب السابع : عناية المؤلف بذكر المناسبات بيان الآيات 43
المطلب الثامن: مدى اهتمامه بالمسائل اللغوية والنحوية 44
المطلب التاسع: مدى اهتمامه بـ«تكذيب السفهاء» 47
المبحث الثالث: مصادر المؤلف في الكتاب وموارده 48
المبحث الرابع:قيمة الكتاب العلمية،وأثره فيمن بعده، والمؤاخذات عليه.. 54
المبحث الخامس: وصف نُسَخ الكتاب الخطية 58
المبحث السادس: منهج التحقيق 61
نماذج مصورة من المخطوطين 63

القسم الثاني: النص المحقق

بداية تفسير سورة آل عمران 1
بداية تفسير سورة النساء 274
نهاية النص المحقق (الآية (18) من سورة النساء) 331

مُلحَق: تراجم المفسّرين الذين ورد ذكرهم في الكتاب 333

الخاتمة (نتائج وتوصيات) 346

الفهارس العامّة 348

فهرس الآيات القرآنية الورادة في نص الكتاب 349

فهرس الأحاديث المرفوعة 358

فهرس الآثار (غير الأقوال التفسيرية) 362

فهرس الأبيات الشعرية 365

فهرس الأعلام الواردة في النص المحقّق 366

فهرس المصادر والمراجع 374

فهرس الموضوعات 399